

قصص العرب

تأليف

محمد أحمد جاد المولى على محمد البجاوي محمد أبو الفضل برهيم

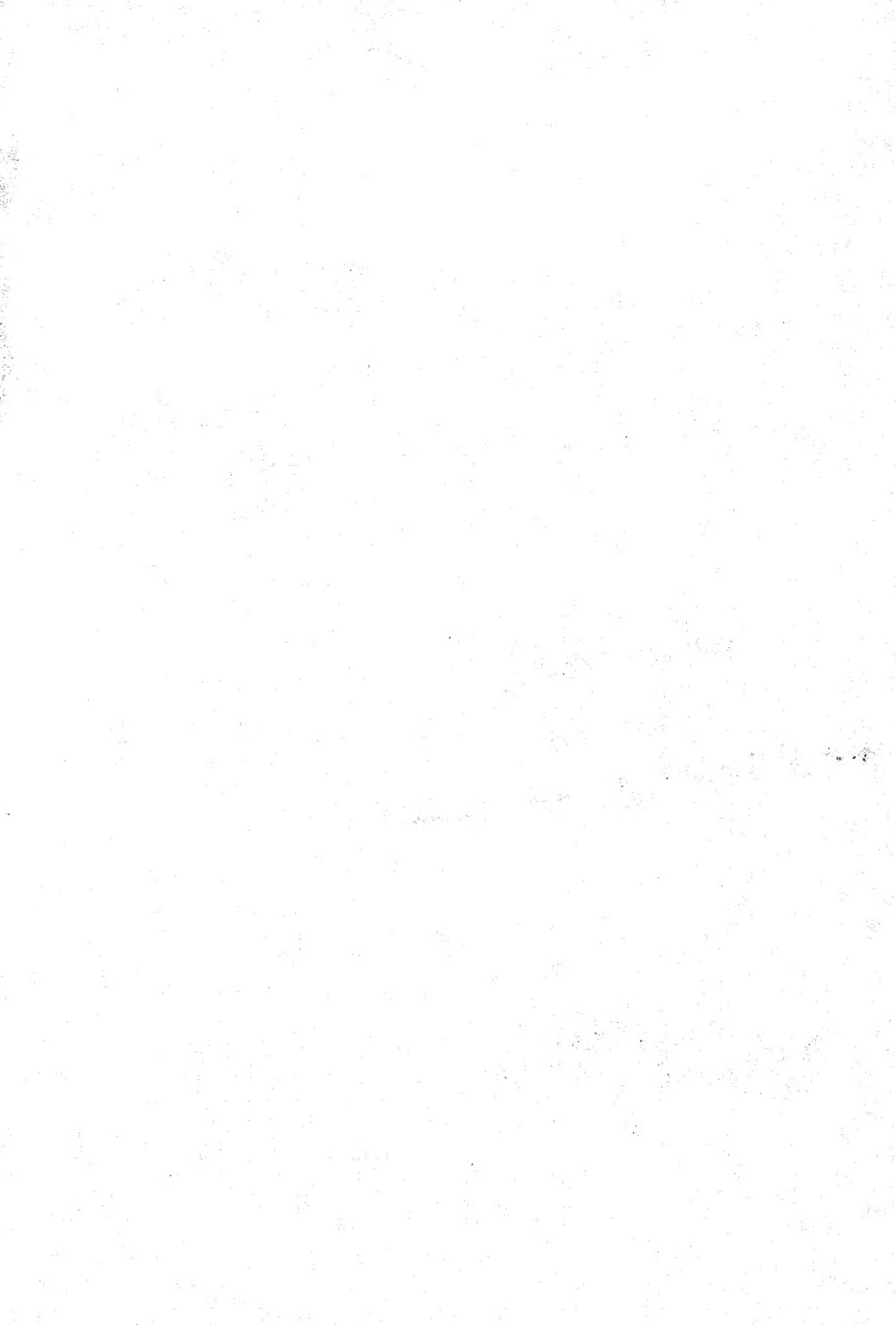
الجزء الثالث

الطبعة الرابعة

[فيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق]

١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م

دار الخيانة الكعبة الحرة
عيسى البابي الحلبي وشركاه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدُّ القِصَّةُ أَقْدَرُ الأَثَارِ الأدبية على تمثيل الأخلاق ، وتصوير العادات ، ورسم خَلَجاتِ النفوس ؛ كما أنها - إذا شَرُفَ غرضُها ، ونُبِّلَ مقصدُها ، وكرمت غايتها - تُهذِّبُ الطَّبَاعَ ، وترُقِّقُ القُلُوبَ ، وتدفع الناس إلى المثل العليا : من الإيمان والواجب ، والحق والتضحية والكرم والشرف والإينار .

وقد كانت القِصَّةُ - ولا تزال - ذاتَ الشأنِ الأسمى في آداب الأمم قديمها وحديثها ؛ فقد وردت في التوراة ، وجاءت في الإنجيل ، وزخرت بها آيُ الذكر الحكيم . ثم هي في شعر الإغريق ، ومخلفاتِ الرومان ، وآثار المصريين القدماء .

والعرب من الأمم التي أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل ، وأثر عنها فيض من ذلك الأدب الرفيع ؛ بَيِّدَ أن بعضاً من الباحثين المحدثين قد جحدوا نصيبهم من هذا الفن ، وهضموم حقهم في ذلك الباب ، ووصموم بالخيال العقيم ، وعابوا عليهم الفكر القريب ؛ ولكن المنصفين منهم قد هالَهُمُ هذا الجحود ، ولم يرقهم ذلك النكران ، فاعترفوا للعرب بالقصص التي ترجموها عن الفرس والهنود ، وتزيّدوا عليها في القاهرة وبغداد ، وتحدّثوا للناس عن قصص عنقرة وذات الهمة ، وجلّوا عليهم ألف ليلة وأخبار ابن ذي يزن .

وهذه القصص ، وإن كانت قد نجحت نجاحاً تاماً في تصوير العصور التي وضعت

فيها ، وَرَسَمَتْ لَنَا البيئَةَ التي نبتت منها ، كثير منها تافه الغرض ، مُبْهَمُ القصد ، ردىُّ اللغة والأسلوب . وفي قَصْرِ قصص العرب عليها جحد للآداب العربية فضلها ، وإنكار عليها مفاخرها وإلا فإِنْ هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء وسواهم الأُمراء ، ومَلَأَتِ الكتب التي انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء ؛ وما مَنَعَ الناس أن يَرِدُوا شريعتهما ، أو يَحْنُوا أطايبها إلا مَأْمُنَتَ به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، وردى الطبع ، وتحريف الناسخين

وكتابتنا هذا جَمَعْنَا فيه هذه القصص : ما انتبذ منها وما شرد ، وأَلَفْنَا ماتنافر وافترق ، وجعلناه أقساماً ، وقسمناه أبواباً ؛ جمعنا كل قصة إلى مثلها ، وضممنا كل طُرْفَةَ إلى شَبْهها ؛ ليجتمع إلى غرض القصة - من تهذيب الطباع وترقيق النفوس - عرض شامل لحياة العرب : مدنيّتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكرُ لعوائدهم وشمائلهم ، وما طُبِعُوا عليه من كريم الفرائض ، وحَدَّة الذكاء ، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة ، وما أثَرَ عنهم من أخبار صَوَّرُوا بها حُبَّهم العفيف وغَزَلَهُم الرقيق وعشقهم الشريف ، ولم يخلُ كتابنا مما كان لهم من محاورات ومساجلات ومطاييبات ومُناقلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك وطُرُف القضاة والوُلاة ، وأخبار الأيام والحروب ، وغير هذا مما سيعرض مفصلاً في أبواب الكتاب .

ولم نقف في اختيار القصة على تعريف خاص ، أو حَدٍّ مرسوم ، ففيما اخترناه ماذكروه من طريف الأخبار وشائق الأحداث ، وما وضعوه مصوِّرين به المجالس والأشخاص ، وما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان ، وما تخيّلوه من أخبار الشياطين والجان ؛ إذ كان الغرض تثقيف الأذهان بذكر الطرائف ، وإنشراح الصدور بعرض

اللطائف مع كشف نواحي التاريخ ، وإظهار مفاخر العرب .

ولعلّ القارئ يروقه ماتدسّس فيها من شريف الخصال فيحتذيه ، أو تمجبه كرائم العادات فيطبع نفسه عليها ، إلى ما في هذا من بعث فصيح الألفاظ ، وإحياء رائع الأساليب . ولعله يكون فيها مبادئ صالحة وأسس قوية لمن يريد أن ينشئ قصصاً طويلة على أساس ، أو يقيم روايات على بناء .

وكان من همتنا أن نحصر على اختيار القصص كما وضعوها ، إلا ما كان من زيادة اقتضاها اختلاف الروايات ، أو تغيير لكلمات لا تألفها الآداب ، أو حذف عبارات لا غناء فيها .

ولقد بذلنا من الجهد في ضبط الألفاظ ، وكشف النقاب عن المعاني ، وتراجم الأشخاص ، وذكر المراجع ما نرجو أن يكون به جنى الكتاب قريباً ومنهله عذباً ، وورده سائغاً ، وطريقه سهلاً معبداً .

ونسأل الله أن ينفع به على ما صدقنا في النية ورجونا ما

المؤلفون

ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ هـ
مايو سنة ١٩٣٩ م

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا كتابنا « قصص العرب » نقدمه إلى أدباء العربية في طبعته الرابعة ، بعد أن نفذت طبعته الثالثة ، وازداد الأدباء إقبالا على اقتنائه وتقديره له .

وكنا قد تلقينا رسائل من بعض أفاضل الأدباء يرغبون إلينا فيها أن نذل الطريق إلى قراءة الكتاب ؛ فنكثر من ضبط الكلمات ، ونزيد من شرح المفردات ، فعملنا على تحقيق رغبتهم ، وبذلنا غاية الجهد في تحريره وتحقيقه . وزدنا في شرح كلماته وضبط أعلامه .

ونرجو أن يكون ذلك كفاء لما تلقينا من رسائل الأدباء ، ولما تفضلت به صحف الشرق العربي من إشادة .

ونسأل الله أن يزيد به النفع بقدر ما بذلنا من جهد ، ورجونا من خير .

المؤلفون

ربيع الأول سنة ١٣٨٢

سبتمبر سنة ١٩٦٢

البَابُ الْأَوَّلُ

في القصص التي تعرب عما كان يقع بين العامة
والملوك، والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم، من كل
ذی صلة بالحكم والحكام، مما يتناول حيلهم في
المنازعات والخصومات، ويوضح طرائقهم في رفع
الظلامات، ورجع الحقوق، وما يجري هذا المجرى.

١ — متى تعبدتم الناس؟*

قال أنس: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب^(١) قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا مقام العائذ بك. فقال عمر: لقد عذت بمجيب؛ فما شأنك؟ قال: سأبقت على فرسى ابننا لعمر بن العاص - وهو يومئذ أمير على مصر - فجعل يُقنّني^(٢) بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين! فبلغ ذلك عمر أباه، فحشى أن آتيتك، فحبسني في السجن، فانفلت منه، وأتيتك.

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يأتيتك. فقدم عمرو، فشهد الحاج. فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه، قام المصري، فرمى إليه عمر بالدرة^(٣).

قال أنس: ولقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع^(٤) حتى أحييناه أن ينزع من كثرة ماضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين! ثم قال المصري: قد استوفيت واشتفيت. قال عمر: ضعها على صلعة^(٥) عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين؛ قد ضربت الذي ضربني. فقال عمر: أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع. ثم قال: يا عمرو؛ متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!

* المقد الفريد للملك السعيد : ٥٩

(١) ثاني الخلفاء الراشدين، المضروب ببدله المثل، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وبيع بالخلافة سنة إحدى عشرة، قتل أبو لؤلؤة المجوسي سنة ٢٣ هـ (٢) قنعه بالسوط: غشاه به (٣) الدرة: البوط. (٤) يكف ويتهمى (٥) يريد موضع الصلع من الرأس

٢ - أَحَبُّ الْوَلَاةِ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ *

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنتُ عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يأمره بالقدوم عليه هو وعمَّالُه ، وأن يَسْتَخْلِفُوا ^(١) جميعاً .

فلما قَدِمْنَا أَتَيْتُ يَرْفَاً ^(٢) ؛ قلت : يَا يَرْفَا ؛ مسترشدٌ وابنُ سبيل ؛ أى الهيئات أَحَبُّ إِلَى أمير المؤمنين أن يرى فيها عُمَّالَهُ ؟ فأومأ إِلَى باغشونة . فاتخذتُ خُفَيْنِ مُطَارَقَيْنِ ^(٣) ، وَلَبِستُ جُبَّةً صُوف ، ولُثتُ ^(٤) عمامتي على رَأْسِي .

فدخلنا على عمر فصَفَّنا بين يديه ، فصَعَّدَ فينا وصَوَّبَ ، فلم تأخذ عينُهُ أحداً غيري ؛ فدعاني فقال : مَنْ أَنْتَ ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثي ، فقال : ماتتولى ؟ قلتُ : البحرين . قال : كم تر تزق ؟ قلت : ألفاً . قال : كثير ! فما تصنعُ به ؟ قلت : أَتَقَوَّتْ منه شيئاً ، وأعودُ به على أَقاربِ لِي ؟ فما فَضَّلَ عنهم فعلى قراء المسلمين . قال : فلا بأس ! ارجع إلى موضعك .

فرجعتُ إِلَى موضعي من الصف ؛ فصَعَّدَ فينا وصَوَّبَ ، فلم تقع عينُهُ إِلَّا عَلَى ؛ فدعاني وقال : كم سِنَّكَ ؟ قلت : خمسٌ وأربعون سنة . قال : الآن حين استَحَكَمْتَ ! ثم دعا بالطعام وأصحابي حديثُ عهدُهم بِلَيْلِ العيش ، وقد تجوَّعتْ لَهُ ، فَأَتَيْتُ بِخُبْزٍ وَأَكْسَارٍ ^(٥) بسمير ، فجعل أصحابي يَمَافُونَ ذلك ، وجعلتُ آكل

* الكامل للمبرد : ١ - ٨٩

(١) يَجْعَلُوا بدلهم خلفاء عنهم . (٢) مولى عمر بن الخطاب . (٣) طارق نظير : أطبق نملا على نمل غرزهما . (٤) لثتها على رأسى : أدبرت بعضها على بعض على غير استواء . (٥) أَكْسَار بغير : الكسر : العظم ينفصل بما عليه من اللحم .

فأجيد ، ثم جعلتُ أنظر إليه يلحظني من بينهم ، ثم سبقتُ مني كلمةً تمنيتُ أني
سُخِّتُ في الأرض ؛ إذ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الناسَ يحتاجون إلى صلاحِكَ ،
فلو عمدتَ إلى طعامِ ألينَ من هذا ! فزجرني .

ثم قال : كيف قلت ؟ قلت : أقول يا أمير المؤمنين : تنظر إلى قوتِكَ من الطحين
فيُخبِزَ لك قبل إرادتك إياه بيومٍ ، ويطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤتَى بالخبز ليناً
واللحم غريصاً^(١) ، فسكن من غربه^(٢) ، وقال : أهنا غرت^(٣) ! قلت : نعم !
فقال : ياربيع ؛ إنا لو نشاء ملأنا هذه الرحابَ من صلاحِ^(٤) وسبائك^(٥)
وصناب^(٦) ، ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم ، فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ
طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ .

ثم أمر أبا موسى الأشعري بإقراي وأن يُستبدل بأصحابي .

(١) الغريص : الطرى . (٢) سكن من غربه : أى هدأ من غضبه . (٣) أهنا غرت :
أى ذهبت . (٤) صلاح : ما عمل بالنار طبخاً وشياً . (٥) سبائك : يريد ما يسبك من
الدقيق فيؤخذ خالصه ، وكانت العرب تسمى الرفاق السبائك . (٦) الصناب : الحردل المعمول
بالزبيب ويؤتم به .

٣ — عمر يتفقد رعيته *

خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ليلة ، يطوف ويتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بيتاً من الشعر مضروباً ، لم يكن قد رآه بالأمس . فدنا منه ؛ فسمع فيه أنين امرأة ، ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه وقال له : من الرجل ؟ فقال : رجل من البادية ، قدمت إلى أمير المؤمنين ، لأصيب من فضله ، قال : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة مخضت ^(١) ! قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا .

فانطلق عمر فجاء إلى منزله ، فقال لامراته - أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : هل لك في أجر قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ! قال : امرأة مخضت ليس عندها أحد ! قالت : إن شئت ! قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدُّهن ، وأنتى بقدر وشحم وجبوب . فجاءته به ، فحمل القدر ، ومشت خلفه ، حتى أتى البيت ، فقال لها : ادخلي إلى المرأة .

ثم قال للرجل : أوقد لي ناراً ، ففعل ، فوضع القدر بما فيها ، وجعل عمر ينفخ النار ويضرمها ، والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضجها ، وولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم : بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بسلام . فلما سمعها الرجل تقول : يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : يا خجلكتا منك يا أمير المؤمنين ! أهكذا

* المستطرف : ٢ - ٩٣

(١) مخضت : أتاها الخاض ، وهو ما تشمر به المرأة قبيل الوضع .

تفعلُ بنفسك ! قال : يا أخا العرب ، من وُلِّي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يطلع على صغير أمورهم وكبيرها ، فإنه عنها مسئول ، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر ، وأخذ القدر ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم ، وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم ، فقال عمر رضى الله عنه للرجل : قم إلى بيتك وكل ما بقي في البرمة^(١) ، وفي غد انت إلينا . فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به .

(١) البرمة : القدر .

٤ — عُمر بن الخطاب يحاسب نفسه*

قال الأحنف بن قيس : قدمنا على مُعمر بن الخطاب بفتح عظيم نبشّره به ، فقال : أين نزلتم ؟ قلنا : في مكان كذا !

فقام معنا حتى اتّهبنا إلى مُناخ^(١) ركابنا ، وقد أضعفها الكلال ، وجهدها^(٢) السير ؛ فقال : هلا اتّقيتم الله في ركابكم هذه ! أما علمتم أنّ لها عليكم حقاً ؟ هَلَّا أَرَحْتُمُوهَا فَأَكَلَتْ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ !

فقلنا : يا أمير المؤمنين ؛ إنا قدّمنا بفتح عظيم ، فأحببنا التسرع إليك وإلى المسلمين بما يسرّهم . فانصرف راجعاً ، ونحن معه .

فأتى رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فلاناً ظلمني فأعدني عليه^(٣) . فرفع في السماء درّته^(٤) ، وضرب بها رأسه ، وقال : تدعون عمر ، حتى إذا شغل في أمور المسلمين أتيتموه وقلتم : أعدني أعدني ! فانصرف الرجل يتذمّر ، فقال عمر : على بالرجل ! فجيء به فأُتِيَ إِلَيْهِ الْحَقِيقَةُ^(٥) ، فقال : اقتص . قال : بل أدّعه لله ولك . قال : ليس كذلك ، بل تدّعه إماماً لله وإرادة ماعنده ، وإما تدّعه لي ! قال : أدّعه لله . قال : انصرف .

ثم جاء حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس ، فقال لنفسه : يا ابن الخطاب ، كنت وضيعاً فرمك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزّاك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجل يستعديك

* ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٧

(١) للمناخ هنا : مبرك الإبل ، والركاب : الإبل . (٢) جهد داجته : أجهدهما . (٣) أعدى فلاناً عليه : نصره وأعانته وقواه . (٤) الدرة : السوط . (٥) الحققة : الدرة أو سوط من خشب .

على مَنْ ظَلَمَهُ فُضِرَتْهُ ؛ ماذا تقول لربك غداً ؟ فجعل يماثِبُ نفسه معاتبَةً ، فظننت أنه من خير أهل الأرض !

٥ — جئتُك من عند أزهد الناس *

استعمل عمرُ رضى الله عنه على شخص رجلاً يقال له عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ^(١) ؛ فلما مضتِ السَّنَةُ كُتِبَ إِلَيْهِ : أَنْ أَقْدِمَ عَلَيْنَا ؛ فلم يشعر عُمَرُ إِلَّا وَقَدْ قَدِمَ عُمَيْرٌ مَاشِياً حَافِئاً ، عُنَاكَزَتُهُ ^(٢) بِيَدِهِ ، وَإِدَاوَتُهُ ^(٣) وَمِرْزُودُهُ وَقَصَعَتُهُ عَلَى ظَهْرِهِ . فلما نظر إليه عمر قال له : يَا عُمَيْرُ ؛ أَجِئْتَنَا أَمْ الْبِلَادُ بِلَادُ سُوءٍ ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَمَا نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَجْهَرَ بِالسُّوءِ وَتَتَنَاضَى عَنْ سُوءِ الظَّنِّ ؛ وقد جئتُ إِلَيْكَ بِالدُّنْيَا أَجْرَهَا بِقَرَابِهَا ! فقال له : وما معك من الدنيا ؟

قال : عُنَاكَزَتُهُ أَتَوَكَّأْتُ عَلَيْهَا ، وَأَدْفَعُ بِهَا عَدُوًّا إِنْ لَقِيتُهُ ؛ وَمِرْزُودُ أَحْمَلٍ فِيهِ طَعَامِي ، وَإِدَاوَةُ أَحْمَلٍ فِيهَا مَاءٌ لَشَرْبِي وَطُهُورِي ، وَقَصْعَةٌ أَتَوَضَّأُ فِيهَا ، وَأَغْسِلُ فِيهَا رَأْسِي ، وَآكُلُ فِيهَا طَعَامِي ؛ فَوَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا الدُّنْيَا بَعْدُ إِلَّا تَبَعٌ لِمَا مَعِيَ .

فقام عمر رضى الله عنه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه ؛ فبكى بكاءً شديداً ، ثم قال : اللَّهُمَّ الْحَقْنِي بِصَاحِبَيْهِ ؛ غَيْرَ مُفْتَضِّحٍ وَلَا مُبَدِّلٍ .

* المستطرف : ١ - ١١٠

(١) شهد فتوح الشام ، واستعمله عمر على حمص ، وكان عمر يقول فيه : وودت لو أن لي رجلاً مثل عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ أَسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَى أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ . (٢) العسكرة : عصاً في أسفلها زج يتوكأ عليها الرجل . والإداوة : إغناء صغير من جلد يتخذ للماء .

ثم عاد إلى مجلسه ، فقال : ما صنعتَ في عملي يا عمير ؟ فقال : أخذتُ الإبل من أهل الإبل ، والجزيةَ من أهل الذمة عن يدٍ^(١) وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ؛ فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به .

فقال عمر : عُدْ إلى عملي يا عمير ، فقال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي . فأذن له فأتى أهله .

فبعث عمر رجلاً ، يقال له حبيب ، بمائة دينار ، وقال : اختبر لي عميراً ، وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله : هل هو في سعة أو ضيق ؟ فإن كان في ضيق فادفعْ إليه الدنانير .

فأتاه حبيب ، فنزل به ثلاثاً ، فلم يرَ له عيشاً إلا الشعير والزيت ؛ فلما مضت ثلاثة أيام ، قال عمير : يا حبيب ؛ إن رأيتَ أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم يكونون أوسعَ عيشاً منا ؛ فإننا والله لو كان عندنا غيرُ هذا لآثرناك به .

فدفعَ إليه الدنانير ، وقال : قد بعث بها أمير المؤمنين إليك ، فدعا بفرسٍ خلقَ لاسرأته ؛ فجعل يصرُّ منها الخمسة الدنانير والستة والسبعة ، ويبعثُ بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها .

فقدم حبيب على عمر وقال : جئتُك يا أمير المؤمنين من عند أزهدِ الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير . فأمر له عمر بوسقين^(٢) من طعام وثوبين . فقال : يا أمير المؤمنين ، أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما ؛ عند أهلي صاعٌ من بُرٍّ هو كافٍهم حتى أرجعَ إليهم .

(١) عن يد : عن قهر ودل ، وعن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم . (٢) الوسق : ستون صاعاً ، أو حل البعير .

٦ - تأديبُ عمر بن الخطاب لعماله *

كان عمرُ بن الخطاب جالسا في المسجد فمرَّ به رجل فقال : ويل لك يا عمر من النار ! فقال : قرَّبوه إلي . فذنا منه ، فقال : لِمَ قلتَ ما قلت ؟ قال : تستعملُ عمَّالَكَ وتشترط عليهم ، ثم لا تنظر : هل وفَّوا لك بِشَرْطِ أم لا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر اشترطت عليه فترك ما أمرته به ، وارتكب ما نهيته عنه ؛ ثم شرح له كثيرا من أمره .

فأرسل عمر رجلين من الأنصار ، فقال لهما : اتھيا إليہ فأسألا عنه ، فإن كان كذب عليه فأعلماني ، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تمكَّكاه من أمره شيئا ، حتى تأتيآ به .

فذهبا فأسألا عنه ، فوجداه قد صدق ؛ فجاءا إلى بابه ، فاستأذنا عليه ، فقال صاحبه : إنه ليس عليه اليوم إذن . قالا : ليخرجنَّ إلينا أو لنحرقنَّ عليه بابه ، وجاء أحدهما بشُعْلَةٍ من نار .

فدخل الآذنُ فأخبره ؛ فخرج إليهما ، فقالا : إنا رسولا عمر إليك لتأتيه ، قال : إن لي حاجة ، تمهلانني إلى أن أتزود . قالا : إنه عزَّم علينا ألا نُمهلك .

فاحتملاه وأتيا به عمر ، فلما أتاه سلم عليه فلم يعرفه ، وقال له : من أنت ؟ وكان رجلا أسمر ، فلما أصاب من ريف ^(١) مصر أبيضَّ وسمن - فقال : أنا عاملك على

* ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٨

(١) الريف هنا : أرض فيها زرع وخصب .

مصر ، أنا فلان . قال : وَنَحْكَ ! رَكِبْتَ مَا نَهَيْتَ عَنْهُ ، وَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ ،
وَاللَّهِ لَأَعَاقِبَنَّكَ عَقُوبَةً أُبْلِغُ إِلَيْكَ فِيهَا .

آتَوْنِي بِكِسَاءٍ مِنْ صُوفٍ وَعَصَا وَثَلَاثَةَ شَاةٍ مِنْ غَنَمِ الصَّدَقَةِ ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْبَسْ
هَذِهِ الدِّرَاعَةَ ^(١) ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ أَبَاكَ ، وَهَذِهِ خَيْرٌ مِنْ دُرَّاعَتِهِ ، وَخُذْ هَذِهِ الْعَصَا فَهِيَ
خَيْرٌ مِنْ عَصَا أُمِّكَ ، وَانْهَبْ بِهَذِهِ الشَّيْءَ فَارْزَعْهَا فِي مَكَانٍ كَذَا - وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ
صَائِفٍ ^(٢) - وَلَا تَمْنَعْ السَّابِلَةَ ^(٣) مِنْ أَلْبَانِهَا شَيْئًا إِلَّا آَلَ عَمْرٌ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا
مِنْ آَلَ عَمْرٍ أَصَابَ مِنْ أَلْبَانِ غَنَمِ الصَّدَقَةِ وَلَحُومِهَا شَيْئًا .

فَلَمَّا ذَهَبَ رَدَّهُ ، وَقَالَ : أَفْهَمْتَ مَا قُلْتُ ؟ فَضَرَبَ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ ، وَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَا أَسْتَطِيعُ هَذَا ، فَإِنْ شِئْتَ فَاضْرِبْ عُنُقِي . قَالَ : فَإِنْ رَدَدْتُكَ فَأَيُّ
رَجُلٍ تَكُونُ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَبْلُغُنِي بَعْدَهَا إِلَّا مَا تَحِبُّ . فَرَدَّهُ فَكَانَ نَعَمَ الرَّجُلُ !

(١) الدِرَاعَةُ : جَبَّةٌ مَشْقُوقَةٌ مِنَ الْمَقْدَمِ . (٢) يَوْمٌ صَائِفٌ : شَدِيدُ الْحَرِّ . (٣) السَّابِلَةُ :
أَبْنَاءُ السَّبِيلِ الْمُخْتَلِفُونَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ فِي حَوَائِجِهِمْ .

(٢ قِصَصُ الْعَرَبِ - ٣)

٧ - أَخْطَاتُ فِي ثَلَاثَ *

خرج عمر بن الخطاب في ليلة مظلمة، يَمْسُ^(١) بنفسه؛ فرأى في بعض البيوت ضَوْءَ سِرَاجٍ، وسمع حديثاً؛ فوقف على الباب يتجَسَّس؛ فرأى عبداً أسود قدَّامه إناء فيه مِزْرٌ^(٢) وهو يشرب، ومعه جماعة؛ فهمم بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت؛ فتنسَّور السطح، ونزل إليهم، ومعه الدَّرَّةُ^(٣).

فلما رأوه قاموا وفتحوا الباب، واهزموا؛ فأمسك بالأسود؛ فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أخْطأتُ وإني تائب؛ فأقبل توبتي. فقال: أريد أن أضربَكَ على خطيئتك! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن كنتُ قد أخْطأتُ في واحدة، فأنت أخْطأتُ في ثلاث، فإن الله تعالى يقول: «ولا تجسَّسُوا»، وأنت تجسَّست، ويقول: «وأنثوا البيوت من أبوابها»، وأنت أتيت من السطح، ويقول: «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا»^(٤) وتسلموا على أهلها، وأنت دخلت وما سلمت! فهب هذه لثلك؛ وأنا تائب إلى الله تعالى، على ألا أعود! فاستتابه^(٥) واستحسن كلامه.

* المستطرف: ٢ - ٩٤

(١) يمس: يطوف بالليل. (٢) المز: ضرب من الأثرية. (٣) البوط الذي يضرب به. (٤) تستأذنوا. (٥) استتابه: سأله أن يتوب.

٨ - تَنْصَرَّتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ*

رُوي أن جَبَلَةَ^(١) بن الأيهم بن أبي شمير الغَسَّاني لما أراد أن يُسلم ، كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعَلِّمه بذلك ويستأذنه في القدوم عليه ، فسُرَّ بذلك عمر والمسلمون ، فكتب إليه : أن أقدم ولك مالنا وعليك ما علينا ..

فخرج جَبَلَةُ في خمسمائة فارسٍ من عَكَّ وجَفَنَةَ ؛ فمادنا من المدينة بالبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب والفضة ، ولبس يومئذ جَبَلَةُ تاجه وفيه قرطٌ مارية - وهي جدته - ودخل المدينة فلم يبق بها أحدٌ إلا خرج ينظرُ إليه حتى النساء والصبيان ؛ فلما انتهى إلى عمر رَجَبَ به وأدنى مجلسه ! ثم أراد الحج ، فخرج معه جَبَلَةُ .

فبينما هو يطوف بالبيت إذ وَطِئَ على إزاره رجلٌ من بني فزارة فحله ، فالتفت إليه جَبَلَةُ مُغَضِّباً ، فلطمه فهِشَمَ أنفه ، فاستعدى عليه الفزاري عمر بن الخطاب ؛ فبعث إليه فقال : مادعاك يا جَبَلَةُ إلى أن لَطَمْتَ أخاك هذا الفزاري فهِشَمْتَ أنفه ! فقال : إنه وَطِئَ إزارى فحله ؛ ولولا حُرْمَةُ البيت لضربتُ الذي فيه عيناه^(٢) . فقال له عمر : أما أنتَ فقد أقررت ؛ فإما أن ترضيه ، وإلا أقدته منك . قال : أتُقَيِّده مني وأنا ملك وهو سُوقَةٌ ! !

* الخزانة : ٤ - ٢٩٨ ، الأغاني : ١٤ - ٤ ، المقد : ٢ - ٥٦ ، طبعة لجنة التأليف .
(١) جبلة بن الأيهم آخر ملوك الفساسنة في بادية الشام ، عاش زمناً في العصر الجاهلي ، ولما ظهر الإسلام أسلم في أيام عمر ، ثم ارتد وعاد إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية حيث أقام عند هرقل إلى أن توفي سنة ٢٠ هـ . (٢) يريد رأسه .

قال عمر : يا جبلة ! إنه قد جمعك وإياه الإسلام ، فما تفضله بشيء إلا بالتقوى والعافية ، قال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية . قال عمر : دَعُ عنك هذا ، فإنك إن لم تُرضِ الرجل أقدته منك ، قال جبلة : إذن أتنصر . قال : إن تنصرت ضربت عنقك . واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة . فقال جبلة : أخرني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين . قال : ذلك لك .

ولما كان جُنح الليل خرج جبلة وأصحابه من مكة ، وسار حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر ، وأقام عنده ؛ وأعظم هرقل قدوم جبلة ، وسرَّ بذلك ، وأقطعته الأموال والأرضين والرباع^(١) ، وجعله من محدثيه وشمّاره .

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولاً^(٢) إلى هرقل يدعو إلى الإسلام ، وأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام ، أراد أن يكتب جواب عمر ، وقال للرسول : أقيمت ابن عمك هذا الذي يبيلدنا - يعني جبلة - الذي أتانا راغباً في ديننا ؟ قال : مالميته ، قال : الله ، ثم اتننى أعطك جواب كتابك .

وذهب الرسول إلى باب جبلة ، فإذا عليه من القهامة والحجّاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل . قال الرسول : فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أذن لي ، فدخلت عليه ، فرأيت رجلاً أصهب^(٣) اللحية ذا سبّال^(٤) ، وكان عهدي به أسمر أسود اللحية والرأس ، فنظرت إليه فأنكرته ، فإذا هو قد أتى بسُحالة^(٥) الذهب ، فذرّها في لحيته حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير^(٦) ، قوائمه أربعة أسود من ذهب .

(١) الرباع جمع ربع : الدار . (٢) هو جثامة بن مساحق الكناني . (٣) الصبهة : حمرة يملوها سواد . (٤) السبّال : جمع سبلة وهي ما على الشارب من الشعر . (٥) السحالة : ما سقط من الذهب والفضة ونحوها إذا بردا . (٦) القوارير : شجر يعمل منه الرجال والموائد والقوارير من الزجاج أيضاً .

فلما عرفني رفعني معه في السرير ، ورحب بي ، ولأمني على تزكّي النزول عنده ، ثم جعل يسألني عن المسلمين ، فذكرتُ خيراً وقلت : قد أضعفوا^(١) أضعافاً على ما تعرف ؛ فقال : كيف تركتَ عمر بن الخطاب ؟ قلت : بخير ، فرأيت النعم قد تبين فيه ، لما ذكرتُ له من سلامة عمر . ثم انحدرتُ عن السرير ، فقال : لم تأبى الكرامة التي أكرمناك بها ؟ قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا . قال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقّ قلبك من الدّنس ولا تبالِ علام فعلتَ . فلما سمعته يقول : صلى الله عليه وسلم طمعتُ فيه ، فقلت له : ويحك ! يا جبلة ، ألا تسلم وقد عرفتَ الإسلام وفضله . قال : أبعد ما كان مني ؟ قلت : نعم : قد فعل رجلٌ من قزارة أكثر مما فعلت : ارتدّ عن الإسلام ، وضرب وجوه المسلمين بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام ، وقيل ذلك منه ، وخلفته بالمدينة مسلماً . قال : ذرني من هذا ، إن كنتَ تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ، ويوليّني الإمرة بعده رجعتُ إلى الإسلام . قال : ضمن لك التزويج ، ولم أضمن لك الإمرة . قال : لا .

فأومأ إلى خادم بين يديه ، فذهب مسرعاً ، فإذا خدّم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوضعتُ ونصبت موائد الذهب وصحّاف الفضة ، وقال لي : كُلْ فقبضتُ يدي ، وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقّ قلبك وكُلْ فيما أحبت . وأكل في الذهب والفضة ، وأكلت في الخليج^(٢) .

(١) أضعف الشيء : زيد على أصله فيجعل مثلي أو أكثر . (٢) الخليج : الحفنة .

فلما رُفِعَ الطعامُ جِئَ بِطَسَاسٍ^(١) الفضة وأباريق الذهب ، وأومأ إلى خادم بين يديه ، فترَّ مسرعاً ، فسمعت حِسّاً ، فالتفتُ ، فإذا خَدَمٌ معهن الكراسي مرصعة بالجواهر ، فوَضِعَت عشرة عن يمينه ، وعشرة عن يساره ، ثم سمعت حِسّاً ، فإذا عشر جوار قد أقبلن مَطْمُوماتٍ^(٢) الشعر متكسراتٍ في الحلي ، عليهن ثياب الدِّياج ، فلم أرَ وجوهاً قط أحسنَ منهن ، فأقعدهن على الكراسي عن يمينه ، ثم سمعت حِسّاً فإذا عشر جوارٍ أخرى فأجلسن على الكراسي عن يساره ، ثم سمعت حِسّاً ، فإذا جاريةٌ كأنها الشمس حسناً وعلى رأسها تاجٌ ، وعلى ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه ، وفي يدها اليمنى جامةٌ^(٣) فيها مسك وعنبر ، وفي يدها اليسرى جامةٌ فيها ماء ورد ، فأومات إلى الطائر ، فوقع في جامةِ ماء الورد فاضطرب فيه ، ثم أومات إليه فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة ، فلم يزل يُرْفرف حتى نفذ مافي ريشة عليه؛ وضحك جبلة من شدة السرور ، حتى بدت أنيابه ، ثم التفت إلى الجوارى التي عن يمينه ، فقال : بالله أطرَبُنِي . فاندفعن يتعَنَّينَ يحفَظنَ بعيدانهن وَيَقْلُنَ^(٤) :

للهِ دُرٌّ عِصَابَةٌ نَادَتْهُمْ يوماً بِحُلِيِّ^(٥) فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٦)
أَوْلَادُ جَفَنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةِ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُفْشُونَ حَتَّى مَاتَهُمْ كَلَابِهِمْ^(٧) لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

(١) الطساس : جمع الطس ، وهو الطست . (٢) طمت شعرها : عقصته وهو مطموم ، والعقص : أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ، ثم تعقدها حتى يبق فيها التواء ثم ترسلها . (٣) إناء من فضة . (٤) الشعر لحسان بن ثابت . (٥) جلق : دمشق . (٦) البريص : نهر بدمشق . ويردى : نهر بدمشق أيضاً . وتصفيق الشراب : مزجه ، الرحيق : الخمر . سلسل : لين (٧) نهر كلابهم : هرير الكلب : صوته دون التباح .

بيضُ الوجوه كريمةُ أحسابهمُ شمسُ الأنوفِ مِنَ الطَّرازِ الأوَّلِ
فضحك حتى بدت نواجذُهُ ، ثم قال : أتدرى مَنْ قائلُ هذا ؟ قلت : لا ،
قال : قائلُه حسانُ بن ثابت شاعرُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت إلى
الجواري اللاتي عن يساره ، فقال : بالله أبكيننا . فاندفعن يتغنين ، وهن يحنقن
بعيدانهن .

فبكى حتى جعلت الدموعُ تسيل على خديهِ ، ثم قال : أتدرى مَنْ قائلُ هذا
الذى تغنين به ؟ قلت : لا أدري ، قال : حسان بن ثابت ، ثم أنشأ يقول :

تنصرتِ الأشرافُ من عارٍ لعلمةٍ	وما كان : فيها - لو صبرتُ لما ضررَ
تكففتي منها لجأجٌ ونحوه	ويعتُ لها العينُ الصحيحةُ بالعورَ
فيا ليت أُمِّي لم تلدني وليتنى	رجعتُ إلى الأمرِ الذى قال لى عُمرُ
ويا ليتنى أرغى الخاض ^(١) بقفرةٍ	وكنتُ أسيراً فى ربيعة أو مضراً
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشةٍ	أجالسُ قومي ذاهب السمع والبصرَ

ثم سألت عن حسان : أحمى هو ؟ قلت : نعم ، تركته حياً . فأمر لى بكسوة
ومال ، ونوق موقرة بُرا ، ثم قال لى : إن وجدته ميتاً فادفع إليه الهدية ، وأقرئه
سلامى ، وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله ، وانحر الجملَ على قبره .

فلما قدمتُ على عمر وأخبرته خبر جيلة ، وما دعوته إليه من الإسلام ،
والشرط الذى شرطه ، وأنى ضمنت له التزويج ، ولم أضمن له الإمرة قال :
هلاً ضمنت له الإمرة ؟ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل !
ثم ذكرتُ له الهدية التى أهداها إلى حسان بن ثابت . فبعث إليه ، وقد كُفَّ

(١) الخاض ، نوق مخاض : حوامل .

بصره فأُتي به ، وقائدٌ يقوده . فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ إني لأجد رياح
آل جَفَنَةَ عندك . قال : نعم ؛ هذا رجل أقبل من عند جبلة ، قال : هات يا ابن أخي ؛
إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية ، خلف أن لا يلتقى أحدا يعرفني إلا أهدى
إليّ معه شيئاً : فدفعْتُ إليه الهدية : المال ، والثياب ، وأخبرته بما كان أمر به في
الإبل إن وُجد ميتاً . فقال : وددت أني كنت ميتاً فنجرت على قبري ؛ وانصرف
يقول :

إِنْ ابْنَ جَفَنَةَ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ لَمْ يَفْزَحْهُمْ آبَاؤُهُمْ بِاللُّومِ
لَمْ يَنْسِنِي بِالشَّامِ إِذْ هَوْرُهُ مَلِكًا وَلَا مُتَنَصِّرًا يَارْثُومِ
يُعْطِي الْجَزِيلَ وَلَا يَرَاهُ عِنْدَهُ إِلَّا كِبْعُضَ عَطِيَّةِ الْمَذْمُومِ
فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ كَانَ فِي مَجَاسِ عَمْرِ : أَتَذْكُرُ مُلُوكًا كَفَرُوا أَبَادَهُمُ اللَّهُ وَأَنفَاهُمْ ؟
قَالَ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مُزَكِّي . قَالَ . وَاللَّهِ لَوْلَا سَوَاقُ قَوْمِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَطَوَّقَتْكَ طَلُوقَ الْحَمَامَةِ .

قال : ثم جهزني عُمر إلى قيصر ، وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به ، فلما
قَدِمَت القسطنطينية وجدتُ الناس منصرفين من جنازته ، فعلمت أن الشقاء غلب
عليه في أم الكتاب .

٩ — بصيرة العباس *

كان بين العباس (١) بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب مُباعدة ، فلقى ابنُ عباس عليًا ، فقال : إن كان لك في النظر إلى عمك حاجةٌ فأْتِه ، وما أراك تلقاه بعدها لها . فقال عليٌّ : تَقَدَّمْنِي واستأْذِنْ . فتقدم ابنُ عباس واستأْذِنَ لِعَلِيٍّ ، فأذن له ودخل ، فاعتنق كلُّ واحد منهما صاحبه ، وأقبل عليٌّ على يد العباس وربَّحْله يقبلهما ، ويقول : يا عمُّ ؛ اَرْضَ عَنِّي - رَضِيَ اللهُ عَنْكَ - قال : قد رَضِيتُ عَنْكَ . ثم قال : يا بن أخِي ؛ قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل ، ورأيت في عاقبتها ما كرهتَ ، وهأنذا أُشيرُ عليك برأْيٍ رابع ، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبْلَه . قال : وما ذاك يا عمُّ ؟ قال : أشرتُ عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله . فإن كان الأمرُ فينا أعطانا ، وإن كان في غيرنا أوْصى بنا ، فقلت : أخشى إن مَنَعْنَاهُ لا يعطيناه أحد ، فضت تلك !

فلما قبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن تُبَايَعَكَ ، وقلتُ : أبسط يديك أبايَعُكَ ويُبَايَعُكَ هذا الشيخ ، فإننا إن بايَعناك لم يختلف عليك أحدٌ من بني عبد مناف ، وإذا بايَعُكَ بنو عبد مناف لم يختلف عليك قُرُشِي ، وإذا بايَعُكَ قُرَيْش لم يختلف عليك أحدٌ من العرب . فقلت : لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم شُغْلٌ ، وهذا الأمر

* ابن أبي الحديد : ١ - ١٣١

(١) كان من أكابر قُرَيْش في الجاهلية والإسلام ، كان شديد الرأي ، واسع العقل ، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة ، توفي سنة ٣٢ هـ .

لا يُخشى عليه ، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بنى ساعدة^(١) ، فقلت يا عم : ما هذا ؟ قلت : ما دَعَوْنَاكَ إِلَيْهِ ! فَأَيُّتَ وَقلت : سبحان الله ! أَوْ يَكُونُ هَذَا ؟ قلت : نعم ، قلت : أَفَلَا يُرَدُّ ؟ قلتُ لك : وهل رُدَّ مثل هذا قط .

ثم أشرتُ عليك حين طعن عمر ، فقلت : لا تُدْخِلْ نَفْسَكَ فِي الشُّورَى ؛ فَإِنَّكَ إِنْ اعْتَزَلْتَهُمْ قَدْ مَوَّك ، وَإِنْ سَاوَيْتَهُمْ تَقْدَمُوكَ ، فَدَخَلْتَ مَعَهُمْ ، فَكَانَ مَا رَأَيْتَ .

ثم أنا الآن أَشِيرُ عَلَيْكَ بِرَأْيِ رَابِعٍ ، فَإِنْ قَبِلْتَهُ وَإِلَّا نَالَكَ مَا نَالَكَ مِمَّا كَانَ قَبْلَهُ : إِنِّي أَرَى أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ - يَعْنِي عُثْمَانَ - قَدْ أَخَذَ فِي أُمُورِ اللَّهِ ؛ وَكَأَنِّي بِالْعَرَبِ قَدْ سَارَتْ إِلَيْهِ حَتَّى يُنْحَرَفَ فِي بَيْتِهِ كَمَا يُنْحَرَفُ الْجَلُ ، وَاللَّهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ وَأَنْتَ بِالْمَدِينَةِ لَزِمَكَ النَّاسُ بِهِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَنْلِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ شَرٍّ لَا خَيْرَ مَعَهُ .

قال ابن عباس : فلما كان يوم الجمل عرضتُ لعلِي ، وَقَدْ قُتِلَ طَلْحَةُ ؛ وَقَدْ أَكْثَرُ أَهْلُ الْكُوفَةِ فِي سَبِّهِ وَغَمْصِهِ^(٢) . فقال علي : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ قَالُوا ذَلِكَ لَقَدْ كَانَ كَمَا قَالَ :

فَتَى كَانَ يَذْنِيهِ الْفَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
ثم قال : لَكُنْ عَمِي يَنْظُرُ إِلَى الْغَيْبِ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ رَقِيقٍ ، وَاللَّهُ مَا نَلْتُ مِنْ
هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا إِلَّا بَعْدَ شَرٍّ لَا خَيْرَ مَعَهُ !

(١) السقيفة : هي المكان المظلل ، واسمها الصفة ، وسقيفة بنى ساعدة هي التي يبيع فيها لأبي بكر بعد حوار طويل بين المهاجرين والأنصار . (٢) غمصه : احتقره ، وهاهنا ، وتهاون بحقه .

١٠ - أثرُ المعروف *

وفد أهل الكوفة على معاوية في دمشق حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده ، وفي أهل الكوفة هاني بن عروة المرادي^(١) ، وكان سيداً في قومه ، فقال يوماً في مسجد دمشق ، والناس حوله : العجب لمعاوية يريد أن يقسِرنا^(٢) على بيعَةِ يزيد ، وحالُه حاله ، وما ذاك والله بكائن .

وكان يجلس في القوم غلامٌ من قريش ، فتحمل^(٣) الكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعتَ هانئاً يقولها ؟ قال : نعم ! قال : فأخرج فأبِ حلقته ، فإذا خفَّ الناسُ عنه ، فقل له : أيها الشيخ ، قد وصلتَ كلمتك إلى معاوية ، ولست في زمن أبي بكر وعمر ، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام ، فإنهم بنو أمية ، وقد عرفتَ جزأتهم وإقدامهم ، ولم يدُعني إلى هذا القول لك إلا النصيحة والإشفاق عليك . ثم انظر ما يقول ، فأتني به .

فأقبل الفتى إلى مجلس هاني ، فلما خفَّ من عنده دنا منه ، فقص عليه الكلام ، وأخرجه مُخرَج النصيحة له ، فقال هاني : والله يا ابن أخي ما بلغت نصيحتك كلَّ ما أسمع ، وإن الكلام لكلام معاوية أعرفه . فقال الفتى : وما أنا ومعاوية ؟ والله ما يعرفني . قال : فما عليك ! إذا لقيته فقل له : يقول لك هاني : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يا ابن أخي راشداً .

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٣٢٧

(١) هاني بن عروة المرادي : أحد سادات قريش وأشرفهم ، قتله عبد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ

(٢) يكرهنا عليها (٣) تحمل : بمعنى حمل

فقام الفتى فدخل على معاوية ، فأعلمه ، فقال : نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجكم ، وهاني فيهم ، فعرض عليه كتابه فيه ذكر حوائجه . فقال : يا هاني ؛ ما أراك صنعت شيئاً ؛ زد . فقام هاني فلم يدع حاجة عرضت له إلا ذكرها . ثم عرض الكتاب عليه ، فقال : أراك قصرت فيما طلبت . زد ، فقام هاني ، فلم يدع حاجة لقومه ، ولا لأهل مصره إلا ذكرها ، ثم عرض عليه الكتاب ، فقال : ما صنعت شيئاً ، زد ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ حاجة بقيت ! قال : ما هي ؟ قال : أن أتولى أخذ البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق ! قال : افعل ، فما زلت لمثل ذلك أهلاً .

فلما قدم هاني العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبة وهو والي العراق يومئذ .

١١ - في البيعة ليزيد بن معاوية *

كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ؛ فوفد من كل مِصر قوم ،
ثم جلس في أصحابه وأذن للوفود فدخلوا ، وقد تقدّم إلى أصحابه أن يقولوا
في يزيد ^(١)

فكان أول من تكلم الضحّاك بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لا بدّ
للناس من والٍ بعدك ، والأنفس يُفدى عليها ويُرّاح ، وإن الله قال : « كل يوم
هو في شأن » ، ولا تدرى ما يختلف به المَصْران ^(٢) ، ويزيدُ ابن أمير المؤمنين ،
في حُسْن مَقْدِنه ، وقصد سيرته ^(٣) من أفضلنا حِلماً ، وأحكمنا علماً ، فوله عَهْدك ،
واجعله لنا علماً بعدك ؛ فإننا قد بلّونا الجماعة والألفة فوجدناها أحقن للدماء ، وآمن
للشبل ، وخيراً في العاقبة والآجلة .

ثم تكلم عمرو بن سعيد فقال : أيها الناس ؛ إن يزيد أملٌ تأملونه ، وأجلٌ
تأمنونه ^(٤) ، طويلُ الباع ، رَحْبُ الذراع ، إذا صيرتم إلى عدله وسِعكم ، وإن
طلبتم رِفْدَه أغناكم ، جذع ^(٥) قارح ؛ سويق فسّيق ، وموَجِدَ فمَجْد ، وقورع

* ذيل الأمل : ١٧٥ ، المقد الفريد ٤ : - ٣٦٩ طبعة لجنة التأليف .

(١) هو يزيد بن معاوية ، وكنيته أبو خالد ، كان أحور العينين ، بوجه آثار جدرى ، حسن
الهيئة خفيفها ، ولي الخلافة بعد موت أبيه سنة ٦٠ ، ومات سنة ٦٤ هـ (٢) المصران : الليل والنهار .
(٣) استقامتها (٤) يشير إلى ما ينتظر من طول مدة ولايته ، فقد ولي حدثاً (٥) قال في
اللسان : قال ابن الأعرابي : إذا استمّ الفرس سنّتين ودخل في الثالثة فهو جذع . وقرح الفرس
يقرح إذا انتهت أسنانه ، والمراد أن يزيد فتي قوى .

فَقَرَعَ، خَلَفَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا خَلَفَ مِنْهُ . فَقَالَ : اجْلِسْ أبا أُمَيَّةَ ؛ فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ .

ثُمَّ قَامَ يَزِيدُ بْنُ الْقَقْعِ فَقَالَ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ - فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ - فَمِنْ أَبِي فَهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ - فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : اجْلِسْ ، فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخَطْبَاءِ .

ثُمَّ تَكَلَّمَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ^(١) ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَنْتَ أَعْلَمُ بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ لِلَّهِ رِضًا وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا تُشَاوِرِ النَّاسَ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا تَزُوِّدْهُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَذْهَبُ إِلَى الْآخِرَةِ . ثُمَّ بَايَعَ النَّاسُ لِيَزِيدَ .

وَلَمَّا اسْتَقَامَ الْأَمْرُ لِمُعَاوِيَةَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ بَيْعَةَ يَزِيدَ كَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ عَامِلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ : أَنْ أَدْعُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ قَدْ بَايَعُوا . فَقَرَأَ كِتَابَهُ وَقَالَ : « إِنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَبَّرَتْ سِنُّهُ ، وَدَقَّ عَظْمُهُ ، وَقَدْ خَافَ أَنْ يَأْتِيَهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَدْعِ النَّاسَ كَالْفَنَمِ لَا رَاعِيَ لَهَا ، فَاحْبَبَ أَنْ يُعْلِمَ عُلَمَاءًا ، وَيَقِيمَ إِمَامًا » . فَقَالُوا : وَفَّقَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَدَّدَهُ ، لِيَفْعَلَ .

فَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَنْ سَمَّ يَزِيدَ . فَقَرَأَ الْكِتَابَ عَلَيْهِمْ وَسَمَّى يَزِيدَ ، وَقَالَ : سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الْهَادِيَةُ الْمُهْدِيَةُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ : كَذَبْتَ ! إِنْ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ وَالْعَشِيرَةَ ، وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَاخْتَارَهُ لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا مَرْوَانَ ، وَكَذَبَ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ ! لَا يَكُونُ ذَلِكَ . لَا تُحَدِّثُوا عَلَيْنَا سُنَّةَ الرُّثُومِ ، كُلَّمَا مَاتَ هِرَقْلٌ قَامَ مَكَانَهُ هِرَقْلٌ .

قال مروان : أيها الناس ؛ إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « والذي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا ! أُنْعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » .
فقال عبد الرحمن : يا ابن الزرقاء ؛ أفينا تتأول القرآن !

وتكلم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس . فكتب مروان إلى معاوية بذلك .

ولما علم معاويةُ خرج إلى المدينة في ألف ، وحينما قَرِبَ مِنْهَا تلقاه الناس ، فلما نظر إلى الحسين قال : مرحباً بسيد شباب المسلمين ، قَرَّبُوا دَابَّةً لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ . وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر : مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق . وقال لابن عمر : مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق ، وقال لابن الزبير : مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، ودعا لهم بدواب فحملهم عليها ، وخرج حتى أتى مكة ، ف قضى حَجَّه .

ولما أراد الشخصُوص أمرُ بأثقاله^(١) ، فقدمت ، وأمر بالمنبر فقرأ من الكعبة ، وأرسل إلى الحسين وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير . فاجتمعوا ، وقالوا لابن الزبير : اكفينا كلامه ، فقال : على ألا تخالفوني ؟ قالوا : لك ذلك .

ثم أتوا معاوية ، فرحب بهم وقال لهم : قد علمتم نظري لكم ، وتعطفني عليكم ، وصليتي أرحامكم ، ويزيدُ أخوكم وابنُ عمكم ، وإنما أردتُ أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أتم تأمرُون وتنهون ؛ فسكتوا .

وتكلم ابن الزبير فقال : نخبرك بين إحدى ثلاث : أيها أخذتَ فهي لك

(١) الثقل : المتاع ، جمه أثقال .

رغبة ، وفيها خيار : إن شئت فاصنع فينا ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قبضه الله ولم يستخلف ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم . وإن شئت فاصنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا . وإن شئت فاصنع عمر ، صيرها إلى ستة نفر من قريش ، يختارون رجلاً منهم ، وترك ولده وأهل بيته وفيهم من تولى لها لكان لها أهلا .

قال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا . ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ! فقال معاوية : إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر ! إني قائل مقالة ، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ رجلٌ منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه ! وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرُدُّ بها عليه قوله قتلاه .

وخرج وأخرجهم معه حتى رقى المنبر ، وحفّ به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا : إن حسيناً وابن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا يزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى إلا على مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ انذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر وأحلى دماءهم عندهم ! أنصتوا ، فلا أسمع هذه المقالة من أحد . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا . ثم قُرِّبَ رواحله ، فركب .

(١) العوار هنا : السب .

فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتُم لا نبايع ، فلما دُعيتُم وأرضيتُم بايعتُم .
قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى ، فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ! قالوا : خفنا القتل ،
وكاد بنا وكاد بكم .

١٢ - ذو الوجهين لا يكونُ عند الله وجهياً*

لما نصب معاوية يزيد لولاية العهد أقعدَه في قبة حراء ، فجعل الناسُ يسلمون
على معاوية ، ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية
فقال : يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تُولِّ هذا أمور المسلمين لأضعتها !
والأحنف^(١) جالس .

فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بَجْر ؟ فقال : أخاف الله إن كذبتُ ،
وأخافكم إن صدقتُ ؛ فقال : جزاك الله عن الطاعة خيراً ! وأمر له بالوف !

فلما خرج الأحنف لقيه الرجلُ بالبَاب ، فقال : يا أبا بَجْر ؛ إني لأعلم أن شرَّ
مَنْ خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ؛
فلسنا نطمعُ في استخراجها إلا بما سمعت !

فقال له الأحنف : يا هذا ؛ أمْسِك ، فإن ذا الوجهين خَلِيقٌ ألا يكون عند
الله وجهياً .

* الكامل للمبرد : ١ - ٣٠

(١) اسمه الصحاك بن قيس ، والأحنف لقبه ، سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان
القاتحين ، يضرب به المثل في الحلم ، وله في هذا الباب نوادر مشهورة ، توفي سنة ٦٧ هـ .
(٣ - قصص - ٣)

١٣ — الحجاج وأهل العراق *

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق ، جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده ، وقال : أيها الناس ، إن العراق كدُر ماؤها ، وكثُر غَوَاؤها ، وأملوَلَح عَذْبُها ، وعَظُم حَظْبُها ، وظهر ضِرَامُها^(١) وعَسُرَ إِخَادُ نيرانها ؛ فهل من مُمَهِّدٍ لهم بسيفٍ قاطع ، وذَهِينِ جامع ، وقلب ذكي ، وأنفٍ حَمِيٍّ ، فيُخَمِّدَ نيرانها ، وَيَرُدَّعَ غِيلانها ، وَيُنصِفَ مَظْلومها ، ويداوي الجرحَ حتى يندمل ، فتصفو البلاد ، ويأمن العباد ؟

فسكت القوم ، ولم يتكلم أحد . فقام الحجاج^(٢) ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا للعراق . قال : ومن أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا الحجاج بن يوسف . قال : ومن أين ؟ قال : من ثقيف . قال : اجلس ، لا أم لك ! فلست هناك !

ثم قال : مالي أرى الرءوسَ مُطْرَقَةً ، والألسُنَ معتقلة ! فلم يجبه أحد . فقام إليه الحجاج ، وقال : أنا مُجَدِّلٌ^(٣) الفسَّاق ، مطغى نارِ النِّفَاق ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا قاضمُ^(٤) الظُّلْمَةِ ، الحجاج بن يوسف ، معدنُ العفو والعقوبة ، وآفةُ الكفر والريبة . قال : إليك عني وذاك ! فاستأففت هناك !

ثم قال : من للعراق ؟ فسكت القوم ، وقام الحجاج ، وقال : أنا للعراق . فقال : إذن أظنك صاحبها والظافرَ بفنائمها ؛ وإن لكل شيء — يا بن يوسف — آيةٌ وعلامة .

* المستطرف : ١ - ٥١ ، الكامل : ١ - ٢٢٣ ، رغبة الأمل : ٤ - ٧٥

(١) ضمرت النار : اشتعلت (٢) الحجاج بن يوسف الثقفي ، نشأ بالطائف واتصل بعبد الملك ابن مروان ولم يزل يرقى إلى أن ولي العراق والمشرق ، وطار ذكره وعظم سلطانه ، وهلك بواسطة سنة ٩٥ هـ (٣) جدله : صرعه (٤) القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

فما آيتك؟ وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو والافتقار والبسط والازورار^(١)، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر، والتأهب والحزم، وخوض غمرات الحروب بمحنان غير هيوب، فمن جاد لنى قطعتة، ومن نازعنى قصمتة، ومن خالفنى نزعته، ومن دنامنى أكرمتة، ومن طلب الأمان أعطيتة، ومن سارع إلى الطاعة مجلتة، فهذه آيتي وعلامتي؛ وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبخلونى، فإن كنت للأحقاق قطاعا، وللأموال جماعا، وللأرواح نزاعا، ولك فى الأشياء نقاعا، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذى تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال.

فدعا عبد الملك صاحب جنده، وقال له: هيئ لى من الجند شهوته، والزهر منهم طاعته، وحذرهم مخالفتة. ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك.

فخرج الحجاج قاصدا العراق، فبينما الناس فى المسجد الجامع بالكوفة، إذ أتاهم آت، فقال: هذا الحجاج؛ قدم أميرا على العراق، فتطاوت الأعناق نحوه، وهو يمشى، وعليه عمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلدا سيفه، متنكببا^(٢) قوسا، حتى صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف، حتى غص^(٣) المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذو حال حسنة، وهيتة جميلة؛ فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه، عليهم الخرز والدبياج.

(١) ازور عن الشيء: عدل منه وانحرف.

(٢) تنكب القوس: ألقاه على منكبه.

(٣) غص بأهله: ضاق.

قال الناسُ بعضهم لبعض : قُبِحَ اللهُ بنى أُمَيَّةٍ حيثُ تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عمير بنى ضابئُ البرُّجُمي . أَلَا أَحْصِيَهُ^(١) لَكُمْ ؟ فقالوا : أَمِهْلْ . حتى نَنْظُرَ ، فلما رأى عيونُ الناسِ شاحِصَةً إليه ، حَسَرَ اللَّثَامَ عن فيه ، ونهَضَ فقال :

أَنَا ابْنُ جَلَا^(٢) وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا^(٣) مَتَى أَضَعَّ الْعِمَامَةَ^(٤) تَعْرِفُونِي
ثم قال : يَا هَلَّ الْكَوْفَةِ ؛ إِنِّي لَا أَرَى رُءُوسًا قَدْ أُيْنَعَتْ^(٥) ، وَحَانَ قِطَافُهَا ،
وَإِنِّي لِصَاحِبِهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعَائِمِ وَاللَّحَى ؛ ثُمَّ قَالَ :

هَذَا أَوَانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ^(٦) قَدْ لَقَّاهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطْمٍ^(٧)
لَسْتُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمٍ^(٨)
إِنِّي وَاللَّهِ يَا هَلَّ الْعِرَاقِ ، مَا يُقَعِّقُ لِي بِالشَّنَّانِ^(٩) ، وَلَا يُفَمِّزُ جَانِبِي كَتَفَايَا الثَّنِينِ ،
وَلَقَدْ فَرُرْتُ عَنْ ذَكَاءٍ^(١٠) ، وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِيدٍ ، وَإِن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ
بِقَائِهِ - نَثَرَ كِفَائَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ^(١١) عِيدَ أَنْهَا ، فَوَجَدَنِي أَسْرَهَا عَوْدًا ، وَأَصْلَبَهَا
مَكْسِرًا ، فَرَمَا كَمِي ؛ لِأَنَّكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ^(١٢) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مِرَاقِدِ

(١) حصبه : رماه بالحصى . (٢) أى أنا الظاهر الذى لا يخفى وكل أحد يعرفنى ، وجلا اسم رجل سمى بالفعل الماضى ، وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلم فى الغارات من ثنية الجبل .
(٣) الثنايا : جمع ثنية ، والثنية : الطريق فى الجبل ، وقد أراد أنه جلد . (٤) العمامة تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم . (٥) أئنت : أدركت ونضجت . (٦) زيم : اسم فاقة أو فرس وهو يخاطبها بأمرها بالعدو ، وحرف النداء محذوف . (٧) هو العنيف برعاية الإبل فى الدوق والإيراد والإصدار ويلقى بعضها على بعض ، ضربه مثلا لوالى السوء . (٨) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم . (٩) الشنان : واحد شن . وهو الجلد اليابس ، فإذا قمع به نفرت الإبل منه ، فضرب ذلك مثلا لنفسه . (١٠) ذكاء : تمام السن ، والذكاء على ضربين : أحدهما تمام السن ، والآخر حدة القلب (١١) اختبرها لينظر أيها أصلب .
(١٢) الإيضاع : ضرب من السير .

الضلال، والله لأخزى منكم حَزْمَ السَّلَاقِ^(١)، ولأضر بكم صَرْبَ غَرَابِ^(٢) الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وإني والله ما أقول إلا وفيتُ ، ولا أُمُّ إلا أمضيتُ ، ولا أخلق^(٣) إلا فريتُ^(٤)، وإن أمير المؤمنين أسرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وإن أوجهكم لحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه إلا ضربتُ عنقه .

يا غلام : اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم . فلم يقل أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج : اكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً ! هذا أدبُ ابنِ نهية^(٥) ! أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب ، أولست تسمعون !

اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين . فلما بلغ إلى قوله : سلامٌ عليكم ، لم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم ، فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخٌ يرعش كبيراً ؛ فقال : أيها الأمير ، إني من الضعف على ما ترى ، ولي ابنٌ هو أقوى على الأسفار ، فتقبَّلهُ بدلاً مني ؟ فقال له الحجاج : نفعل أيها الشيخ .

(١) السلة : شجرة شاكّة ، يعسر خروط ورقها ، فيشد بعضها إلى بعض ، ثم يضرها الحابط فينثر ورقها . (٢) ضرب غراب الإبل : هو مثل ضربه يهدد به رعيته ، وذلك أن الإبل إذا دخلت بينا غريبة وهي ترد الماء ضربها راعيها ضرباً مؤلماً حتى تخرج . (٣) أخلق : أقدر . (٤) فراءه : شقه ضالماً أو فاسداً . (٥) ابن نهية : رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج .

فلما ولى قال له قائل^(١) : أتدرى من هذا أمير؟ قال : لا ، قال : هذا
عمير بن ضابى البرجمى الذى يقول أبوه :
هَمَّتُ ولم أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكَتُ على عثمان تبكى حَلَاثَةً
ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فَوَطِئَ بطنه ، فَكَسَرَ ضِلَعَيْنِ مِنْ
أضلاعِهِ ! فقال : ردّوه . فلما رُدَّ قال له الحجاج : أيها الشيخُ هَلَّا بَعَثْتَ إلى أمير !
المؤمنين عثمان بدلاً يومَ الدَّارِ^(٢) ؟ إِنَّ فى قَتْلِكَ أيها الشيخُ لَصَلَاحاً للمسلمين
يا حَرَسَى^(٣) اضربْ عُنُقَهُ .

(١) هو عنبسة بن العاص الأموى (٢) هو اليوم الذى قتل فيه عثمان .

(٣) الحرسى : واحد من حرس السلطان .

١٤ — نصيحة*

رَحَلَ الحجاج إلى عبدِ الملك بن مروان ومعه إبراهيمُ بن محمد بن طلحة ،
فلما قدم على عبدِ الملك سلَّم عليه بالخلافة ، وقال : قدمتُ عليك يا أمير المؤمنين
برَجُل الحجاز في الشرف والأبوة ، وكَمال المروءة والأدب ، وحسنِ المذهب والطاعة ،
والنصيحة مع القُرابة ، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فافعلْ به يا أمير المؤمنين
ما يستحقُّه مثله في أبوتِهِ وشرفِهِ .

فقال عبد الملك : يا أبا محمد ؛ قد أذكركم تناحقاً واجِباً ، ائذنوا لإبراهيم !
فلما دخل وسلَّم بالخلافة أمره بالجلوس في صَدْرِ المجلس ، وقال له : إن أبا محمد
ذَكَرنا ما لم نَزَلْ نعرفُهُ منك من الأبوة والشرف ، فلا تَدْعُ حاجةً في خاصَّةِ أمرك
وعامَّتِهِ إلا سَأَلْتَهَا .

فقال إبراهيم : أما الحوائجُ التي نبتغي بها الزُّلفى ، ونرجو بها الثواب ، فما كان
خالصاً لله ولنبيِّهِ .

ولكنْ : لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحةٌ ، لا أجدُ بُدّاً من ذكْرِ إياها !
قال : أمي دون أبي محمد ؟ قال : نعم ، قال : قم يا حجاج .
فنهض الحجاجُ خَجِلاً لا يُبْصِرُ أين يضع رِجْلَهُ .

ثم قال له عبد الملك : قل يا بنَ طلحة . قال : تالله يا أمير المؤمنين ، إنك
عمَدت إلى الحجاج ، في ظلمِهِ وتعدِّيهِ على الحق ، وإصغائِهِ إلى الباطل ، فوليَّتْهُ

الْحَرَمِينَ، وفيهما مَنْ فِيهِمَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،
يَسُومُهُمْ ^(١) الْخُسْفَ، وَيَطْوُهُمْ بِطَغَامٍ ^(٢) أَهْلُ الشَّامِ، وَمَنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي إِقَامَةِ
الْحَقِّ، وَلَا إِزَاحَةِ الْبَاطِلِ.

فَاطَرَقَ عَبْدُ الْمَلِكِ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: كَذَبْتَ يَا طَلْحَةَ، ظَنَنْتُ فَيْكَ
الْحِجَابُ غَيْرَ مَا هُوَ فَيْكَ! قُمْ فَرَبِّمَا ظُنَّ الْخَيْرُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ!
قَالَ ابْنُ طَلْحَةَ: قَعَمْتُ وَأَنَا مَا أَبْصِرُ طَرِيقًا، وَأَتَبَعْنِي حَرَسِيًّا ^(٣)، وَقَالَ لَهُ:
اشْدُدْ يَدَكَ بِهِ. فَمَا زِلْتُ جَالِسًا حَتَّى دَعَا الْحِجَابُ.

فَسَا زَالَا يَتَنَاجِيَانِ طَوِيلًا، حَتَّى سَاءَ ظَنِّي، وَلَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي أَمْرِي، ثُمَّ
دَعَا بِي، فَلَقَيْتَنِي الْحِجَابُ فِي الصَّخْنِ ^(٤) خَارِجًا، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْ، وَقَالَ: أَحْسَنَ اللَّهُ
جَزَاءَكَ! فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّهُ يَهْزَأُ بِي. وَدَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَجْلَسَنِي مَجْلِسِي
الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ طَلْحَةَ، هَلْ أَطْلَعَ عَلَى نَصِيحَتِكَ أَحَدٌ؟ فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَرَدْتُ إِلَّا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَعْلَمُ ذَلِكَ.
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: قَدْ عَزَلْتُ الْحِجَابُ عَنِ الْحَرَمِينَ، لِمَا كَرِهْتَهُ فِيهِ، وَأَعْلَمْتُهُ
أَنَّكَ اسْتَقَلَّتَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَسَأَلْتَنِي لَهُ وَلَايَةً كَبِيرَةً، وَقَدْ وَلِيْتُهُ الْعِرَاقِينَ، وَقَرَّرْتُ
لَهُ أَنْ ذَلِكَ بِسُؤَالِكَ، لِيُزِمَهُ مِنْ حَقِّكَ مَا لَا بَدَّ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِهِ، فَاخْرُجْ مَعَهُ غَيْرَ
ذَامٍ لَصُحْبَتِهِ.

(١) يسومهم: يوليهم إياه ويريدهم عليه (٢) الطغام: أوغاد الناس (٣) الحرسى: واحد
حرس السلطان (٤) صحن الدار: وسطها.

١٥ — من حيل الحجاج *

دخل عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف على الوليد بن عبد الملك ، فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ إن عندى نصيحةً ، فإذا خلا لك عقلك ، واجتمع فهْمك فسئلى
عنها ؛ قال : ما يمنعك منها الآن ؟ قال : أنت أعلم أنه إذا اجتمع لك ما أقول فإنك
أحق أن تفهم .

فكث أياماً ثم قال : يا غلام ؛ مَنْ بالباب ؟ فقال له : ناسٌ وفيهم عمرُ بن
عبد العزيز ، فقال : أدْخِلْهُ ، فدخل عليه فقال : نصيحتك يا أبا حفص ، فقال
عمر : إنه ليس بعد الشرك إنمَّ أعظمُ عند الله من الدم وإن عمَّالك يقتلون ،
ويكتبون : إِبْ ذَنْبَ الْقَتُولِ كَذَا وَكَذَا ، وأنتَ المستول عنه والمأخوذُ به ،
فاكتب إليهم : أَلَا يَقْتُلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا حَتَّى يَكْتُبَ إِلَيْكَ بِذَنْبِهِ ، ثم يُشْهَدُ
عليه ، ثم تأمر بأمرِكَ على أمرٍ قد وضَّح لك . قال : بَارَكَ اللهُ فِيكَ يَا أبا حفص .
فكتب إلى الأمصار فلم يَخْرُجْ ^(١) من ذلك إلا الحجاج ، فإنه أَمْضَهُ ^(٢) ،
وشقَّ عليه وأقلقه ، وظن أنه لم يُكتب به إلى أحدٍ غيره ، فبحث عن ذلك فقال :
من أين دُهِينا ؟ وَمَنْ أشار على أمير المؤمنين بهذا ؟ فَأَخْبَرَ أن عمرَ بن عبد العزيز
هو الذى فعل ذلك ، فقال : هيهات ! إن كان عمر فلا نقضَ لأمره .

ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حرورى ^(٣) جافٍ من بكر بن وائل ، ثم قال
له : ماتقول فى معاوية ؟ فقالَ منه . قال له : ماتقول فى يزيد ؟ فسبَّه . قال :

* شيرة عمر بن عبد العزيز : ١٣٩ .

(١) خرج : ضاق (٢) أمضه : آله وأوجه (٣) الحرورية : فرقة من الخوارج ؛
ينسبون إلى حروراء ، موضع بظاهر الكوفة ، كان به أول اجتماعهم .

فما تقول في عبد الملك ؟ فظلمه ^(١) . قال : فما تقول في الوليد ؟ فقال : أجورهم حين ولاك ، وهو يعلم عداك ^(٢) وظلمك . فسكت عنه الحجاج ، واقتصرها ^(٣) منه . ثم بعث إلى الوليد وكتب إليه : أنا أحوط لديني وأرعى لما استزعتني ، وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك ، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي ، فشأنك وإياه .

فدخل الحروري على الوليد ، وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم ، فقال له الوليد : ماتقول في ؟ قال : ظالم جائر جبار ! قال : ماتقول في عبد الملك ؟ قال : جبار عاتٍ ، قال : فما تقول في معاوية ؟ قال : ظالم .

قال الوليد لابن الريان : اضرب عنقه ، فضرب عنقه ، ثم قام فدخل منزله ، وخرج الناس من عنده ، فقال : يا غلام : اردد علي عمر ، فردّه عليه فقال : يا أبا حفص : ماتقول في هذا ؟ أصبنا فيه أم أخطأنا ؟ فقال عمر : ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب ، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل ، أوتدركه منيته . فقال : شتني وشتم عبد الملك ، وهو حروري ؛ أفنتحل ذلك ؟ قال : لعمرى ما أستحلّه ؛ لو كنت سجنته - إن بدا لك - أو عفوت عنه كان أرشد أقام الوليد مغضباً ، فقال ابن الريان لعمر : يغفر الله لك يا أبا حفص ، لقد راددت أمير المؤمنين حتى طننت أنه سيأمرني بضرب عنقك ! فقال عمر : ولو أمرتك كنت تفعل ؟ قال : إى لعمرى !

(١) ظلمه : نسب إليه الظلم (٢) العدا : تجاوز الحد في الظلم (٣) اقتصرها : اتهمها .

١٦ - لَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ *

أتى الحجاجُ يقوم من خرجوا عليه ، فأمر بهم فضربت أعناقهم ، وأقيمت صلاة المغرب وقد بقي من القوم واحد ، فقال لِقُتَيْبَةُ بنِ مسلم : انصرف به معك حتى تغدو به عليّ .

قال قُتَيْبَةُ : فخرجتُ والرجلُ معي ، فلما كنّا ببعض الطريق قال لي : هل لك في خير ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : إني والله ما خرجتُ على المسلمين ، ولا استحللت قتالهم ؛ ولكن ابتليتُ بما ترى ، وعندى ودائع وأموال ، فهل لك أن تُخَلِّيَ سبيلِي ، وتأذن لي حتى آتي أهلي ، وأرُدَّ عليّ كل ذي حقٍ حقّه ، وأوصي ؛ ولك عليّ أن أرجعَ حتى أضعَ يدي في يدك ؟ فعجبتُ له ، وتضاحكتُ لقوله ، ومَضَيْنَا هُنَيْهَةً ، ثم أعادَ عليّ القول ، وقال : إني أعاهدك الله ، لك عليّ أن أعودَ إليك . فما ملكتُ نفسي حتى قلت له : اذهب !

فلما توارى شخصُه أَسْقَطَ في يدي ، فقلت : ماذا صنعتُ بنفسِي ؟ وأُتِيتُ أهلي مهموماً مغموماً ؛ فسألوني عن شأني فأخبرتهم ، فقالوا : لقد اجترأتَ على الحجاج .

فبُتْنَا بأطول ليلة ، فلما كان عند أذان الفجر إذا الباب يُطْرَق ، فخرجتُ فإذا أنا بالرجل ، فقلت : أرجعتَ ؟ قال : سبحان الله ! جعلتُ لك عهداً الله عليّ ،

أفأخونك ولا أرجع ! فقلت : أما والله إن استطعتُ لأُنفعنك . وانطلقتُ به حتى
أجلستُهُ على باب الحجاج ، ودخلت !

فلما رآنى قال : يا قتيبة ؛ أين أسيرك ؟ قلت : أصلح الله الأمير - بالباب ،
وقد اتفق لى معه قصةٌ عجيبية ، قال : ماهى ؟ فحدثته الحديث ، فأذن له فدخل ،
ثم قال : يا قتيبة ، أتحبُّ أن أهبه لك ؟ قلت : نعم ! قال : هولاك ! فانصرف به
معه .

فلما خرجتُ به قلت له : خذ أىَّ طريقٍ شئتَ ، فرفع طرفه إلى السماء وقال :
لك الحمدُ يارب ، وما كلمنى بكلمة ، ولا قال لى أحسنتَ ولا أسأت ! فقلت فى
نفسى : مجنون والله ! فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءنى ، وقال لى : جزاك الله خيراً ،
أما والله ما ذهبَ عنى ما صنعت ، ولكن كرهتُ أن أشركَ معَ خد الله خد أحد !

١٧ - لا أسألكم عليه أجرًا*

قال عثمان بن عطاء الخراساني : انطلقت مع أبي نُريد هشام بن عبد الملك ، فلما قَرُبْنَا إذا بشيخ على حمارٍ أسود عليه قيص دَنَس ، وجُبَّة دِنْسَة ، وقلنسوة لاطِئَة^(١) دِنْسَة ، وركاباه من خشب ؛ فضحكت منه ، وقلت لأبي : من هذا الأغرابي ! قال : اسكت ! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح^(٢) .

فلما قرب منا نزل أبي عن بَعْلته ، ونزل هو عن حماره ، فاعتنقا وتساءلا ، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام ؛ فاستقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما .

فلما خرج أبي قلتُ له : حدثني ما كان منكما . قال : لما قيل لهشام : إن عطاء بن أبي رباح بالباب أذن له ؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه .

فلما رآه هشام قال : مرحباً مرحباً ! ههنا ، ههنا ، ولا زال يقولُ له : ههنا ههنا ، حتى أجاسه معه على سريره ، ومسَّ بركبته ركبته - وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا . فقال له : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقسَّم عليهم أرزاقهم وأعطيتهم . قال : يا غلام : اكتب لأهل مكة والمدينة بعطايهم وأرزاقهم لِسنة .

* غرر الحقائق : ١١٧

(١) لاطئة : لازقة . (٢) تابعي من أجلاء الفقهاء ، ولد باليمن ونشأ بمكة ، فكان مفتي أهلها ، وعندهم ، وتوفى فيها سنة ١١٥ هـ .

ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، أهل الحجاز وأهل نجد هم أصل العرب ، وقادة الإسلام ، تردّ فيهم فضول صدقاتهم . قال : نعم ! يا غلام اكتب بأن تردّ فيهم فضول صدقاتهم . هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهل الثغور يرّدون من ورائكم ، ويقاتلون عدوكم ، تجرّى لهم أرزاقاً تدّرّها عليهم ؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور . قال : نعم ، يا غلام ؛ اكتب بحمل أرزاقهم إليهم . هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهل ذمتكم لا يكلفون مالا يطيقون ؛ فإن ما تجبونه منهم معونة لكم على عدوكم . قال : نعم ، يا غلام ؛ اكتب لأهل الذمة ألا يكلفوا مالا يطيقون ! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، اتق الله في نفسك ؛ فإنك خلقت وحدك ، وتموت وحدك ، وتُحشَر وحدك ، وتحاسب وحدك ، ولا والله ما معك ممن ترى أحد !

فأكبَّ هشام ينكت^(١) في الأرض ، وهو يبكي ؛ فقام عطاء .

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه ؛ فقال : إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا . فقال : لا أسألكم عليه أجرًا إن أجرى إلا على ربِّ العالمين ، فوالله ما شرب عنده قطرة ماء .

(١) النكت : قرعك الأرض بعود أو ياصع ، وهو فعل المفكر المهموم .

١٨ — خليفة بين يدي قاض *

قال العُتبي : إني لقاعد عند قاضى هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وصاحب حرس هشام ^(١) ، حتى قعدا بين يديه ؛ فقال الحرسي ^(٢) :
إن أمير المؤمنين جَرَّاني في خصومة بينه وبين إبراهيم !

فقال القاضى : شاهديك على الجِراية ^(٣) !

قال : أترانى قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل ! وليس بيني وبينه إلا
هذه السترة ^(٤) !

قال : لا ، ولكنه لا يثبت الحق لك ، ولا عليك ، إلا بينة .

فقام الحرسي فدخل إلى هشام فأخبره ؛ فلم نلبث أن قَعَقَت الأبواب ،
وخرج الحرسي ، فقال : هذا أمير المؤمنين !

فقام القاضى فأشار إليه هشام فَعَد ، وبسط له مُصلى ، فَعَد عليه هو وإبراهيم ،
وكنا حيثُ نسمع بعض كلامهما ، ويخفى علينا بعضه !

فكَلِمًا ، وأحضرا البينة ، فقضى القاضى على هشام ؛ فتكلم إبراهيم بكلمة فيها
بعض الخرق ^(٥) ؛ فقال : الحمد لله الذى أبان للناس ظُلمَكَ !

* العقد : ٤ - ٤٤٧ ، (طبعة لجنة التأليف) .

(١) هشام بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية ، ولد في دمشق وبويع له فيها وتوفى سنة ١٢٥ .

(٢) الحرسي : واحد حرس السلطان . (٣) الجراية : الوكالة . (٤) السترة : ما يستر به .

(٥) الخرق : الحق .

فقال هشام : لقد همتُ أن أضرب عنقك ضربةً ينتثر منها لَحْمُكَ عن عَظْمِكَ . قال : أما والله لئن فعلتَ لفعلته بشيخ كبير السن ، قريب القرابة ، واجب الحق !

فقال هشام : استرها على يا إبراهيم ! قال : لا ستر الله على ذنبي يوم القيامة إن سترتها !

قال : فإني مُعْظِيكَ عليها مائة ألف ! قال إبراهيم : فسترتها عليه طول حياته ثمناً لما أخذتُ منه ، وأدعتها بعد مماته ، تزييناً له !

١٩ — المَهْد لعمر بن عبد العزيز *

كان لسليمان بن عبد الملك ابن توفيق يقال له أيوب بن سليمان ، فقد له ولاية العهد من بعده ؛ ثم إن أيوب توفى قبل سليمان ، ولم يبق لسليمان إلا ولدٌ صغير . فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء ابن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدي في القمص والأردية ، فمرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحملون مالبسوا من القمص والأردية ، يسحبونها سحباً . فنظر إليهم وقال : يارجاء ؛

إِنْ بَنَى صَبِيَّةٌ صِغَارُ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ كِبَارُ

فقال له عمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ^(١) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

ثم قال : يارجاء ، اعرض على بني في السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحملونها ، يجرؤونها جرّاً ؛ فنظر إليهم وقال :

إِنْ بَنَى صَبِيَّةٌ صَيْفِيُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رُبْعِيُونَ ^(٢)

فقال له عمر بن عبد العزيز : يقول الله تبارك وتعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٢٩

(١) تزكى : تطهر من الشرك والمعاصي . (٢) يقال : أصاف الرجل ، إذا ولده له على كبر سنه وولده صيفيون . وأربع الرجل : إذا ولد له في فتاه سنه ، وولده ربسيون .

(٤ - قصص العرب - ٣)

فلما لم يرَ في ولده ما يريدُ حدثَ نفسه بولايةِ عمر بن عبد العزيز^(١) ؛ لما كان يعرف من حاله ؛ فشاور رجاءَ فيمن يَعتدُّ له ، فأشار عليه بعمر ، وسدَّ له رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان ، وقال : لأعتدَّ عَقْدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب .

فلما اشتدَّ به وجعُه عَهِدَ عَهْدًا لم يُطْلِعْ عليه أحداً إلا رجاء بن حيوةَ الكندي ، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر .

فدخل سعيدُ بن خالد مع عُمر بن عبد العزيز وبعضِ أهل بيته يعودون سليمان ؛ فرأوا به الموت ، فشى عمر وسعيد بن خالد ورجاء بن حيوةَ ، ثم تخلف عمر كأنه يعالج نَعْلِيه ، حتى أدركه رجاء ، فقال له : يارجاء ، إني أرى أمير المؤمنين في الموت ، ولا أحسبه إلا سيَّعَهْد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلا صدَّته عني ، وإن لم يذكرني ألاَّ تذكرني له في شيء من ذلك . فقال رجاء لعمر : لقد ذهب ظنُّك مذهباً ما كنتُ أحسبك تذهبه ، أنظنُّ بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم ! وقد كان سليمان فرغ من ذلك ولكنه أراد إخفاءه عن عمر !

فلما احتضر^(٢) سليمان ، واشتدَّ ما به أمر بالبيعة لمن كان في كتابه ممن عهد إليه ، فبايع الناس ولا يعلمون من في كتابه .

ثم قضى الله على سليمان بالموت ، فلما مات كتم موته رجاء بن حيوةَ ، ثم خرج إلى الناس فقال : إن أمير المؤمنين يأمرُكم بتجديد البيعة لمن كان عهداً إليه ، وقد أصبح بحمد الله صالحاً . فقالوا : أوصلنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه ، وننفذَ أمره ؛ فدخل وأمر به فأُسندَ بالوسائد وأقام عنده خادماً ، وأمر بالناس فأدخلوا عليه ،

(١) هو الخليفة الصالح العادل ، ولد بالمدينة ونشأ بها ، وبويع له بالخلافة سنة ٩٩ هـ وأخباره في هذه وحسن سياسته كثيرة توفي سنة ١٠١ هـ (٢) احتضر : حضره الموت .

فيقفون عند الباب فيسلمون من بعيد ، وهم يركّون شخصه ، فيردّ الخادم عنه ردّ المريض وهم ينظرون إليه .

ثم قال : يا أمير المؤمنين أن تبأيعوا لمن عهد إليّ ، وتسمعوا له وتطيعوا ، فخرجوا إلى المسجد والناس مجتمعون : وجوه بني مروان وبني أمية ، وأشرافُ الناس ، فبأيعوا ، حتى إذا رضى رجاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر ؛ فخرج يلتمسه في المسجد حتى رآه قاصياً ، فوقف عليه ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قم إلى المنبر ، فقال : أنشدك الله يارجاء ، فقال رجاء : أناشدك الله أن يضطربَ بالناس حبل ، فقد لقي سليمان ربّه ، وقضى الله عليه بالموت .

فقام عمر حتى جلس على المنبر ، فنعى للناس سليمان ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر .

فلما قرأ ذكرَ عمر جثاً هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال : هاه^(١) ! فسأل رجلٌ من أهل الشام سيّفه ، وقال : تقول لأمرٍ قد قضاه أمير المؤمنين هاه ؟ فلما قرأ : « ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر » قال هشام : سمعنا وأطعنا . فسمع الناس وأطاعوا ، وقاموا فبأيعوا لعمر .

(١) هاه : وعيد .

٢٠ — عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ*

لَمَّا دُفِنَ سُلَيْمَانُ ، وَقَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْمَرَكَبَ ، فَقَالَ :
مَا هَذِهِ ؟ فَقَالُوا : مَرَكَبٌ لَمْ تُرْكَبْ قَطُّ يَرْكَبُهَا الْخَلِيفَةُ أَوَّلَ مَا يَلِي . فَتَرَكَهَا وَخَرَجَ
يَلْتَمِسُ بَقْلَتَهُ ، وَقَالَ : يَا مُزَاهِمُ ؛ ضُمَّ هَذِهِ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَنُصِبَتْ لَهُ سُرَادِقَاتٌ وَحُجَرٌ لَمْ يَجْلِسْ فِيهَا أَحَدٌ قَطُّ ، كَانَتْ تُضْرَبُ لِلْخَلِيفَةِ
أَوَّلَ مَا يَلِي ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ فَقَالُوا : سُرَادِقَاتٌ وَحُجَرٌ لَمْ يَجْلِسْ فِيهَا أَحَدٌ قَطُّ ،
يَجْلِسُ فِيهَا الْخَلِيفَةُ أَوَّلَ مَا يَلِي . قَالَ : يَا مُزَاهِمُ ، ضُمَّ هَذِهِ إِلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ
رَكِبَ بَقْلَتَهُ ، وَانْصَرَفَ إِلَى الْفُرُشِ وَالْوِطَاءِ^(١) الَّذِي لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ قَطُّ وَالَّذِي
يَفْرَشُ لِلْخَلِيفَةِ أَوَّلَ مَا يَكُونُ ، فَجَعَلَ يَدْفَعُ ذَلِكَ بِرِجْلِهِ حَتَّى يُفْضَى إِلَى الْحَصِيرِ .
ثُمَّ قَالَ : يَا مُزَاهِمُ ، ضُمَّ هَذَا لِأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَبَاتَ عِيَالُ سُلَيْمَانَ يُفَرِّغُونَ الْأَدْهَانَ وَالطِّيبَ ، مِنْ هَذِهِ الْقَارُورَةِ إِلَى تِلْكَ
الْقَارُورَةِ ، وَيَلْبَسُونَ مَا لَمْ يُلْبَسْ مِنَ الثِّيَابِ حَتَّى تَتَكَسَّرَ . وَكَانَ الْخَلِيفَةُ إِذَا مَاتَ
فَمَا لَبَسَ مِنَ الثِّيَابِ ، أَوْ مَسَّ مِنَ الطِّيبِ كَانَ لَوْلَاهُ ، وَمَا لَمْ يُلْبَسْ مِنَ الثِّيَابِ وَمَا لَمْ
يُمَسَّ مِنَ الطِّيبِ فَهُوَ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ عُمَرُ قَالَ لَهُ أَهْلُ سُلَيْمَانَ : هَذَا لَكَ وَهَذَا لَنَا . قَالَ . وَمَا هَذَا ؟ وَمَا
هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا مِمَّا لَبَسَ الْخَلِيفَةُ مِنَ الثِّيَابِ وَمَسَّ مِنَ الطِّيبِ وَهُوَ لَوْلَاهُ ، وَمَا لَمْ
يَمَسَّ وَلَمْ يَلْبَسْ فَهُوَ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ ، وَهُوَ لَكَ .

(*) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٣٥ .

(١) الوطاء : ضد النطاء .

قال عمر : ما هذا لي ، ولا لسليمان ، ولا لكم ، ولكن يامزاحم ؛ ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين .

فتأمر الوزراء فيما بينهم ، فقالوا : أما المراكبُ والسراقات والحجر والشوار^(١) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهي الجوارى ، نعرضهن فمسي أن يكون ما تريدون فيهن ؛ فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى فعرّضن عليه كأمثال الدثمي ؛ فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة : من أنت ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعث بك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ، ولمن كانت ، وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى أهلن ويحملن إلى بلادهن ، حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه ، وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق .

واحتجب عن الناس ثلاثا ، لا يدخل عليه أحد ، ووجهه بنى مروان وبنى أمية ، وأشراف الجنود والعرب ، والقواد ببابه ، ينظرون ما يخرج عليهم به . فجلس للناس بعد ثلاث ، وحلهم على شريعة من الحق فعرفوها ؛ فردّ المظالم ، وأحيا الكتاب والسنة ، وسار بالعدل ، ورفض الدنيا ، وزهد فيها ، وتجرّد لإحياء أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قبض^(٢) .

(١) الشوار : اللباس والزينة ومتاع البيت . (٢) مات .

٢١ - لا تلوموا إلا أنفسكم *

اجتمعت بنو أمية، فكلّموا رجلاً أن يكلم عمر بن عبد العزيز في صلة أرحامهم والعطف عليهم، وكان قد أمر لهم بعشرة آلاف دينار فلم تقّع منهم .
فدخل عليه الرجل، فكلّمه وأعلّمه بمقاتلتهم، فقـ : أجل ! الله لقد قسمتها فيهم، وقد ندمت عليها الآن^١ كون منعتهم إياها، وقسمتها فكانت تكفي أربعة آلاف بيت من المسلمين .

خرج إليهم الرجل وأعلمهم بمقاتلته، وقال : لا تلوموا إلا أنفسكم يامعشر بني أمية ؛ عمدتم إلى صاحبكم فزوّجتموه بنت ابن عمر^(١)، فجاءتكم بعمر ملفوفاً في ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم .

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٥٠ .

(١) عمر بن الخطاب .

٢٢ — ذَكَرْتُ الطَّعْنَ وَكَنتُ نَاسِيَا *

لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخِلَافَةَ رَدَّ الْمَظَالِمَ وَالْقَطَاعَ. وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ أَمَرَ لَعْنَبَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِعَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَدَارَتْ فِي الدَّوَاوِينَ حَتَّى أَتَتْ إِلَى دِيْوَانِ الْخِطَمِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَبْضُهَا ، فَتَوَقَّى سُلَيْمَانُ قَبْلَ أَنْ يَقْبُضَهَا .

وَكَانَ عَنبَسَةُ صَدِيقًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ فَفَدَا يَرِيدُ كَلَامَ عُمَرَ فِيمَا أَمَرَ لَهُ بِهِ سُلَيْمَانُ ؛ فَجَدَّ بَنِي أُمَيَّةَ حَاضِرًا بِبَابِ عُمَرَ ، يَرِيدُونَ الْإِذْنَ -أَبَهُ لِيَكَلِّمُوهُ فِي أُمُورِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْا عَنبَسَةَ قَالُوا : نَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ بِهِ قَبْلَ أَنْ نَكَلِّمَهُ ، وَقَالُوا لَهُ : أَعْلِمِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَكَانَنَا ، وَأَعْلَمْنَا مَا يَصْنَعُ بِكَ فِي أُمُورِكَ .

فَدَخَلَ عَنبَسَةُ عَلَى عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانُ قَدْ كَانَ أَمَرَ لِي بِعَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى دِيْوَانِ الْخِطَمِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَبْضُهَا ، فَتَوَقَّى عَلَى ذَلِكَ ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِاسْتِمَاءِ الصَّنِيعَةِ عِنْدِي ، وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ .

قَالَ لَهُ عُمَرُ : كَمْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ عُمَرُ : عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ تُغْنِي أَرْبَعَةَ آلَافِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَدْفَعُهَا إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ ! وَاللَّهِ مَا لِي إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ .

قَالَ عَنبَسَةُ : فَرَمَيْتُ بِالْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ الصَّلَاةُ . فَقَالَ لِي عُمَرُ : لَا عَلَيْكَ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَأْتِيكَ مَنْ هُوَ أَجْرًا عَلَى هَذَا الْمَالِ مَنِي فَيَأْمُرَ لَكَ بِهَا .

قَالَ عَنبَسَةُ : فَأَخَذْتُهُ تَبْرًا كَأَبْرَآيِهِ . وَقُلْتُ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَمَا بِالْجَبَلِ

الورس ؟ - وكان جبل الورس قطعةً لعمر بن عبد العزيز - فقال عمر : ذكّرني الطعنَ وكنت ناسياً ! يا غلام : هاتِ ذلك القفصَ ، فأُتي بقفص من جريد فيه قطائع بني عبد العزيز ، فقال : يا غلام ؛ اقرأ علىّ ، فكلما قرأ قطعة قال : شقها ، حتى لم يبقَ في القفص شيءٌ إلا شقه .

قال عَنبَسَة : فخرجتُ إلى بني أمية ، وهم وقوفٌ بالبواب ، فأعلمتهم ما كان من ذلك ، فقالوا : ليس بعد هذا شيء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذنَ لنا أن نلحق بالبلدان .

فرجعتُ إليه فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن قومك بالبواب يسألونك أن تُجزي عليهم ما كان من قبلك يُجرى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لي ، وما لي ذلك من سبيل . قلت : يا أمير المؤمنين ؛ فيسألونك أني تأذنَ لهم يضربون في البلدان .

قال : ماشاءوا ، ذلك لهم ، وقد أذنت لهم . قلت : وأنا أيضاً ؟ قال : وأنت أيضاً قد أذنتُ لك ، ولكني أرى لك أن تقيمَ فإنك رجلٌ كثير النقد ، وأنا أبيعُ تركةَ سليمان ، فعَلَّك أن تشتريَ منها ما يكون لك في ربحه عوضٌ مما فاتك .

فأقت تبرّكا برأيه ، فابتعت من تركةِ سليمان بمائة ألف ، فخرجتُ بها إلى العراق فبعتها بمائتي ألف وحسبت الصكّ .

فلما توفّي عمر وولّى يزيد بن عبد الملك أُنيتَه بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه .

٢٣ — الولدُ سرُّ أبيه *

كان بيدِ عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُهُ المعروفة بالسَّهْلَة ، وكانت باليامة . وكانت لها غَلَّةٌ عظيمة كثيرة ، عَيْشُهُ وعَيْشُ أَهْلِهِ مِنْهَا .

فلما وَلِيَ الخِلافة قال لِمُزَاحِم مَولاه : إني عَزَمْتُ أَنْ أُرَدَّ السَّهْلَة إِلَى بَيْتِ مالِ المسلمين . فقال مُزَاحِم : أَتَدْرِي كَمْ وَلَدُكَ ؛ إِنَّهُمْ كَذَاوُ كَذَا .

فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمْعَةَ بِإصْبَعِهِ الْوَسْطَى ، وَيَقُولُ : أَيْ كَلِّهِمْ إِلَى اللَّهِ ، أَيْ كَلِّهِمْ إِلَى اللَّهِ .

فَفَضَى مُزَاحِم ، فَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَعْلَمُ مَا قَدْ عَزَمَ عَلَيْهِ أَبُوكَ ، إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَرُدَّ السَّهْلَة . قَالَ : فَمَا قُلْتَ لَهُ ؟ قَالَ : ذَكَرْتُ لَهُ وَلَدَهُ ؛ فَجَعَلَ يَسْتَدْمِعُ وَيَمْسَحُ الدَّمْعَةَ بِإصْبَعِهِ الْوَسْطَى ، وَيَقُولُ : أَيْ كَلِّهِمْ إِلَى اللَّهِ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : بئسَ وزيرُ الدين أنت ! ثُمَّ وَثَبَ وَانْطَلَقَ إِلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ لِلْأَذْنِ : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ . فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ وَضَعَ رَأْسَهُ السَّاعَةَ لِلْقَائِلَةِ ^(١) . فَقَالَ : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ . فَقَالَ : أَمَا تَرْحُونَهُ ؟ لَيْسَ لَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةُ . قَالَ : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ ، لَا أُمُّ لَكَ !

فَسَمِعَ عَمْرُو كَلَامَهُمَا ، فَقَالَ : أَتَذُنْ لِعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَدَخَلَ فَقَالَ : عَلَّامَ عَزَمْتَ ؟

* ابن أبي الحديد : ٤ - ١٤٧

(١) القائلة : نصف النهار ، والنوم في الظهيرة .

قال : أَرَدَ السَّهْلَةَ ا قال : فلا تَوَخَّرْ ذلك . قم الآن ، فجعل عمر يرفعُ يديه ، ويقول :
الحمد لله الذي جعلَ لي من ذرِّيَّتِي من يُعِينُنِي على أمر ديني . نعم ، يا بني ؛ أَصَلَّى
الظهر ، ثم أصدد المنبر ، فأرَبَّ ا علانية على رهوس الناس .

قال : وَمَنْ لك أن تعيشَ إلى الظهر ، نعم من ، أن تَسَلَّمَ نِيَّتُكَ إلى الظهر
إن عشتَ ا

فقام عمر ، فصعد المنبر وخطب الناس ، وردَّ السَّهْلَةَ .

٢٤ - أوارث أنتَ بنى أمية*

قال أحمد بن موسى : ما رأيت رجراً أثبتَ جناحاً من رجل رُفِعَ فيه عندَ المنصور^(١) ، وقالوا : إنَّ عنده ودائعَ وأموالاً وسلاحاً لبنى أمية . فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره ، فأخضرَ بين يديه .

فقال له المنصور : قد رُفِعَ إلينا أنَّ عندك ودائعَ وأموالاً وسلاحاً لبنى أمية ، فأخرجْ لنا ما عندك ، واحمل جميعَ ذلك إلى بيت المال . فقال الرجل : يا أميرَ المؤمنين ؛ أنت وارثُ بنى أمية ؟ قال : لا . قال : فوصيُّ أنت ؟ قال : لا . قال : فلمَ تسألُ عن ذلك ؛ فأطرقَ المنصور ساعة وقال : إنَّ بنى أمية ظلموا الناسَ وغصبوا أموالَ المسلمين ، وأنا آخذُها فأردها إلى بيت المال للمسلمين . قال الرجل : يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إقامةِ يَنَّةٍ يقبلها الحاكم على أنَّ المالَ الذى لبنى أمية هو الذى فى يدي . وأنه هو الذى اغتصبوه من الناس ؛ وأميرُ المؤمنين يعلمُ أن بنى أمية كانت معهم أموالٌ لأنفسهم غسروا الأموال التى اغتصبوها على ما يزعمُ أميرُ المؤمنين .

فسكت المنصورُ ساعة ثم قال : يا ربيع ؛ صدقَ الرجل ما يجب لنا عليه شيء ، ثم قال للرجل : ألك حاجة ؟ قال : نعم . قال : ما هى ؟ قال : أن تجمعَ بينى وبين

* المختار من نواذر الأخبار .

(١) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد ، ثانى خلفاء بنى العباس وأعظمهم شدة وبأساً وقظة وبناتاً توفي سنة ١٥٨ هـ .

مَنْ سعى بى إليك ؛ فوالله يا أمير المؤمنين ما لبى أُمِّيَّةٌ عندى ودائع ولا مالٌ ولا سلاح ؛ ولما حضرتُ بين يدى أمير المؤمنين ، وعلمتُ ما هو عليه من العدل والإنصاف ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، أيقنتُ أن هذا الكلام الذى صدر منى هو أنجحُ وأصلحُ لما سألتى عنه وأقربُ إلى الخلاص .

فقال المنصور للربيع : اجمعُ بينه وبين الرجل الذى اتهمه . ولما جىء بالرجل عرفه ، وقال : هذا غلامى أخذ لى خمسمائة دينار وهرب ، ولى عليه كتاب بها ، ثم استنطق المنصور الغلام ، فأقرَّ أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره مولاه ، وأبقى^(١) به ، وسعى بمولاه ليجرى عليه أمرُ الله ، ويسلم هو من الوقوع فى يده . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد وهبتها له لأجلك ؛ وأدفعُ له خمسمائة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين .

فاستحسن المنصور فعله ، وكان فى كل وقت يقول : يا ربيع ؛ ما رأيتُ مَنْ حاجَّنى مثله .

(١) أبى العبد : استغنى وذهب .

٢٥ — حذر عيسى بن موسى *

لما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس ، قال لعيسى بن موسى ^(١) : أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك ، وأريد أن أسلم لك عمي وعمك عبد الله بن علي ؛ فخذ هذه واقتله : وإياك أن تحبني في أمره .

ثم مضى المنصور إلى الحج ، وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك ، فكتب إليه : قد أنفذت أمر أمير المؤمنين ! فلم يشك أبو جعفر أنه قتله .

ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس ؛ فقال له : إن المنصور دفع إلى عمه ، وأمرني بقتله . فقال له : إنه يريد أن يقتلك به ؛ فقد أمرك بذلك سرّاً ، ويدعي عليك به علانية . والرأي أن تستر في منزلك ، ولا تطلع عليه أحداً ؛ فإن طلبه منك علانية ، دفعته إليه ، ولا تدفعه إليه سرّاً أبداً ! ففعل ذلك .

وقدم المنصور ؛ فدرس على عمومته من يحركهم أن يسألوه أن يهب لهم أخاهم عبد الله ؛ ففعلوا ذلك ، واستشفعوا له . فقال : نعم ، على بعيسى بن موسى ، فأتاه .

فقال : يا عيسى ؛ كنت قد دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج ، وأمرتك أن يكون في منزلك مكرماً ! قال : قد دفعت ذلك . قال : فدكلمني فيه عمومتك ؛ فرأيت الصفح عنه ، فأنني به .

(*) المستطرف : ١ - ٦٥

(١) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، ولد ونشأ بالحجيمة من أرض الشام ، وكان من فحول أهله وشجعانهم وذوى النجدة والبأس فيهم .

قال : يا أمير المؤمنين ؛ ألم تأمرني بقتله ؛ قال : لا ، بل أمرتك بحبسه عندك .
ثم قال المنصور لمؤمته : إن هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم ، وادّعى أنّي أمرته
بذلك ! وقد كذب ! قالوا : دعه لنا نقتله . قال : شأنكم .

فأخرجوه إلى صحن الدار ، واجتمع الناس ، واشتهر الأمر ؛ فقام أحدهم ،
وشهر^(١) سيفه ، وتقدم إلى عيسى ليضربه ؛ فقال عيسى : لاتعجلوا ؛ فإن عمي حي ،
ردوني إلى أمير المؤمنين ، فردّوه إليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما أردت بقتله
قتلي ، هذا عمك حي ، إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته . قال : اتنا به ، فأنتى به ،
فجعله في بيت ، فسقط عليه ، فمات .

وركب المنصور بعد موته ، وفي خدمته ابن عمه ، وكان يحادثه ، فقال له :
هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قُتِلوا ؟ قال : لا أعرف إلا ما تقول العامة
يا أمير المؤمنين : إن علياً قتل عثمان ، وكذبوا والله ، وعبد الملك بن مروان قتل
عبد الله بن الزبير ، وسقط البيتُ على عم أمير المؤمنين .

فضحك المنصور ، وقال : إذا سقط البيتُ على عمي ، فما ذنبي ؟ قلت :
ما قلت لك ذنبٌ يا أمير المؤمنين !

(١) شهر سيفه : اختصه بفرقة .

٢٦ — يَقْظَةُ الْمَنْصُورِ *

قال عُقْبَةُ الْأَزْدِيُّ : دخلتُ مع الجند على المنصور ، فارتابني ^(١) ، فلما خرج الجندُ أَذْنَانِي ، وقال لي : من أنت ؟ فقلت : رجلٌ من الأزد ، وأنا من جند أمير المؤمنين ، قدمت الآن مع عمرو بن حفص .

فقال : إني لأرى لك هبةً ، وفيك نجابةً ، وإني أريدك لأمر ، وأنا به معنيٌّ ، فإن كَفَيْتَنِيهِ رَفَعْتُكَ . فقلت : إني لأرجو أن أصدقَ ظنَّ أمير المؤمنين في . فقال : أخفِ نفسك ، واحضري يومَ كذا .

فغِيبْتُ عنه إلى ذلك اليوم وحضرتُ ، فلم يترك عنده أحداً ، ثم قال لي : اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيدَ ملكنا واغتيالَه ، ولهم شِيعَةٌ بخراسان بقرية كذا ، يكتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والأطاف ^(٢) بلادهم ، فخذ معك عَيْنًا ^(٣) من عندي ، والأطافاً وكتباً ، واذهب حتى تأتي عبد الله بن الحسن ، فاقدِّم عليه متخشعاً ، واذكر له أن الكتبَ على ألسنة أهل تلك القرية ، والأطافَ من عندهم إليه . فإذا رآكَ فإنه سيردُّك ويقول : لا أعرفُ هؤلاء القوم ، فاصبر عليه وعاوِذه ، واكشِفْ باطنَ أمرِهِ .

فأخذتُ كُتُبَهُ والعينَ والأطافَ ، وتوجَّهْتُ إلى جهة الحجاز ، حتى قدِّمْتُ على عبد الله بن الحسن ، فلقيتُهُ بالكتب ، فأنكرها ونهرني ، وقال : ما أعرفُ

* المستطرف : ٢ - ٩٤

(١) ارتببت فلاناً : اتهمته (٢) اللطفة : الهدية (٣) العين : المال ، وما ضرب من الدنانير .

هؤلاء القوم . فلم أنصرف ، وعاودته القول ، وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم ، وأن معي أطقاً وعيناً .

فأنس بي ، وأخذ السكّنب ، وما كان معي ، فتركته ذلك اليوم ، ثم سألتُه الجواب ، فقال : أما كتابٌ فلا أكتب إلى أحدٍ ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرهم السلام ، وأخبرهم أن ابني : محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا .

فخرجتُ من عنده ؛ وسرتُ حتى قدّمتُ على المنصور ، فأخبرته بذلك ، فقال لي : إني أريدُ الحج ، فإذا صرتُ بمكان كذا وكذا ، وتلقاني بنو الحسن ، وفيهم عبد الله ، فإني أعظمه وأكرمه ، وأرفقه وأحضر الطعام ، فإذا فرغ من أكله ، ونظرتُ إليه ، فامثل بين يدي ، وقِفْ قدّامه ، فإنه سيصرف وجهه عنك ، فدُرْ حتى تقفَ من ورائه ، واغزِ ظهره بإبهامك حتى يملأ عينيه منك ، ثم انصرف عنه ، وإياك أن يراك وهو يأكل .

ثم خرج المنصور يريدُ الحج ، حتى إذا قارب البلاد ، تلقاه بنو الحسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه ، فحادثه ثم طلب الطعام للغداء ، فأكلوا منه ، فلما فرغوا أمر برفعه فرُفِعَ ، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن ، وقال : يا أبا محمد ، قد علمتَ أن مما أعطيتني من اليهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ، ولا تكيدُ لي سلطاناً .

قال : فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين .

ثم لحظني المنصور بعينه فقامتُ حتى وقفتُ بين يدي عبد الله بن الحسن ، فأعرض عني ، فدُرْتُ من خلفه ، وغزيتُ ظهره بإبهامي ، فرفع رأسه ، وملأ عينيه مني ،

ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور ، وقال : أقرئني يا أمير المؤمنين أقوالك الله !
فقال المنصور : لا أقالني الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبسه ، وجعل يتطلّب ولديه محمداً وإبراهيم ، ويستلم أخبارهما .

٢٧ - المنصور في ساحة القضاء *

قال نعيم المذني : قدّم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة ، ومحمد بن عمران الطلحي يتولّى القضاء بها وأنا كاتبه ، فحضر جماعة من الجمّالة ^(١) ، واستعدّوه على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكرّوه ، فأمرني أن أكتب إلى المنصور بالحضور معهم أو إنصافهم . فقلت له : أعفني من ذلك فإنه يعرف خطي . فقال : اكتب . فكتبت وختمت . فقال : والله ما يمتضى به غيرك ، فضيت به إلى الربيع حاجبه ، وجملت اعتذر إليه ، فقال : لا بأس عليك ! ودخل بالكتاب على المنصور .

ثم خرج الربيع ، فقال للناس - وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : إني دُعيتُ إلى مجلس الحكم ، فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ، ولا تبدؤني بالسلام .

ثم خرج وبين يديه المسيب ^(٢) والربيع وأنا خلفه ، وهو في إزار ورداء ، فسلم على الناس ، فما قام إليه أحد ، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليه ، ثم التفت ، فلما رآه ابن عمران القاضي أطلق رداءه عن عاتقه ، ثم

* المقعد الفريد للملك السعيد : ١٧٠

(١) الجمّالة أصحاب الجمال (٢) هو المسيب بن زهير ، كان على شرط المنصور والهدى ببغداد وولاه الهدى خراسان ، ولم تطل فيها مدته ، وتولى ببغداد سنة ١٧٥ هـ .
(٣ - قصص العرب - ٣)

احتبى به ، ودعا بالخصوم وهم الجمالة ، ثم دعا بالمنصور ، فادعى عليه القوم ، وقضى لهم عليه ، ثم انصرف .

فلما دخل المنصور الدار قال للربيع : اذهب ، فإذا قام القاضى من مجلسه فادعه . فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه ، فردّ عليه السلام . وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حسبك ، وعن خليفتك ، أحسن الجزاء ، قد أمرت لك بعشرة آلاف ، صلة لك فاقبضها .

فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة .

٢٨ - بُنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي *

كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر ، ولعظم قدره يفزع الناس إليه في الشفاعات ، فنقل ذلك على المنصور ، فحجبه مدة ، ثم لم يصبر عنه ، فأمر الربيع حاجبه أن يكلمه في ذلك ، فكلمه وقال : أعف أمير المؤمنين ، ولا تُثقل عليه في الشفاعات ، فقبل ذلك منه .

فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قریش ، معهم رِقَاع^(١) ، فسألوه إيصالها إلى المنصور ، فقص عليهم القصة ، فأبوا إلا أن يأخذها ، فقال : اقدفوها في كُتِي . ثم دخل عليه ، وهو مشرف على مدينة السلام ، وما حولها من البسائين ، فقال له : أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك فيما آتاك ، وهنالك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك ! فما بنت العرب في دولة الإسلام ، ولا العجم في سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ، ولكن كرهتها في عيني خصلة ! قال : وما هي ؟ قال : ليس لي ضيعة ، فتبسّم ، وقال : قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها ! فقال : لله درك يا أمير المؤمنين ! إنك شريف الموارد ، كريم المصادر ؛ جعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه ، ثم أقام معه يومه ذلك .

فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كُتِي ، فجعل يردّها ويقول : ارجفن خائبات

خاسرات .

* الحاشي : ٣ - ١٩٥

(١) الرقاع : جمع رقعة : ما يكتب فيها .

فضحك المنصور ، وقال : بمحقِّ عليك إلا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرِّقاع ؛
فأعطاه ، فقال : ما أتيتَ يا بنَ مُعَلِّمِ الخَيْرِ الا كَريمًا ، وتمثَّلَ بقول عبد الله بن
معاوية :

لسنا وإن أحسابنا كُرُمَت يوماً على الأحساب نَتَّكَل
بنى كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا
ثم تصفح الرقاع ، وقضى حوائج أصحابها جميعاً .

٢٩ — هَمْدَانِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ *

بينما كان المنصورُ جالساً في مجلسه المبنى على أعالى باب^(١) خراسان ، من مدينته التي بناها ، وأضافها إلى اسمه ، مُشْرِفاً على دِجْلَةٍ جاءه سَهْمٌ هَائِرٌ^(٢) سقط بين يديه ، فذُعِرَ منه ذُعْراً شديداً ، ثم أخذه فجعل يقلِّبه ؛ فإذا مكتوب عليه بين الرِّيشَتَيْنِ :

أَتَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادَى^(٣) وَتَحَسُّبُ أَنْ مَالِكَ مِنْ نَفَادٍ
سَتُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِكَ وَأَخْطَايَا وَتُسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْعِبَادِ
ثُمَّ قَرَأَ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْأُولَى :

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَافْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ
ثُمَّ قَرَأَ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْآخَرَى :

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالٍ
يَوْمًا تُرِيكَ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي

وإذا على جانب السهم مكتوب : « هَمْدَانُ مِنْهَا رَجُلٌ مَظْلُومٌ فِي حَبْسِكَ » !

* المسعودي : ٢ - ٢٣٢

(١) كان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المقنود مجلساً يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه ، وكانت أربعة أبواب : فأولها باب خراسان أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة ، ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة (٢) السهم العائر : الذي لا يدري من رماه (٣) يوم التنادي : يوم القيامة .

فبعث من فوره بعدة من خاصته ، ففتشوا الحبوس^(١)؛ فوجدوا شيخاً في بنية من الحبس ، موثقاً بالحديد ، متوجّهاً نحو القبلة ، يردّد قوله تعالى : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ؛ فسألوه عن بلده ، فقال . هَمْدَان .

فَحَمِلَ وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ فَسَأَلَهُ عَنْ خَالِهِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَبْنَاءِ مَدِينَةِ هَمْدَانَ ، وَمِنْ أَرْبَابِ نِعَمِهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنْ وَالِيكَ عَلَيْنَا دَخَلَ بِلَدُنَا ، وَلِي ضِيعَةٌ تَسَاوَى أَلْفَ أَلْفٍ ، فَأَرَادَ أَخْذَهَا مِنِّي ، فَاثْمَعْتُ ، فَكَبَّلْتَنِي بِالْحَدِيدِ ، وَحَمَلَنِي وَكَتَبَ إِلَيْكَ : إِنِّي عَاصٍ ؛ فَطَرَحْتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ .

فَقَالَ : مُنْذُ كَمْ ؟ قَالَ : مِنْذُ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ . فَأَمَرَ بِفِكَ الْحَدِيدِ عَنْهُ ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَهُ أَحْسَنَ مَنْزِلٍ .

ثُمَّ رُدَّ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا شَيْخَ ؛ قَدْ رَدَدْنَا عَلَيْكَ ضَيْعَتَكَ بِخَرَاجِهَا مَا عَشْتَ وَعِشْنَا ، وَأَمَّا مَدِينَتُكَ هَمْدَانُ ، فَقَدْ وَلَيْنَاكَ عَلَيْهَا ، وَأَمَّا الْوَالِي فَقَدْ حَكَمْنَاكَ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا أَمْرَهُ إِلَيْكَ ؛ فَخُذْ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِالْبَقَاءِ ، وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَمَّا الضَّيْعَةُ فَقَدْ قَبِلْتُهَا ، وَأَمَّا الْوَالِيَةُ فَلَا أَصْلَحَ لَهَا ، وَأَمَّا وَالِيكَ فَقَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ .

فَأَمَرَ لَهُ الْمَنْصُورُ بِمَالٍ جَزِيلٍ ، وَبِرٍّ وَاسِعٍ ، وَحَمَلَهُ إِلَى بِلَدِهِ مَكْرَمًا ، بَعْدَ أَنْ صَرَفَ الْوَالِيَّ وَعَاقَبَهُ عَلَى مَا جَنَى مِنْ انْحِرَافِهِ عَنْ سُنَّةِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ ، وَسَأَلَ الشَّيْخَ مَكَاتِبَتَهُ فِي أَخْبَارِ بِلَدِهِ ، وَإِعْلَامِهِ بِمَا يَكُونُ مِنْ وُلَاتِهِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ الْمَنْصُورُ يَقُولُ :

مَنْ يَصْحَبِ الدَّهْرَ لَا يَأْمَنُ تَصَرُّفَهُ يَوْمًا ، وَلِلدَّهْرِ إِخْلَافٌ وَإِسْرَارُ
لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَإِنْ دَامَتْ سَلَامَتُهُ إِذَا انْتَهَى فَلَهُ لَا بَدَّ إِقْصَارُ

٣٠ — أمير في مجلس القضاء *

أنت امرأة يوماً شريك^(١) بن عبد الله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم،
فقلت : أنا بالله ثم بالقاضي ! قال : مَنْ ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى عم
أمير المؤمنين ؛ كان لي بُسْتَانٌ على شاطئ الفرات ، فيه نخْلٌ ورَيْثِيَّةٌ عن أبي ، وقاسمتُ
إخوتي ، وبنيت بيني وبينهم حائطاً ، وجعلتُ فيه رجلاً فارسياً يحفظُ النَّخْلَ
ويقوم به ، فاشترى الأمير موسى بنُ عيسى من جميع إخوتي ، وسأومني ورغبتني ،
فلم أَيْمَ : فلما كانت هذه الليلة بمث بخمسمائة غلام ، فاقتلعوا الحائط ؛ فأصبحتُ
لا أعرف من نَخْلِي شيئاً ، واختلط بنَخْلِ إخوتي .

فقال : يا غلام ! أحضر طِينَةً^(٢) ، فأحضرها فحتمها ، وقال : امضِ بها إلى بابه
حتى يحضرَ معك ؛ فأخذها الحاجب ، ودخل على موسى ، فقال : قد أعدى^(٣) القاضي
عليك ، وهذا خَبْتُهُ ؛ فقال : ادعُ لي صاحب الشرطة فدعا به ، فقال : امضِ إلى
شريك ، وقل : يا سبحان الله ! ما رأيتُ أعجَبَ من أمرِك ! امرأةٌ ادَّعت
دَعْوَى لم تصحْ أعديتها على ! قال صاحبُ الشرطة : إن رأى الأميرُ أن يُعْفِيَنِي
من ذلك ! فقال : امضِ ، وَيْلَكَ ! فخرج ، وقال لفلانته : اذهبا واحملا إلى
إلى حَبْسِ القاضي بساطاً وفراشاً ، وما تدعو الحاجة إليه ، ثم مضى إلى شريك ،

* العقد الفريد للملك السعيد ١٧٢

(١) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي ، عالم فقيه ، اشتهر بقوة ذكائه ،
وسرعة بديهته ، ولقضاء الكوفة سنة ١٥٣ هـ ، وكان مثالا للعدل والزراعة في قضائه ، توفي
سنة ١٧٧ هـ (٢) الطينة : القلطة من الطين (٣) أعدى عليه : أعان .

فلما وقف بين يديه أدّى إليه ما قاله موسى ؛ فقال لفلان المجلس : خذ بيده فضعه في الحبس . فقال صاحب الشرطة : والله قد علمت أنك تحبسنى ، فقدمت ما أحتاج إليه في الحبس .

وبلغ موسى بن عيسى الخبر ؛ فوجه الحاجب إليه ، وقال له : رسول أدّى رسالة أى شيء عليه ؟ فقال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه في الحبس ، فحبس .

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعنى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك ، وقال لهم : أبلغوه السلام ، وأعلموه أنه استخف بى . وأنى لست كالعامّة ؛ فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضى كلامهم ، قال لهم : ما أراكم جئتمونى في جمع من الناس ، فكلمتمونى ؟ من هاهنا من فتيان الحى ؟ فأجابه جماعة من الفتيان فقال : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس ، ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس . قالوا له : أجاد أنت ؟ قال : نعم ، حتى لا تعودوا الرسالة ظالم . فحبسهم .

فركب موسى بن عيسى في الليلة إلى باب السجن ، وفتح الباب ، وأخرجهم كلهم ، فلما كان من الغد ، وجلس شريك للقضاء جاءه السجان ، فأخبره ، فدعا بالقمطر^(١) فختمه ، ووجه به إلى منزله ، وقال لفلان : الحق بقل^(٢) إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا لنا فيه الإغزاز إذ تقلدناه لهم ، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد ، وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى ، فركب في موكبه ، فلحقه ، وجعل يناشده الله ، ويقول : يا أبا عبد الله ؛

(١) القمطر : وعاء الكتيب (٢) الثقل : التاع .

تثبت ، انظر إخواني ، أنحبسهم ا قال نعم ، لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم
الشي فيه ، ولست ييارح أو يرُدوا جميعاً ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي ،
فاستغفرت مما قلته .

فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس ، وهو واقف مكانه حتى جاء السجنان ،
قال : قد رجعوا جميعاً إلى الحبس ، فقال لأعوانه : خذوا بلجام دابته بين يدي إلى
مجلس الحكم ، فرتوا به بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس في مجلس القضاء ،
فجاءت المرأة المتظلمة ؛ فقال : هذا خصمك قد حضر ، فقال موسى وهو مع المرأة
بين يديه : قبل كل أمر أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك :
أما الآن فنع ! أخر جوم من الحبس ، فقال : ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟ قال :
صدقته ، قال : ترد ما أخذت منها ، وتنبى حائطها سريماً كما كان . قال : أفعل
ذلك ، قال لها : أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك ، وجزاك
خيراً . قال : قومي ، قامت من مجلسه .

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه ؛ وقال : السلام
عليك أيها الأمير ، أنا أمرُ بشيء ؟ فقال : بأي شيء أمر ؟ وضعك ، فقال له شريك :
أيها الأمير ، ذاك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب ؛ فقام
الأمير وانصرف إلى مجلسه .

٣١ — قاضٍ يطلب إقالته من القضاء*

قُلْ أَنْ عَاقِبَةَ بْنِ يَزِيدَ الْقَاضِي كَانَ يَلِي الْقَضَاءَ بِنِعْدَادِ الْمَهْدِيِّ؛ فَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَقْتَ الظَّهْرِ الْمَهْدِيُّ، وَهُوَ خَالِرٌ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ اسْتَأْذَنَهُ فِيمَنْ يُسَلِّمُ إِلَيْهِ الْقَمَطَرُ^(١) الَّذِي فِيهِ قَضَايَا مَجْلِسِ الْحُكْمِ، وَاسْتَعْفَاهُ مِنَ الْقَضَاءِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقِيلَهُ مِنْ وِلَايَتِهِ.

فَظَنَّ الْمَهْدِيُّ أَنَّ بَعْضَ الْأَوْلِيَاءِ قَدْ عَارَضَهُ فِي حُكْمِهِ، فَقَالَ لَهُ فِي ذَلِكَ: إِنَّهُ إِنْ كَانَ قَدْ عَارَضَكَ أَحَدٌ تُنْكِرُ عَلَيْهِ. فَقَالَ الْقَاضِي: لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَمَا سَبَبُ اسْتَعْفَائِكَ مِنَ الْقَضَاءِ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ تَقَدَّمَ لِي خَصْمَانِ مِنْذُ شَهْرٍ فِي قَضِيَّةٍ مُشْكِلَةٍ، وَكُلُّهُمَا يَدْعِي بَيْنَهُمَا وَشَهُودًا، وَيُذْنِي بِجُجَجٍ تَحْتَاجُ إِلَى تَأَمُّلٍ وَتَلَبُّثٍ، فَزِدَّتِ الْخُصُومَ رَجَاءً أَنْ يَصْطَلِحُوا وَأَنْ يَظْهَرَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا، فَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا أَنِّي أَحَبُّ الرُّطَبِ، فَعَمِدَ - فِي وَقْتِنَا هَذَا وَهُوَ أَوَّلُ أَوْقَاتِ الرُّطَبِ - فَجَمَعَ رُطَبًا لَا يَنْتَهِي الْآنَ جَمْعُ مِثْلِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَرَشَأَ بَوَّابِي بِدِرَاهِمٍ عَلَى أَنْ يُدْخِلَ الطَّبَقَ عَلَيَّ.

فَلَمَّا أَدْخَلَهُ عَلَيَّ أَنْكَرْتُ ذَلِكَ، وَطَرَدْتُ بَوَّابِي، وَأَمَرْتُ بِرَدِّ الطَّبَقِ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ.

* النعدي الفريد للملك السعيد : ١٧٠

(١) ما تضمن فيه الكتب .

فلما كان اليوم تقدّم الخصمان إلىّ فما تساويا في عيني ولا قلبي ؛ فهذا
يا أمير المؤمنين ولم^(١) أقبل ، فكيف يكون حالى لو قُبلت ، ولا آمن أن تقع على
حيلة في ديني ، وقد فسد الناس ؛ فأقلني يا أمير المؤمنين ، أقالك الله ، وأعفى ، عفا
الله عنك .

٣٢ — أبو دلامة وابن أبي ليلى القاضي *

شهد أبو دلامة لجارة له عند ابن أبي ليلى^(٢) القاضي على أتانٍ نازعها فيهارجل ،
فلما فرغ من الشهادة ، قال لابن أبي ليلى : اسمع ما قلت قبل أن آتيك ، ثم اقض
بما شئت . قال : هات ، فأنشده :

إِنَّ النَّاسُ غَطَوْنِي نَفْطَيتُ عَنْهُمْ وَإِنْ بَحَثُوا عَنِّي فَعِيهِمْ مَبَاحِثُ
وَإِنْ حَفَرُوا بَثْرَى حَفَرْتُ بِثَارَهُمْ لِيُعْلَمَ يَوْمًا كَيْفَ تِلْكَ النَّبَاثُ^(٣)
فأقبل القاضي على المرأة وقال : أتبيعينني الأتان ؟ قالت : نعم . قال : بكم ؟
قالت : بمائة درهم ! قال : ادفعوها إليها ، ففعلوا .

وأقبل على الرجل ، فقال : قد وهبتها لك . وقال لأبي دلامة : قد أمضيت
شهادتك ، ولم أُنْحَثْ عنك ، وابتعتُ ممن شهدت له ، ووهبت ملكي لمن رأيتُ .
أرضيت ؟ قال : نعم ، وانصرف .

* معاهد التنصيص : ١ - ٢١١ ، الأغاني : ١٠ - ٢٣٨ .
(١) جلة حالية ، والمعنى : فهذا ما حصل عندي ، مم أني لم أقبل منه الهدية .
(٢) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن قاضي الكوفة . (٣) النبأث : ما يستخرج من
تراب البئر إذا حفرت .

٣٣ — صاحب شرطة المهدي مع الهادي *

قال عبدُ الله بن مالك : كنت أتولى الشرطة للخليفة المهدي ، وكان يبعث إليّ في ندماء ولده الهادي أن أضربهم وأحبسهم ، صيانةً للهادي عنهم ، فبعث إليّ الهادي يسألني الرّفقَ بهم ، والتخفيف في أمرهم ، فلا ألّفتُ إلى ذلك ، وأنصتُ لما يأمرُ به المهدي . فلما ولي الهادي الخلافة أيقنتُ بالتلف ، فبعث إليّ يوماً ، فحضرت ودخاتُ عليه متكفّناً مُتَحَنَظّاً ، وإذا هو جالسٌ على كرسي والنّطعُ والسيفُ بين يديه ، فسلمتُ عليه ، فقال : لا سلّمَ الله عليك ، تذكر يوماً بعثتُ إليك في أمر الحرّانيّ لما أمر أمير المؤمنين بضربه ، فلم تُجِبْنِي ؟ وفي فلان وفلان - وجعل يعدّدُ ندماؤه .

قلتُ : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أفتأذن لي أن أتكلّم ؟ قال : نعم . قلت : أنشدتك الله ! أسرك أنك ولّيتني ما ولّاني أبوك وأمرتني بأمر ؛ فبعث إليّ بمضٍ ولدك بأمرٍ يخالفُ أمرك فاتّبعْتُ أمره ، وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنتُ لأبيك .

فاستدّ نائي فقبلتُ يده ، فأمر بخلع أفيضت عليّ ، وخرجتُ من عنده ، وصرتُ إلى منزلي مفكراً في أمره وأمرى ، وقلت في نفسي : قد يحدث القوم بالأمر الذي عصيته فيه ، وهم ندماؤه ووزراؤه وكتابه ، فكأنني بهم قد أزالوه عن رأيه فيّ وحلوه في أمرى عليّ ما كنتُ أتخوفه .

قال : فإني لجالس وبين يدي خُبْزٌ مَشْطُورٌ بِكَامَخٍ^(١) ، وأنا أَسْخَنُهُ وَأَطْعِمُهُ الصَّبِيَّةَ ، وإذا ضَجَّةٌ عَظِيمَةٌ ، حتى تَوَهَّمتُ أن الدنيا قد اقْتَلِمَتْ وَزُلْزِلَتْ من شدة وَقْعِ حَوَافِرِ الخَيْلِ والدَوَابِ ، وَكَثْرَةِ الضَوْضَاءِ ، فقلت : هاه ! والله قد جاء الأمر ، وإذا البابُ قد فُتِحَ ، وإذا الخدمُ قد دخلوا ، وأميرُ المؤمنين الهادي في وسطهم . فلما رأيته وثبتُ من مجلسي مبادراً ، قَبَّلْتُ يده ورجله . فقال لي : يا عبد الله ! إني فكرتُ في أمرِكَ بعد انصرافِكَ ، فقلت : يَسْبِقُ إلى قلبِكَ أُنَى إذا جَلَسْتُ وحولِي أعدَاؤُكَ الذين أسأتَ إليهم أزالوا ما حَسَنَ من رأيي فيكَ ، فأَقْلَقَكَ ذلكَ وأَوْحَشَكَ ، ومنَعَكَ القَرَارَ ، فصرْتُ إلى منزلكَ لأَوْأَنَّسِكَ ، وأَعْلَمَكَ أن الوحشةَ قد زالتْ عن قلبي ، فهاتِ فَأَطْمِئِنِّي مما كنتَ تأكلُ ، وافعلْ فيه ما كنتَ تفعلُ ، حتى تعلمُ أن الوحشةَ قد زالتْ ، وقد نَحَرَمْتُ^(٢) بطعامِكَ ، وَأَنْسْتُ بِمَنْزَلِكَ ، لِيَزُولَ خَوْفُكَ وَوَحْشَتُكَ .

فَأَذْنَيْتُ مِنْهُ ذَلِكَ الرَّقَاقَ وَالشُّكْرُجَةَ^(٣) التي فيها الكَامَخُ ، فأكل ؛ ثم قال : هاتوا ما أَحْضَرْتُمُوهُ لِعَبْدِ اللَّهِ من مجلسي . فَأَذْخَلَتْ بِغَالٍ كَثِيرَةٍ مُوقَرَةٍ^(٤) دراهم وأطعمة ، وقال : هذه لك فَاسْتَعِنْ بِهَا ، وهذه الْبَغَالُ أَيْضًا ، وقد وَلَّيْتُكَ ما كَانَ أَبِي قد وُلَاكَ . ثم انصرف ، وصرْتُ بعد ذلك أَعْدُ من صَفَائِهِ .

(١) الكامخ : نوع من الأدم (٢) تحرم منه بحرمة : تمنع وتمنعى (٣) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم ، وهي فارسية ، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها . (٤) أوفر داجه : حليها .

٣٤ — لا أفلح قاض لا يقيم الحق*

كان عبيد بن ظبيان^(١) قاضى الرشيد بالرقّة - وكان الرشيد إذ ذاك بها - فجاء رجل إلى القاضى ، فاستعداه^(٢) على عيسى بن جعفر ، فكتب إليه القاضى ابن ظبيان : « أما بعد ، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمّ نعمته ، فقد أتانى رجل فذكر أنه فلان ابن فلان ، وأن له على الأمير - أبقاه الله تعالى - خمسمائة ألف درهم ، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم ، أو يوكل وكيلًا يناظر خصمه ، أو يرضيه . فعل » .

ودفع الكتاب إلى رجل ، فأتى باب ابن جعفر ، فدفع الكتاب إلى خادمه . فواصله إليه ، فقال له : قل له : كل هذا الكتاب .

فوجع الرجل إلى القاضى ؛ فأخبره ، فكتب إليه : « أبقاك الله وأمتّع^(٣) بك ، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان ، وذكر أن له عليك حقًا ، فسير معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى » .

ووجه الكتاب مع عونين^(٤) من أعوانه ، فحضر باب عيسى بن جعفر ، ودفعا الكتاب إليه فغضب ، ورمى به . فانتقلقا ، فأخبراه فكتب إليه : « حفظك الله وأمتّع بك ، لا بد أن تصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحكم ، فإن أبيت أنهيت أمرك إلى أمير المؤمنين - إن شاء الله » .

* المقد الفريد للملك السعيد : ١٧٤

(١) قاضى الرقة (٢) استعديت القاضى على الظالم : طلبت منه النصرة (٣) أبقاك الله

ليستمتع بك (٤) العون : الظهير .

ثم وجه الكتاب مع رجلين من أصحابه ، فقاما إليه ، ودفعا إليه كتاب القاضي ، فلم يقرأه ، ورعى به ، فعاداً فأبلغاه ذلك ، فحتم قمطره ^(١) ، وأغلق بابه ، وقعد في بيته .

فبلغ الخبر إلى الرشيد فدعاه ، وسأله عن أمره ، فأخبره الخبر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أعفني من هذه الولاية ، فوالله لا أفلح قاضٍ لا يُقيم الحق على القوى والضعيف ، فقال له الرشيد : مَنْ يَمْنَعُكَ من إقامة الحق ؟ فقال : عيسى بن جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان : سر إلى دار عيسى بن جعفر ، واختم أبوابه كلها ، لا يخرج منها أحدٌ ، ولا يدخل إليها أحد ، حتى يخرج إلى الرجل من حقه ، أو يسير معه إلى مجلس الحكم .

فأرسل إبراهيم إلى دار ابن جعفر بخمسمائة فارس ، وأغلق الأبواب كلها ، فتوهم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأى في قتله ، ولم يعرف الخبر ، فجعل يكلم الأعوان من خلف الباب . وارتفع الصراخ في منزله ، وضج النساء .

ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم : ادع لي أبا إسحاق لأُكلمه ، فأعلموه ، فجاء حتى وقف على الباب ، فقال له عيسى : وَيَحْثُكَ ! ما حالنا ؟ فأخبره خبر القاضي ابن ظبيان ، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأحضرت ، وأمر أن تدفع إلى الرجل . فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره . فقال : إذا قبض الرجل ماله ، فافتح أبوابه ، وعرفه أن ما رأيته من سيرتك مع القاضي ؛ فإياك ومعارضته .

(١) القمطر : ما يسان فيه الكتب .

٣٥ — الغادرُ مخذول *

قال عمرو بن حفص مولى الأمين : دخلت على محمد الأمين في جوف الليل ، وكنتُ من خاصَّته ، أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحد من مواليه وحشمه ، فوجدته والشمعُ بين يديه ، وهو يُفكرُ ، فسلمتُ عليه فلم يردَّ عليّ ، فعلمتُ أنه في تدير بعضِ أموره ، فلم أزل واقفاً على رأسه ، حتى مضى أكثرُ الليل . ثم رفع رأسه إلى فقال : أحضر لي خزيمة بن خازم ^(١) ، فضيتُ إليه فأحضرتُه ، فلم يزل في مُناظرته حتى انقضى الليل ؛ فسمعتُ خزيمة وهو يقول : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكثَ عهده ، ونقضَ ميثاقه ، واستخفَّ يمينه ، وردَّ رأى الخليفة قبله . فقال : اسكت ؛ لله أبوك ! فعبد الله بن خازم ^(٢) كان أفضلَ منك رأياً وأكملَ نظراً حيث يجتمع فحلان في هَجْمة ^(٣) .

ثم جمع وجوه القواد ، فكان يعرضُ عليهم واحداً واحداً ما اعتزمه قياًبوتَه ، وربما ساعده قوم ، حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم ، فشاوره في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لم ينصحك مَنْ كَذَبَكَ ، ولم ينشك من صدَّقَكَ ، لا تجرئُ القواد على الخلع فيخلموك ، ولا تخمِّلهم على نكثِ العهد فينكثوا عهدك ويبيعوك ؛ فإن الغادر مخذول والناكث مَقُول .

* عصر المؤمن : ١ - ٢٠٤

- (١) وال من أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون ، توفي سنة ٢٠٣ هـ .
(٢) عبد الله بن خازم : كان من أشجع الناس ، له فتوح وغزوات ، وولى إمرة خراسان لبني أمية ، توفي سنة ٧٢ هـ . (٣) الهجمة من الإبل : ما بين السبعين إلى المائة .

٣٦ — رجل يُقَاضِي المأمون *

دخل رجلٌ على المأمون ^(١)، وفي يده رقعةٌ فيها مَظْلَمَةٌ ^(٢) من أمير المؤمنين، فقال : أمْظِلِمَةٌ مِنِّي ! فقال الرجل : أفأُخَاطِبُ يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وما هي ظلامتك ؟ قال : إن سعيداً وكيلك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار . قال : فإذا اشترى سعيدٌ منك الجواهر تشكو الظلّامة مني ! قال : نعم ، إذ كانت الوَكَّالَةُ قد صَحَّتْ منك . قال : لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر، وحَمَلَ إليك المال ، أو اشترَاه لنفسه ؛ وعليه فلا يُلْزَمُنِي لك حقٌّ ، ولا أعرفُ لك ظُلَامَةً . فقال له : إن في وصِيَّةِ عمر بن الخطاب لقَضَاتِكُمْ : « البَيِّنَةُ على من ادَّعى ، واليمينُ على من أنْكَرَ » .

قال المأمون : إنك قد عَدِمْتَ البَيِّنَةَ ؛ فما يجبُ لك إلا حَلْفَةٌ ، ولَئِنْ حَلَفْتُهَا لَأَنَا صَادِقٌ ؛ إذ كُنْتُ لَا أَعْرِفُ لك حقّاً يلزمني . قال : إذن أدعوك إلى القاضي الذي نصبته لرعيَّتِكَ . قال : نعم ! يا غلام ، على يحيى بن أكرم ^(٣) ، فإذا هو قد مثَلَ بين يَدَيْهِ ، فقال له المأمون : اقضِ بيننا ، قال : في حُكْمٍ وقَضِيَّةٍ ؟ قال : نعم ، قال : إنك لم تجعل ذلك مجلسَ قضاء . قال : قد فعلت .

* عصر المأمون : ١ - ٣٤٦

(١) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد من أعظم خلفاء بني العباس وعلماهم وحكامهم ، كان كريم الخلق عظيم الحلم محباً للعلم . وُثِرَ له الحكمة ، توفي سنة ٢١٨ هـ (٢) الظلّامة : ما تطلبه عند الظالم ، وكذلك الظلّامة . (٣) يحيى بن أكرم : فاض رفيع القدر ، عالى الشهرة ، من نبله الفقهاء ، يتصل نسبه بأكرم بن صفيى حكيم العرب ، ولله المأمون قضاء البصرة وهو شاب ، ثم قلده القضاء ببغداد . توفي سنة ٢٤٢ هـ .

قال : فإنى أبدأ بالعامّة أولاً ليصلح المجلس للقضاء . قال : افعل .

ففتح الباب وقعد في ناحية ، وأذن للعامّة ، ثم دعى بالرجل المتظلم ، فقال له يحيى : ما تقول ؟ قال : أقول : عليك أن تدعوا بخصمى أمير المؤمنين المأمون . فنادى المنادى ؛ فإذا المأمون قد خرج ، ومعه غلام يحمل مصلى ، حتى وقف على يحيى وهو جالس ؛ فقال له : اجلس ؛ فطرح المصلى ليقعد عليها ؛ فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ؛ لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح له مصلى ثم نظر في دغوى الرجل ، وطالب المأمون باليمين خلف ، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه ، فقام على رجله ؛ فقال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إني كنت في حق الله عز وجل حتى أخذته منك ، وليس الآن من حقى أن أتصدّر^(١) عليك . ثم أمر المأمون أن يحصر ما ادعى الرجل من المال ، وقال له : خذه إليك ، والله ما كنت أحلف على فجرة^(٢) ؛ ثم أسمع لك بالمال فأفسد دينى ودنياى ، والله يعلم مادفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية ، لعلها ترى أنى تناولتلك من وجه القدرة ، وإنما لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

(١) أتصدّر : أقدم . (٢) حلف على فجرة : إذا ركب أمراً قبيحاً من بين كاذبة أو كذب .

٣٧ — لا يخلو أحدٌ من شَجَن^(١) *

دخل طاهر بن الحسين^(٢) على المأمون ذات يوم في حاجة ، وكان المأمون — فيما قيل — في مجلس شراب ، فأمر برطلين من النبيذ ، ثم بكى المأمون ، واغروزقت عيناه ، فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين ؛ لِمَ تبكي لا أبكي الله عينك ! فوالله ، لقد دانت لك البلاد ، وأدعن^(٣) لك العباد ، وصرت إلى المحبة في كل أمر . فقال : أبكي لأمرٍ ذكره ذلٌّ ، وسرته حزن ، ولن يخلو أحدٌ من شَجَن ، فسلمت بحاجة إن كانت لك .

فما زال طاهر بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السبب ، حتى وفق بالمال إلى إغراء ساقى المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب .

فلما تغدّى المأمون ذات يوم قال لساقيه : يا حسين ؛ اسقني ، قال : لا والله لا أسقيك أو تقول : لم بكيت حين دخل عليك طاهر ؟ قال : يا حسين ؛ وكيف غنيت بهذا حتى سألتني عنه ؟ قال : لِقَمي بذلك . قال : هو أمرٌ إن خرج من رأسك قتلْتُك ، قال : ياسيدي ؛ ومتى أخرجتُ لك سرّاً ؟ قال : إني ذكرت محمداً أخى ، وما ناله من الذلة ، فخنقني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة ؛ وإن يفوت طاهراً منى ما يكره .

فأخبر حسين الساقى طاهراً بذلك فركب طاهرٌ إلى أحمد بن أبي خالد — وهو وزير

* عصر المأمون : ١ - ٢٧٠

(١) الشجن : الهم والحزن . (٢) كان طاهر بن الحسين قائداً من قواد المأمون ، وهو الذي تولى قتل الأمين ونصب رأسه سنة ١٩٨ هـ . (٣) أى خضعوا لك .

المأمون - فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع ،
فصيّبني عن عيب المأمون . فقال : سأفعل ؛ فبكر على غداً .

وركب ابن أبي خالد إلى المأمون ، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة ،
فقال له : ولم ونجحت ! قال : لأنك وليت غسان خراسان ، وهو ومن معه أكلت
رأس^(١) ، فأخاف أن يخرج عليك خارقة من الترك فيضطلمه^(٢) .

قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه . أفن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين -
قال : ويحك يا أحمد ! قال : أنا الضامن له . قال له فأنفذه^(٣) .

فدعا بطاهر من ساعته ، وجعله حاكماً على خراسان .

(١) يريد أن عددتم قليل ، يشبههم رأس واحد . (٢) اضطلمه : استأصله .
(٣) المراد : أرسله ، ونفذ رأيك .

٣٨ - كيف يعتذرُ إنسانٌ من كلام تكلم به ! *

حدث أحمد بن أبي خالد الأحول أنه سمع المأمون يوماً - وعنده علي بن هشام ، وأخواه - ذكر عمرو بن مسعدة^(١) ، وقال : أيجسبُ عمرو أني لا أعرف أخباره ، وما يُنجي إليه ، وما يعامل به الناس ! بلى والله ، ونهض وانصرفنا .

قصدتُ عمرواً من ساعتي ، فخبَّرته بما جرى ، وأنسيتُ أن أستحلّه من حكايته عني ، فراح عمرو إلى المأمون ، فظنَّ المأمونُ أنه لم يحضُرْ إلا لأمرٍ مهمٍّ ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له .

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أنا عائدٌ بالله من سُخطه ، ثم عائد بك من سُخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقلُّ من أن يشكوَنِي أميرُ المؤمنين إلى أحد ، أو يُسرَّ عليّ ضيفنا بيعته بعضُ الكلام على إظهار ما يظهر منه .

فقال : وما ذاك ؟ فخبَّره عمرو بما بلغه ، ولكنه لم يُسمِّ له مُخبِّره . فقال المأمونُ : لم يكن الأمرُ كما بلغك ، وإنما كانت جملةً من تفصيلٍ كنتُ قلِّي أن أخبرك به ، وإنما أخرج مني ما خرج معني تجارِيناه ، وليس عندي إلا ما تحبُّ ، فليُفرخ روعك^(٢) ، وليحسنْ ظنك . فأعدت الكلام ، فما زال يسكنُ مني ، ويطيب مني

* عصر المأمون : ١ - ٣٤٢

(١) وزير المأمون وأحد الكتاب البلاء توفي سنة ٢١٧ هـ (٢) ليفرخ روعك : ليذهب رعبك وفرعك ، فإن الأمر ليس على ما تحاذر . قال الأزهري : كل من لقينه من النعمانيين يقول : أفرخ روعه - بفتح الراء من روعه - إلا ما أخبرني به النندري أنه كان يقال : إنما هو أفرخ روعه - بضم الراء .

نفسى ، حتى ذهب بعضُ ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضّنى إلى نفسه ، وقبّلت يده ، فأهوى ليعانقنى ؛ فشكرته ، وتبينتُ فى وجهه الحياءَ والجللَ مما تأدّى إلى .

قال أحمد : فلما غدوتُ على المأمون ، قال لى : يا أحمد ؛ أما لمجلى حُرمة !
فقلتُ : يا أمير المؤمنين ؛ وهل الحُرَمُ إلّا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترَضَوْنَ بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأيةُ معاملةٍ يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلامٌ لا أعرفه ؛ قال : بلى ، أما سمعتَ ما كُنّا فيه أمس من ذكر عمرو !

ذهب بعضُ من حضر من بنى هاشم فخبّره به ، فراح إلى عمرو مُظهِراً منه ما وجب عليه أن يُظهِره ، فدفتُ منه ما أمكن دَفْعُهُ ، وجعلتُ أعتذرُ إليه منه بعذرٍ قد تبينَ فى الخجلِ منه ، وكيف يكونُ اعتذارُ إنسانٍ من كلامٍ قد تكلم به !
ألا يتبينُ فى عينيه وشفته وجهه ! ولقد أعطيتُهُ ما كان يقنع منى بأقلِّ منه ، وما حدّانى عليه ^(١) إلّا ما دخلنى من الخساسة ، وما كان قد نطقَ به اللسانُ من غير روية ولا احتمالٍ مكروه به .

قلت : يا أمير المؤمنين ؛ أنا أخبرتُ عمرًا به ، لا أحدٌ من ولد هاشم ؛ فقال : أنت ! قلت : أنا ، فقال : ما حملت على ما فعلت ؟ فقلت : الشكرُ لك والنصحُ والحجةُ لأنّ تمَّ نعمتُك على أوليائك وخدمك ؛ أنا أعلمُ أن أمير المؤمنين يُحِبُّ أن يصلحَ له الأعداءُ والبُعداءُ ، فكيف الأولياءُ والأقرباءُ ! ولا سيما مثل عروفي دُنُوّه من الخدمة وموقعه من العمل ، ومكانه من رأى أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه !

سمعتُ أمير المؤمنين أنكرَ منه شيئًا فخبّرتُه به ليُصلِحَه ، ويقوّمَ من نفسه أودّها لسيّده ومولاه ، ويتلافى ما فرطَ منه ، ولا يفسده مثله ؟ وإنما يكون ما فعلتُ

(١) ما حدّانى : ما بعثنى وحلنى .

عَيْبًا ، لَوَأْشَعْتُ سِرًّا فِيهِ قَدَحٌ^(١) فِي السُّلْطَانِ ، أَوْ نَقَضْتُ تَدْيِيرٍ قَدْ اسْتَنْبَ ، فَأَمَّا
مِثْلُ هَذَا فَمَا حَسِبْتُهُ يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ ذَنْبًا عَلَى .

فَنَظَرَ إِلَى مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ قُلْتَ ؟ فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ : ثُمَّ قَالَ : أَعِدْ ، فَأَعَدْتُ ،
فَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَحْمَدُ ، لَمَّا خَبَّرْتَنِي بِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ ، وَأَلْفِ أَلْفٍ ،
وَأَلْفِ أَلْفٍ .

وَعَقَدَ خِنْصَرَهُ وَبِنْصَرَهُ وَالْوُسْطَى ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلَتَنْفِيكَ عَنِّي سَوْءُ
الظَّنِّ - وَأَطْلُقْ وَسُطَاهُ - وَأَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلِصِدْقِكَ إِيَّايَ عَنْ نَفْسِكَ - وَأَطْلُقْ
الْبِنْصَرَ - وَأَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلِحُسْنِ جَوَابِكَ - وَأَطْلُقْ الْخِنْصَرَ - وَأَمَرَ لِي بِمَالٍ .

٣٩ — غُرْسُ يَدِي وَإِلْفُ أَدْبِي *

قال رجل من إخوة المأمون له أُمون : يا أمير المؤمنين ، إنَّ عبدَ الله بن طاهر ^(١) يميل إلى ولد أبي طالب ، وكذا كان أبوه قبله ؛ فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول .

فدسَّ المأمون إلى عبد الله بن طاهر رجلاً . ثم قال له : امضِ في هيئة القراء والنسك إلى مصر ، فادعُ جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ، واذكرُ مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعضِ بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائتِه فادعُه ورغِّبه في استجابته له ، وابحثْ عن دَفِينٍ نِدْبَتُهُ بَحْثًا شَافِيًا ، واثْنِي بما تَسْمَعُ منه .

ففعل الرجلُ ما قال له وأمره به ، حتى إذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام قعد يومًا بباب عبد الله بن طاهر ، ودفع رُقْعَةً إلى الحاجب ليوصلها إليه ، فأذن له ، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينته وبين الأرض غيره ، وقد مدَّ رجله وخُفَّاهُ غيها ، فقال له : قد فهمتُ ما في رُقْعَتِكَ من جملة كلامك ، فهاتِ ما عندك .

قال : ولي أمانك وذمةُ الله معك ؟ قال : لك ذلك .

فأظهر له ما أراد ، ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزُهدِه ، فقال له عبد الله : أتُنصِفُنِي ؟ قال : نعم ، قال : هل يجب شكر الله على العبادِه ؟ قال : نعم ،

* عصر المأمون : ١ - ٣٣٧ .

(١) عبد الله بن طاهر : من أشهر الولاة في العصر العباسي ، ولاه المأمون خراسان ، كان على

الهمة شهيداً نبيلاً توفى سنة ٢٣٠ هـ .

قال : فهل يجب شكرُ بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والفضل ؟ قال : نعم .
قال : فتجئُ إلىّ وأنا في هذه الحال التي ترى ؛ لي خاتم في المشرق وفي المغرب ،
وفيا بينهما أمرى مُطَاع وقولي مقبول ، ثم ما التفتُ يميني ولا شمالي وورائي وقدامي
إلا رأيتُ نعمةً لرجل أنعمها عليّ ، ومنّة طوّق بها رقبتى ، ويداً لائحةً بيضاء ابتدأتني
بها تفضلاً وكرماً ، فتدعوتني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان ! وتقول : اغدير
بمن كان أولاً لهذا وآخر ! واسع في سفك دميه ! تراك لودعوتني إلى الجنة
عياناً من حيث أعلم ، أكان الله يُحبُّ أن اغدير به وأكفر بإحسانه ومنّته ،
وأنكُتَ ببيّته !

فسكت الرجل ، فقال له عبد الملك : أما إنه قد بلغنى أمرُك ، وتالله ما أخاف
عليك إلا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ؛ فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرُك -
وما آمن ذلك عليك - كنتَ الجاني على نفسك ونفس غيرك .

فلما ينس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر ، فاستبشر وقال : ذلك
غرسٌ يدي وإلفٌ أدبي .

٤٠ — غَسَّانُ بْنُ عَبَّادٍ وَعَلِيُّ بْنُ عِيسَى *

كان بين غسان بن عباد وعلي بن عيسى عداوة عظيمة ، وكان علي بن عيسى ضامناً ^(١) أعمال الخراج والضَّيَّاع ببلده ؛ فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار ، فألح المأمون عليه بطلبها ، إلى أن قال لعل بن صالح الحاجب : أمهلته ثلاثة أيام ؛ فإن أحضر المال وإلا فاضربه بالسياط حتى يؤدي المال أو يتلف .

فانصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه ، وهو لا يدرى وجهاً يتَّجه إليه ، فقال له كاتبه : لو عرَّجت علي غسان بن عباد وعرفتَه خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك ، فقال له : على ما بيني وبينه من العداوة ! قال : نعم ، فإن الرجل أَرْيَحِي كَرِيم .

فدخل علي غسان ، فقام إليه وتلقاه بالجميل ، وأوفاه حقه من الخدمة ، ثم قال له : الحال الذي بيني وبينك كما علمت ، ولكن دخولك إلى داري له حرمةٌ توجب بلوغ ما رجوته مني ، فإن كانت لك حاجةٌ فاذْكُرْها .

فقصَّ عليه القصة ؛ فقال أرجو أن يكفيكه الله تعالى ، ولم يزد علي ذلك شيئاً . فنهض علي بن عيسى ، وخرج آيساً نادماً على قصْدِ غسان ، وقال لكتابه : ما أفدتنني بالدخول علي غسان غير تعجيل الثمالة والهوان .

فلم يصل علي بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتبُ غسان ومعه البغالُ عليها مال ، فتقدّم وسلّمه .

* ثمرات الأوراق : ٢ - ٣٠ .

(١) ضمن الشيء : كفله .

وبكر إلى دار أمير المؤمنين ، فوجد غسان قد سبقه إليها ، ودخل على المأمون وقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لعلي بن عيسى بحضرتك حرمةً وخدمةً وسالف أصل ، ولقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تعارفه الناس ؛ وقد توعدته بضرب السياط بما أطار عقله وأذهب لبّه ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يميزني على حسن كرمه ببعض ما عليه ؛ فهي صدقة يجدها على تحرّس ما تقدّمها من إحسانه ؛ ولم يزل يتلفّ إلى أن حطّ عنه النصف ، واقتصر على عشرين ألف دينار .

فقال غسان : على أن يحدّد عليه أمير المؤمنين الضمان ، ويشرفه بخِلعةٍ تقوِّى نفسه ، وترهِّف عزمه ، ويعرف بها مكان الرضا عنه . فأجابهُ المأمون إلى ذلك .

قال : فيأذن أمير المؤمنين أن أحمل الدواة إلى حضرته ليوقع بما رآه من هذا الإنعام ! قال : افعل ، فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين ، فوقع بذلك . وخرج على ابن عيسى بالخِلعة ، والتوقيع بيده .

فلما حضر على بن عيسى إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار ، وأرسلها إلى غسان ، وشكر له جميل فعله معه . فقال غسان لكتابه : والله ما شفعتُ عند أمير المؤمنين إلا لتوقّر عليه وينتفع بها ؛ فامض بها إليه ، فلما ردّها كتبه إلى على ابن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان ، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر .

٤١ - فِطْنَةٌ*

كان المعتضد^(١) يوماً جالساً في بيت يُبْنَى له ، وهو يشاهد الصَّنَاع ، فرأى في جملتهم عبداً أسوداً مُنْكَرَ الخَلْق ، شديدَ اللَّرْح ، يصعد على السلالمِ مِرْقَاتَيْنِ^(٢) مِرْقَاتَيْنِ ، ويحمل ضعف ما يحمل غيره . فَأَنْكَرَ أَمْرَهُ ، وأحضره ، وسأله عن سبب ذلك ، فَلَجَلَجَ^(٣) . فقال لوزيره : قد خَمَنْتُ^(٤) في هذا تخميناً ما أحسبه باطلاً ، إما أن يكون معه دنانيرٌ قد ظَفِرَ بها من غَيْرِ وجهها ، أو يكون لصّاً يتسَرَّبُ بالعمل . ثم قال : علىَّ بالأسود ، فأحضره وضربه ، وحلف إن لم يصدقه لِيَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ . فقال الأسود : ولى الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إلا ما كان من حدٍّ ؛ فظنَّ أنه قد أَمِنَهُ .

فقال : كنتُ أعمل في أَتُونِ الآجُرِّ منذ سنين ، فأنا منذ شهور جالس إذ مرَّ بِي رجل في وسطه كيس ؛ فتبعته وهو لا يعرف مكاني ، فحَلَّ الهِمِيَّانَ^(٥) ، وأخرج منه ديناراً ، فتأملته فإذا كلُّه دنانير ، فكتفتُهُ ، وسدَدْتُ فاه ، وأخذت الهِمِيَّانَ ، وحملت على كتفي ، وطرحته في التنور ، وطيئْتُ عليه . فلما كان بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها في دجلة ، والدنانير معي تقوى قلبي .

فأرسل المعتضد من أحضر الدنانير ، وإذا على الكيس : « لفلان ابن فلان » فنَادَى في المدينة ، فحضرت امرأته ، وقالت : هذا زوجي ، وقد ترك طفلاً صغيراً ، خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار ، فغاب إلى الآن ، فلم الدنانير إليها ، وضرب عنق الأسود ، وأمر أن يوضع في الأتُون .

* نهاية الأرب : ٣ - ١٥٠

- (١) بويح المعتضد للخلافة سنة ٢٧٢ وتوفي سنة ٢٨٠ هـ . (٢) السلالم : جمع سلم ، والمرقاة : الدرجة . (٣) اللجلجة . التردد . (٤) التخمين : القول بالحدس والظن . (٥) الهميان : وعاء للدراهم .

٤٢ - لا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ*

قال عبد الرحيم بن القاضي إسماعيل بن إسحاق : كان في حِجْرِ أبي يَتِيمٍ فبَلَغَ ، وله أمٌ ، وأخْتُها في دار الخليفة المعتضد بالله ، فقالت أمُّ اليتيم لأختها : كلِّمِي أمير المؤمنين حتى يرفعَ إسماعيلُ القاضي الحِجْرَ عن وَلَدِي . فكلَّمته ، فدعا المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره ، وقال له : قُلْ لإسماعيل القاضي يَفْكُ الحِجْرَ عن فلان . فقال القاضي : حتى أَسْأَلَ عنه ، وقام فسأل عنه ، فلم يُخْبِرْ عنه برُشدٍ ، فتركه .

ومضت على ذلك أيام ، فرجعت والدَّة الصبي إلى أختها ، وسألتها أن تعاوِدَ أمير المؤمنين ، وكان المعتضد لا يُعاوِدُ لخشونته ، فعاودته فقال : أَلستُ قد أمرتُ ! فقالت : لم يُرْفَعْ عنه الحِجْرُ بعد ، فدعا وزيره عبيد الله ثانياً ، وقال : أمرتك أن تأمرَ إسماعيلَ القاضي بأن يرفعَ الحِجْرَ عن فلان ! فقال : قد كنت قلت له ذلك ، فقال : حتى أَسْأَلَ عنه . فقال : قل له يرفعَ الحِجْرَ عنه . فدعا الوزير ثانياً ، وقال له : أمير المؤمنين يأمرُك أن ترفعَ الحِجْرَ عن فلان .

فأطرق القاضي ساعةً ، ثم استدعى دَوَاةَ ورقة ، وكتب شيئاً وختمه ، فاستعظم الوزيرُ أن يَنجُمَ عنه كتاباً ، ولم يقلْ له شيئاً لحلَّ إسماعيل من الوَرَعِ والعلم ، ثم دفع ذلك للوزير ، وقال له : توصِّلْ هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابه .

فأخذ الوزير ودخل على المعتضد ، وقال : زَعَمَ أنَّ هذا جوابُ أمير المؤمنين ! ففتح المعتضد الكتاب ، وقرأه وألقاه ، وقال : لا تعاوِذه في هذا . فأخذ عبيد الله

الوزير الكتاب، وإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَأَخْلُكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

٤٣ — هشام بن عبد الرحمن الداخل وأحد صنائعه *

كان هشام^(١) بن عبد الرحمن الداخل قاعداً لراحته في عُيَّة^(٢) على النهر في حياة والده ، فنظر إلى رجل كنانى من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان^(٣) ، قد أقبل يُوضِعُ^(٤) السير في الهاجرة ؛ فأنكر ذلك ، وقدّر شرّاً وقع به من قبل أخيه سليمان - وكان والياً على جَيَّان - فأمر بإدخاله عليه ، فقال : مهيم^(٥) يا كنانى ! فلا تمرّ ما قدمت ! وما أحسبك إلا مزعجاً لشيء دهمك .

فقال : نعم ياسيدي ، قتل رجلٌ من قومي رجلاً خطأ ، فقصدني أخوك بالاعتداء ؛ إذ عرف مكائى منك .

فمدّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر ، وقطع قِلَادَةً كانت في نحرها ، وقال له : دونك هذا العقديا كنانى ، وشراؤه على ثلاث آلاف دينار ، فلا تُخذعن عنه ، وبعه وأدّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تُمكنِ الرجل من اهتضامك^(٦) .

* فتح الطيب : ١ - ١٥٧

(١) ولد هشام سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وكان من أشرف الناس نقياً ، وأكرمهم طبعاً ، وأكثهم مروة ، لم يعرف عنه هفوة في حديثه ، ولا زلة في أيام صباه ، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز . (٢) العلية : بالضم والكسر : الترفة . (٣) جيان : بلد بالأندلس . (٤) أوضع : أسرع . (٥) مهيم : كلة استفهام : أى ما حالك وما شأنك أو ما وراءك ؟ (٦) هضم فلاناً واهتضمه : ظلمه وغصبه .

فقال : يا سيدي ؛ لم آتِكَ مُسْتَجِدِّيًّا ، ولا لضيق المال عما حُمِّلْتُهُ ، ولكنني قَصِدْتُ بظلم صُراح أحببت أن يظهر عليَّ عزُّ نصرِكَ ؛ وأثرُ ذَبِّكَ وامتعاضك فأتمَّجِدُ^(١) بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك .

فقال هشام : فما وجهُ ذلك ؟ فقال : أن تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عني والقيام بدمتِكَ لي . فقال : أُمْسِكِ العِقدَ ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقت أنكره ، فانزعج ، وقال : ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمرٌ مُقْلِقٌ ، ائذنوا له .

فلما دخل سلم عليه ، ومثَّلَ قائماً بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ، فقال : أصلح الله سيدي الأمير ! وكيف جلوسي بهمٍ وذلِّ مُزْعِج ! وحقَّ لمن قام مقامِي ألا يجلس إلا مطمئناً ، ولن يُقْعِدَنِي إلا طيبُ نفسِي بإسعاف الأمير لحاجتي ، وإلا رجعتُ على عَقِي . فقال له : حاشَ لك من انقلابك خائباً ، فاقعد مُجَاباً مشفَعاً ؛ فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدثُ المُقْلِقُ ؟ فأعلمه ؛ فأمرَ بِحَمْلِ الدية عنه ، وعن عشيرته من بيت المال ؛ فسرَّ هشام وأطنب في الشكر ، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التمرُّض لهذا الكِنَافِ .

ولما دخل الكِنَافُ لوداع هشام قال له : يا سيدي ، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية ، وبلغتُ غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العِقدِ المبدول ، فتعيده إلى صاحبتِه ؛ فأبى ذلك وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

(١) تمَّجَد : تفاخر ، وأظهر المجد .

٤٤ — قاضي لا يقبل شهادة خليفة*

وَكَلَّ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلَ عِنْدَ ابْنِ بَشِيرٍ الْقَاضِي وَكَيْلَا مُخَاصِمٌ عَنْهُ
لِشَيْءٍ اضْطُرَّ إِلَيْهِ ، وَكَانَتْ بِيَدِهِ وَثِيقَةٌ فِيهَا شَهَادَاتُ شُهُودٍ قَدْ مَاتُوا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ
الْأَحْيَاءِ إِلَّا الْأَمِيرُ الْحَكَمُ وَشَاهِدٌ آخَرٌ ، فَشَهِدَ لِسَعِيدٍ ذَلِكَ الشَّاهِدُ وَضُرِبَتْ عَلَى
وَكِيلِهِ الْأَجَالُ فِي شَاهِدٍ ثَانٍ ، وَجَدَتْ بِهِ الْخِصَامُ ، فَدَخَلَ سَعِيدٌ بِالْكِتَابِ عَلَى الْحَكَمِ ،
وَأَرَاهُ شَهَادَتَهُ فِي الْوَثِيقَةِ - وَقَدْ كَانَ كَتَبَهَا قَبْلَ الْخِلَافَةِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ - وَعَرَفَهُ
حَاجَتَهُ إِلَى أَدَائِهَا عِنْدَ قَاضِيهِ خَوْفًا مِنْ بُطْلَانِ حَقِّهِ .

وَكَانَ الْحَكَمُ يُعْظَمُ سَعِيدًا عَمَّهُ وَيُلْتَزِمُ مَبَرَّتَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَمُّ ! إِنَّا لَسْنَا مِنْ
أَهْلِ الشَّهَادَاتِ ، وَقَدْ التَّبَسْنَا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا لَا تَجْهَلُهُ ، وَنَخْشَى أَنْ تَوْفِقَنَا مَعَ
الْقَاضِي مَوْقِفٍ نَخْزَاهُ كُنَّا نَفْذِيهِ بِمَلَكِنَا ، فَصِرَ فِي خِصَامِكَ حَيْثُ صَبَّرَكَ الْحَقُّ
إِلَيْهِ ، وَعَلَيْنَا رَدُّ مَا انْتَقَصَكَ .

فَأَبَى عَلَيْهِ وَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ قَاضِيكَ فِي شَهَادَتِكَ ، وَأَنْتَ
وَلِيَّتُهُ ، وَهُوَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِكَ ؟ وَقَدْ لَزِمَكَ أَنْ تَشْهَدَ لِي بِمَا عَلِمْتَهُ ، وَلَا تَكْتُمَنِي
مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : بَلَى ! إِنْ ذَلِكَ مِنْ حَقِّكَ كَمَا تَقُولُ ، وَلَكِنَّكَ تَدْخُلُ عَلَيْنَا بِهِ دَاخِلَةً ،
فَإِنْ أَغْفَيْنَا مِنْهُ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا ، وَإِنْ اضْطَرَرَّتْنَا لَمْ يُمْكِنَّا عَقُوبُكَ .
فَعَزَمَ عَلَيْهِ عَزَمَ مَنْ لَمْ يَشْكُ أَنْ قَدْ ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ ، فَأَرْسَلَ الْحَكَمُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى

فقيهن من فقهاء زمانه ، وخطَّ شهادته بيده في قِرطاس ، وختم عليها بخاتمه ، ودفعها إلى الفقيهن ، وقال لهما : هذه شهادتي بخطِّي ، فأذياها إلى القاضي .

فأتياه بها إلى مجلسه وقتَ قعوده للسمع من الشهود ، فأذياها إليه ؛ فقال لهما : قد سمعتُ منكما ، فقوماً راشدين في حفظ الله !

وجاء وكيل سعيد ، وتقدم إليه مُدلاً واثقاً ، وقال له أيها القاضي ؛ قد شهدَ عندك الأميرُ - أصلحه الله تعالى - فما تقول ؟ فأخذ كتابَ الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادةٌ لا تُقبلُ عندي ، فجئني بشاهد عدل .

فدهش الوكيل ، ومضى إلى سعيد فأعلمه ، فركب من فورِهِ إلى الحكم ، وقال : ذهب سُلطاننا ، وأزيل بهاؤنا ؛ أو يجترئ هذا القاضي على ردِّ شهادتك ، والله - سبحانه - قد استخلفك على عبادته ، وجعل الأمر في دماهم وأموالهم إليك ! هذا ما يجب أن تحمّله عليه . وجعل يُغريه بالقاضي ويمحرّضه على الإيقاع به .

فقال له الحكم : وهل شككتُ أنا في هذا يا عمّ ! القاضي زجل صالح ، لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، فعل ما يجبُ عليه ويلزمه ؛ وسدّ دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله جزاءه .

فغضب سعيد وقال : هذا حسي منك ! فقال له : نعم قد قضيتُ الذي كان لك علىّ ، ولستُ - والله - أعارضُ القاضي فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين في قبض يدٍ مثله .

البَابُ الثَّانِي

في القصص التي تصوّر احتفاظهم بأنسابهم ،
واعترازهم بقبائلهم ، وتمجيدهم للأسلاف ، وتمديد
ما تركوا من مآثر ، وما أدّى إليه ذلك من
مفاخرات ومنافرات .

٤٥ — خَاطَرْتُ عَلَى حَسَبِي وَحَسَبِكَ *

خرج الحكم بن أبي العاصي ومعه عِطْرٌ يريد الحيرة - وكان بالحيرة ، سوقٌ يجتمع إليها الناس كل سنة - فرّ في طريقه بجاتم بن عبد الله الطائي^(١) ؛ فسأله الجوار في أرض طيٍّ حتى يصير إلى الحيرة ، فأجاره . ثم أمر حاتم بجزور فنحرت وطبخت ، ثم دعاهم إلى الطعام فأكلوا ، ولما فرغوا من الطعام طيَّبهم الحكم من طيبه .

وكان النعمان بن المنذر قد جعل لبني لأم رُبْعَ الطريق طُعْمَةً لهم ؛ لأنّ بنت سعد بن حارثة بن لأم كانت عنده .

ومرَّ سعد بن حارثة بجاتم ومعه قومه من بني لأم ، فوضع حاتم سُفْرَتَهُ وقال : اطعموا حيّاكم الله ! فقالوا : مَنْ هؤلاء الذين معك يا حاتم ؟ قال : هؤلاء جيرانى ، قال له سعد : فأنت تُجير علينا في بلادنا ! قال له : أنا ابن عمكم وأحقّ من لم تخفروا ذِمَّتَه . فقالوا : لست هناك ! وأرادوا أن يفضحوه ، ووثبوا إليه ، وتناول سعد حاتمًا ، فأهوى له حاتم بالسيف ، فأطار أرنبة أنفه ، ووقع الشر حتى تحاجزوا ، ثم قالت : بنوا لأم لحاتم : بيننا وبينك سوق الحيرة فما جدك^(٢) ؛ ثم وضعوا تسعة أفراس رهنا ، ووضع حاتم فرسه رهنا عند رجل من كلب ، وخرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة .

* الأغانى : ١٦ - ٩٥

(١) حاتم الطائي : فارس شاعر ، جواد ، يضرب المثل ببجوده ، توفى نحو سنة ٤٥ ق . هـ

(٢) يقال : ماجده مجاداً : عارضه بالمجد فجده ، أى قلبه .

وسمع بذلك إياسُ بن قبيصة الطائي ؛ فخاف أن يُعينهم النعمانُ بن المنذر ويَقوِّيهُم بماله وسُلْطانه للصَّهْر الذي بينهم وبينه؛ فجمع رَهْطَه من بني حِية، وقال: يا بني حِية ؛ إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضَحُوا ابنَ عمكم في مُمَاجَدَتِهِ ؛ فقال رجل منهم : عندي مائةُ ناقة سوداء ، ومائة ناقة حمراء أَدْمَاء ^(١) ؛ وقام آخر فقال : عندي عشرة حصن ؛ على كل حصان منها فارس مُدَجِّج ^(٢) لا يُرَى منه إلا عيناه . وقال حسان بن جبلة الخير : قد علمت أن أبي قد مات وترك خيراً كثيراً ، فعلى كل خمر ولحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة ؛ ثم قام إياس فقال : على مثل جميع ما أعطيتكم كلُّكم - وحاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا .

وذهب حاتم إلى ابن عمه وهم بن عمرو - وكان مصارماً له لا يكلمه - فقالت له امرأته : أي وهم ، هذا والله أبو سقانة - حاتم - قد طَلَعَ ، فقال : مالنا ولحاتم ! أثبتني النظر ، فقالت : هاهو . قال : ويحك ! هو لا يكلمني ، فما جاء به إلى ؟ ثم نزل حتى سلَّم عليه ، فردَّ سلامه وحيَّاه ، ثم قال له : ميا جاء بك يا حاتم ؟ قال : خاطرتُ على حَسْبِكَ وحسبي ، قال : في الرَّحْب والسَّعة ، هذا مالي وعِدَّتُهُ تِسْعَمائة بعير ، فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد ^(٣) .

ثم إن إياس بن قبيصة قال لقومه : احملوني إلى الملك - وكان به نِقْرَس ^(٤) - فَحُمِلَ حتى أُدْخِلَ عليه ، فقال : أَنعمُ صباحاً ، أيت اللعن ! فقال النعمان : وحيّاك

(١) الأدمة في الإبل : لون مشرب سواداً أو يابضاً ، والأيتي : أدماء (٢) المدجج : الذي ليس سلاحه . (٣) وق وهم يقول حاتم :

ألا أبلغا وهم بن عمرو رسالة
رأيتك أدنى الناس منا قرابة
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا
بموت فكن يا وهم ذو يتأخر

وذو بمعنى الذي في لغة طي .

(٤) النقرس : ورم ووجع في مفاصل الكمين وأصابع الرجلين .

إليك . فقال إياس : أَعْمَدُ أَخْتَانِكَ ^(١) بالمال والخيل ، وجعلتَ بني ثعل في قمر
السكنانة ! أظنَّ أَخْتَانِكَ أَنْ يَصْنَعُوا بِحَاتِمٍ كَمَا صَنَعُوا بِعَامِرِ بْنِ جُوَيْنٍ ^(٢) ولم يشعروا
أَنْ بَنِي حَيَّةَ بِالْبَلَدِ ! فَإِنْ شِئْتَ وَاللَّهِ نَأْجِزُ نَاكَ ^(٣) حتى يسفح الوادي دماً ، فليحضروا
مَجَادِمَ ^(٤) غداً بجمع العرب .

فعرف النعمان الغضبَ في وجهه وكلامه ، فقال له : يَا أَهْلَمْنَا ، لَا تَفْضُبْ فَإِنِّي
سَأُكْفِيكَ . وَأَرْسَلَ النُّعْمَانَ إِلَى سَعْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَإِلَى أَصْحَابِهِ ، وَقَالَ : انظُرُوا
ابْنَ عَمِّكُمْ حَاتِمًا فَأَرْضَوْهُ ، فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي أُعْطِيكُمْ مَالِي تَبَدُّرُونَهُ ، وَمَا أُطِيقُ
بَنِي حَيَّةَ .

فخرج بنو لَأِيمٍ إِلَى حَاتِمٍ وَقَالُوا لَهُ : اعْرِضْ عَنْ هَذَا الْمِجَادِ نَدْعُ أَرْشَ ^(٥) أَنْفِ
ابْنِ عَمَّنَا . قَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَتْرَكُوا أَفْرَاسَكُمْ وَيُغْلَبَ مِجَادُكُمْ .
فَتَرَكُوا أَرْشَ أَنْفِ صَاحِبِهِمْ وَأَفْرَاسَهُمْ وَقَالُوا : قَبِّحَهَا اللَّهُ وَأَبْعَدَهَا ! فَعَمِدَ إِلَيْهَا
حَاتِمٌ فَقَقَّرَهَا وَأَطْعَمَهَا النَّاسَ .

(١) أَخْتَانُ : جَمْعُ خَتَنٍ ، وَهُوَ الصِّهر (٢) كَانَتْ بَنُو لَامٍ فَضَحَتْ عَامِرَ بْنَ جُوَيْنٍ فِي مِمَا جَدَّةَ .
(٣) النَّاجِزَةُ : الْمَقَاتِلَةُ (٤) مَاجِدُهُ مِجَادًا : عَارِضُهُ بِالْمِجْدِ (٥) الْأَرْشُ : الدِّيَّةُ .

٤٦ — لا تجملن هوازنا كمذحج*

اجتمع يزيد بن عبد اللذان وعامر بن الطَّفِيل بموسم عكاظ ، وقدم أمية^(١) ابن الأسكر الكنانى ، وتبعته ابنة له من أجل أهل زماها ؛ فخطبها يزيد وعامر فقالت أم كلاب امرأة أمية : مَنْ هذان الرجلان ؟ فقال : هذا يزيد بن عبد اللذان ، وهذا عامر بن الطفيل ، فقالت : أعرف بنى الديان^(٢) ، ولا أعرف عامراً . فقال : هل سمعت بملاعب الأسنة^(٣) ؟ فقالت : نعم ، قال : فهذا ابن أخيه . وأقبل يزيد يفاخر خصمه ، فقال : يا أمية ، إن ابن الديان صاحب الكتيبة ورئيس مذحج ، ومن كان يصوب أصابعه فتنتطف^(٤) دماً ، ويدلُّك راحتيه فتخرجان ذهباً .

فقال أمية : بخ بخ ! مرعى ولا كالسعدان^(٥) !
فقال يزيد : يا عامر ؛ هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحة إلى رجل من قومك ؟ قال : اللهم لا !
قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ، قال : اللهم نعم !

* الأغاني : ١٠ - ١٣٨

(١) هو أمية بن حزنان بن الأسكر ، ينتهى نسبه إلى نزار ، وكان شاعراً فارساً مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة .
(٢) بنو الديان : قبيلة يزيد . (٣) ملاعب الأسنة : عامر بن مالك ، فارس قيس ، وأحد أبطال العرب في الجاهلية توفى نحو سنة ١٠ هـ . (٤) تنطف : تسيل . (٥) ذهبت مثلاً ، والسعدان نبت من أفضل مراعيهم .

قال : فهل لكم نَجْمُ يمان أو بُرْدُ يمان أو سَيْفُ يمان أو رُكنُ يمان ؟ قال : لا ،
قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟ قال : نعم .
فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت :

أُمَيَّ يَا بَنِي الْأَسْكَرِ بْنِ مُدْلَجٍ لَا تَجْعَلُنَّ هَوَاؤَنَا كَمَذْجِجِ
إِنَّكَ إِن تَلْهَجَ بِأَمْرِ تَلْجُجٍ مَا النَّبْعُ^(٢) فِي مَغْرَسِهِ كَالْعَوْسَجِ
ولا الصريح المَحْضُ كَالْمَزْجِ

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان أبنته ، ثم لجَّ التَّهَاجِي بين الرجلين .

(١) بنو مدلج : قبلة من كنانة
(٢) النبع شجر تتخذ منه القسي ، ومن أغصانه السهام
والعوسج : شجر من شجر الشوك .

٤٧ — يتنازعان الزعامة *

لما أَسَنَ أبو براء عامر بن مالك ، تنازع في الرياسة عامرُ بن الطفيل ^(١) ،
وعَلَقَمَةُ ^(٢) بن عَلَانة .

فقال علقمة : كانت : لجدِّي الأخوص وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد
عُثْك عنها ، وأنا أسترِجُها ، فأنا أولى بها منك ؛ فشرى ^(٣) الشرَّ بينهما ، وسارا
إلى المنافرة .

فقال علقمة : إن شئتَ نافرْتُك ، فقال عامر : قد شئتُ ، والله إني لأَكْرُمُ
منك حَسَبًا ، وأثبتُ منك نَسَبًا ، وأطولُ منك قَصَبًا ^(٤) .

فقال علقمة : والله لأنا خيرُ منك ليلاً ونهاراً . فقال عامر : والله لأنا أنَحَرُ
منك للَفَاح ^(٥) ، وخيرُ منك في الصباح ، وأطعمُ منك في السَّنة الشَّيَاح ^(٦) .

فقال علقمة : أنا خيرُ منك أثراً ، وأحدُ منك بصرًا ، وأعزُّ منك فقرًا ،
وأشرفُ منك ذِكْرًا .

* الأغاني : ١٥ - ٥٠ ، مهذب الأغاني : ٢ : ٦٨ ، نهاية الأرب : ٣ - ٢٧٢ ، بلوغ
الأرب : ١ : ٢٨٦

وهذه القصة اختلفت رواياتهم - اختلفاً كثيراً فجعلنا الروايات يكمل بعضها بعضاً .

(١) من بني عامر بن صعصعة ، فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم ، ولد ونشأ
ببجدة ، كريماً شجاعاً ، وفد على رسول الله يريد اللدبر به ولم يسلم ، فات في طريقه قبل أن يبلغ
قومه سنة ١١ هـ (٢) علقمة بن علانة : كان في الجاهلية من أشرف قومه ، أسلم ، وارتد في
أيام أبي بكر فانصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام ، توفي نحو سنة ٢٠ هـ (٣) شري :
استطار (٤) يريد طول القامة ، والقصب أيضاً نياب تتخذ من كتان رفاق ناعمة ، وهو كناية
عن الرفاهية والنعمة ورغد العيش (٥) الفلاح : الإبل (٦) الشياح : القطط .

فقال عامر : ليس لبني الأخوص فضلٌ على بني مالك في العدد ، وبصرى ناقصٌ ، وبصرُك صحيحٌ ، ولكني أنافرك ؛ وإني أنسى منك سمة^(١) ، وأطولُ منك قمةً ، وأحسنُ منك إمةً^(٢) ، وأجعدُ منك جمةً^(٣) ، وأمرعُ منك رحمةً ، وأبعدُ منك همةً .

فقال علقمة : أنت رجلٌ جسيمٌ ، وأنا رجلٌ قَضيعٌ^(٤) ، وأنت جميلٌ ، وأنا قبيحٌ ، ولكني أنافرك بآبائي وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكنْ لِأنافرك بهم ، ولكني أنافرك ؛ أنا خيرٌ منك عقيباً ، وأطعمُ منك جذباً .

فقال علقمة : قد علمتُ أن لك عقيباً ، وقد أطعمت طيباً ، ولكني أنافرك ؛ إني خيرٌ منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أمُّ عامر - وكانت تسمعُ كلامهما ، فقالت : يا عامر ، نافرهُ أيكما أولى بالخيرات .

قال عامر : والله إني لأزكُّ منك في الحُمة ، وأقتلُ منك للكمأة^(٥) ، وخيرٌ منك للمولى والمولاة .

فقال له علقمة : والله إني لكبرٌ وإنك لفاجرٌ ، وإني لولودٌ وإنك لعاقِرٌ^(٦) ، وإني لعفٌ وإنك لعاهرٌ ، وإني لوفىٌ وإنك لغادرٌ ، فقيمُ تفاخري يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزلُ منك للفقرة^(٧) ، وأنحرُ منك للبكرة^(٨) ، وأطعمُ منك للهبرة^(٩) ، وأطعنُ منك للثفرة .

(١) السمة : القرابة (٢) اللة : الشعر المجاوز شحمة الأذن (٣) الحمة : مجتمع شعر الرأس (٤) قضيع : نحيف (٥) الكمأة : جمع كمي ، وهو الشجاع (٦) رجل عاقر : لم يولد له ولد (٧) الثفرة : الحلاء من الأرض (٨) البكرة : الفئنة من الإبل (٩) الهبرة : القطعة المجمعة من اللحم .

فقال علقمة : والله إنك لـكليلُ البصر ، نكدُ النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يداً مع بني الأخوص على بني مالك بن جعفر :
لن تطيقَ عامراً ؛ ولكن قل له أنا فِرْكُ بخيرنا وأقر بنا إلى الخيرات .

فقال له علقمة هذا القول ؛ فقال عامر : غَيْرُ وَتَيْسٌ ^(١) وَتَيْسٌ وَعَزْ . نعم ، على
مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعطاهما الحكم أَيْنَا نَفَرَ عَلَيْهِ صاحبهُ أخرجها ؛
ففعلا ذلك ، ووضعوا بها رَهْنًا من أبنائهم على يدي رجل يقال له خزيمة بن عمرو ،
فسمَّى الضَّمَيْنِ .

وخرج علقمة ومن معه من بني خالد ، وخرج عامرُ فيمن معه من بني مالك ،
وجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يَقُلْ بينهما شيئاً ، وكره
ذلك لخالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنما كرُّ كِبَتِي البعير الأذرم ^(٢) . قالا : فأَيْنَا
اليمين ؟ قال : كلا كما يمين ؛ وأبى أن يقضىَ بينهما .

فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام ، فأبى أن يحكمَ بينهما ، وقد كانت العرب
تحاكُمُ إلى قريش ، فَأَتَيَا عُيَيْنَةَ بنَ حِصْنِ بن حذيفة ، فأبى أن يقولَ بينهما شيئاً ،
فَأَتَيَا غَيْلَانَ بنَ سَلَمَةَ التَّغَفِي ، فردهما إلى حَزْمَلَةَ بنِ الأشعر المري ، فأبى أن
يقول شيئاً .

ثم تَدَاعَيَا إلى هَرَمِ بنِ قُطَيْبَةَ ليحكمَ بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما
ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها مَنْ تَبِعَهُ ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تُعْفَرُ إذا

(١) العير : الحمار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثل ولإيك كالعير والتيس ،
أو على الأقل كالتييس والعز ، إذ التيس أقوى على النطاح من العز (٢) ذرم العظم : واره
اللحم حتى لم يبق له حجم .

حكّم ؛ فأبى هريم بن قُظنة أن يحكم بينهما مخافة الشرِّ ، وأبياً أن يرتحلا ، فقال هريم :
لعمري لأحكمن بينكما ، ثم لأفضلن ، فأعطيني موثقاً أطمئن إليه أن ترَضياً بما
أقول ، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوماً . فانصرفا
حتى إذا بلغ الأجلُ خرجا إليه ، وأقام القومُ عنده أياماً .

فخلّا هريم بمُعلّمة ، وقال له : أترجو أن ينفرك^(١) رجلٌ من العرب على عامرٍ
فارسٍ مضرٍ ؛ أنذى الناس كفّاً وأشجهم لقاءً ، لَسِنَانُ رُمَحِ عامرٍ أذكُرُ في
العرب من الأحوص ، وعُمةُ مُلَاعِبِ الأَسنة .

فقال له علّمة : أنشدك الله والرحم ألا تُنفّر على عامراً ! اجزُرْ ناصيتي ،
واحتكم في مالي ، وإن كنتَ لا بد أن تفعل فسوّ بيني وبينه . فقال ، انصرف ،
فسوف أرى رأيي ؛ فخرج وهو لا يشكُّ أنه سيفضّلُ عليه عامراً .

ثم خلا بعامر فقال له : أعلّى علّمة تفخر ؟ أنت تناوته ! أعلّى ابن عوف بن
الأحوص ؛ أعفّ بنى عامر ، وأيمهم نقيبة ، وأحلمهم وأسودهم ؛ وأنت أعورُ عاقر
مَشْنوم ! أما كان لك رأى يُزعك^(٢) عن هذا ! أكنتَ تظن أن أحداً من العرب
يُنْفِرُك عليه ؟ فقال عامر : نَشَدْتُكَ الله والرحم ألا تفضل على علّمة ! فوالله
إن فعلتَ لا أفلح بعدها أبداً ، هذه ناصيتي فاجزُرْها ، واحتكم في مالي ، فإن
كنتَ لا بدّ فاعلا فسوّ بيني وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيي ، فخرج عامر
وهو لا يشكُّ أنه ينفّرُه عليه .

ثم إن هريماً أرسل إلى بنيهِ وبنى أبيهِ : إني قاتلُ غداً بين هذين الرجلين
مقالة ، فإذا فعلتُ فليطرد بعضكم عشر جزائر^(٣) فليتحرها عن علّمة ، ويطرد

(١) نفره عليه : قضى له عليه بالقبلة (٢) يزعك : يردك (٣) جزائر : جمع جزور

بعضكم عشر جزائر لينحروها عن عامر ، وفرّقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة .
فلما اجتمعوا وحضر الناس للقضاء قام هَرِم ، وقال : يا بني جعفر ، قد تحاكمتما
عندي ، وأنتما كُرتبتي البعير الأذرم ، تقعان إلى الأرض معاً ، وليس فيكما أحد
إلا وفيه ماليس في صاحبه ، وكِلَاكما سيّدٌ كريم .

وعند بنو هَرِم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هَرِم ، وفرّقوا
الناس ، ولم يُفَضِّلْ هَرِم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل - وهما ابنا عم -
فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرّاً .

فارتحلوا عن هَرِم لما أعيام نحو عكاظ ، فلقبهم الأعشى منحدرّاً من اليمن -
وكان لما أرادها قال لعلمة : اعقد لي حَبِلاً^(١) ، فقال : أعقد لك من بني عامر !
قال : لا يُغْنِي عَنِّي . قال : فمن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا بزائدك . فأتى عامر بن
الطفيل ، فأجاره من أهل السماء والأرض ، فقبل له كيف تُجِيرُهُ من أهل السماء ؟
قال : إن مات ودَيْتُهُ^(٢) - فقال الأعشى لعامر : أَظْهِرْ أُنْكَما حَكْمَتُمَا نِي ، ففعل ؛
فقام الأعشى ؛ فرفع عَقِيرَتَهُ^(٣) في الناس فقال :

حَكْمَتُمُوهُ فَقَضَى بَيْنَكُمْ أَبْلَجُ مِثْلُ الْقَمَرِ الزَّاهِرِ
لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ وَلَا يَبَالِي خُسْرَ الْخَاسِرِ
عَلِمَ لَا ؛ لَسْتُ إِلَى عَامِرِ النَّاقِضِ الْأَوْتَارِ وَالْوَاتِرِ
وَاللَّابِسِ الْخَلِيلِ بِخَيْلٍ إِذَا نَارَ عَجَاجِ الْكَبَةِ^(٤) النَّائِرِ
إِنْ تَسُدُّ الْحَوْصُ فَلَمْ تَعْدُمْ وَعَامِرٌ سَادَ بَنِي عَامِرِ
سَادَ وَالْفِي رَهْطُهُ سَادَةً وَكَابِرَ آسَادُوكَ عَنِ كَابِرِ

(١) يريد جواره . (٢) دفعت دينه . (٣) عقيرته : صوته . (٤) الكبة : الدفعة في القتال والحملة في الحرب .

وشدَّ القومُ في أعراضُ الإبلِ المائةَ فقروها ، وقالوا : نُفِّرَ عامرَ وذَهِبَ بها
الغوغاءُ ، وجَهِدَ علقمةُ أن يردَّها فلم يقدر على ذلك ، فجعل يهدِّدُ الأعشى فقال :

أَتَأْنِي وَعَيْدُ الْخَوْصِ مِنْ آلِ عَامِرٍ	فِيَا عَبْدَ عَمْرِو لَوْ نَهَيْتَ الْأَحَاصِيَا !
فَاذْنُبُنَا إِنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمِّكَم	وَبَحْرُكَ سَاجٍ ^(١) لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا ^(٢)
كَلَّا أَبُوبِكُمْ كَانَ فِرْعَوْنِي دِيعَامَةً	وَلَكِنْهُمْ زَادُوا وَأَصْبَحَتْ نَاقِصَا
تَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءَ بَطُونِكُمْ	وَجَارَاتُكُمْ غَرَّتْنِي ^(٣) يَبْتَنِّ سَخَائِصَا ^(٤)
يُرَاقِبَنَ مِنْ جُوعٍ خِلَالَ مَخَافَةٍ	نَجُومَ الْعِشَاءِ الْعَائِمَاتِ الْفَوَامِصَا ^(٥)
رَمَى بَكَ فِي أَخْرَامٍ تَرَكَكَ النَّدَى	وَفَضَّلَ . أَقْوَامَا عَلَيْكَ مَرَاهِصَا ^(٦)
فَعَضَّ حَدِيدَ الْأَرْضِ إِنْ كُنْتَ سَاخِطًا	بِفَيْكِ وَأَحْجَارَ الْكَلَابِ الرَّوْهِصَا ^(٧)

فبكي علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه في العار .

(١) سجي : سكن (٢) الدموس : دويبة أو دودة سوداء تكون في الفدران إذا قل ماؤها
(٣) غرت : جاع (٤) الخائس : جمع خيصة ، ضال ، البطن : أى من شدة الجوع .
(٥) الفميصاء : لإحدى الشعرين ، قال في القاموس : من أحاديثهم : إن الشعرى العبور قطعت
الحجرة فسميت عبوراً وبكت الأخرى على أنزها حتى غمست ، ويقال لها الغموس أيضاً (٦) راهس
غريمه : راصده ؛ قال في القاموس : وللراهم لم يسمع بواحداه (٧) الكلاب : موضع ،
والرواهس من الحجارة التي تنكب الدواب ، والصخور الثابتة .

٤٨ — أَنْتَ لَهُ*

قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي جَعْفَرٍ عَلَى النِّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ ، عَلَيْهِمْ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ مُلَاعِبُ
الْأُسْتَةِ ، وَفِيهِمْ لَيْبِدٌ^(١) بْنُ رَبِيعَةَ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ غُلَامٌ لَهُ ذُوَابَةٌ ، فَضَرَبَ النِّعْمَانُ قُبَّةً
وَأَجْرَى عَلَيْهِمُ النَّزْلَ^(٢) ، فَجَعَلُوا يَقْدُونَ إِلَى النِّعْمَانِ وَيَرُوحُونَ وَيَتْرَكُونَ لَيْبِدًا فِي
رَحْلِهِمْ ، يَحْفَظُ أَمْتَعَتَهُمْ وَيَقْدُوا بِإِبْلِهِمْ فِيرْعَاهَا ، فَإِذَا أَمْسَى الْمَسَاءُ انْصَرَفَ بِهَا .
وَكَانَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الْعَبْسِيُّ يُنَادِمُ النِّعْمَانَ وَيَصَادِقُهُ ، وَيَتَقَدَّمُ عَلَى مَنْ سِوَاهُ ،
فَكَانَ إِذَا خَلَا بِالنِّعْمَانِ طَعَنَ فِي بَنِي جَعْفَرٍ وَذَكَرَ مَعَايِبَهُمْ لِمَدَاوَةٍ قَدِيمَةٍ كَانَتْ بَيْنَ
عَبْسٍ وَبَنِي جَعْفَرٍ ، وَفَعَلَ ذَلِكَ مَرَارًا حَتَّى أَثَّرَ فِي نَفْسِ النِّعْمَانِ ، فَزَرَعَ الْقُبَّةَ عَنْهُمْ ،
وَقَطَعَ النَّزْلَ .

وَدَخَلُوا عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَرَأَوْا مِنْهُ جَفَاءً ؛ فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ غَضَابًا ، وَهَمُّوا
بِالْانْصِرَافِ .

وَبَيْنَمَا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَمْرَ الرَّبِيعِ سَمِعَهُمْ لَيْبِدٌ فَقَالَ لَهُمْ : مَا لَكُمْ تَتَنَاجَوْنَ !
فَكَتَمُوهُ ، وَقَالُوا لَهُ : إِلَيْكَ عَنَّا . قَالَ : أَخْبِرُونِي ، فَلَمَلَّ لَكُمْ عِنْدِي فَرَجًا ،
فَزَجَرُوهُ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَحْفَظُ لَكُمْ مَتَاعًا ، وَلَا أُشْرِحُ^(٣) لَكُمْ بَعِيرًا
أَوْ تَخْبِرُونِي .

فَقَالُوا لَهُ إِنْ خَالَكَ الرَّبِيعُ — وَكَانَتْ أُمُّ لَيْبِدٍ عَبْسِيَّةً ، وَكَانَتْ بَيْتِيمَةً فِي جَحْرِ

* الْحِزَانَةُ : ٤ — ١٧١ ، بَيْجِ الْأَمْثَالِ : ٢ — ٤٢ ، الْأَغَانِي : ١٤ — ١٩٢ ، ١٦ — ٢٢ ،
اللسان — مادة سمل .

(١) لَيْبِدُ بْنُ رَبِيعَةَ : أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الْفُرْسَانِ الْأَشْرَافِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ ، وَعَاشَى
عُمُرًا طَوِيلًا ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٤١ هـ . (٢) النَّزْلُ : الطَّعَامُ . (٣) سَرَحَ الْمَاشِيَةَ وَسَرَحَتْ بِنَفْسِهَا .

الربيع - قد غلبنا على الملك ، وصدَّ عنا وجهه ! فقال لهم : هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غداً حين يقعدُ الملك ، فأرْجُزَ به رَجَزاً مُمِصّاً مؤلماً ، لا يلتفت إليه النعمانُ بعده أبداً ؟ قالوا له : وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : إنا نَبْلُوكَ بِشْتَمٍ هذه البَقْلَة - وقدَّامهم بَقْلَةً دَقِيقَةُ القَضبان ^(١) ، قليلة الورق ، لا صفةُ فروعها بالأرض تُدعى التُّرْبَة ^(٢) .

فاقتلهم من الأرض ، وأخذها بيده ، وقال : هذه التربة التي لا تُذْكِ ^(٣) ناراً ، ولا تُؤْهِلُ داراً ، ولا تُسُرُّ جاراً ، عودُها ضئيل ، وفرعها كليل ^(٤) ، وخيرها قليل بَلَدُها شاسع ونَبْتُها خاشع ^(٥) ، وآكلها جائع ، والمقيمُ عليها ضائع ؛ أَقْصَرُ البقولِ فَرْعاً ، وأخبثها مرعى ، وأشدُّها قلعاً ، فَحَرَبًا لها وجدعاً ^(٦) ! اتقوا بي أخا عبس ، أرجعه عليكم بتعس ^(٧) ونُكس ، وأتركه من أمره في لبس .

فقالوا : نُصْبِحُ فَنرى فيك رأينا . فقال لهم عامر : انظروا إلى غلامكم هذا ؛ فإن رأيتموه نائماً فليس أمرُه بشيء ، إنما يتكلمُ بما جرى على لسانه ويَهْذِي بما يَهْجِسُ في خاطره ، وإن رأيتموه ساهراً فهو صاحبكم !

فرمقوه بأبصارهم ، فوجدوه قد رَكِبَ رَحْلاً يَكْدِمُ ^(٨) واسطته حتى أصبح فلما أصبحوا قالوا : أنت والله صاحبه . وحلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حُلَّةً ، وغدوا به معهم .

(١) القضان : الأغصان (٢) التربة . نبت سهل ، والبقل : ما نبت من بزره لا من أرومة ثانية ، والبقلة واحدة (٣) أذكى النار : أوقدها (٤) كليل : ضعيف غير صليب .
(٥) خاشع : دان من الأرض (٦) جدعا : قطعاً (٧) التعس : الهلاك .
(٨) كدمه : عضه بأدنى فم أو أثر فيه بمعدية .

فدخلوا على النعمان ، فوجدوه يتفدّى ومعه الربيع ، ليس معه غيره ، والدارُ والمجالس مملوءة من الوفود .

فلما فرغ من الغداء ذكروا له حاجتهم ؛ فاعترضهم الربيعُ في كلامهم ، فقال لبيد - وقد دهن أحد شِقَيَّ رأسه ، وأرْخَى إزاره ، وانتعل نعلًا : آييتَ اللعن ! أتأذنُّ لى فى الكلام ؟ فأذنَ له ، فأنشأ يقول ^(١) :

لا تَرْجُرِ الْفَتَيَانِ عَنْ سُوءِ الرَّعَّةِ ^(٢) ياربِّ هَيْجَا ^(٣) هى خيرٌ من دَعَا
فى كل يومِ هَامَتِ مُقَرَّرُهُ ^(٤) نحن بنو أم البنين ^(٥) الأربعة
نحن خِيَارُ عَامِرٍ مِنْ صَعَصَعَةٍ الْمُطْعِمُونَ الْجَفَنَةَ الْمَدْعَدَةَ ^(٦)
والضاربون الهامَ تحت الخِيضَةِ ^(٧) يا واهبَ المالِ الجَزِيلِ مِنْ سَعَةٍ
إليك جاوزنا بلاداً مُسْبِغَةً ^(٨) إِذِ الْفَلَاةِ أَوْحَشَتْ فى الْمَعْمَةِ

* مخبرك عن هذا خيرٌ فاسمعه *

فقال النعمان : ما هو ؟ فقال : * مهلاً آييتَ اللّٰعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ *

فقال النعمان : ولم ؟ فقال : * إِنْ اسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُّلْمَعَةٍ *

فقال النعمان : وما عَلَى ؟ فقال : * وَإِنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا إِصْبَعَهُ *

يدخلها حتى يوارى أَشْجَعَهُ ^(٩) كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيِّعَةً

(١) - مجمع الأمثال : ٢ - ٤٤ مع اختلاف الرواية (٢) الرعة : حالة الأحق التي رضى بها (٣) الهيجا : الحرب . (٤) يقال هو مقزع ومتقزع : رقيق شعر الرأس . (٥) بنو أم البنين الأربعة : هم خسة : مالك بن جعفر ، وطفيل بن مالك ، وربيعة بن مالك ، وعبيدة بن مالك ، ومعاوية بن مالك ، وهم أشرف بني عامر ، فجعلهم أربعة لأجل القافية . (٦) المدعدة : المملوءة (٧) الخيضة : البيضة (٨) بلاد مسبعة : كثيرة السباع . (٩) الأشاجع : عروق ظاهر الكف .

فلما سمع النعمان قوله أَفَفَ^(١) ، ورفع يده من الطعام ، والتفت إلى الربيع
يَرْمُقُهُ شَرَّارًا ، وقال : أ كَذَلِكَ أَنْتَ ! قال : كَذَبَ وَاللَّهِ ابْنُ الْحَلِيقِ^(٢) اللِّثَمِ !
فقال النعمان : لقد خُبْتُ عَلَى طُعَامِي .

ثم قضى النعمان حوائج الجعفرين ، وانصرف الربيع إلى منزله ، فبعث
إليه النعمان بِضَيْفٍ مَا كَانَ يَحْبُوهُ بِهِ ، وأمره بالانصراف إلى أهله . فكتب
إليه : « إِنِّي قَدْ تَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ فِي صَدْرِكَ مَا قَالَ لَبِيدٌ ، وَلَسْتُ
بِرَأْمٍ^(٣) حَتَّى تَبْعَثَ مِنْ يَدِّي ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ حَضَرَكَ مِنَ النَّاسِ أَنِّي لَسْتُ كَمَا
قَالَ . . . »

فأرسل إليه : « إِنَّكَ لَسْتَ صَانِعًا بِاتِّفَاتِكَ مِمَّا قَالَ لَبِيدٌ شَيْئًا ، وَلَا قَادِرًا عَلَى
رَدِّ مَا زَلَّتْ بِهِ الْأَلْسُنُ ، فَالْحَقْ بِأَهْلِكَ » . فلحق بأهله .

ثم أرسل إلى النعمان :

لَنْ رَحَلْتُ جِمَالِي إِنْ لِيَ سَعَةٌ مَا مِثْلُهَا سَعَةٌ عَرَضًا وَلَا طَوْلًا
وَلَوْ جَمَعْتَ بَنِي عِلْمٍ بِأَسْرَمٍ لَمْ يَمْدُلُوا رِيْشَةً مِنْ رِيْشِ سَمُوِيلَا^(٤)
تَرَعَى الرَّوَائِمَ^(٥) أَحْرَارَ الْبَقُولِ بِهَا لَا مِثْلَ رَعِيْكُمْ مِلْحًا وَغَسُوِيلَا^(٦)
فَانْتَبَ بِأَرْضِكَ بَعْدِي وَاخِلَ مَتَكُنَّا مَعَ النَّطَاسَى طَوْرًا^(٧) وَابْنَ نَوْفِيلَا

(١) أفَفَ : قال « أف » (٢) الحلق : الأحمق (٣) رَأْمٌ : بارح وراحل (٤) سمويل :
أحد أجداد الربيع . وهو في الأصل اسم طائر ، وقيل : بلد كثير الطير (٥) ناقة رعووم ورأمة
ورأْمٌ : عاطفة على ولدها (٦) النسويل : ثبت ينبت في السباح (٧) النطاسى وابن نوفيل :
اثنان كانا ينادمان النعمان أولهما طيب وثانيهما تاجر .

فأجابه النعمان :

تكثر على ، ودع عنك الأقاويل	شرّذ برحلك حيث شئت ولا
ما جاور السيل أهل الشام والنيلا	فقد رميت بداء لست غاسله
هوج ^(١) المطى ^(٢) به أكناف شمليل ^(٣)	فما انتفاؤك منه بمد ما قطعت
فما اعتذارك من قول إذا قيلاً	قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً
وانشُر بها الطرف إن عرضاً وإن طولاً	فالخلق بحيث رأيت الأرض واسعة

(١) الهوجاء : الناقة المسرعة ، جمها هوج (٢) شمليل : بلد .

٤٩ — أنت اليوم ذو جدّين *

قال الملك النعمان : لأُعْطِينَ أفضل العرب مائةً من الإبل . فلما أصبح الناسُ اجتمعوا لذلك ، ولم يك قيس بن مسعود فيهم ، وأرادَه قَوْمُهُ على أن يَنْتَلِقَ معهم إليه ، فقال : لا ، لئن كان يُرِيدُ بها غيري لأشهدُ ذلك ، وإن كان يريدني بها لأُعْطِيَنَهَا .

فلما رأى النعمانُ اجتماعَ الناس قال : ليس صاحبُها شاهداً . فلما كان من الغدِ ، قال له قَوْمُهُ : انطلقْ ؛ فانطلق فدفعها الملكُ إليه ، فقال حاجِبٌ ^(١) بن زُرارة : أَيْتَ اللَّعْنُ ! ما هو بأحقَّ بها مِنِّي ، فقال قيس بن مسعود : أنا فِرُهُ ^(٢) عن أكرمنا قَعِيدَةً ^(٣) ، وأحسننا أدبَ ناقة ، وأكرم لثيم قوم .

فبعثَ معهما النعمانُ مَنْ يَنْظُرُ في ذلك ، فلما اتَّهَوْا إلى بادية حاجب بن زُرارة مرَّوا على رجل من قومه ، فقال حاجب : هذا الأُمُّ قومي ، وهو فلان ابن فلان - والرجلُ عند حوضه يُورِدُ إبلَه - فأقبلوا إليه فقالوا : يا عبدَ الله ؛ دَعْنَا فَلَنَسْتَقِ فَإِنَّا قد هَلَكْنَا عَطِشًا ، وأهلكنا ظُهُورَنَا ^(٤) ، فَتَجَهَّهْ وَأَبِى عَلَيْهِمْ . فلما أَعْيَاهُمْ قالوا لحاجب : اسْفِرْ ، فَسَفَرَ ، وقال : أنا حاجبُ بن زُرارة فدعنا فلنَشْرَب . قال : أنت ! فلا مرحباً بك ولا أهلاً ؛ ثم أَتَوْا بيته ، فقالوا لامراته : هل من منزل يا أمةَ الله ؟ قالت : والله ماربُّ المنزل شاهداً وما عنده من منزل ، وأرادوها على ذلك فَأَبَتْ

* بلوغ الأرب : ١٠ - ٢٨٦

(١) حاجب بن زُرارة : من سادات العرب في الجاهلية ، أدرك الإسلام وأسلم ، وتوفي نحو سنة ٣ هـ . (٢) أنازره : أحاكمه (٣) القعيدة : المرأة (٤) يريد ما يركبون .

ثم أتوا رجلا من قوم قيس بن مسعود على ماء يُورِدُ إليه ، فقال قيس : هذا والله
الأم قومي ، فلما وقفوا عليه قالوا مثل ما قالوا للآخر ، فأبى عليهم وهم أن يضربهم ،
فقال له قيس بن مسعود : ويلك ! أنا قيس بن مسعود ، فقال له : مرحباً وأهلاً ، أُورِدُ .
ثم أتوا بيته ، فوجدوا فيه امرأته قد رُها تَفِطُ^(١) ، فلما رأت الركب من بعيداً نزلت
القدر وتروّت ، فلما انتهوا إليها قالوا : هل عندك يا أمة الله منزل ؟ قالت : نعم !
انزلوا في الرَّحْبِ والسَّعة . فلما نزلوا وطعموا وارتحلوا أخذوا ناقتيهما ، فأنأخوها على
قريتين للنمل ، فأما ناقة قيس بن مسعود فتضوّرت^(٢) ، وتقلبت ثم لم تنز ، وأما
ناقة حاجب فكنّت وثبتت ، حتى إذا قالوا : قد اطمأنت طفقت هاربة . فأتوا الملك ،
فأخبروه بذلك ، فقال له : قد كنت يا قيس ذا جدّ^(٣) ، فأنت اليوم ذو جدّين .

(١) تَفِطُ : أي تصوت ، وذلك عند اشتداد غليانها (٢) التضور : الصياح والتلوى عند
الضرب أو الجوع (٣) الحد : العظمة ، والمخط .

٥٠ — إن البلاء مُوَكََّلٌ بِالْمَنْطِقِ *

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلي . قال علي : فدفعنا إلى مجلس من مجالس الدَّرب ، فتقدَّم أبو بكر — وكان نَسَابَةً ^(١) — فسلم فردُّوا عليه السلام، فقال: يَمِّنُ القوم؟ قالوا: مِن ربيعة . فقال: من هَامَتِهَا أُمٌ مِنْ لَهَا زِمَها ^(٢)؟ قالوا: من هَامَتِهَا العُظْمَى . قال: فأَيُّ هَامَتِهَا العُظْمَى أتم؟ أتم ذُهل الأكبر؟ قالوا: نعم .

قال: أفنكم عَوْفُ الذى يقال له: لا حُرَّ بَوَادِي عَوْف؟ قالوا: لا! قال: أفنكم بَسْطَام ^(٣) ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا! قال: أفنكم جَسَّاسُ بن مرة حامى الذمار، ومائعُ الجار؟ قالوا: لا! قال: أفنكم الحَوْفَزَان ^(٤) قاتل الملوك وسالباها أَنْفُسُها؟ قالوا: لا! قال: أفنكم المَزْدَلِف ^(٥) صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا! قال: فأتم أحوال الملوك ^(٦) من كِنْدَةَ؟ قالوا: لا! قال: فأتم أصهار الملوك من نَعَم ^(٧)؟ قالوا: لا! قال: فلستم ذُهلًا الأكبر، أتم ذُهل الأصغر! فقام إليه غلام منهم حين بَقَلَ ^(٨) وجهه يقال له دَغْفَل ^(٩) فقال:

* المحاسن والأضداد : ١٠٤ ، بجم الأمثال : ١ - ١٢

(١) النسابة : العالم بالنسب ، وأدخلوا الماء للبيان والدح (٢) من هَامَتِهَا أُمٌ من لها زِمَها : يريد أمن أشرافها أُم من أوساطها ؟ (٣) هو بَسْطَام بن قيس بن مسعود الشيباني ، أفرس فرسان بكرى الجاهلية (٤) الحَوْفَزَان : لقب الحارث بن شريك ، لقبه به قيس بن عامر حين حفره بالريح فقاته (٥) هو عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل الشيباني ، سمى بذلك لآزدلافه إلى العدو وحده بين الصفتين ، وكان إذا اعم لا يجرؤ بكرى أن يلبس مثل عمامته (٦) هم كليب ومهلهل وأختهم فاطمة أُم امرئ القيس (٧) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيبان ، منهم ماء السماء أُم المنذر أحد ملوك الحيرة (٨) بقل : ظهر ونجم (٩) هو دغفل بن حنظلة السدوسي النسابة .

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَ وَالْعَبَاءَ لَا تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلَهُ

يا هذا ، إنك سألتنا فلم نكتفك شيئا من أمرنا ، فمن الرجل ؟ قال : رجل من قريش ، قال : بَخِ بَخِ ! أهل الشرف والرياسة ، فمن أى قريش أنت ؟ قال : من تَيْمِ بْنِ مُرَّة . قال : أفمنكم قُصَيِّ بْنِ كِلَاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعا ؟ قال : لا ، قال : أفمنكم هِشَام الذى هَشَمَ الثَّرِيد لقومه . ورجال مكة مُسْنِتُونَ عِجَاف ^(١) ؟ قال : لا ، قال : أفمنكم شَيْبَةُ الحمد مُطْعِم طير السماء الذى كَانَ بوجهه قرأ يضيء ليل الظلام الدَّاجِى ؟ قال : لا ، قال : أفمن المفيضين بالناس أنت ^(٢) ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل النَّدْوَةِ أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الرِّقَادَةِ ^(٣) أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الْحِجَابَةِ أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل السَّقَايَةِ ^(٤) أنت ؟ قال : لا .

واجتذب أبو بكر زِمَامَ ناقته ورجع إلى رسول الله ، فقال دَغْلَل :

صادف دَرَّ السَّيْلِ دَرًّا يَدْفَعُهُ يَرْفَعُهُ حِينَئِذٍ وَحِينَئِذٍ يَضَعُهُ

أما والله لو ثبت لأخبرتُك أنك من زَمَعَات ^(٥) قريش ، أو ما أنا دَغْلَل ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال على : قلت لأبى بكر : لقد وقعت من الأعرابى على بَاقِعَةٍ ^(٦) ، قال : أجل ! إن لكل طائفة طامة ، وإن البلاء مَوْكَلٌ بِالْمَنْطِقِ ^(٧) .

(١) مسنتون : مجديون ، والأعجف : الهزيل (٢) الإفاضة من مناقب قريش فى الجاهلية ، وكانت فى آل صفوان ، ثم انتقلت إلى عبد الدار ولإبهم كانت السدانة . (٣) كانت لى نوفل . (٤) كانت لى هاشم فى العباس بن عبد المطلب وكذلك الحجابة . (٥) أصل الزمعات : الزوائد براء الأرساغ . (٦) داهية كيس . (٧) ذهبت مثلا .

١٦ - مُعَاقِرَةٌ *

أُسْنَتَ ^(١) بنو تميم زمن علي بن أبي طالب؛ فالتجّعوا أرضاً من أرض كلب من طرف السماوة، فصنع غالب بن صعصعة - وهو أبو الفرزدق - طعاماً، ونحَرَ نحائره، وجفّنها ^(٢) في جفان، وجعل يُقسّمها على أهل المزايّا ^(٣).

فأنت جفّنةٌ منها سُحيم بن وثيل الرياحي الشاعر، فكفّاها وضرب الخادم التي أثنى بها، واحتفظ ^(٤) غالب من ذلك، فعاتب سحياً؛ فسرى القول بينهما حتى تداعيا إلى المعاقرة ^(٥) - وكان سُحيم رجلاً فيه شنيعةٌ ^(٦) وأذى للناس، وكان الناس شأ في ^(٧) القلوب عليه - وكانت إبلة خوامس ^(٨) لم ترد.

ووردت إبلة غالب؛ فطفق غالب يعقرها، وطافت الوغدان ^(٩) والفتيان بالإبل، فجعلت تحوزها من أطرافها إليه، ومع الفرزدق هراوةٌ يردّ بها على أبيه، فيقول غالب: ردّ، أي بني، فيقول الفرزدق: اعقرِ أبتٍ؛ حتى نحرق سائرهما؛ وكانت مائتين.

فقال طارق بن ديسق - وكان يهاجى سحياً:

أبلغ سحياً إن عرّضتَ وجحدراً أن الحمازي لا يتأمّ قرادها

* ذيل الأملّى : ٥٢ ، بلوغ الأرب : ٣ - ٣٠

- (١) أسنت : أجدبوا (٢) جفن الناقة : نحرها وأطعم لحمها في الجفان (٣) أهل القدر (٤) غضب (٥) المعاقرة : هي أن يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه ، فيعقر هذا عدداً من إبلة ، ويعقر صاحبه ، فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه وعقره (٦) الشنيعة : سوء الخلق والفحش والبذاءة (٧) وغراء الصدور عليه (٨) الخمس من أظلام الإبل : أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع ، والإبل خوامس (٩) الوغدان : جمع وغد ، وهو خادم القوم .

أَقْدَحْتُمَا حَتَّى إِذَا أُورِيتُمَا لِلْحَرْبِ نَارًا كَخَبَا يُقَادُهَا
لَوْ كَانَ شَاهِدَنَا الْجَمِيلُ وَمَالِكٌ لَحَبَّتْ ^(١) لِقَاحٌ وَلَهُ أَوْلَادُهَا
أَطْرَدَتْهَا نَبِيًّا تَحْنُ إِفَالُهَا ^(٢) مِنْ أَنْ يَكُونَ لَسَيْفِهِ إِيرَادُهَا
فَأَقْبَلَتْ إِبِلُ سُحَيْمٍ حَتَّى وَرَدَتْ عَلَيْهِ ، فَأَوْرَدَهَا كُنَاسَةً ^(٣) السَّكُوفَةَ . وَجَعَلَ
يَقْرُهَا وَهُوَ يَقُولُ :

كَيْفَ تَرَى جُحَيْدِرًا يَرَعَاهَا . بِالسَّيْفِ يُخْلِيهَا إِذَا اسْتَخْلَاهَا
* يَنْتَرُ الْجَزِيرَ ^(٤) مِنْ ذُرَاهَا *
فَلَمْ يَنْفَعَهُ عَقْرُهُ إِيَّاهَا ، وَقَدْ سَبَقَهُ غَالِبٌ بِالْعَقْرِ .

(١) اللّعب : الطريق الواضح ، ولعب الطريق : سلكه (٢) الإفال : جمع أفيل ، التفصيل
(٣) كناسة السكوفة : عملة بها .
(٤) أصل الجزيرة : خصلة من صوف .

٥٢ — قد كان يسوءني أن تكون أميراً*

دخل صمصمة^(١) بن صوحان على معاوية أول ما دخل عليه ، وقد كان يبلغ معاوية عنه كلام ، فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : رجل من نزار . قال : وما نزار ؟ قال : إذا غزا احتش^(٢) ، وإذا انصرف انكش ، وإذا لقي افتش .

قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة ؟ قال : كان يغزو بالخليل ، ويُغير بالليل ، ويجود بالنيل .

قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من أسد . قال : وما أسد ؟ قال : كان إذا طلب أفضى^(٣) ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى^(٤) :

قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من جديلة ؟ قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد^(٥) ، ويُعدّ الجياد ، ويجيد الجلال^(٦) .

قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من دُعْمَى . قال : وما دُعْمَى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشرّاً قاطعاً ، وخيراً نافعاً .

* بلوغ الأرب : ٣ - ٢٠٥ ، صبح الأعشى : ١ - ٢٥٤ ، مروج الذهب : ٢ - ٧٧ ،
الأمالي : ٢ - ٢٣٠

(١) صمصمة بن صوحان : كان خطيباً بليغاً له شهر . شهد صفين مع علي ، وله مع معاوية مواقف ومات نحو سنة ٦٠ هـ . (٢) احتش : جمع وكشب (٣) أفضى للأنهى : وصل .
(٤) أنضى بمره : هزله ، وثوبه أبلاه (٥) النجاد : حائل السيف .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى ، قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات^(١) ، ويكثر الغارات ؛ ويحصى الجارات .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال : وما عبد القيس ؟ قال : أبطال ذادة ، جحاجة^(٢) قادة ، صناديد سادة .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ذا رماح مشرعة ، وقدور مثرعة^(٣) ، وجفان مفرغة .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من لكيز . قال : وما لكيز ؟ قال : كان يباشر القتال ، ويمانق الأبطال ، ويبدد الأموال :

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عجل : قال : وما عجل ؟ قال : الليوث الضراغة^(٤) ، الملوك القماة^(٥) ، والقروم القشاعة^(٦) .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من كذب ، قال : وما كذب ؟ قال : كان يسعر^(٧) الحرب ، ويمجد الضرب ، ويكشف الكرب :

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك : قال : وما مالك ؟ قال : ألهمام للهمام ، والقمام للقمام .

قال معاوية : والله ما تركت لهذا الحى من قریش شيئاً ! قال : بل تركت أكثره وأحبّه . قال : وما هو ؟ قال : تركت لهم الوبر والمدار^(٨) ، والأبيض

(١) القارات : جمع قارة ؛ وهى الجبل الصغير . (٢) جحاجة : جمع جججج : السيد . (٣) هرة : مملوءة (٤) جمع خرغام : الأسد (٥) جمع ققام : السيد (٦) القرم : السيد ، والقشم : الأسد أو الرجل المسن ، ويقصد المهرب (٧) سمر الحرب : أو قدما (٨) كناية عن البادية والذن .

والأصفر ، والصفاء والمشرق ^(١) ، والقُبَّة والمفخر ، والسرير والمنبر ، والمُلْك إلى المحشر .

فقال: أما والله لقد كان يسوءني أن أراك أسيراً . فقال : وأنا والله لقد كان يسوءني أن أراك أميراً . ثم خرج ، فبعث إليه فردّه ووصله وأكرمه .

٥٣ — لترجمنّ بأكثر مما آب به معدّي*

كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائي ممن وفد على رسول الله ، ثم صَحِبَ علياً ، وشهد معه صفين ^(٢) ، وكان من رجاله المشهورين ، ثم وفد على معاوية ، فدخل عليه في جملة الناس .

فلما انتهى إليه استنسبه ^(٣) فانتسب له فقال له : أنت صاحب ليلة الهرير ^(٤) ؟ قال : نعم ! قال : والله ما تخلو مسامعي من رجزك تلك الليلة ، وقد علا صوتك أصوات الناس ، وأنت تقول :

(١) الشعر : موضع مناسك الحج .

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٤٩ .

(٢) موضع قرب الرقة بشاطئ الفرات كانت به الموقعة العظمى بين علي ومعاوية في صفر سنة ٣٧ هـ .
(٣) استنسه : سأله أن ينتسب . (٤) سمرت بين علي ومعاوية السفراء : لم يصلحوا بين الفريقين ولكن ذهب سعيهم سدى ، فابتدأ القتال ثانية في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هجرية من غير أن يقف كلا الفريقين وجهاً لوجه ، بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هناك إذا مضت سبعة أيام قال على لجندته : حتى لا تناهض هؤلاء القوم بجمعنا ! فباتوا يصلحون أمرهم ، وفي الصباح زحف على بجنوده ، وزحف معاوية بجنوده ، واقتتل الفريقان ، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم ولا أمسى المساء لم ينفصلا ، بل استمر القتال شديداً طول الليل ، ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير .

شُدُّوا فداءَ لكم أُمِّي وَأَبِي فَإِنَّمَا الْأَمْرُ غَدًا لِمَنْ غَلَبَ
هَذَا ابْنُ عَمِّ الْمِصْطَفَى وَالْمُنْتَخَبِ تَنْشِيهِ لِلْعِلْيَاءِ سَادَاتِ الْعَرَبِ
لَيْسَ بِمَوْصُومٍ إِذَا نُصِرَ^(١) النَّسَبَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَاقْتَرَبَ
قَالَ : نَعَمْ . أَنَا قَاتِلُهَا . قَالَ : فَلِمَ إِذَا قَاتَلْتَهَا ؟ قَالَ : لِأَنَّا كَفَا مَعَ رَجُلٍ لَا نَعْلَمُ
خَصْلَةً تَوْجِبُ الْخِلَافَةَ وَلَا فَضِيلَةً تُصِيرُ إِلَى التَّقْدِيمَةِ إِلَّا وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ . كَانَ أَوَّلُ
النَّاسِ سِلْمًا^(٢) ، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا ، وَأَرْجَحُهُمْ حِلْمًا ، فَاتَّ الْجِيَادُ فَلَا يُشْقُ غُبَارُهُ ،
وَأَوْضَحَ مِنْهُمْ الْهَدَى فَلَا يَبِيدُ مَنَارُهُ ، وَسَلَكَ الْقَصْدَ فَلَا تَدْرُسُ آثَارُهُ ، فَلَمَّا ابْتَلَانَا
اللَّهُ تَعَالَى بِافْتِقَادِهِ ، وَحَوَّلَ الْأَمْرَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ دَخَلْنَا فِي جَمَلَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛
فَلَمْ نَنْزِعْ بَدَأً عَنْ طَاعَةِ ، وَلَمْ نَصْدَعْ صَفَاةَ جَمَاعَةٍ .

عَلَى أَنَّ لَكَ مَنَّا مَا ظَهَرَ ، وَقُلُوبُنَا بِيَدِ اللَّهِ ، وَهُوَ أَمْلَكُ بِهَا مِنْكَ ؛ فَاقْبَلْ
صَفْوَنَا ، وَأَعْرِضْ عَنْ كَدَرِنَا ، وَلَا تُنْزِكُوا مِنَ الْأَحْقَادِ ؛ فَإِنَّ النَّارَ
تُقَدِّحُ بِالزُّنَادِ .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : وَإِنَّكَ لَتَهْدِدُنِي يَا أَخَا طَيْئِ بَأَوْبَاشِ^(٣) الْعِرَاقِ ، أَهْلُ النِّفَاقِ
وَمَعْدَنُ الشَّقَاقِ ، قَالَ : يَا مَعَاوِيَةُ ، هُمُ الَّذِينَ أَشْرَقُواكَ بِالرِّيقِ ، وَجَبَسُواكَ فِي الْمَضِيقِ ،
وَذَادُواكَ عَنْ سَنَنِ الطَّرِيقِ ، حَتَّى لُذْتَ مِنْهُمْ بِالْمَصَاحِفِ ، وَدَعَوْتَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَقِ
بِهَا وَكَذَّبْتَ ، وَمَنْ آمَنَ بِمَنْزِلِهَا وَكَفَرْتَ ، وَعَرَفَ مِنْ تَأْوِيلِهَا
مَا أَنْكَرْتَ .

فَنَضِبَ مَعَاوِيَةُ ، وَأَدَارَ طَرْفَهُ فِيمَنْ حَوْلَهُ ، فَإِذَا جُلُومٌ مِنْ مُضَرٍّ وَفَرٌ قَلِيلٌ مِنَ
الْبَحِينِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الشَّقِيُّ الْخُلَائِنُ ، لِإِخْلَالِ أَنْ هَذَا آخِرُ كَلَامٍ تَفَوَّهْتَ بِهِ .

(١) كُلُّ مَا أَظْهَرَ فَقَدْ نَصَ (٢) السُّلْمُ : الْإِسْلَامُ (٣) الْأَوْبَاشُ : الْأَخْلَاطُ .

وكان عقير بن ذى يزن يباب معاوية حينئذ فعرف موقف الطائي ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على اليمانية ، فقال : شأنت الوجوه ذُلًّا وقُلًّا^(١) ، وجَدَعًا وقُلًّا!

ثم التفت إلى معاوية فقال : إى والله يا مُعاوية ، ما أقول قولى هذا حبًّا لأهل العراق ، ولا جُنوحًا إليهم ، ولكن الحفيظة^(٢) تُذهب الغضب .

لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا ريعة - يعنى صفصة بن صوحان - وهو أعظمُ جرماً عندك من هذا ، وأذكى قلبك ، وأفدح فى صفاتك ، وأجدُّ فى عداوتك ، وأشدُّ انتصاراً فى حربك ، ثم أثبتته وسرَّحته ، وأنت الآن مُجمعٌ على قتل هذا ، زعمت استصغاراً لجماعتنا ، وأنا لا نمرُّ ولا نُحلي^(٣) ، ولعمري لو وُكِّلَتْك أبناء قحطان إلى قومك لكان جدك العائر ، وذكرك الدائر ، وحدك المفلول ، وعرشك المثلول ، فازيغ^(٤) على ظلمك ، واطوينا على بُلالتنا^(٥) ، ليسهل لك حزننا ، وبطمئن لك شاردنا ، فإننا لا نرام بوقع الضيم ، ولا نتلمظ^(٦) جرع الخسف ، ولا نفمر بفمار الفتن ، ولا ندرُّ على الغضب .

فقال معاوية : الغضبُ شيطان ، فازيغ على نفسك أيها الإنسان ، فإننا لم نأت إلى صاحبك مكروهاً ، ولم نرتكب له مُغضباً ، ولم ننتهك منه محرماً ، فدُونكه ، فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره .

(١) القل : القالة (٢) الحفيظة : الحمية (٣) يقال فلان ما يمر وما يحلى : أى لا يضر ولا ينفع (٤) ازيغ على ظلمك : ارفق على نفسك فإنك ضعيف فاته عما لا تطيقه . (٥) يقال : طويت فلاناً على بللانه ، وفتح اللام أيضاً : إذا احتملته على ما فيه من الإساءة والعيب ، وداريته وفيه بنية . (٦) تلمظ : تذوق .

فأخذ عفير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله اثنوبنٌ بأكثر مما آتب به معدّي .

وجمع من بدمشق من اليمانية ، وفرض على كل رجل دينارين في عطائه فبلغت أربعين ألفاً ، فتمجّلها من بيت المال ، ودفعها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .

٥٤ — مات كُشِفُ الأيامُ منك إلا عن سيفٍ صَقِيلٍ*

وقد عبّد الله بن عباس على معاوية مرّة ، فقال معاوية لابنه يزيد ولزّاد بن سُمَيَّة وعُتْبَةَ بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس ، وما كان شَجَرَ يَنْتُنَا وبينه وبين ابن عمّه ^(١) ، ولقد كان نصبه للتحكيم فدَفِعَ عنه ^(٢) ؛ فحرّ كوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته ، ونقف على كنه معرفته ؛ ونعرف ما صُرِفَ عنا من شَبَابٍ حَدِّه ، ووُورَى عنا من دَهَاءٍ رَأْيِهِ ؛ فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه ، وأُعْطِيَ من النِّقَمِ والاسم ما لا يستحقّه .

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس ، فلما دخل واستقرّ به المجلس ابتدأ ابنُ أبي سفيان ، فقال : يا بن عباس ، ما منع عليّاً أن يوجّه بك حَكَمًا ؟ فقال :

* ابن أبي الحديد : ٢ - ١٠٥ .

(١) يريد على بن أبي طالب (٢) حينما خرج الخوارج على علي بن أبي طالب وأصروا على التحكيم أشار بابن عباس أو الأشتر حكماً ، ولكنهم أبوا إلا التحكيم أبي موسى الأشعري .

أما والله لو فعل لَقَرَنَ عمرًا بصَعْبَةٍ^(١) من الإبل يوجع كتفيه مِرَاسُهَا^(٢)، ولأذهلتُ عقله^(٣)، وأَجْرَضَتْهُ بِرِيقِهِ^(٤) وَقَدَحْتُ فِي سَوِيدَاءِ قَلْبِهِ ؛ فلم يُبْرِمْ أَمْرًا ، ولم يَنْفُضْ تَرَابًا إِلَّا كَفَتُ مِنْهُ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ ، فَإِنْ نَسَكْتَهُ أَرَمْتُ^(٥) قَوَاهُ ، وَإِنْ أَرَمَهُ فَصَمْتُ^(٦) عَرَاهُ ؛ بِغَرَبٍ مَقُولٍ^(٧) لَا يَقُلُّ حَدَّهُ ، وَأَصَالَةٍ رَأَى كَمَتَّاحٍ^(٨) الْأَجَلَ لَاوَزَرَ مِنْهُ ، أَصْدَعُ بِهِ أَدِيمَهُ ، وَأَقْلُّ بِهِ شِبَا حَدَّهُ ، وَأَشَحَذُ بِهِ عِزَائِمَ الْمُتَقِينَ ، وَأُزِيحُ بِهِ شِبَهَ الشَّاكِّينَ .

فقال عمرو بن العاص : هذا والله يا أمير المؤمنين نُجُومٌ^(٩) أَوَّلُ الشَّرِّ ، وَأَفْوَلُ آخِرِ الْخَيْرِ ، وَفِي حَسَمِهِ قَطْعُ مَادَتِهِ ؛ فَبَادِرُهُ بِالْحِمْلَةِ ، وَانْتِهَازُهُ مِنَ الْفُرْصَةِ ، وَارْدَعُ بِالْتَّنْكِيلِ بِهِ غَيْرَهُ ، وَشَرُّذُ بِهِ مِنْ خَلْفِهِ .

فقال ابن عباس : يَا بَنِ النَّابِغَةِ ؛ ضَلَّ اللَّهُ عَقْلَكَ ، وَسَفِهَ حِلْمَكَ ، وَنَطَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ ! هَلَا تَوَلَّيْتَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ يَوْمَ صَفَّيْنِ ، حِينَ دُعِيتَ نَزَالَ^(١٠) ، وَتَكَافَحَ الْأَبْطَالُ ، وَكَثُرَتْ الْجَرَاحُ ، وَتَقَصَّفَتِ الرِّمَاحُ ، وَبَرَزَتْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُصَاوِلًا ، فَأَنكَفَأَ نَحْوَكَ بِالسَّيْفِ حَامِلًا ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الْكَوَاثِرَ^(١١) مِنَ الْمَوْتِ أَعَدَدْتَ حِيلَةَ السَّلَامَةِ قَبْلَ لِقَائِهِ ، وَالْإِنْكَفَاءَ عَنْهُ بَعْدَ إِجَابَةِ دُعَائِهِ ، فَفَتَحْتَهُ - رَجَاءَ النِّجَاةِ - عَوْرَتَكَ ، وَكَشَفْتَ لَهُ - خَوْفَ بَأْسِهِ - سَوَاتِكَ ؛ حَذَرًا أَنْ يَصْطَلِمَكَ بِسَطْوَتِهِ ، أَوْ يَلْتَهِمَكَ بِحِمْلَتِهِ :

(١) الصعبة : مؤنث صعب ، والصعب من الدواب تقيض القلول . (٢) مِرَاسُهَا : علاجها (٣) جَرَضَ بِرِيقِهِ : ابتلعه بمجهد (٤) أَرَمَ قُوَّتَهُ : أضعفها وإينها (٥) يقال أَرَمَ الْحَبْلُ : قُتِلَ مَدِيدًا ، فَصَمْتُ : حَلَّتْ (٦) الْغَرَبُ : حَدُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْمَقُولُ : اللِّسَانُ (٧) الْأَجَلَ الْمَتَّاحَ : الْمَقْدَرُ (٨) نُجُومٌ : ظُهُورُ (٩) أَيْ حِينَ قَالَ الْأَبْطَالُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : نَزَالَ . (١٠) الْكَوَاثِرُ : جَمْعُ كَوَثَرٍ ، وَهُوَ الْكَثِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

ثم أشرت على معاوية كالتصريح له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكائحه ،
رجاء أن تكفى مثوته وتقدم صورته ؛ فعلم غل صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق
أضلمك ، وعرف مقرر سهمك في غرضك ؛ فأكف غرب لسانك ، وأقمع
عوزاء^(١) لفظك ، فإنك بين أسد خادر ، وبحر زاخر ؛ إن تبرزت^(٢) للأسد
افترسك ، وإن نمت في البحر قمستك^(٣) .

فقال مروان بن الحكم : يا بن عباس ؛ إنك لتصرف^(٤) نأبك ، وتورى نارك ،
كانك ترجو الغلبة ، وتؤمل العافية ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناول لكم
بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٥) ؛ ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن
بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائمكم^(٦) فقديماً نسب إلى ذلك .

فقال ابن عباس : وإني لآقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ، والمباح
دمه^(٧) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه^(٨) وركوب أثباجه^(٩) !
أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره .
وأما قولك لي : إنك لتصرف نأبك وتورى نارك ، فسل معاوية وعمراً يخبراك
ليلة الهرير^(١٠) ، كيف ثباتنا للثلاث^(١١) ، واستخفافنا بالمضلات ، وصدق جلا دنا
عند المصاولة ، وصبرنا على اللاؤاء^(١٢) والمطاولة ، ومصاحفتنا بجباهنا السيوف المرفهة ،

(١) الموراء : الكلمة أو الفعل القبيحة (٢) تبرز : برز وخرج إلى القفار (٣) القمس :
الغلبة بالنوم (٤) الصرف : صوت الأنياب ، يقال : صرف نابه وبنايه ، إذا صوت بها .
(٥) الصدر : الرجوع (٦) الجريرة : الذنب (٧) في فتنة عثمان (٨) جم ودج ، وهو العرق
الذي يقطعه الذابغ (٩) الشج : ما بين السكاهل إلى الظهر ووسط الشئ ومعلمه (١٠) ليلة الهرير
هي تلك الليلة التي استمر فيها القتال طول الليل بين أنصار معاوية وعلى في حرب صفين وأوشك
جيش على أن تكون له الغلبة (١١) جمع مثلة (بضم التاء وسكونها) ، من مثلت بالقتل إذا
فعلت به (١٢) اللاؤاء : الشدة .

ومباشرتنا بنحورنا حدَّ الأُسنة ؛ هل خنأ^(١) عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل
مُهَجَّنَا للتلطف ! وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود ، ولا يومٌ مشهود ، ولا أثرٌ
معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلقك ؛ فازرع^(٢) على ظلمك ، ولا تتعرض
لما ليس لك ؛ فإنك كالغروز في صفد^(٣) ، لا يهبط برجل ، ولا يرفأ^(٤) بيد .

فقال زياد : يا بن عباس ؛ إني لأعلم مامنع حسناً وحسيناً من الوفود معك على
أمير المؤمنين إلا ماسولتَ لهما أنفسهما ، وغرهما به من هو عند البأساء يُسلمُهُما^(٥) .
وايم الله لو وليتهما لأذأبا^(٦) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بمكانهما
لُبْنُهُما .

فقال ابن عباس : إذن والله يقصر دونهما باعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو
رُمْتَ ذلك لو جدت من دونهما فئة صدقاً^(٧) صُبراً على البلاء ، لا يخيمون عن اللقاء ،
فلعر كوك بكلا كلمهم^(٨) ووطئوك بمناسمهم^(٩) ، وأوجرؤك مشق^(١٠) رماحهم
وشفَارَ سيوفهم ، ووخرَ أسنَّتْهم ، حتى تشهد بسوء ما أتيت ، وتبين ضياع الحزم
فيما جنيت ؛ فحذار حذار من سوء النية ؛ فإنها ترد الأمانة ، وتكون سبباً لفساد
هذين الحيين بعد صلاحهما ، وسعيًا في اختلافهما بعد ائتلافهما ، حيث لا يضرهما
إِنْسَاسُك ، ولا يُغنى عنهما إِيْنَاسُك^(١١) .

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : لله درُّ ابن ملجَم^(١٢) ! فقد بَلَغَ الأمل ،

(١) خام عنه : تكس وجين (٢) اربع على ظلمك : ارقق على نفسك واسكت على ما بك .
(٣) الصفد : الوثاق (٤) يقال : رفأ في الدرجة ، أى صعد (٥) أسلمه : خذله (٦) أذأبا :
أجهدا (٧) أى ذات صدق وصبر (٨) بكلا كلمهم : بصدورهم (٩) المنسم : خف البعير
(١٠) يقال : أوجره الرمح ، أى طعنه به في فيه . والمشق : الطعن الخفيف السريع .
(١١) الإيْناس أن يقال للناقة عند الحلب : يس يس ، والإيْناس : خلاف الإيْناش .
(١٢) هو عبد الرحمن بن ملجم قاتل على .

وَأَمِّنَ الْوَجِلَ، وَأَحَدَ الشَّفَرَةِ ، وَالْآنَ الْمُهَرَّةَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَنَفَى الْعَارَ ، وَفَازَ بِالْمَنْزِلَةِ الْعُلْيَا ، وَرَقِيَ الدَّرَجَةَ الْقُضْوَى .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَعَ كَأْسَ حَتْفِهِ بِيَدِهِ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بِرُوحِهِ ؛ وَلَوْ أَبْدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ لَأَلْقَاهُ صَابَأً ^(١) ، وَسَقَاهُ سِمْامًا ^(٢) ، وَالْحَقُّهُ بِالْوَلِيدِ وَعَتْبَةِ وَحَنْظَلَةَ ^(٣) ، فَكُلُّهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً ، وَأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَفَرَى بِالسَّيْفِ هَامَهُمْ ^(٤) ، وَرَمَلَهُمْ ^(٥) بِدُمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذَّنَابَ أَشْلَاهُمْ ^(٦) ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ، أَوْلَيْكَ حَصَبُ ^(٧) جَهَنَّمَ لَهَا وَارِدُونَ فَهَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ^(٨) ! وَلَا غَرْوًا إِنْ خُتِلَ ، وَلَا وَصْمَةً إِنْ قُتِلَ .

فَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرَتْ عَلَى عَلِيٍّ بِالنَّصِيحَةِ ، فَأَثَرَتْ رَأْيَهُ ، وَمَضَى عَلَى غُلَوَائِهِ ، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَإِنِّي لِأَحْسِبُ أَنَّ خَلْفَهُ يَقْتَدُونَ بِمَنْهَجِهِ .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَعْلَمَ بِوُجُوهِ الرَّأْيِ ، وَمَعَاقِدِ الْحَزْمِ ، وَتَضَرِيفِ الْأُمُورِ ، مِنْ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَتَكَ فَيَأْمُرَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْفَ عَلَيْهِ : قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى ذِكْرِ مَبِينٍ ، وَآيَةٍ مَتْلُوءَةٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ . وَهَلْ كَانَ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يُحْكَمَ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي الْمُسْلِمِينَ

(١) الصاب : عصارة شجر مر (٢) السيام : جمع سم (٣) هؤلاء قتلوا يوم بدر .
(٤) جمع هامة ، وهي الرأس (٥) رملهم : اطمأنهم (٦) الأشلاء : جمع شلو ، وهو العضو
(٧) الحصب : ما يرى في النار (٨) الركن : الصوت الخفى .

من ليس بأمينٍ عنده ، ولا موثوقٍ به في نفسه ، هيئات هيئات ! هو أعلم بفرضِ الله وسنةِ رسوله أن يُبْطِنَ خلافَ ما يظهر إلا للتقية^(١) ، ولاتَ حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ؛ يمضى كالسيف المصلّت^(٢) في أمرِ الله ، مؤثراً لطاعةِ ربه والتقوى على آراءِ أهلِ الدنيا .

فقال يزيد بن معاوية : يا ابنَ عباس ! إنك لتنطقُ بلسانٍ طلق^(٣) ، تنبئُ عن مكنونِ قلبٍ حرق^(٤) ، فاطورٍ ما أنت عليه كَشَعًا ، فقد محاضوه حقنا ظلمةً باطليكم .

فقال ابنُ عباس : مهلاً يزيد ! فوالله ما صفتِ القلوبَ لكم منذ تكذّرتُ بالعداوةِ عليكم ، ولا دَنتُ بالحبّةِ إليكم منذ نأتُ بالبنضاءِ عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ^(٥) الأيامُ نستقصِ ما شذّ عنا ، ونسترجع ما ابتزّ منا ، كيلاً بكيّل ، ووَزَنًا بوزن ؛ وإن تكن الأخرى فكفى بالله ولياً ووكيلاً على المعتدين علينا !

فقال معاوية : إن في نفسى منكم لحزازاتٍ يا بني هاشم ، وإني لخليق أن أدركَ فيكم النارَ ، وأتقيّ العارَ ؛ فإن دماءنا قَبَلَكُم ، وظلامتنا فيكم .

فقال ابنُ عباس : والله إن رُمّتَ ذلكَ يا معاوية لتثيرنَ عليك أسداً مُخَدَّرَةً^(٦) ، وأفاعى مُطْرِقَةً لا يَفْتَوُها^(٧) كثرةُ السلاح ، ولا تعضُّها نكايةُ الجراح ، يضعون أسياهم على عواتقهم ، يضربون قُدُماً قُدُماً من ناوَأهم ، يهون عليهم نُبَاح الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لا يقاتون بوتراً ، ولا يسبقون إلى كريمِ ذِكر ، قد

(١) التقية : المحافظة على النفس (٢) المصلت : المسلول (٣) طلق : ذلق (٤) حرق : عروق (٥) يقال : أداله الله من عدوه ، نصره عليه (٦) أخدر الأسد : لزم الأجمة . (٧) المراد : لا يسكنها .

وطنوا على الموت أنفسهم ، وسميت بهم إلى العلياء همهم كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهدوا الهياج فلا ضَرْبٌ يُنْهِيهِمْ ولا زَجْرٌ

وكانهم آسادُ غِيْنَةٍ ^(١) قد غَرِثَتْ ^(٢) وبِلَّ متوتها القطرُ

فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهريير للهرب فرسك ، وكان أكبرُهمك
سلامة حُشاشة نفسك ، ولولا طغَامٌ ^(٣) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ، وبذلوا
دونك مهجهم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشَّقَار ، وأيقنوا بحلول الدمار ، رفعوا المصاحف
مستجبرين بها ، وعائذين بعصمتها ، لكنت شلوا مطروحاً بالعرَاء ، تسفى عليك
رياحها ، ويعتورك ذئابها .

وما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمتك ، ولا إزالتك عن معقود نيتك ،
لكن الرحم التي تعطف عليك ، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك !
فقال معاوية : لله درك يا بن عباس ! ما تكشف الأيامُ منك إلا عن سيفٍ
صقيل ، ورأى أصيل ؛ وبالله لو لم يلد هاشمٌ غيرك لما نقص عددهم ، ولو لم يكن
لأهلك سواك لكان الله قد كثَّرم .

ثم نهض ابنُ عباس وانصرف .

(١) الغينة : الأجمة (٢) غرثت : جاعت (٣) الطغام : آوفاذ الناس .

٥٥ — لولا ما جعل الله لنا في يدك ما أتيناك *

بيننا معاوية جالس يوماً وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذِن : قد جاء عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأته اليوم ! فقال معاوية : لا تفعل ! يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف^(١) منه ، ولعلك إن تفعل تظهر لنا من منقبتِه^(٢) ما هو خفي عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه .

وغشيهم عبد الله بن جعفر ، فأذنَّاه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فنال من عليٍّ جهاراً غير ساتر له ، وثلبه ثلباً قبيحاً ؛ فالتع لُونُ عبد الله واعتراه أفكل^(٣) حتى أُرعدتْ خَصائِلُه^(٤) ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْقِ^(٥) ؛ فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ! فقال عبد الله : مه ، لا أم لك ! ثم قال :

أظنُّ الحلم دلاً على قومي وقد يتجهل الرجلُ الحليمُ

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال : يا معاوية ؛ حَتَّامٌ تتجرع غيظك ، وإلام الصبرُ على مكروه قولك وسينُ أدبك ، وذميم أخلاقك ، هبَلَتِكَ الهَبُولُ^(٦) ! أما يزجرك ذِمَامُ الجالسة عن القَدْعِ لجليسك إذا لم تكن حُرْمَةً من دينك تنهاك عما لا يجوزُ لك ؟ أما والله لو عطفتك أو اصرُّ الأرحام ، أو حاميت على سهمك من

* ابن أبي الحديد : ٢ - ٩٠٤ .

(١) انتصف منه : استوفى حقه منه كاملاً (٢) المنقة : الفخرة (٣) الأفكل : الرعدة (٤) الحصاة : كل قطعة من لحم عظمت أو صغرت ، وجمعا الخصال (٥) الفنيق : الفعل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله (٦) هبل : نكل ، والهبول : هي من النساء التي لا يبق لها ولد

الإسلام ، ما أرعيتَ بنى الإمام أغراض قومك ؛ وما يجهل موضع الصفوة إلا أهل الجفوة .

وإنك لتعرف قريشاً وصفوة غرائزها فلا يدعوك تصويب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين إلى التمدى فيما قد وضع لك الصواب في خلافه ؛ فاقصد لمنهج الحق ؛ فقد طال عمهك ^(١) عن سبيل الرشd ، وخبطك في دنجور ظلمة النى ؛ فإن أبيت ألا تتابعنا فأعفنا من سوء القالة فينا ، إذا ضمنا وإياك الندى ^(٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله جسيبك ! فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك .

ثم قال : إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ما ستر منى من خلق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ؛ نغبر الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن ، لعن الله من أخرج ضب صدرك من وجاره ^(٣) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن تحتدك ومنصبك لكان خلقتك وخلقتك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين ، وسيد بنى هاشم .

فقال عبد الله : بل سيد بنى هاشم : حسن وحسين ، لا ينازعهما فى ذلك أحد . فقال : يا أبا جعفر ؛ أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت ! ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا المجلس فلا !

ثم انصرف فأتبعه معاوية بصره ، فقال والله لكانه رسول الله فى مشيته وخلقه وخلقه ، وإنه لمن مشكاته ^(٤) ؛ ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

(١) العمه : التردد فى الضلال (٢) الندى : مجلس القوم (٣) الوجار : جحر الضبع وغيرها (٤) أى أنهما من شىء واحد .

ثم التفت إلى عمرو فقال : يا أبا عبد الله ؛ ما تراه منعه من الكلام معك !
قال : ما لا خفاء به عنك ! قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ، لا والله ،
ولكنه ازدراك واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلاً ، أما رأيت إقباله على
دونك ، ذاهباً بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟
فقال معاوية : أرغب إليك يا أبا عبد الله ؛ فلات حين جواب فيما يرى اليوم ،
ونهض معاوية وتفرق الناس .

٥٦ — ذهب قريش بالملكوم والعلاء*

شَبَّبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانٍ بَرْمَلَةَ بِنْتَ مَعَاوِيَةَ فَقَالَ :

رَمَلُ ، هَلْ تَذَكَّرِينَ يَوْمَ عَزَّالٍ إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالتَّمَنَّى
إِذْ تَقُولِينَ : عَمَّرَكَ اللَّهُ ، هَلْ شَيْءٌ لَا وَإِنْ جَلَّ سَوْفَ يُسْلِيكَ عَنِّي !

وَبَلَغَ ذَلِكَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ؛ فَغَضِبَ ، وَدَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الْعِلْجِ ^(١) مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ يَتَهَكَّمُونَ بِأَعْرَاضِنَا ،
وَيَتَشَبَّبُونَ بِنِسَائِنَا ! قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانٍ ، وَأَنْشَدَهُ مَا قَالَ .
فَقَالَ : يَا يَزِيدُ ؛ لَيْسَتْ الْعُقُوبَةُ مِنْ أَحَدٍ أَقْبَحَ مِنْهَا مِنْ ذَوِي الْقُبُورَةِ ؛ وَلَكِنْ
أَمْهَلُ ، حَتَّى يَقْدَمَ وَقْدُ الْأَنْصَارِ ، ثُمَّ ذَكَّرْنِي .

فَلَمَّا قَدِمَ وَقْدُ الْأَنْصَارِ ذَكَرَهُ بِهِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ : يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ؛
أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكَ تَشَبَّبَ بَرْمَلَةَ بِنْتَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا
أَشْرَفَ بِهِ شَعْرَى أَشْرَفَ مِنْهَا لَذَكَرْتُهُ ! قَالَ : وَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ أَخْتِهَا هِنْدَ ؟ قَالَ :
وَإِنْ لَهَا لِأَخْتًا ! قَالَ : نَعَمْ - وَإِنَّمَا أَرَادَ مَعَاوِيَةَ أَنْ يَشَبَّبَ بِهِمَا جَمِيعًا فَيَكْذِبَ نَفْسَهُ -
فَلَمْ يُرْضَ يَزِيدٌ مَا كَانَ مِنْ مَعَاوِيَةَ .

فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ جَعْفَلٍ فَقَالَ : اهْجُ الْأَنْصَارَ ، فَقَالَ : أَفَرَّقَ ^(٢) مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَكِنْ أَدْلَكَ عَلَى الشَّاعِرِ الْكَافِرِ الْمَاهِرِ ، قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : الْأَخْطَلُ ^(٣) .

* الْأَغَانِي : ١٤ - ١٤٢ .

(١) الْعِلْجُ : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْفَلِيطُ (٢) أَفَرَّقَ : أَخَافَ (٣) الْأَخْطَلُ : شَاعِرٌ اشتهر في عهد
بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّمِّ وَأَكْثَرُ مَنْ مَدَحَ مُلُوكَهُمْ ، وَتَهَاجَى مَعَ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ فَتَنَاقَلَ الرُّوَاةُ شَعْرَهُ ،
تَوَفَّى سَنَةَ ٩٠ هـ .

فدعاه ، فقال : اهيج الأنصار ، قال : أفرق من أمير المؤمنين ، فقال :
لا تخف شيئاً ، أنا لك بذلك ، فهجّاهم فقال :

وإذا نسبت ابن الفُرَيْفَةِ ^(١) خِلْتَهُ كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصاةً بالجِزْع بين جَلَا جِلٍ وصرار ^(٢)
قومٌ إذا هَدَرَ العَصِيرُ رأيتهم حمرا عيونهم من المُنْطَار ^(٣)
خلوا المكارم لَسْتُمو من أهلها وخذوا مَسَاحِيَكُمْ ^(٤) بنى النجار
ذهبت قريش بالمكارم والملا واللوم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ؛ فدخل على معاوية فحَسَرَ عن رأسه عِمَامَتَهُ ،
وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أترى لوماً ؟ قال : لا ، أرى كرماً وخَيْراً ، ما ذاك ؟ قال :
زَعَمَ الأَخْطَلُ أن اللوم تحت عِمَامَتِنَا ، قال : أو فعل ! قال : نعم ، قال : لك لسانه .
وكتب فيه أن يُؤْتَى به ، فلما أُتِيَ به ، سأل الرسول ليدخلَ إلى يزيد أولاً ،
فأدخله عليه ، فقال : هذا الذي كنتُ أخاف ، قال : لا تخف شيئاً ، ودخل على
معاوية ، فقال : عَلَامُ أُرْسِلَ إلى هذا الرجل وهو يرمى من وراء بَجَرَيْنَا ^(٥) ! قال :
هجا الأنصار ، قال : وَمَنْ زَعَمَ ذلك ؟ قال : النعمان بن بشير . قال : لا يُقْبَلُ
قوله عليه ، وهو يدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالبيّنة ، فإن أثبت شيئاً أخذتَ به .
فدعاه بالبيّنة ، فلم يأت بها فخلّى سبيله ، فقال الأخطل في يزيد :

(١) الفريفة : هي أم حسان بن ثابت (٢) صرار : اسم جبل ، وجلجل : مكان
(٣) البطار من أسماء الحمر التي اعتصرت من أبكار الفنب (٤) المساحي : جمع مسحة وهي
المخرقة من الحديد (٥) الجرة : اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها .

صَحَا الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ ظَمَائِنِ فَاتَنِي يَهْنُ أَمِيرٌ مُسْتَبِدٌّ فَأَصْعَدَا ^(١)
 وَقَرَّبَنَ لِلْبَيْنِ الْجَمَالَ وَزِيَّنْتُ بِأَحْمَرٍ مِنْ لَكَّ ^(٢) الْعِرَاقَ وَأَسْوَدَا
 فَطِرْنِ بَوْحَشٍ مَاتُواثِيكَ بَعْدَ مَا دَنَتْ نَهْضَةُ الْبَازِي لِأَنْ يَتَصَيَّدَا
 وَإِنِّي غَدَاةَ اسْتَعْبَرْتُ ^(٣) أُمُّ مَالِكٍ لِرَاضٍ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَتَهَدَّدَا
 وَلَوْلَا يَزِيدُ ابْنُ الْمُلُوكِ وَسَيْيُئُهُ تَجَلَّاتُ حِدْبَارًا ^(٤) مِنَ الشَّرِّ أَنْكَدَا
 فَكَمْ أَتَقَدَّتْنِي مِنْ جَرُورٍ ^(٥) حِبَالُكُمْ وَخَرَسَاءُ ^(٦) لَوْ يَرْمِي بِهَا الْفِيلُ مُبَلَّدَا ^(٧) !
 إِلَى أَنْ قَالَ :

أَبَا خَالِدٍ ؛ دَافَعَتْ عَنِّي عَظِيمَةً وَأَدْرَكْتَ لِحْيَ قَبْلِ أَنْ يَتَبَدَّدَا
 وَأَطْفَاتُ عَنِّي نَارَ نُعْمَانٍ بَعْدَ مَا أَغْذَا لَأَمْرَ عَاجِزٍ وَنَجْرَدَا ^(٨)
 وَلَمَّا رَأَى النُّعْمَانُ دُونِي ابْنَ حُرَّةٍ طَوَى الْكَشْحَ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْنِي وَعَرَّدَا ^(٩)
 وَلَاقَى امْرَأَةً لَا يَنْقُضُ الْقَوْمُ عَهْدَهُ أَمْرَ الْقُوَى دُونَ الْوُشَاةِ ، وَأَحْصَدَا ^(١٠)

(١) أصعد : سار في أرض مرتفعة (٢) لك : أراد بها الجلود أو الثياب المصبوغة
 (٣) أراد بالوحش النساء ، والبازي نفسه (٤) استعبرت : جرت عبرتها ، وأم مالك : امرأة
 الأختل (٥) الحدبار : السنة المجدية ، ويستعار للأمر الصعب (٦) الجرور : البئر البعيدة النور
 (٧) الخرساء : الداهية (٨) بلد : لصق بالأرض (٩) النعمان بن بشير ، والإغذاذ : سرعة
 السير ، وأمر عاجز : شديد يعجز صاحبه (١٠) طوى الكشح : أضمر المداوة ،
 مرد : مرب (١١) أمر القوى : أحكم قتلها ، وكذلك أحصد .

٥٧ — لو ترك القطأ لنا*

تزوج عبدُ الله بن الزبير^(١) أم عمرو ابنة منظور بن زَبَّانِ الْفَزَارِيَّةِ ، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة : أَتَدْرِينَ مَنْ مَعَكَ فِي حَجَلَتِكَ^(٢) ! قالت : نعم ! عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : معك مَنْ أَصْبَحَ فِي قَرِيشَ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لا بل بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ .

قالت : أما والله لو أن بَعْضَ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى حَضَرَكَ لَقَالَ لَكَ خِلَافُ قَوْلِكَ . فغضب وقال : الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى حَرَامٍ حَتَّى أَحْضَرَكَ الْهَاشِمِيُّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَذَلِكَ إِنْكَاراً .

قالت : إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتِ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ .

فخرج إلى المسجد ، فرأى حَلَقَةً فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قَرِيشَ ، مِنْهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَصِينِ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنُ عَبْدِ مَنْفَى ، فَقَالَ لِمَ ابْنُ الزَّبِيرِ : أَحِبُّ أَنْ تَنْطَلِقُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي ، فقام القومُ جميعاً ، إِنْ حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ . فقال ابن الزبير : يَا هَذِهِ ؛ اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ .

* ابن أبي الحديد : ٢ - ٥٠١ .

(١) عبد الله بن الزبير : أول مولود في المدينة بعد الهجرة ببيع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ بيد موت يزيد بن معاوية وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ (٢) الحجلة : موضع يزين بالثياب والستور .

فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فتغذى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتكم لحديثٍ رَدَّتهُ عليّ صاحبةُ السّر ، وزعمتُ أنه لو كان بعضُ بني عبدمناف حضرنى لما أقرّ لى بما قلت . وقد حضرتم جميعاً . وأنتَ يا بنَ عباس ، ماتقول ؟ إني أخبرتها أن معها فى خدرها مَنْ أصبح فى قریش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العيين من الرأس ، فردّت عليّ مقالتي .

فقال ابنُ عباس : أراك قصدتَ قصدى ؛ فإن شئتَ أن أقول قلت ، وإن شئتَ أن أكفّ كففت ، قال : بل قل ، وما عسى أن تقول ؟ أأستَ تعلم أن أبى الزبير حوارى رسول الله ، وأن أمى أسماء بنتُ أبى بكر الصديق ذات النطّاقين ، وأن عمى خديجة سيدة نساء العالمين ، وأن صفية عمة رسول الله جدّتى وأن عائشة أم المؤمنين خالتى ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابنُ عباس : لا ، ولقد ذكرتُ شرفاً شريفاً ، وغزراً فاخراً ؛ غير أنك تفاخر منْ بفخره فخرتُ ، وبفضله سَمَوْتُ . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تَدْكُرْ غزراً إلا برسول الله وآله ، وأنا أولى بالفخر به منك !

قال ابنُ الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابنُ عباس : قد أنصف القارة^(١) من رآها ، نَشَدْتُكم الله أيها الحاضرون ؛ أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد فى قریش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرفَ فيها أم أسد ؟

(١) القارة : قبيلة ، وفى اللسان زعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى والآخر أسدى ، فقال القارى : إن شئتَ صارعتك ، وإن شئتَ سابقتك ، وإن شئتَ راميتك ، فقال الأسدى : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى وأنشد :

قد أنصف القارة من رآها إنا إذا ما فشة تلقاها
نرد أولاهنا على آخرها

قالوا : بل هاشم ! قال : أفعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا :
عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنافرن^(١) يابن الزبير وقد قضى عليك رسولُ الله لا قولَ هازلِ
ولو غيرنا يابن الزبير فخرته ولكنما ساميتَ شمسَ الأصائلِ
قضى لنا رسولُ الله بالفضل في قوله : « مَا أَفْتَرَقْتُ فِرْقَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي
خَيْرِهِمَا » ، فقد فارقناكَ من بعد قُصَى^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فِرقة الخير أم لا ؟
إن قلت : نعم خُصِمْتُ^(٣) ، وإن قلت : لا كُفِّرْتُ .

فضحك بعض القوم ؛ فقال ابنُ الزبير : أما والله لولا تحرُّمك^(٤) بطعامنا
يابن عباس لأغرقتُ جبينك قبل أن تقوم من مجلسك !

قال ابن عباس : ولم ؟ أباطل ! فالباطل لا يَغْلِبُ الحق ، أم بحق ! فالحق
لا يَخْشَى من الباطل .

فقالَت المرأة من وراء الستر : إني والله قد نهيتُ عن هذا المجلس فأبى إلا
ماتَرُون . فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببيعك ، فما أعظمَ الخطرَ ،
وما أكرمَ الخير !

فأخذ القومُ بيد ابن عباس - وكان قد عَمِيَ - فقالوا : انهض أيها الرجل فقد
أُحْمِتَهُ غير مرة ، فهض وهو يقول :

ألا يا قومَنا اِرْتَحِلُوا وسيروا فلو تُرِكَ القَطَأُ لَفَنا ونأما

(١) تماكني في الحسب وتفاخرني (٢) كان من أولاد قصى عبد العزى (ومن سلالة ابن
الزبير) وعبد مناف (ومن سلالة بنو هاشم) (٣) خُصِمْتُ : غلبت (٤) تحرُّمك : احتياؤك .

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطأ ؛ أَقِيلَ عَلَيَّ ، فما كنتَ لِتَدْعَنِي حَتَّى أَقُولَ ،
وأيُّمُ الله لقد عَرَفَ الأَقْوَامُ أَنِّي سابقٌ غيرُ مسبوقٍ ، وابنُ حَوَارِيٍّ ^(١) وصَدِيقٍ ،
مُتَبَجِّحٍ ^(٢) في الشرفِ الأُنِيقِ ، خيرٌ من طليقٍ ^(٣) وابنِ طليقٍ .

فقال ابنُ عباسٍ : هذا الكلامُ مردودٌ من امرئٍ حَسُودٍ ، فإن كنتَ سابقاً
فإِنِّي مَنْ سَبَقْتُ ؟ وإن كنتَ فاحراً فِيمَنْ فَخَرْتُ ؟ فإن كنتَ أدرَكَتَ هذا الفخرَ
بأسرتِكَ دونَ أسرتِنَا فالفخرُ لك علينا ، وإن كنتَ إنما أدرَكَتَهُ بأسرتِنَا فالفخرُ لَنَا
عليك ، والكُنْكَتُ ^(٤) في فمِكَ ويديكَ .

وأما ما ذَكَرْتَ من الطليقِ ؛ فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصِيرٌ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وَإِنْ
كَانَ - والله - وَفِيّاً كَرِيماً غَيْرَ نَاقِضٍ بَيْعَةٍ بَعْدَ تَوَكِيدِهَا ، وَلَا مُسْلِمٍ كَتَبَةَ بَعْدَ
التَّأَمُّرِ ^(٥) عَلَيْهَا .

فقال ابنُ الزبيرِ : أُنَعِّيرُ الزبيرَ بِالْجَيْنِ ! والله إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مِنْهُ خِلَافَ ذَلِكَ .
قال ابنُ عباسٍ : والله إِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنَّهُ فَرَّ - وَمَا كَرَّ - ، وَحَارِبٌ فَمَا صَبَرَ ، وَبَايَعَ
فَمَا تَمَّ ، وَقَطَعَ الرَّحِمَ ، وَأَنْكَرَ الْفَضْلَ ، وَرَامَ مَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ :

وَأَدْرَكَ مِنْهَا بَعْضَ مَا كَانَ يَرْتَجَى - وَقَصَّرَ عَنِ جَزَائِ الْكِرَامِ وَبَلَدِهَا ^(٦)
وَمَا كَانَ إِلَّا كَالْهَجِينِ أَمَامَهُ عِتَاقُ ^(٧) فَجَارِهِ الْعِتَاقِ . فَأَجْهَدَا

(١) الحواري في الأصل : كل مبالم في نصرة آخر ، وقد لقب الزبير بذلك . والصدیق : أبو بكر ،
وهو أبو أسماء أم عبد الله بن الزبير (٢) التَّبَجُّعُ : الافتخار والتعظيم (٣) يعرض بالعباس
ابن عبد المطلب ، وقد أسره المسلمون يوم بدر ، وقد أطلقه رسول الله بعد أن أخذ منه الفدية
(٤) الكُنْكَتُ : التراب (٥) يعرض بالزبير وقد بايع علي بن أبي طالب ثم نكس (٦) لم يتجه
لعمى ، وبخل ولم يجهد (٧) العتاق : جمع عتيق وهو الكريم من الخيل ، والمهجين : ما ليس عتيقاً

فقال ابن الزبير: لم يَبْقَ يابني هاشم غير المشائمة والمُضاربة . فقال عبد الله
ابن الحصين بن الحارث : أقناه عنك يا بَنَ الزبير ، وتأبى إلا منازعته ! والله
لو نازعتهُ من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسَّغْب^(١) الظَّمآن ، يفتح
فاه يستزیدُ من الريح ، فلا يشبع من سَغْب ، ولا يروى من عطش ، فقل : إن
شئتَ أوفدَع . وانصرف القوم .

(١) السغب: الجائمه .

٥٨ — مفاخرة ربيعة *

قال عبدُ الملك^(١) بن مروان يوماً لجلسائه : خَبِّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ،
فِيهِمْ أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسْخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ،
وَأَحْلَمُ النَّاسِ ، وَأَحْضَرُهُمْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي
قَرِيشٍ ، قَالَ : لَا ، قالوا : فِي حِمْيَرَ وَمَلُوكَهَا ، قَالَ : لَا . قالوا : فِي مِضَرَ ،
قَالَ : لَا .

قال مَصْقَلَةُ بْنُ رُقِيَّةِ الْعَبْدِيِّ : فَهِيَ إِذَنْ فِي رَبِيعَةَ ، وَنَحْنُ هُمْ . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ
جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

قال : نَعَمْ ، أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ فَحَكِيمٌ^(٢) بْنُ جَبَلَةَ ؛ كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَطَّعَتْ سَاقُهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا فَرَمَاهُ بِهَا ،
فَالْقَاءُ عَنْ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ حَبَا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ ، وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ؛ فَرَبَّهُ النَّاسُ ؛ فَقَالُوا : يَا حَكِيمُ ؛
مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي هَذَا ! وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَسَاقُ لَا تُرَاعَى إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي

* أَنْحَى بِهَا كُرَاعِي^(٣) *

* المقعد الفريد : ٢ - ٢٣٢

(١) عبد الملك بن مروان من أعظم الخلفاء ودهاتهم ، استعمله معاوية على المدينة ، وانتقلت إليه
الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ ، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ (٢) حكيم بن جبلة : صحابي ، اشترك
في الفتنة أيام عثمان ، ولما كان يوم الجمل قاتل مع أصحاب علي ، وقتل في هذه الواقعة سنة ٣٦ هـ
(٣) الكراع : اسم يجمع الخيل والسلاح .

وأما أسخى الناس فعبدُ الله بن سَوَّار ؛ استعمله معاوية على السَّند ؛ فسار إليها في أربعة آلاف من الجند ، وكانت تُوقَدُ معه نارٌ حيثما سار فيطعم الناس ؛ فبينما هو ذات يوم إذ أَبْصَرَ ناراً ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : أصلح الله الأمير ! اعتلَّ بعضُ أصحابنا ، فاشتَهَى خبيصاً ^(١) ، فعملنا له ؛ فأمر خبازَه ألا يطعمَ الناس إلا الخبيص ، حتى صاحوا ، وقالوا : أصلح الله الأمير ! رُدُّنا إلى الخبز واللحم ؛ فسئى مُطعمُ الخبيص .

وأما أطوعُ الناس في قومه فالجارُود ^(٢) بن بشر بن العلاء ؛ لأنه لما قبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدَّت العرب ، خطبَ قومه فقال : أيها الناس ، إن كان محمدٌ قد ماتَ فإن الله حيٌّ لا يموت ؛ فاستمسِكُوا بدينكم ، فمن ذهبَ له في هذه الرِّدَّة دينار أو درهم أو بعيرٌ أو شاة ، فله على مِثْلَه ؛ فما خالفه منهم رجل .

وأما أحضرُ الناس جواباً فصمصعةُ بن صُوحان ؛ دخل على معاوية في وَفْدِ أهل العراق ؛ فقال معاوية : مرحباً بكم يَا أهلَ العراق ، قدِمتم أرضَ الله المقدسة ، منها المَنشَرُ وإليها الحُشَر ، قدِمتم على خيرِ أميرٍ يَبْرُكُ كِبَرُكم ، ويرحمُ صغيركم ، ولو أنَّ الناس كلَّهم ولدُ أبي سفيان لكانوا حُلَاء عِقاء .

فأشار الناس إلى صمصعة ؛ فقام ، فحمِدَ الله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : أما قولُك يا معاوية : إنَّا قدِمنا الأرض المقدسة ؛ فلعمري ما الأرضُ تقدُّسُ الناس ، ولا يقدُّسُ الناس إلا أعمالُهم ، وأما قولُك : منها المَنشَرُ وإليها الحُشَر

(١) الخبيص : الطعام من التمر والسن (٢) هو بشر بن عمرو سيد عبد القيس ، كان شريفاً في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم وقتل شهيداً سنة ٢٠ هـ

قلهمى ما ينفع قُرْبها ولا يضر بُعْدُها مؤمناً . وأما قولك : لو أن الناس كلُّهم ولدُ
أبى سفيان لكانوا حلاء عقلاء ، فقد ولدتم خيرٌ من أبى سفيان ، آدم صلوات الله
عليه ، فمنهم الحليم والسفيه ، والجاهل والعالم .

وأما أحلمُ الناس فإن وفدَ عبد القيس قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم
بصدقاتهم ، وفيهم الأشج ، ففرّقها رسول الله ، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه ،
ثم قال : يا أشج ، اذنُ منى ، فدنا منه ، فقال : إن فيك خلتين يحبهما الله :
الأناة والحلم ، وكفى برسول الله شأهداً .

٥٩ — أراك حالماً بقومك *

رَوَى أَن عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَمَّا قَدِمَ الْكُوفَةَ بَعْدَ قَتْلِهِ مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ جَلَسَ لِعَرْضِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ مَعْبِدُ بْنُ خَالِدِ الْجَدَلِيِّ - وَكَانَ قَصِيراً دَمِيّاً - فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ .

قَالَ مَعْبِدُ : فَنَظَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَسَكَتَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً - وَكَانَ مِنْهَا - فَقُلْتُ مِنْ خَلْفِهِ : نَحْنُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَدِيلَةٍ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : مِنْ أَيِّكُمْ ذُو الْإِصْبَعِ ؟ قَالَ الرَّجُلُ : لَا أَدْرَى ، قُلْتَ : كَانَ عَدَوَانِيًّا ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : لَمْ تُسَمِّ ذَا الْإِصْبَعِ ؟ قَالَ الرَّجُلُ : لَا أَدْرَى ، قُلْتَ : نَهَشْتُهُ حَيَّةً فِي إِصْبَعِهِ فَيَبَسَتْ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي ، ثُمَّ قَالَ : وَبِمَ كَانَ يُسَمَّى قَبْلَ ذَلِكَ ؟ قَالَ الرَّجُلُ : لَا أَدْرَى ، قُلْتَ : كَانَ يُسَمَّى حُرَّتَانِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي ، ثُمَّ قَالَ : مِنْ أَيِّ عَدَوَانٍ كَانَ ؟ فَقُلْتُ مِنْ خَلْفِهِ : مِنْ بَنِي نَاجٍ ، الَّذِينَ يَقُولُ فِيهِمُ الشَّاعِرُ :

وَأَمَّا بَنُو نَاجٍ فَلَا تَذْكُرْهُمْ وَلَا تُتْبِعَنَّ عَيْنِكَ مَا كَانَ هَالِكَا
إِذَا قُلْتُ مَعْرُوفًا لِأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ يَقُولُ وَهُنَبُّ لَا أَسْأَلُ ذَلِكََا
فَأُضْحَى كَطَهْرِ الْفَحْلِ جُبَّ سَفَامُهُ يَدْبُ إِلَى الْأَعْدَاءِ أَخَذَبَ بَارَكَا

فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : أَنْشَدْنِي قَوْلَهُ : « عَذِيرُ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَانٍ » .

قال الرجل : لستُ أرويهَا ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن شئتُ أنشدتك . قال :
ادنُ مني ؛ فإني أراك بقومك عالماً . فأنشدته :

وليس المرءُ في شيءٍ من الإبرام والنقضِ
إذا أبرم أمراً خاً له يقضى وما يقضى
يقولُ اليومَ أمضيه ولا يملك ما يُنقضِ
عذيرُ الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض^(١)
بنى بعضهم بعضاً فلم يُنقوا على بعض
قد صاروا أحاديثَ برقع القول والخفضِ
ومنهم كانت السادا تُ والموفون بالقرضِ
ومنهم حكم يقضى فلا يُنقضُ ما يقضى
ومنهم من يُجيز^(٢) النَّاسَ بالسنة والقرضِ
وهم من ولدوا أشبوا^(٣) بسرَّ الحسبِ المحضِ
ومن ولدوا عامر ذو الطول وذو العرضِ
وهم بؤوا^(٤) ثقيفاً دا ر لا ذل ولا خفضِ

فأقبل على الرجل وتركنى وقال : كم عطاؤك ؟ فقال : ألقان . فأقبل على
كاتبه وقال : اجعل الألفين لهذا والخسمائة لهذا . فانصرفتُ بها .

(١) يقال : فلان حية الوادى أو الأرض أو البلد : أى داه خبيث .

(٢) كانت لإجازة الحج لخزاعة ، ثم انتقلت إلى عدوان ، يقف رئيسهم في أيام الحج فيخطب في
الناس ثم ينفر ويتبعونه بعد ذلك (٣) يقال : أشي فلان إذا ولد له ولد كيس (٤) بؤوا : أنزلوا .

٦٠ — لقد خِفْتُ أَنْ تفخرَ علي*

دخل رجل من بني سعد على عبد الملك بن مروان ، فقال له من الرجل ؟
قال : من الذين قال لهم الشاعر :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا

فقال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول فيهم القائل :

يَزِيدُ بَنُو سَعْدٍ عَلَى عَدَدِ الْحَصَى وَأَثْقَلُ مِنْ وَزَنِ الْجِبَالِ حُلُومُهَا^(١)

قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَفِيَّةٌ وَأَوْجُهُمُ بَيضُ الْمَسَافِرِ غُرَانُ^(٢)

قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

فَلَا وَأَيْبِكَ مَا ظَلَمْتُ قُرَيْعٌ بَأَنْ يَبْنُوَ الْمَكَازِمَ حَيْثُ شَاهُوا

قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّيْ بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا ؟

قال : اجلس لا جلست ! والله لقد خِفْتُ أَنْ تفخرَ علي .

* نهاية الأرب : ٣ - ٢٠٠

(١) الحلوم : جمع حلم : وهو العقل .

(٢) يقال : رجل أغر الوجه إذا كان أبيض الوجه ، من قوم غر وغران ، والبيت لامرئ القيس

(السان - غرر) .

٦١ — عبد الله بن جعفر والحجاج *

أَكْرَهَ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَلَى أَنْ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ ، فَاسْتَأْجَلَهُ ^(١) فِي قَلْبِهَا سَنَةً ؛ ثُمَّ فَكَّرَ عَبْدُ اللَّهِ فِي الْإِنْفِكَاحِ مِنْهُ ، فَأُلْقِيَ ^(٢) فِي رَوْعِهِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ يَعْلَمُهُ ذَلِكَ . وَكَانَ الْحَجَّاجُ تَزَوَّجَهَا بِإِذْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ - فَوْرَدَ عَلَى خَالِدٍ كِتَابَهُ لَيْلًا ، فَاسْتَأْذَنَ مِنْ سَاعَتِهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ . فَقِيلَ : أَفَى هَذَا الْوَقْتُ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ أَمْرٌ لَا يُؤَخَّرُ .

فَاعْلِمَ عَبْدُ الْمَلِكِ بِذَلِكَ ، فَأْذَنَ لَهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : فِيمَ السَّرَى ^(٣) يَا أَبَا هَاشِمٍ ؟ قَالَ : أَمْرٌ جَلِيلٌ لَمْ آمَنْ أَنْ أُؤَخَّرَهُ ، فَتَحَدَّثْتُ عَلَى حَادِثَةٍ ، فَلَا أَكُونُ قَدْ قَضَيْتُ حَقَّ بَيْعَتِكَ . قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أُنْعَلُمُ أَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ حَيَّتَيْنِ مِنَ الْعِدَاوَةِ وَالْبُغْضَاءِ مَا كَانَ بَيْنَ آلِ الزُّبَيْرِ وَآلِ أَبِي سَفْيَانَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنْ تَزَوَّجْتَنِي ^(٤) إِلَى آلِ الزُّبَيْرِ أَذْهَبَ مَا كَانَ لَكُمْ فِي قَلْبِي ، فَمَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ .

قال : فَإِنَّ ذَلِكَ لَيَكُونُ .

قال : فَكَيْفَ أَذِنْتُ لِلْحَجَّاجِ أَنْ يَتَزَوَّجَ فِي بَيْتِ هَاشِمٍ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَقُولُونَ وَيُقَالُ فِيهِمْ ؟ وَالْحَجَّاجُ مِنْ سُلْطَانِكَ بِحَيْثُ عَلِمْتَ ! فَجَزَاهُ خَيْرًا وَكُتِبَ إِلَى الْحَجَّاجِ أَنْ يَطْلُقَهَا .

* رَغْبَةُ الْأَمَلِ : ٥ - ٢٣ ، السَّكَامِلُ : ١ - ٢٠٥

(١) طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُؤْجَلَ إِلَى مَبْدَأِ (٢) فِي رَوْعِهِ : فَكَّرَ فِيهِ (٣) السَّرَى : السِّرُّ بِاللَّيْلِ (٤) كَانَ خَالِدٌ قَدْ تَزَوَّجَ رَمْلَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ .

فطَلَّقَهَا ، وَغَدَا النَّاسُ عَلَيْهِ يُعَزُّوْنَ عَنْهَا ؛ فَكَانَ مِنْ أَتَاهِ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ بْنِ
أَبِي سَفْيَانَ ، فَأَوْقَعَ الْحِجَاجُ بِخَالِدٍ ؛ فَقَالَ : كَانَ الْأَمْرُ لَأَبَائِهِ فَعَجَزَ عَنْهُ حَتَّى انْتَزَعَ
مِنْهُ . فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ : لَا تَقُلْ ذَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ فَإِنْ خَالِدٌ قَدِيمًا سَبَقَ إِلَيْهِ ،
وَحَدِيثًا لَمْ يُغَابِ عَلَيْهِ ، وَلَوْ طَلَبَ الْأَمْرَ لَطَلَّبَهُ بِحَدِّ وَجَدِّ ، وَلَكِنَّهُ عِلْمٌ عِلْمًا ،
فَسَلِّمِ الْعِلْمَ إِلَى أَهْلِهِ .

فَقَالَ الْحِجَاجُ : يَا آلَ أَبِي سَفْيَانَ ؛ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تَحْمُلُوا ، وَلَا يَكُونُ الْحِلْمُ إِلَّا
عَنْ غَضَبٍ ؛ فَنَحْنُ مُنْقَضِيكُمْ فِي الْعَاجِلِ ؛ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِكُمْ فِي الْآجِلِ .

٦٢ — إنها قريش يقارع بعضها بعضاً *

لما قُتِلَ ابنُ الزبير حَبِجَ خَالِدٌ ^(١) بنُ يزيد بن معاوية ، فخطبَ رَمْلَةَ بنت الزبير بن العوام ؛ فأرسلَ إليه الحجاج حاجبه عبيد الله ، فقال له : ما كنتُ أراك تخطبُ إلى آل الزبير حتى تشاورني ! وكيف خطبتُ إلى قوم ليسوا لك بأكفاء ، وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة ، ورموه بكل قبيلة ، وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة !

فتنظر إليه خالد طويلاً ، ثم قال له : لولا أنك رسول — والرسولُ لا يعاقب — لقطعتك إزباً إزباً ^(٢) ، ثم طرحتك على باب صاحبك ؛ قل له : ما كنتُ أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك في خطبة النساء . وأما قولك لي : قارعوا أباك ، وشهدوا عليه بكل قبيلة ، فإنها قريش يقارع بعضها بعضاً ؛ فإذا أقرَّ الله عز وجل قراره كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم .

وأما قولك : إنهم ليسوا بأكفاء ، فقاتلك الله يا حجاج ! ما أفلَ علمك بأنساب قريش ! أليكون العوام كفناً لعبد المطلب بن هاشم يتزوجه صفيه ، ويتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد ، ولا ترام أهلاً لأبي سفيان !

فرجع الحاجب إليه فأعلمه !

* الأغاني : ١٦ - ٨٤ ، بلوغ الأرب : ٢ - ٦ ،

(١) خالد بن يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان من رجال قريش سخاء ، وعارضة وفصاحة ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه (٢) إزباً إزباً : عضوا عضوا .

٦٣ — نَسْتَجِيرُ بِقَبْرِ أَبِيهِ*

لما وَلَّى الحجاجُ تَمِيمَ بنَ زَيْدِ القَيْنِيِّ السَّنَدَ دخلَ البصرةَ فجعلَ يُخْرِجُ من أهلها مَنْ شاءَ ؛ فجاءتْ محبوزٌ إلى الفرزدقِ ^(١) فقالت : إني استجرتُ بقبرِ أبيك — وأتتْ منه بِحَصِيَّاتٍ ^(٢) — فقال لها : وما شأنُكَ ؟ قالت : إن تَمِيمَ بنَ زَيْدٍ خرجَ بابنٍ لى معه ، ولا قُرَّةَ لعيني ، ولا كَاسِبَ لى غيرُهُ : فقال لها : وما اسمُ ابنك ؟ فقالت : خُنَيْسٌ .

فكتب إلى تميم بن زَيْدٍ مع بَعْضٍ من شَخْصٍ :

تَمِيمُ بنَ زَيْدٍ لا تَكُونَنَّ حَاجَتِي	بظَهْرٍ ، فلا يَمَيَّا عَلَى جَوَابِهَا
وَهَبْ لى خُنَيْسًا واحْتَسِبْ فِيهِ مَنَّةً	لَعَبْرَةٍ أَمْ مَا يَسُوعُ شَرَابُهَا
أَتَتْنِي فَعَاذَتْ يَا تَمِيمُ بِغَالِبٍ ^(٣)	وبالحُفْرَةِ السَّافِي عليها تَرَابُهَا
وقد عَلِمَ الأَقْوَامُ أَنَّكَ مَاجِدٌ	وليثُ إِذَا ما الحَرْبُ شُبَّ شِهَابِهَا

فلما وردَ الكتابُ على تَمِيمٍ تشككَ فى الاسمِ ، فقال : أَحَبَيْشُ أَمْ خُنَيْسُ ؟ انظروا مَنْ لَهُ مِثْلُ هَذَا الإِسْمِ فى عَسْكَرِنَا . فأصِيبَ سِتَّةٌ ما بينَ حَبِيسٍ وخُنَيْسٍ ، فَوَجَّهَ بِهِمُ إِلَيْهِ .

* الكامل : ١ - ٢٩١

(١) الفرزدق : شاعر من أهل البصرة ، عظيم الأثر فى اللغة وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجته لها أشهر من أن تذكر . توفى سنة ١١٠ هـ (٢) الحمى : صغار الحجارة ، الواحدة حصاة . (٣) غالب هو أبو الفرزدق .

٦٤ — الفرزدق والأنصار *

قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري : قدم الفرزدق المدينة في إمارة أبان بن عثمان ؛ وإني والفرزدق وكثيراً جلوس في المسجد نتناشد الأشعار ؛ إذ طلع علينا غلام شخت^(١) آدم في ثوبين مُمَصَّرين^(٢) ، ثم قصد نحونا حتى جاء إلينا فلم يسلم ، فقال : أيُّكم الفرزدق ؟ فقلت — مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ! فقال : لو كان كذلك لم أقل هذا له .

فقال له الفرزدق : ومن أنتَ لا أمَّ لك !

قال : رجل من بني الأنصار ، ثم من بني النجار ، ثم أنا ابنُ أبي بكر بن حزم . بلغني أنك تزعمُ أنك أشعرُ العرب ، وتزعمُ مُضَرُّ ذلك لك ، وقد قال صاحبنا حسانُ شعراً ، فأردتُ أن أعرضه عليك وأوجِّلك سنةً ، فإن قلت مثله فأنتَ أشعرُ العرب ، وإلا فأنتَ كذابٌ مُنتحل ، ثم أنشده قول حسان :

لنا الجففاتُ الغرُّ يَلْمَنُ بالضحا وأسياقنا يَقْطُرُنْ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
متى ما تَزَرَّنَا مِنْ مَعْدِي عَصَابَةٍ وغسان^(٣) نَمْنَعُ حَوْضَنَا أَنْ يَهْدِمَا
أَبِي فَعَلْنَا الْمَعْرُوفَ أَنْ نَنْطِقَ الْخَفَا وَقَاتِلْنَا بِالْعُرْفِ إِلَّا تَكْدَا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَوَّرٍ فَأَكْرِمْ بَنَا خَالًا وَأَكْرِمْ بَنَا ابْنِمَا

وأنشده القصيدة إلى آخرها ، وقال له : إني قد أجلتك فيها حولا ، ثم انصرف

* الأغاني : ٩ - ٣٣٧

(١) الشخت : الدقيق الضامر ، أصلا ، لا هز إلا (٢) ممصران : أي مصبوغان بصفرة غير شديدة

(٣) وغسان : الواو هاءنا للقسم ، لأن غسان لم تكن تزووم مع معد .

وانصرف الفرزدق مُفَضَّبًا يسحبُ رداءه ما يدرى أىَّ طريق يسلكُ ، حتى
خرج من المسجد .

فأقبل كُثَيِّرٌ عَلَىَّ فقال : قاتل الله الأنصارى ! ما أفصح لهجته ، وأوضح حجته
وأجود شعره ! ثم لم تزلْ في حديث الفرزدق والأنصارى بقية يومنا ، حتى إذا
كان الغدُ خرجتُ من منزلى إلى مجلسى الذى كنت فيه بالأمس ؛ وأنا نانى كُثَيِّرٌ
فجلس معي ؛ فإننا لتتذاكر الفرزدق ونقول : ليت شعري ما فعل ! إذ طلع علينا
في حلة أفواف^(١) يمانية موشاة ، له غدیرتان ، حتى جلس في مجلسه بالأمس ،
ثم قال : ما فعل الأنصارى ؟ فإلنا منه وشتمناه ؟ فقال : قاتله الله ! ما رُميتُ
بمثلِه ولا سمعتُ بمثل شعره ؛ فارتعسا فأتيتُ منزلى ، فأقبلتُ أصعدُ
وأصوبُ في كل فن من الشعر ، فكأننى مُفحَمٌ ، أو لم أقل قط شعراً ، حتى نادى
النادى بالفجر ، فرحلتُ ناقتى ، ثم أخذت بزمامها ، فقدتها حتى أتيتُ ذباباً^(٢) ،
ثم ناديتُ بأعلى صوتى : أخاكم أبا لُبْنَى ! وجاش صدرى كما يجيش المرجل ،
ثم عقلتُ ناقتى ، وتوسدتُ ذراعها ، فاقنتُ حتى قلتُ مائة وثلاثة عشر
بيتاً .

فبينما هو يُنشدنا ، إذ طلع علينا الأنصارى حتى انتهى إلينا فلم ، ثم قال :
أما إني لم آتِك لأعجلِك عن الأجل الذى وقتهُ لك ، ولكنى أحيت ألا أراك إلا
سألتك عما صنعت ، فقال : اجلس ، ثم أنشده قصيدته :

عزفت بأعشاش^(٣) وما كدت تعرفُ وأنكرت من حذرَاء ما كنت تعرفُ
ولج بك الهجران حتى كأنما ترى الموت فى البيت الذى كنت تألفُ

(١) أفواف : جمع فوف وهو القطن . (٢) ذباب : جبل بالمدينة .

(٣) أعشاش : موضع في بلاد بني نعيم .

ومنها :

لنا العِزَّةُ الغَلْبَاءُ والمددُ الذى عليه إذا عُدَّ الحصى يُتَحَلَّفُ (١)
ولا عزَّ إلا عِزُّنا قاهرٌ له وَيَسْأَلُنَا النِّصْفَ الدَّلِيلُ فَيُنْصَفُ (٢)
ومِنَّا الذى لا ينطقُ الناسُ عندهُ ولكن هو السِّتَازُنُ لِلْيَنْصَفِ (٣)
تراهمُ قعوداً حوله ، وعيونهم مُكْسَرَةٌ أطرافها ما نَصَرَفُ
إذا هبطَ الناسُ المُحَصَّبَ من مِنى عَشِيَّةَ يومِ النحرِ من حيثُ عَرَفُوا (٤)
ترى الناسَ ما سرنا يسبِّرون خلفنا وإن نحنُ أَوَّمانا إلى الناسِ وَقَفُوا (٥)

فلما فرغ الفرزدق من إنشاده قام الأنصارى كثيراً ، فلما توارى طلع أبوه في
مَشِيخَةٍ من الأنصار فسلموا علينا وقالوا : يا أبا فراس ؛ قد عَرَفْتَ حالنا ومكاننا من
رسول الله ووصيته بنا ؛ وقد بلغنا أن سفهاً من سفهاً تعرّض لك ، فنسألك بالله
لَمَّا حَفِظْتَ فينا وصية رسول الله ووهبنا له ولم تفضحنا . قال إبراهيم : فأقبلت
أكله أنا وكثير ، فلما أكثرنا عليه قال : اذهبوا فقد وهبكم لهذا القرشي .

(١) يتحلف : يحلف الناس أنه عدد الحصى .

(٢) النصف هنا : الإنصاف (٣) التنصف : المطالب منه الإنصاف (٤) المحصب : موضع
رى الجار بمعنى . وعرفوا : أى من حيث هبطوا من جبل عرفات (٥) كان الذى يؤم الناس
ويدفع بهم من عرفات في الجاهلية من تميم ، فيسبِّرون بسيره ويقفون بوقوفه .

٦٥ — الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك *

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ وَتَجْهَمُ لَهُ كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْفَرَزْدَقُ : أَوْ مَا تَعْرِفُنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : أَنَا مِنْ قَوَّامٍ مِنْهُمْ أَوْفَى الْعَرَبِ ، وَأَسْوَدُ الْعَرَبِ ، وَأَجُودُ الْعَرَبِ وَأَحْلَمُ الْعَرَبِ ، وَأَفْرَسُ الْعَرَبِ ، وَأَشْعَرُ الْعَرَبِ .

قَالَ : وَاللَّهِ لَتُبَيِّنَنَّ مَا قُلْتَ أَوْ لَا وَجَعَنْ ظَهْرُكَ وَلَا أَهْدِمَنَّ دَارَكَ .

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا أَوْفَى الْعَرَبِ فَجَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ الَّذِي رَهَنَ قَوْسَهُ عَنْ جَمِيعِ الْعَرَبِ فَوْقَ بَهَا .

وَأَمَا أَسْوَدُ الْعَرَبِ فَقَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الَّذِي وَفَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَسَطَ لَهُ رِدَاءَهُ ، وَقَالَ : هَذَا سَيْدُ الْوَبَرِ .

وَأَمَا أَحْلَمُ الْعَرَبِ فَمَتَّابُ بْنُ وَرْقَاءَ الرِّيَّاحِيِّ .

وَأَمَا أَفْرَسُ الْعَرَبِ فَالْحَرِيشُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّعْدِيِّ ، وَأَمَا أَشْعَرُ الْعَرَبِ فَهَازِنْدَا بَيْنَ يَدَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَاقْتَمَّ سُلَيْمَانُ مِمَّا سَمِعَ مِنْ فَخْرِهِ وَلَمْ يَنْكَرْهُ ، وَقَالَ : ارْجِعْ عَلَى عَقَبِيكَ ، فَمَا لَكَ عِنْدِي شَيْءٌ مِنْ خَيْرٍ . فَرَجَعَ الْفَرَزْدَقُ وَقَالَ :

أَتَيْتُكَ لَا مِنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا إِلَيْكَ ، وَلَا مِنْ قِلَّةٍ فِي مُجَاشِعٍ ^(١)

* المقعد الفريد : ٢ - ١٩٣

(١) هو مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة من تميم .

٦٦ — البَاهِلِيّ *

قال أبو قلابة الجرمي : حَجَجْنَا مَرَّةً مَعَ أَبِي جَزْءَ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ ، وَكُنَّا فِي ذَرَاهُ ^(١) : وَهُوَ إِذْ ذَاكَ بَهِيٌّ وَضِيٌّ ؛ فَجَلَسْنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى أَقْوَامٍ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ ، لَمْ نَرَ أَفْصَحَ مِنْهُمْ ؛ فَرَأَوْا هَيْئَةَ أَبِي جَزْءَ وَإِعْظَامَنَا لِيَاهِ ، مَعَ جَمَالِهِ ؛ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : أَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْخَلِيفَةِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ . قَالَ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنْ مُضَرَ . قَالَ : أَعَرَضَ ثَوْبٌ مَلْبَسٌ ^(٢) ! مِنْ أَيِّهَا عَافَاكَ اللَّهُ ! قَالَ : رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ . قَالَ : أَيْنَ يُرَادُ بِكَ ؟ صِرَ إِلَى فَصِيلَتِكَ الَّتِي تُؤْوِيكَ . قَالَ : رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ، قَالَ : اللَّهُمَّ غَفِّراً ! مِنْ أَيِّهَا عَافَاكَ اللَّهُ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ بَنِي يَمُصْرَ . قَالَ : مِنْ أَيِّهَا ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةَ . قَالَ : قُمْ عِنَّا .

قال أبو قلابة : فَأَقْبَلْتُ عَلَى الْحَارِثِيِّ فَقُلْتُ : أَتَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ : ذَكَرَ أَنَّهُ بَاهِلِيٌّ ، فَقُلْتُ : هَذَا أَمِيرُ ابْنِ أَمِيرٍ . . . وَعَدَدْتُ خَمْسَةَ . ثُمَّ قُلْتُ : هَذَا أَبُو جَزْءَ ابْنِ عَمْرِو ، وَكَانَ أَمِيرًا ، ابْنُ سَعِيدٍ ، وَكَانَ أَمِيرًا : ابْنُ سَلَمٍ ، وَكَانَ أَمِيرًا ، ابْنُ قَتِيْبَةٍ وَكَانَ أَمِيرًا .

* السَّكَمَلُ : ٢ — ٢٤

(١) ذَرَاهُ : كَنَفُهُ (٢) الْمَلْبَسُ : ثَوْبُ اللَّبَسِ ، يُرِيدُ اسْمَ وَسَارٍ عَرِيضًا ، وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ حِينَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ : مِمَّنِ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ مُضَرَ أَوْ رَيْمَةَ أَوْ الْيَمَنِ وَلَمْ يَخْصُ ، أَيْ عَمَتِ وَلَمْ تَخْصُ

فقال الحارثي : الأمير أعظم أم الخليفة ؟ قلت : بل الخليفة . قال : أفا الخليفة
أعظم أم النبي ؟ قلت : بل النبي . قال : والله لو عدت له في النبوة أضاعف
ما عدت له في الإمارة ، ثم كان باهلياً ما عباً^(١) الله به شيئاً .
فكادت نفس أبي جزة تخرج ؛ قلت : انهض بنا ، فإن هؤلاء أسوأ
الناس آداباً .

(١) ما عبأ الله به شيئاً : يريد : لم يكن له قدر عنده .

٦٧ — كُثُومُ الْعَتَابِيَّ*

كان أَخَوَانُ من قَيْسٍ يَخْفَرَانِ قَرْيَةَ بِالْجَزِيرَةِ ، فَطَالَ مَقَامُهُمَا بِهَا حَتَّى أَثْرَيَا ، فَخَسَدَهُمَا قَوْمٌ مِنْ رِبِيعَةٍ ؛ وَقَالُوا : يَخْفَرَانِ هَذِهِ الضِّيَاعَ فِي بَلَدِنَا وَجَمَعُوا لَهَا جَمْعًا ، وَسَارُوا إِلَيْهَا ، فَقَاتَلُوهَا حَتَّى قُتِلَ أَحَدُهُمَا ؛ وَعَلَى الْجَزِيرَةِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ الْهَاشِمِيُّ^(١) ، فَشَكَا الْقَيْسِيُّ أَمْرَهُ إِلَى وَجْهِ قَيْسٍ ، وَعَرَفَهُمْ قَتَلَ رِبِيعَةَ أَخَاهُ .

فَقَالُوا لَهُ : إِذَا جَلَسَ الْأَمِيرُ فَادْخُلْ إِلَيْهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَشَكَا إِلَيْهِ مَا لَحِقَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَحَسَبُ الْأَمِيرِ أَنَّهُمْ لَمَّا قَاتَلُوا أَخِي وَأَخَذُوا مَالِي قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ :

لَا يَحْزَنُ أَمْرًا مُضَرًّا بِخَفِيرٍ وَلَا بِغَفِيرٍ خَفِيرٍ

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَتَنْدُبُنِي^(٢) إِلَى الْعَصِيَّةِ ؟ وَزَبَرَ^(٣) .

فَخَرَجَ الرَّجُلُ مَغْمُومًا ، وَشَكَا ذَلِكَ إِلَى وَجْهِ قَيْسٍ ، فَقَالُوا : لَا تُرْعَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ قَذَفْنَا فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ ، فَعَاوَدَهُ .

فَعَاوَدَهُ فِي الْمَجْلِسِ الْآخِرِ فَزَبَرَهُ ، وَقَالَ لَهُ قَوْلَهُ الْأَوَّلَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي لَمْ آتِكَ أَنْدُبُكَ لِلْعَصِيَّةِ ، وَإِنَّمَا جِئْتُكَ مُسْتَعْدِيًا^(٤) . فَقَالَ لَهُ : حَدِّثْنِي كَيْفَ فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ فَحَدَّثَهُ وَأَنْشَدَهُ فَغَضِبَ ، وَقَالَ : كَذَبْتَ لِعَمْرِي لِيَحْزَنَ .

* الْأَغَانِي : ١٢ - ٨

(١) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ : أَمِيرٌ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، تَوَلَّى الْمَوْصِلَ ، ثُمَّ الْمَدِينَةَ ، وَبَلَغَ الرَّشِيدُ أَنَّهُ يُطَلِّبُ الْخِلَافَةَ فَخَبَسَهُ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٩٦ هـ (٢) نَدَبَهُ لِأَمْرٍ : دَعَاهُ إِلَيْهِ (٣) زَبَرَهُ : زَجَرَهُ وَاتَّهَرَهُ (٤) اسْتَعْدَيْتِ الْأَمِيرَ : اسْتَعْنَتِ بِهِ .

ثم دعا أحد قواده، وقال له : اخرج ، وجرد السيف في ربيعة . فخرج وقتل منها مقتلة عظيمة ، فقال كلثوم بن عمرو العتّابي - وهو من ربيعة - قصيدة فيها :

هَذِي يَمِينِكَ فِي قُرْبَاكَ صَائِلَةٌ وصارم من سيوف الهند مشهورُ
إِنْ كَانَ مَنَادُؤُوكَ وَمَارِقَةٌ ^(١) وَعُصْبَةٌ دِينُهَا الْعُدَوَانُ وَالزُّورُ
فَإِنَّ مَنَّا ^(٢) الَّذِي لَا يَسْتَحِثُّ إِذَا حُتَّ الْجِيَادُ وَضَمَّتْهَا الْمَضَامِيرُ ^(٣)
مُسْتَنْبِطُ عِزَمَاتِ الْقَلْبِ مِنْ فِكْرٍ مَا يَبْنِيهِنَّ وَيَبْنِي اللَّهُ مَعْمُورُ

وبلغت القصيدة عبد الملك ، فأمر قائده بالكف عنهم .

ولما قدم الرشيد الرافقة ^(٤) أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال : لِمَنْ هَذِهِ ؟ فقال : لرجل من بني عتّاب يقال له : كلثوم بن عمرو ، فقال : وما يمنعه أن يكون بيابنا ؟ وأمر بإشخاصه من رأس عَيْن ^(٥) .

فوافى الرشيد ، وعليه قميص غليظ وفروّة وخفّ ، وعلى كتفه ملحفة جافية ؛ فلما رُفِعَ الخبرُ بقدومه أمر الرشيد بأن تُفَرَّشَ له حجرة ، وتقام له وظيفة ؛ ففعلوا ، فكانت المائدة إذا قُدِّمَتْ إليه أخذ منها رفاقةً وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكله بها ، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض ، والخدمُ يتعجبون من فعله ، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره ، فأمر بطرده .

فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله ، فسلم عليه ، وانتسب له ، فرحب به وقال له : ارتفع ، فقال : لم آتكَ للجلوس ، قال : فما حاجتك ؟ قال :

(١) الإفك : الكذب ، والمارقة : الخارجون (٢) يشير إلى عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبى وكان أحد قواده (٣) المضمار : الموضع الذى تضمّر فيه الخيل (٤) بلدة على الفرات بناها المنصور (٥) الجزيرة .

دابةً أبلغُ عليها إلى رأس عين ، فقال : يا غلام ؛ أعطه الفرس الفلاني ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، ولكن تأمر أن تُشترى لي دابةً أتبلغُ عليها ، فقال لعلامة : امض معه ، فابتع له ما يريد . ففضى معه ، فعدل به العتابي إلى سوق الحبر ، فقال له : إنما أمرني أن أبتاع لك دابة ، فقال كلثوم : إنه أرسلك معي ولم يُرسلني معك فإن عملت ما أريد وإلا فانصرف . ففضى معه ، فاشتري حماراً بمائة وخمسين درهماً وقال : ادفع ثمنه ، فدفعه . فركب الحمار بمرشحة^(١) عليه وبرذعة ، وساقاه مكشوفتان .

فقال له يحيى بن سعيد : فضحتني ، أمثلي يَحْمِلُ مثلك على هذا ! فضحك وقال : ما رأيتُ قَدْرَكَ يستوجب أكثر من ذلك . ومضى إلى رأس عين ، وكانت تحتها امرأةٌ من بَاهِلَةٍ ، فلامته وقالت : هذا منصور النمرى قد أخذ الأموال فحلى نساءه ، وبني داره ، واشترى ضياعاً ، وأنت هنا كما ترى ؛ فأنشأ يقول :

تَلُمُ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بَاهِلِيَّةً ذَوَى الْفَقْرِ عَنْهَا كُلَّ طَرَفٍ وَتَالِدٍ^(٢)
رَأَتْ حَوْلَهَا النَّسْوَانِ يَرْفُلْنَ فِي الثَّرَى^(٣) مَقْلَدَةً أَعْنَقُهَا بِالْقَلَانِدِ
أَسْرَكَ أَنَّى نَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرٌ^(٤) مِنْ الْعَيْشِ ، أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ !
وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَى مَقْصَعَهُمَا بِالْمُرْهَقَاتِ الْبُورَادِ
رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةً بِمَسْتَوْدَعَاتٍ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ
دَعَيْتِي تَجْنِي مَيْتِي مَطْمَئِنَةً وَلَمْ أَنْجِشْ هَوَلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ !

(١) المرشحة : ما يوضع تحت الميثة ، والميثة : هنة تتخذ للسرّج .
(٢) الطرف هنا : الحديث من المال ، والتالد : غير الحديث من المال .
(٣) الثراء . (٤) جعفر البرمكي .

البَابُ الثَّالِثُ

في القصص التي تَنَقَّلُ ما كانوا يتفكَّهون به من
أَسْمَارٍ وَمُطَايَبَاتٍ ، وَمُنَاقَذَاتٍ وَأَفَاكِيهِ ، مما نال
به المحدثونِ والندماءُ سِنِّيَ الجوائزِ والخلعِ من الخلفاء
والوزراءِ ، وما ارتفعت به مكاتِبُهُم عند السَّادَةِ والوُجُوهِ
في المجتمعاتِ والمنتدياتِ .

٦٨ — يبيع اسمه*

لَقِيَ تَابِطُ شَرًّا^(١) رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو وَهَبٍ ، وَكَانَ جَبَانًا أَهْوَجَ^(٢) ،
وَعَلَيْهِ حَلَّةٌ جَيِّدَةٌ ، فَقَالَ أَبُو وَهَبٍ لَتَابِطُ شَرًّا : بِمِ تَغْلِبُ الرِّجَالَ يَا ثَابِتُ وَأَنْتَ - كَمَا
أَرَى - دَمِيمٌ ضَّئِيلٌ ؟ قَالَ : بِأَسْمَى ، إِنَّمَا أَقُولُ سَبَاعَةً مَا أَلْقَى الرَّجُلُ : أَنَا تَابِطُ شَرًّا ،
فِيُخْلَعُ قَلْبُهُ حَتَّى أَنَالَ مِنْهُ مَا أُرِدْتُ .

فَقَالَ لَهُ الثَّقَفِيُّ : أَأَقُطُ^(٣) ؟ قَالَ : قَطًّا ، قَالَ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي اسْمَكَ ؟
قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَبِمِ تَبْتَاعُهُ ؟ قَالَ : بِهَذِهِ الْحُلَّةِ وَبِكُنْيَتِي . قَالَ لَهُ : أَفْعَلْ . فَعَفَلَ ،
وَقَالَ تَابِطُ شَرًّا : لَكَ اسْمِي وَلِي كُنْيَتُكَ ، وَأَخَذَ حُلَّتَهُ ، وَأَعْطَاهُ طِمْرِيَهَ^(٤) ، ثُمَّ
انصرفت .

وقال في ذلك يخاطب زوجة الثَّقَفِيِّ :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنْ حَالِيهَا تَابِطُ شَرًّا وَاسْتَنَيْتُ أَبَا وَهَبٍ
فَهَبُهُ تَسْمَى اسْمِي وَتُسَمِّي بِاسْمِهِ فَأَيْنَ لَهُ صَبْرِي عَلَى مُعْظَمِ الْخَطْبِ !
وَأَيْنَ لَهُ بَأْسٌ كِبَائِي وَسُورَتِي وَأَيْنَ لَهُ فِي كُلِّ فَادِحَةٍ قَلْبِي !

* مذهب الأغاني : ١ - ٢١٦

(١) هو ثابت بن جابر ، كان أسمع العرب وأبصرهم وأكيدهم ، اشتهر بالعدو والغزو ، توفي نحو
سنة ٨٠ ق ٨٠ (٢) الهوج : الطول في حق وطيش وتسرع (٣) أقط : أحسب
(٤) الطمر : الكساء البالي .

٦٩ - أنا كنتُ أولى بهذا الشعر من أيك*

حجَّ معاوية حِجَّتَيْن^(١) في خلافته ، وكانت له ثلاثون بَغْلَةً يُحُجُّ عليها نساؤه وجواريه ؛ فحجَّ في إحداهما ، فرأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام ، عليه ثوبان أبيضان ؛ فقال : من هذا ؟ قالوا : سَعْيَةُ بن غَرِيض - وكان من اليهود .

فأرسل إليه يَدْعُوهُ ، فأتاه رسوله ، فقال : أَجِبْ أمير المؤمنين . قال : أوليس قد مات أمير المؤمنين ؟ قيل : فأجب معاوية : فأتاه فلم يسلِّم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : ما فعلت أرضك التي بَدَيْتَها ؟ قال : يُكْسَى منها العارى ، ويُرَدُّ فَضْلُها على الجار . قال : أَفَتَبِيعُها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بستين ألف دينار ، ولولا خَلَّةٌ^(٢) أصابت الحى لم أبيعها . قال : لقد أَغْلَيْتَ^(٣) ! قال : أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ، ثم لم تُبَالِ : قال : أجلى ، وإذا بخلت بأرضك فأنشدنى شعر أيك يَرْتَفِئُ به نفسه فقال : قال أبى :

يَا لَيْتَ شِعْرِى حِينَ أَنْدَبْتُ هَالِكًا	ماذا تَوَبَّنِى بِهِ أَنْوَاجِى ^(٤) !
أَيَقْلُنْ : لَا تَبْعَدْ ، فَرَبُّ كَرِيهَةٍ	فَرَجَّتْهَا بِشَجَاعَةٍ وَسَمَاحٍ
وَلَقَدْ ضَرَبْتُ بِفَضْلِ مَالِى حَقَّهُ	عِنْدَ الشِّتَاءِ وَهَبَّةِ الْأَرْوَاحِ ^(٥)
وَلَقَدْ أَخَذْتُ الْحَقَّ غَيْرَ مَخَاصِمٍ	وَلَقَدْ رَدَدْتُ الْحَقَّ غَيْرَ مَلَا حِى ^(٦)
وَإِذَا دُعِيتَ لَصَعْبَةٍ سَهَّلْتُهَا	أُدْعَى بِأَفْلَحٍ مَرَّةً ، وَنَجَاحٍ

* الأغانى : ٣ - ١٣٠

(١) الحجَّة : المرة من الحج ، وهى من الشواذ ، لأن القياس الفتح (٢) الخلة : الحاجة والفقر (٣) جعلتها غالية (٤) الأنواح : النائمات (٥) الأرواح : الرياح (٦) الملاحاة : المنازعة .

فقال : أنا كنتُ بهذا الشعر أُرْوَى من أيك . قال : كذبتَ ولَوُئْتُ ! قال :
أما كذبتُ فنعم ، وأما لَوُئْتُ فلم ؟ قال : لأنك كنتَ مَيِّتَ الحقِّ في الجاهلية
ومَيِّتُهُ في الإسلام ؛ أما في الجاهلية فقاتلتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والوَحْيَ حتى
جَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ كَيْدَكَ المردود . وأما في الإسلام فننعتَ ولدَ رسولِ الله صلى الله
عليه وسلم الخلافة ، وما أنتَ وهى ، وأنتَ طَلِيقُ ابنِ طَلِيقٍ ^(١) ! فقال معاوية :
قد خَرَفَ ^(٢) الشيخ فأقيموه ؛ فأخذ بيده فأقيم .

(١) الطليق : الأسير الذى أطلق عنه إيساره ، وهو يريد أنه من الطلقاء الذين حاربوا النبي وآذوه
فلما غلبهم عام الفتح خطبهم فقال : يا معشر قريش ؛ ما ترون أنى فاعلُ بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ ،
كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .
(٢) خرف : فسد عقله من الكبر .

٧٠ — عبد الرحمن بن الحكم يترضى زياداً*

دخل بنو أمية ، وفيهم عبد الرحمن بن الحكم ، على معاوية ، عندما استلحق زياداً ، فقال له عبد الرحمن : يا معاوية ؛ لو لم تجد إلا الزنج^(١) لا ستكثرت بهم علينا قلةٌ وذلةٌ — يعنى على بنى أبي العاص .

فأقبل معاوية على مهران ، وقال : أخرج عنا هذا الخليع^(٢) . فقال مهران : إى والله إنه خليع ما يطاق ، فقال معاوية : والله لولا خلى وتجاوزى لعلت أنه يطاق ؛ ألم يبلغنى شعره فى وفى زياد ؟ فقال مهران : أسمعنيه فأنشد :

ألا أبلغ معاوية بن حرب لقد ضاقت بما يأتي اليدان
ثم قال : والله لا أرضى عنه حتى يأتى زياداً ، فيترضاه ويعتذر إليه .

فجاء عبد الرحمن بن الحكم إلى زياد معتذراً يستأذن عليه ، فلم يأذن له . فأقبلت قريش تكلمه فى أمر عبد الرحمن ، فلما دخل سلم فتشأوس^(٣) إليه زياد بعينه ، ثم قال : أنت القائل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الذى قلت ؟ قال : قلت ما لا يقال ، قال : أصلح الله الأمير ! إنه لا ذنب لمن أعتب^(٤) ، وإنما الصَّفْحُ من أذنب ، فاسمع منى ما أقول . قال : هات ، فأنشده :

إليك أبا المغيرة تبتُ ممّا جرى بالشام من خطلي^(٥) اللسان

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٧١

(١) الزنج والزنج : جيل من السودان (٢) الخليع : الرجل يحنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيبرءون منه ومن جنائياته ، والخليع أيضاً : المستهتر بالشرب والهو ولللازم للقفار (٣) التشاوس : أن ينظر إليه بمؤخر عينيه ويميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها (٤) أعتب : الإعتاب رجوع العتوب عليه إلى ما يرضى العاتب (٥) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب .

وأغضبتُ الخليفةَ فيك حتى دعاه فَرَطٌ غِيظٍ أَنْ هَجَانِي
 وقلتُ لِمَنْ لَحَانِي ^(١) في اعتذاري : إِلَيْكَ اذْهَبْ فَشَأْنُكَ غَيْرُ شَأْنِي
 عَرَفْتُ الْحَقَّ بَعْدَ ضَلَالٍ رَأَيْتُ وَبَعْدَ الْغَيِّ مِنْ زَيْغِ الْجَنَانِ ^(٢)
 زِيَادٌ مِنْ أَبِي سَفِيَّانٍ غَضُنٌ تَهَادَى نَاصِرًا بَيْنَ الْجِنَانِ ^(٣)
 أَرَاكَ أَخًا وَعَمًّا وَابْنَ عَمٍّ فَأَادِرِي بِعَيْبٍ مَا تَرَانِي
 وَإِنْ زِيَادَةٌ فِي آلِ حَرْبٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَسْطَى بَنَانِي
 أَلَا أَبْلُغُ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ فَقَدْ ظَفِرَتْ بِمَا تَأْتِي الْيَدَانِ
 فقال زياد : قد سمعنا شعرك ، وقبلنا عذرَكَ ، فهات حاجتك . قال : تكتبُ
 إلى أمير المؤمنين بالرضا عني . قال : نعم ، ثم دعا بكتابه فكتب له بالرضا عنه .
 فأخذ كتابه ومضى حتى دخل على معاوية ، فلما قرأه ، قال : لحا الله ^(٤) زياداً !
 لم ينتبه لقوله : « وإن زيادة في آل حرب » .
 ثم رضى عن عبد الرحمن ، وردّه إلى حاله .

(١) لحاني : لامي وعنفني (٢) الجنان : القلب (٣) جمع جنة (٤) لحا الله : أهلكه ولعنه.

٧١ — أتاكم غريب الدارِ مظلوم *

استعمل عُتْبَةُ بن أبي سفيان رجلاً من آلِه على الطائف ، فظلم رجلاً من
أَزْدِ شَنْوَةَ ، فَأَتَى الْأَزْدِيُّ عْتَبَةَ ، فَنَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ :

أَمَرْتَنِي مَنْ كَانَ مَظْلُومًا لِيَأْتِيَكُمُ فَقَدْ أَتَاكُمْ غَرِيبُ الدَّارِ مَظْلُومٌ !
ثُمَّ ذَكَرَ ظُلَامَتَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ عْتَبَةُ : إِنِّي أَرَاكَ أَعْرَابِيًّا جَافِيًّا ، وَاللَّهِ مَا أَحْسِبُكَ
تَدْرِي كَمْ تُصَلِّيَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ : فَقَالَ : أَرَأَيْتَ إِنِّي أَنْبَأْتُكَ ذَلِكَ أَنْتَجْعَلَ لِي
عَلَيْكَ مَسْأَلَةً ! قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

إِنَّ الصَّلَاةَ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعٌ ثُمَّ ثَلَاثٌ بَعْدَهُنَّ أَرْبَعٌ

* ثُمَّ صَلَاةُ الْفَجْرِ لَا تُصَيِّعُ *

فَقَالَ : صَدَقْتَ . فَاسْأَلْ ، فَقَالَ : كَمْ فَقَارٌ ^(١) ظَهَرَكَ ؟ فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، فَقَالَ :
أَفْتَحِكُمُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَنْتَ تَجْهَلُ هَذَا مِنْ نَفْسِكَ ! قَالَ : رَدُّوا عَلَيْهِ غَنِيمَتَهُ ^(٢) .

* الكامل للمبرد : ١ - ٢٠٩

(١) الفقار : جمع فقارة ، وهي أيضاً الفقرة (٢) الغنيمة : تصغير غنم ، قال في اللسان : إذا
صغرتها أدخلت عليها التاء لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين
وصغرتها فالتأنيث لها لازم .

٧٢ — أَرَى فَيْكَ مَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ *

أَخَذَ مُصْعَبُ ^(١) بَنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْخِتَارِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ
فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ الْحَسَنَةِ
وَوَجْهِكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَبْضَأُ بِهِ ، فَأَنْتَلِقُ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيُّ رَبٍّ ؛ سَلْ مُصْعَبًا
فِيمَ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : أَطْلُقُوهُ .

قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ حَيَاتِي فِي خَفْضٍ . قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ .
قَالَ : بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي ، أَشْهَدُ اللَّهَ أَنَّ لَابْنَ قَيْسِ الرُّقَيْيَاتِ مِنْهَا خَمْسِينَ أَلْفًا . قَالَ :
وَلَمْ ؟ قَالَ : لَقَوْلِهِ فَيْكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الْإِلَهِ تَجَلَّى عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ يُخْشَى وَلَا كِبَرِيَاءُ
يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْ لَحَ مَنْ كَانَ هُمًّا الْإِتْقَانُ
فَضَحَكَ مُصْعَبٌ ، وَقَالَ : أَرَى فَيْكَ مَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ . وَأَمَرَهُ بِلِزُومِهِ ، وَأَحْسَنَ
إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ حَتَّى قَتَلَ .

* عيون الأخبار : ١ : ١٠٣

(١) أَحَدُ الْوَلَدَةِ الْأَهْلَالِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، وَلَهُ أَخُوهُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيُّ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ الْكُوفَةُ
فَأَحْسَنَ السِّيَاسَةَ ، وَأَجْرَى الْمَدَلَ ، خَرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِقَاتِهِ ، ثُمَّ قَتَلَ وَحَمَلَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ سَنَةَ ٧١ هـ .

٧٣ — الرقية *

دخل عبدُ الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ^(١) ، فوجده يتأوه ، فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ لو أذخلتَ عليك من يُؤنسك بأحاديث العرب وييسطك
استرحت ! فقال : لستُ بصاحبٍ لهو ، فقال : ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين ؟ قال :
هَاجَ بى النَّسَا ^(٢) لياقى هذه ؛ فبلغ منى ماتراه .

فقال : إِنْ بُدِّنَا مولاى أَرْقى ^(٣) اتَّخَلَّقَ مِنْهُ . فأمر بإحضاره .

فلما مثل ^(٤) بين يديه قال عبد الملك : يا بُدِّنِج ، أَرْقى رجلى ، فقال :
يامولاى ؛ أنا أَرْقى الناسَ لها . ثم وضع يده عليها ، وجعل يقول ما لا يُسْمَعُ ، فقال
عبد الملك : قد وجدتُ راحةً بهذه الرقية ؛ أين فلانة ؟ اتھونى بها تكتبها ؛
لئلا يهيجَ بى الوجعُ بالليل .

فقال بديج : يمينا ؛ ما أكتبها إلا بتعجيل جائزنى ، فأمر له بأربعة آلاف
درهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، يمينا ، ما أكتبها حتى تُحمَلَ جائزنى إلى بيتى .
قال : تُحمَلَ . فحُمِلَتْ .

* المستطرف : ٢ - ٢٣٢

(١) من أعظم الخلفاء ودعاتهم ، نشأ فى المدينة ، واستعمله معاوية عليها ، وانتقلت إليه الخلافة
سنة ٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٨٦ هـ . (٢) النسأ عرق من الورك إلى الكعب ، ولا يقال : عرق
النسأ لأن النسأ لا يضاف إلى نفسه (٣) يقال : رقى الرأقى رقية ، إذا عوذ وقت .
(٤) مثل : وقف .

فقال : يا أمير المؤمنين : يميناً مارقيتُ رجلك إلا مباسطة بقول نصيب :
ألا إنَّ ليلى العامرية أصبحت على البعد منى ذنبَ غيرى تنقِمُ
فقال : ويلك ، ما تقول ! قال : مارقيتُك إلا بها ، فقال : اكتبها
على ، فقال : كيف وقد سارت بها الرُّكبان إلى أخيك بمصر ! فضحك حتى
فحص الأرضَ برجليه .

٧٤ — ظَرْفُ عُبَادِ الْحِجَازِ *

قال عبدُ الله بن عمر العُمريّ : خرجتُ حاجًّا ، فرأيتُ امرأةً جميلةً تتكلم بكلامٍ أُرِفْتُ^(١) فيه ، فأدْنَيْتُ نَاقَتِي منها ، ثم قلتُ لها : يَا أُمَّةَ اللَّهِ ، أَلَسْتَ حَاجَّةً ! أما تخافين الله ؟ فَسَفَرْتُ عَنْ وَجْهِ يَبْهَرُ الشَّمْسَ حَسَنًا ، ثم قالت : تَأْمَلُ يَا عَمِّ فَإِنِّي مِنْ عَنَاهُ الْعَرَجِيُّ^(٢) بقوله :

أَمَاطَتْ كِسَاءَ الْخَزْزِ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا وَأَدْنَتْ عَلَى الْخُلْدَيْنِ بُرْدًا مُهْلَمَلًا
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجُبْجُنْ يَبْغِيغِينَ حِسْبَةً^(٣) وَلَكِنْ لَيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ الْمُغْفَلَا^(٤)
فقلتُ لها : فَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَّا يُعَذِّبَ هَذَا الْوَجْهَ بِالنَّارِ .

وبلغ ذلك سعيد بن المسيّب^(٥) فقال : أما والله لو كان من بعض بُغَضَاءِ الْعِرَاقِ لَقَالَ لَهَا : اغْزُبِي قَبْحَكَ^(٦) اللَّهُ ! وَلَكِنَّ ظَرْفُ عُبَادِ الْحِجَازِ .

* الْأَغَانِي : ١ - ٤٠٣ .

(١) أُرِفْتُ : تَكَلَّمْتُ بِفَاحِشِ الْقَوْلِ (٢) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، شَاهِدُ غَزْلِ يَنْعُو نَحْوَ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَكَانَ مِنَ الْأَدْبَاءِ الظُّرَفَاءِ الْأَسْخِيَاءِ ، وَلَقِبَ بِالْعَرَجِيِّ لِسُكْنَاهُ قَرْيَةَ الْعَرَجِ فِي الطَّائِفِ (٣) الْحِسْبَةُ : الْأَجْزُ (٤) الْمَغْفَلُ : الَّذِي لَا فِطْنَةَ لَهُ (٥) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، سَيِّدُ التَّابِعِينَ ، جَمَعَ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٩٤ هـ . (٦) قَبَحَهُ اللَّهُ : نَحَاهُ عَنِ الْخَيْرِ .

٧٥ — جرير وجارية الحجاج *

نزل جريرٌ على عَنبَسَةَ ^(١) بن سميذ بوَاسِطَ ، ولم يكن أحدٌ يدخلها إلا بإذن الحجاج ، فلما دخل على عَنبَسَةَ ، قال له : وَنَحْكَ ! لَقَدْ غَرَرْتَ بِنَفْسِكَ ، فاحملك على ما فعلت ؟ قال : شِعْرٌ قَلْتَهُ اعْتَلَجَ فِي صَدْرِي ، وَجَاشَتْ بِهِ نَفْسِي ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ يَسْمَعَهُ الْأَمِيرُ . فَعَنَفَهُ وَأَدْخَلَهُ بَيْتًا فِي جَانِبِ دَارِهِ ، وَقَالَ : لَا تُطْلِعَنَّ رَأْسَكَ حَتَّى نَنْظُرَ كَيْفَ تَكُونُ الْحِيلَةُ لَكَ .

ولم يلبث أن أتاه رسولُ الحجاج من ساعته يدعوه في يوم قَائِظٍ ، وهو قَاعِدٌ فِي الْخَضِرَاءِ ^(٢) ، وَقَدْ صُبَّ فِيهَا مَاءٌ اسْتَنْقَعَ ^(٣) فِي أَصْفَلِهَا ، وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى سَرِيرٍ ، وَكَرْسِيٍّ مَوْضُوعٌ نَاحِيَةٍ .

قال عنبسة : قَعَدْتُ عَلَى الْكَرْسِيِّ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْحَجَا بِمَحْدَثَتِي ، فَلَمَّا رَأَيْتُ تَطْلُقُهُ وَطِيبَ نَفْسِهِ قُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! رَجُلٌ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ قَالَ فِيكَ شِعْرًا أَجَادَ فِيهِ ، فَاسْتَخَفَّهُ عَجَبُهُ بِهِ حَتَّى دَعَاهُ إِلَى أَنْ رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَدَخَلَ مَدِينَتَكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَأْذَنَ لَهُ . قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قُلْتُ : ابْنُ الْخَطَفِيِّ . قَالَ : وَأَيْنَ ؟ قُلْتُ : فِي الْمَنْزِلِ . قَالَ : يَا غُلَامَ ، فَأَقْبِلِ الْغُلْمَانَ يَتَسَارِعُونَ . قَالَ : صَفِّ لِهِمْ مَوْضِعَهُ مِنْ دَارِكَ ؛ فَوَصَفْتُ لَهُمُ الْبَيْتَ الَّذِي هُوَ فِيهِ .

* الْأَغَانِي : ٨ - ٧٥ ، الْكَامِلُ : ١ - ٣١٢ .

(١) هُوَ عَنبَسَةُ بْنُ سَمِيذَ بْنِ الْعَاسِ أَحَدُ أَشْرَافِ بَنِي أُمِيَّةَ ، حَبَسَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يَوْمَ قَتَلَ أَخِيهِ عَمْرُو بْنُ سَمِيذَ الْأَشَدِّيَّ (٢) الْخَضِرَاءُ : يَرَادُ بِهَا خَضِرَاءُ وَاسِطَ ، وَتَعْرَفُ بِالْقُبَّةِ الْخَضِرَاءِ بَنَاهَا الْحَجَّاجُ مَعَ قَصْرِهِ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ (٣) اسْتَنْقَعَ الْمَاءَ : اجْتَمَعَ .

فانطلقوا حتى جاءوا به ، فأدخل عليه وهو مأخوذ بضَبْعِيَّةٍ ^(١) حتى رُمِيَ به في
الخضراء ، فوقع على وجهه في الماء ، ثم قام يَتَنَفَّسُ كما يَتَنَفَّسُ ^(٢) الفَرَّخُ . فقال له :
هيه ! ما أقدمك علينا بغير إذننا ؟ لا أمَّ لك ! قال : أَسْلَحَ اللهُ الأمير ! قلتُ في
الأمير شعراً لم يقل مثله أحدٌ ؛ فجاشَ به صدرى ، وأحببت أن يسمعه منى الأمير ؛
فأقبلتُ به إليه .

فقطَلَتِ الحَجَّاجُ وسكَن ، واستنشدته ، فأنشده ، ثم قال : يا غلام ، فجاءوا يَسْعَوْنَ .
فقال : علىَ بالجارية التي بَعَثَ بها إلينا عاملُ اليمامة ؛ فأُتِيَ بجاريةٍ بيضاءَ مَدِيدَةٍ
القائمة . فقال : إن أُصِبتَ صِفَتَهَا فهِى لك . فقال : ليس لى أن أقولَ فيها وهى
جاريةُ الأمير . فقال : بلى ، فتأملها واسألها ؛ فقال لها : ما اسمك ؟ فأمسكت .
فقال لها الحجاج : خبريه ، فقالت : أُمَامَةُ ، فأنشأ :

وَدَّعْ أُمَامَةً حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنِ الْوَدَاعَ لَمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ
مِثْلُ الْكَثِيبِ تَمَايَلَتْ أَعْطَافُهُ فَالرَّيْحُ تَجْبُرُ مَتْنَهُ وَتَهِيلُ
هَذَى الْقُلُوبِ صَوَادِيكاً تَيَمَّمَتْهَا وَأَرَى الشِّفَاءَ وَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فقال الحجاج : قد جعل الله لك السبيل إليها ، فخذها فهِى لك .
فغضب بيده إلى يَدِهَا ، فتمتعت عليه ، فقال :

إِنْ كَانَ طِبُّكُمْ ^(٣) الدَّلَالُ فَإِنَّهُ حَسَنٌ دَلَالُكَ يَا أُمَامَ جَمِيلُ
فاسْتَضْحَكَ الحَجَّاجُ ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة .

وكانت من أهل الرى ، وكان إخوتها أحراراً ، فاتبعوه ، فأعطوه بها حتى
بلغوا عشرين ألفاً فلم يقبل ، ففى ذلك يقول :

(١) الضبع : الضد كلها أو وسطها بلحمها (٢) تنفث الطائر : قض ريشه (٣) الطب :
الذهب ، والدلال : الدالة .

إذا عرضوا عشرين ألفاً تعرّضت لأُمّ حكيم حاجةً هي ماهياً
لقد زدت أهل الرّميّ عندي مودةً وحبّيت أضعافاً إلى المواليا
فأولدها حكيماً وبلالاً وحرزّه بنيه .

٧٦ — أرادت عرّاراً بالهوان*

لما أخذ الحجاجُ رأس ابن الأشعث وجّه به إلى عبد الملك بن مروان ، مع
عرّار^(١) بن عمرو بن شأس الأَسدي ، وكان أسودَ دميماً ؛ فلما وردت به عليه جعل
عبدُ الملك لا يسأل عن شيء من أمرِ الواقعة^(٢) إلا أنباه به عرّار ، في أصحّ لفظ ،
وأشيع قولٍ ، وأجزأ اختصار .

فشافه من الخبر ، وملاً أذنه صواباً ، وعبدُ الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمته^(٣)
عينه حين رآه ، فقال عبد الملك مُتمملاً :

أَرَادَتْ عَرَّاراً بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدُ لَعْمَرَى عَرَّاراً بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ
وَإِنَّ عَرَّاراً إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ فَإِنِّي أَحِبُّ الْجَوْنَ ذَا الْمَنْكِبِ الْعَمِّ^(٤)
فقال له عرّار : أتعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ! قال : فأنا والله عرّارٌ ،
فزاد في سروره ، وأضعف له الجائزة .

* الكامل : ١ - ١٦٠

(١) ضبطه صاحب اللسان (مادة عرر) بالفتح ، ولما أورد البيت الثاني من البيتين الواردين في
القصة ضبطه بالكسر (٢) الواقعة : الواقعة (٣) اقتحمته : احتقرته (٤) منكب عمم :
طويل .

٧٧ — قد نجوت*

خرج العدِيل^(١) بن الفرخ يريدُ الحَجَّاجَ^(٢) ، فلما صار ببابه حجبه الحاجب فَوَتَبَ عليه العدِيلُ ، وقال : إنه لن يدخلَ على الأمير - بعد رجالات قریش - مَنْ هو أكبرُ مني ولا أولى بهذا الباب ؛ فنازعه الحاجبُ الكلامَ ، فأخفظه^(٣) ، وانصرف العدِيلُ عن باب الحجاج - إلى يزيد بن المهلب ، فلما دخل إليه أنشأ يقول :

لئن أرتجَ الحَجَّاجُ بالبخلِ بابَه فبابُ الفتي الأزدِي بالعرفِ يفتَحُ
فتى لا يُبالِي الدهرَ ماقِلَ ماله إذا جُمِلَتْ أيدى المكارمِ تَسْنَحُ
يدَاهُ يدُ بالعُرفِ تنهبُ ماحوتُ وأخرى على الأعداءِ تسطو وتجرحُ
إذا ما أتاه المُرْمِلُونُ^(٤) تَيَقَّنُوا بأنَّ الغنى فيهم وشيكاً سيسرحُ
أقام على العافينِ^(٥) حراسَ بابِه ينادونهم ، وألحُرُّ بالحرِّ يفرحُ
هلموا إلى سِنْبِ الأميرِ وعُرِفِه فإن عطاياهُ على الناسِ تنفَحُ
فقال له يزيد : عرَضَتَ بنا وخاطرتَ بدمك ، وبالله لا يصل إليك وأنت في حَيْرَى ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم ، وأمر له بأفراس ، وقال له : الحق بعلياء نَجِدْ ، واحذَر أن تعلقك حبالُ الحجاج ، أو تَحْتَجِجَكَ^(٦) بحاجته ، وابعث إلى في كل عام ، فلك على مثل هذا ، فارتحل .

* الأغاني : ١٣ - ٢٠

(١) العدِيل : شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية (٢) الحجاج : انظر صفحته ٢٨
(٣) أخفظه : أغضبه (٤) أرموا : نقد زادم (٥) العاق : طالب المعروف (٦) تحتويك .

وبلغ الحجاج خبره ، فأحفظه ذلك على يزيد ، وطلب العدِيلَ فهرب وقال :
أخوف بالحجاج حتى كأنما يحرك عظم في الفؤاد مهبّض
ودون يد الحجاج من أن تنالني بساط لأيدي الناعجات^(١) عربض
مهامه أشباه كأن سراجها ملأ^(٢) بأيدي الغاسلات رحيض^(٣)

ولكن الحجاج لجّ في طلبه حتى لفظته الأرض ، ونبا به كل مكان هرب
إليه ؛ فأتى بكر بن وائل ، وهم يومئذ بلدون ، فشكا إليهم أمره ، وقال لهم : أنا
مقتول ، أفتسلموني هكذا وأتم أعزّ العرب ! قالوا : لا والله ؛ ولكن الحجاج
لا يراغم^(٤) ، ونحن نستوهبك منه ، فإن أجابنا فقد كفيت ، وإن حادنا^(٥) في
أمرك منعناك ، وسألنا أمير المؤمنين أن يهبك لنا .

فأقام فيهم ، واجتمعت وجوه بكر بن وائل إلى الحجاج ، فقالوا له : أيها
الأمير ؛ إننا قد جنينا جميعاً عليك جناية لا يغفر مثلها ، وهانحن أولاء قد استسلمنا
وألقينا بأيدينا إليك ، فإما وهبت فأهل ذلك أنت ، وإما عاقبت فكنت المسكط
المالك العادل ؛ فتبسّم وقال : قد عفوت عن كل جرّم إلا جرم الفاسق العدِيل ،
فقاموا على أرجلهم وقالوا : مثلك أيها الأمير لا يستثنى على أهل طاعته وأوليائه
في شيء ، فإن رأيت ألا تسكدر منك باستثناء ، وأن تهب لنا العدِيل في أول
من تهب . قال : قد فعلت ، فهاتوه - قبحه الله - فأتوه به ، فلما مثل بين
يديه أنشأ يقول :

فلو كنت في سلى أجا وشعابها لكان لحجاج على دليـل

(١) ناعجات : جم الناعجة : الناقة السريعة ، أو التي تصاد عليها ناعج الوحش (٢) الملاة :
جم ملاءة ، وهي الرطة (٣) الرحيض : الثوب المفسول (٤) لا يراغم : لا يعادي .
(٥) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه .

بنى قبة الإسلام حتى كأنما
 إذا جَارَ حَكْمُ النَّاسِ الْجَا حَكْمَهُ
 خَلِيلٌ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ
 به نصر الله الخليفة منهم
 فأنت كسيف الله في الأرض خالد
 وجازيت أصحاب البلاء بلاءهم
 وصلت بمزاق العراق فأصبحت
 وما خفت شيئاً غير ربي وحده
 ترى الثقلين : الجن والإنس أصبحا
 هدى الناس من بعد الضلال رسول
 إلى الله قاضٍ بالكتاب عقول
 لكل إمام صاحبٌ وخليل
 وثبت ملكاً كاد عنه يزول
 تصول بعون الله حين تصول
 فما منهم عما تحب نكول^(١)
 مناكبها للوطء وهي ذلول
 إذا ما انتحيت النفس كيف أقول
 على طاعة الحجاج حين يصول
 فقال له الحجاج : أُولَى لَكَ ! قد نجوت ، وفرض له ، وأعطاه عطاءه .

(١) النكول : النكوص والجن .

٧٨ — ما أنا يبارح أو يرضى أمير المؤمنين *

أوفد الحجاجُ ابنه محمداً إلى عبد الملك عاشرَ عشرة من أهل العراق ، وأوفدَ إليه جريراً^(١) معه ، ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه .

فقدم محمدٌ على عبد الملك فخطب بين يديه ، فأجلسه على سريرِه عند رجله ، ثم دعا بالوفد رجلاً رجلاً ، فجعل كلما خطب رجل قطع خطبته وتسكّم جرير قطع خطبته ، ثم قال : مَنْ هذا يا محمد ؟ فقال : هذا يا أمير المؤمنين ابنُ الخطفي . قال : مادحُ الحجاج ؟ قال : ومادحك يا أمير المؤمنين ! فقال جرير : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده مدحةً فيه ! قال : هات ما قلت في الحجاج ، فأنشده :

صَبَرْتُ ^(٢) النفسَ يابنَ أبي عقيل	محافظةً فكيف تَرَى الثَّوَابَا
ولو لم يَرْضَ رَبُّكَ لم يُنْزَلْ	مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سَعَرَ ^(٣) الخليفةُ نارَ حَرْبٍ	رأى الحجاجَ أنْقَبَهَا ^(٤) شِهَابَا ^(٥)

* المحاسن والمساوي : ٢٣٠ ، طبع لبيزج ، الأغاني : ٨ - ٦٧

(١) كان جرير مقبلاً بالبادية ، فكتب إليه بنو ربوع : أنت مقيم بالبادية ، وليس أحد يروى عنك ، والفرزدق قد ملاك عليك العراق ، فأنحدر إلى جماعة الناس ؛ فأشد بالرجل كما يشد بك ؛ فأنحدر وأقام بالبصرة ؛ فلذلك يقول :

وإذا شهدت لشعر قومي مشهداً آثرت ذاك على بني ومالي

فأوجهه الحجاج ، وملاً بمدحه الأرض ، وبلغ أهل الشام وأمير المؤمنين ورواه الناس .

(٢) صبرت : حبست (٣) شعر الحرب : أوقدها (٤) الكوكب الثاقب : المضيء

(٥) الشهاب : الكوكب .

فقال : صدقت ! كذلك هو ، ثم قال : ابدأ بالحجاج ، فأنشده :
 طَرَبْتُ لِعَهْدٍ هَيَّجَتْهُ الْمَنَازِلُ وَكَيْفَ تَصَابِي^(١) الْمَرْءَ وَالشَّيْبَ شَامِلِ
 فَمَا فَرَّغَ مِنْهَا حَتَّى ظَهَرَ فِي وَجْهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْغَضَبُ ، وَقَالَ : هَاتِ ؛ أبدأ
 بالحجاج ، فأنشده :

هَاجَ الْمَبْهُو لِفُؤَادِكَ الْمُهْتَاجِ فَانْظُرْ بِتَوْضُحٍ^(٢) بِأَكْرِ الْأَحْدَاجِ^(٣)
 حَتَّى آتَى عَلَى قَوْلِهِ :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَابِ
 أَمْ مَنْ يَفَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيفَةً إِذْ لَا يَنْثِقْنَ بَغْسِيرَةَ الْأَزْوَاجِ
 فَتَكَلَّمَ الْأَخْطَلُ وَقَالَ : أَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا بَنَ الْمَرَاغَةِ ؟ فَعَلِمَ جَرِيرٌ أَنَّهُ الْأَخْطَلُ
 فَزَبَنَ^(٤) حِيَالَ وَجْهِهِ بِكُمِّهِ ، وَقَالَ : اخْسَأْ ، وَمَضَى حَتَّى أَنْشَدَهُ كُلَّهَا .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : اجْلِسْ ، فَجَلَسَ ، ثُمَّ قَالَ : قُمْ يَا أَخْطَلُ ، هَاتِ مَدْيَحَ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ جَرِيرٌ : قِفْ حِيَالِي ، فَنَشْدُ أَشْعَرَ النَّاسِ وَأَمْدَحُ النَّاسَ ؛ فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ :
 أَنْتَ شَاعِرُنَا وَمَادِحُنَا ، ارْكَبْهُ ، فَرَمَى بِرِذَائِهِ ، وَأَلْقَى قَيْصَهُ عَلَى مَنْكَبِهِ ، وَوَضَعَ
 يَدَهُ عَلَى عُنُقِي ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَا يَفْعَلُ . فَقَالَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ : صَدَقَ
 يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : دَعْنِي ، وَانْتَقِضَ الْمَجْلِسُ وَخَرَجْنَا .

فَقَالَ جَرِيرٌ : فَدَخَلَ الْوَفْدُ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مَعَ مُحَمَّدِ كُلَيْبٍ أَحْجَبَ فَلَا أَدْخَلَ

(١) التَّصَابِي : التَّظَاهَرُ بِالصَّبَا (٢) تَوْضُحٌ : اسْمُ مَكَانٍ (٣) الْحَدَجُ : مَرْكَبٌ لِلنِّسَاءِ كَالْحَفْطَةِ
 جَمْعُهُ أَحْدَاجٌ (٤) الزَّيْنُ : الدَّفْعُ .

عليه ، ثم دخلوا في التاسع ، وأخذوا جوائزهم ، وتهيئوا في العاشر للدخول والتوديع للرحيل .

فقال محمد : يا أبا حَرْزَةَ ما لي لا أراك تَتَجَهَّزُ ؟ قلتُ : كيف وأمير المؤمنين عليّ سباحط ؟ ما أنا بيارح أو يرَضَى عني !

فلما دخل عليه محمد ليودّعه ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ابن الخطفي ما دحك وشاعرك ، ومادح الحجاج سيفك وأمينك ، وقد لزمْتَنَّا له صُحْبَةً وذِمَّامَ ، فإن رأيتَ أن تأذنَ له ؟ فإنه أבי أن يخرجَ معنا ، وأنت عنه غضبان ، وآلى أنه لا يخرج أو ترضى عنه فيدخل ويودّعك .

قال جرير : فأذن لي ؛ فدخلت عليه ، ودعوت له ، فقال : إنما أنت للحجاج . قلت : ولك يا أمير المؤمنين .

ثم استأذنته في الإنشاد ، فسكت ولم يأذن لي ، فاندفعت فقلت :

أَتَصْحَوُ (١) أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِرٍ

فقال : بل فؤادك !

فقلت :

عَشِيَّةٌ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ (٢)

حتى فرغت منها ، وعلمت أني إن خرجت بغير جائزة كان إسقاطي آخر

الدهر .

فلما بلغت إلى قولي :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ (٣)

(١) تصحو : ترك الباطل (٢) الرواح : الذهاب عشية (٣) الراح : جمع راحة : باطن الكف .

تَبَسَّمَ عبدُ الملك وقال : بلى ، كذلك نحن ، وما زِلْنَا كذلك ؛ أَعِدْ فَأَعِدْتُ ، فطرب لذلك ، ثم أَنشدته إياها حتى أَتَيْت إلى قولي :

تَعَزَّتْ أم حَرْزَةَ ثم قالت رَأَيْتُ المورِدِينَ ذَوِي لِقَاحٍ
تُعَلِّلُ وهى ساعِبة يَبْذِبُهَا بأنفاسٍ من الشَّيمِ القَرَّاحِ^(١)

فالتفت عبد الملك إلى محمد بن الحجاج ، وقال : أترى أم حَرْزَةَ تُرْوِيها مائة من الإبل ؟ قال : إن لم يُرْوِها ذلك فلا أُرْوِها الله !

فقال : أخرجوا لنا مائة من النعم التي جاءت من عند كلب ، ولا تُرْذِلوها^(٢) ؛ فشكَّرتُ له ، وشكَّرَ له أصحابي ومن شهدني من العرب .

ثم قلتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّمَا نَحْنُ أَشْيَاخٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَلَيْسَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ عَنْ رَاحِلَتِهِ . قال . أَفَنَجْعَلُ لَكَ أَثْمَانَهَا ؟ قلت : لا ! وَلَكِنْ الرِّعَاءُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَنَظَرَ جَنَّبَتَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لِحُصَيْنَتِهِ : كَمْ يَجْزِي مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ؟ قَالُوا : ثَمَانِيَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَمَرَ لِي بِثَمَانِيَةِ عِبْدٍ ؛ وَكَانَ قَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ بَعْضَ الدَّهَاقِينَ^(٣) ثَلَاثَ صِحَافٍ فَضَّةً ، وَهَنَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَقْرَعُهُنَّ بِالْخِيزَرَانَةِ ، فَقُلْتُ : الْحَبْلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَنَدَسَ^(٤) إِلَى مِثْلٍ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً ، وَقَالَ : خُذْهَا لَا نَفْعَ لَكَ ، قلت : بلى ، كُلْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْكَ يَنْفَعُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَوَدَّعْنَاهُ وَانْصَرَفْنَا .

وكتب محمدٌ إلى أبيه بالحديث كله ، فلما قَدِمْنَا عَلَى الْحَجَّاجِ قَالَ لِي : أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ يَبْلُغَ الْخَبِيرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَجِدَ عَلَيَّ لَأَعْطَيْتُكَ مِثْلَهَا ، وَلَكِنْ هَذِهِ خَمْسُونَ رَاحِلَةً وَأَحْمَالُهَا حِنْطَةٌ ، تَأْتِي بِهَا أَهْلُكَ ؛ فَتَمِيرُهُمْ ؛ فَقبضْتُها وانصرفتُ .

(١) الأنفاس : جمع نفس ، وهو جرعة الماء ، والشيم : البارد ، والقراح : الخالص ، يريد أنها تعللهم بالماء عند افتقار اللبن (٢) أرذله : جعل فيه الرذالة ، وهى ما اتقى جيبه (٣) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو زعيم فلاحي العجم ، ورئيس الإقليم - معرب (٤) ندس إلى منهن واحدة : قذفى بها .

٧٩ - آكل *

قال الشَّمرُ دل وکیلُ عَمْرُو بن العاص : قدم سليمانُ بن عبدِ الملک الطائِفَ فدخل هو وعمرُ بن عبد العزيز وأیوب ابنه بستاناً لعمرو ، فجال حتى ألقي صدره إلى غُصْن ، ثم قال : ویلک ! یا شَمرُ دل ؛ ما عندک شیء تَطْعَمُنِی ؟ قلت : عندی جَذَعٌ^(١) حافِلٌ^(٢) تغدو علیه وتروح أخرى . قال عَجَلْ به فأتیتُه به كأنه عُسْکَةٌ^(٣) سَمْنٌ ، فجعل يأکل ، وهو لا یَدْعُو عَمَرَ ولا ابنه ، حتى بقى منه فَنَحِذ . فقال : یا أبا حفص ؛ هلم ! قال : إنی صائمٌ ، فأنی علیه ، ثم قال : یا شمر دل ؛ ویلک ! ما عندک شیء تَطْعَمُنِی ؟ قلت : دَجَاجَاتٌ سِتٌ ، کَأْسٌ رِثْلَانٌ^(٤) . النعام ، فأتیتُه بهنَ فکان يأخذ برجل الدجاجة فیلقى عظامها نَقِیَّةً فأنی علیهن ، ثم قال : ویلک یا شمر دل ! ما عندک شیء تَطْعَمُنِی ؟ قلت : سَوِیقٌ كأنه قُرَاضَةُ الذهب ؛ فأتیتُه بَعْسٍ^(٥) یغیب فیهِ الرأس ، فشر به ، فلما فرغ تجشأً كأنه صارخٌ فی جُبٍّ ، ثم قال : یا غلام ! أفرغتَ من غَدائِنا ؟ قال : نعم ! قال : ماهو ؟ قال : نِیفٌ وثمانون قدراً ، فأنی بها قِدرًا قِدرًا ، وبقناع^(٦) علیه رُقَاقٌ ، فأکل من کل قدرٍ ثلاث لقم ، ثم مسح یده ، واستاقى علی فراشه ، فوَضِعَ الخوان ، وقعد یا أکل مع الناس ، فما أنکرت شیئاً من أکله .

* العقد الفريد : ٣ - ١٦٨ ، نهاية الأرب : ٣ - ٣٤٤

(١) الجذع : الصغیر السن ، وهو یختلف فی أسنان الأبل والحیل والبقر والشاء ، وهو من الغنم ما عمره سنة (٢) شاة حافل : كثيرة اللبن (٣) الملكة : آنية السمن (٤) رِثْلان : جمع الرأل : وهو ولد النعام أو حوايه (٥) البس : القدح العظيم (٦) القناع : الطبق من عسب النخل .

٨٠ — نَزْلُ أُمِّ حَيْبٍ *

نزل نُصَيْبٌ ^(١) بامرأة تُسَكِّنِي أُمَّ حَيْبٍ ، من أهل مَلَلٍ ^(٢) ، وكانت تُضَيِّفُ في ذلك الموضع وتَقَرِّي ، ولا يزال الشريف ينزلُ بها فيُفْضِلُ عليها الفضلَ الكثيرَ ، ولا يزال الشريفُ ممن لم يَحُلْ بها ، يتناولها بالبرِّ لِيُعِينَهَا على مُرُوءَتِهَا ، فنزل بها نُصَيْبٌ ومعه رجلان من قزيش ، فلما أرادوا الرِّحْلَةَ عنها وصلَّها القرشيَّان ، وكان نُصَيْبٌ لا مالَ معه في ذلك الوقت ؛ فقال لها : إن شئتِ فلك أن أُوجِّهَ إليك بمثل ما أعطاكِ أحدهما ، وإن شئتِ قلتُ فيكِ شعراً ؛ فقالت : بل الشعر ؛ فقال :

أَلَا حَيَّ قَبْلَ الْبَيْنِ ^(٣) أُمَّ حَيْبٍ وإن لم تكنْ عِنا غَدًا بِقَرِيبٍ
وإن لم يكنْ أَنِّي أَحَبُّكَ صَادِقًا فَمَا أَحَدٌ عِنْدِي إِذْنٌ بِحَبِيبٍ
تَهَامِ أَصَابَتْ قَلْبَهُ مَلَلِيَّةٌ غَرِيبُ الْهُوَى، وَاهَاً لِكُلِّ غَرِيبٍ!

* الكامل : ١ - ٣٣٤

(١) نصيب بن رباح : شاعر غلٍ مقدم في النسيب والداغ توفي سنة ١٠٠ هـ (٢) ملل : موضع في طريق مكة بين الحرمين (٣) البين : الفراق .

٨١ - امرأة تجاوز كثيرًا*

قال السائب راوية كثير : والله إني لأسير يوماً مع كثير^(١) ، حتى إذا كنا من المدينة على أميال ، لقيننا امرأة في رحالة^(٢) متنفقة ، معها عبيد لها يسعون معها ، فمرت جنابي^(٣) ، فسلمت ، ثم قالت : ممن الرجل ؟ قلت : من أهل الحجاز : قالت : فهل تروى لكثير شيئاً ؟ قلت : نعم . قالت : أما والله ما كان بالمدينة من شيء هو أحب إلي من أن أرى كثيراً وأسمع شعره ، فهل تروى قوله :
أهاجك برق آخر الليل واصب^(٤)

قلت : نعم ، فأنشدتها إياها إلى آخرها ، قالت : فهل تروى قوله :
كأنك لم تسمع ولم ترَ قبلها تفرق آلاف لهنّ حنين
قلت : نعم ، وأنشدتها . قالت : فهل تروى قوله أيضاً :
أطلال سعدى باللوى تتعبد

قلت : نعم ، وأنشدتها حتى أتيت على قوله :
فلم أر مثل العين ضنت بمائها على ولا مثلي على الدمع يحسد
فقلت : قاتله الله ! فهل قال مثل قول كثير أحد على الأرض ! والله لأن
أكون رأيت كثيراً أو سمعت منه شعره أحب إلي من مائة ألف درهم .

* الأغاني : ١١ - ٤٨

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، اشتهر بعزة ، وشبه بها ، وكان رافضياً شديداً التعصب لآل أبي طالب ، توفي سنة ١٠٥ هـ (٢) الرحالة : السرج (٣) الجناب : الناحية (٤) واصب : دائم .

قال السائب: فقلت: هو ذاك الراكب أمامك، وأنا السائب روايته، قالت: حيّاك الله! ثم ركضت بغلتها حتى أدركته، فقالت: أنت كُنْثَر؟ قال: مالك؟ ويلك! فقالت: أنت الذي تقول:

إذا حُسِرَتْ عنه العِمَامَةُ راعَهَا جَمِيلُ الحَيَا أَغْفَلَتْهُ الدَّوَاهِنُ
والله ما رأيت عربياً قط أقبح ولا أحقر ولا أأم منك! قال: أنت والله أقبحُ
منى وأأم. قالت له: أو لست القائل:

تراهنَّ إلا أن يؤدين نظرةً بمؤخر عين أو يقلبن مِعْصما
يُحَاذِرُنْ منى غيرةً قد عرفنها قديماً فما يضحكن إلا تَبْسُماً
لعن الله من يفرق^(١) منك اقال: بل لعنك الله، من أنت؟ قالت: لا يضرك
إن لم تعرفني. قال: والله إني لأراك لثيمة الأصل والعشيرة. قالت: حيّاك الله
يا أبا صخر! ما كان بالمدينة رجل أحبَّ إلى وجهها ولا لقاء منك: قال: لا حيّاك
الله، ولكن ماعلى الأرض أحدٌ أبغض إلى وجهها منك. قالت: أتعرفني؟ قال:
أعرفُ أنك لثيمةٌ من اللثام، ثم تعرفت إليه فإذا هي غاضرة أم ولدٍ لبشر
ابن مروان.

قال السائب: وسأيرها حتى الجبل، ثم قالت له: يا أبا صخر؛ أضمنُ لك
مائة ألف درهم عند بشر بن مروان إن قدمت عليه. قال: أفنى سببك إياي أو في
سببي إياك تضمين لي هذا؟ والله لا أخرجُ إلى العراق على هذه الحال. فلما قامت
تودّعه سمرت فإذا هي أحسنُ من رأيت من أهل الدنيا وجهاً، وأمرت له بعشرة
آلاف درهم.

٨٢ - إفحام *

بينما كان كثيرٌ عزّةٍ مارّاً بالطريق يوماً ، إذ هو بمجوزٍ غمّاءٍ على قارعة^(١) الطريق تمشي ؛ فقال لها : تَنَحَّيْ عن الطريق ، فقالت له : ويحك ! ومَنْ تكون ؟ قال : أنا كثيرٌ عزّة . قالت : قُبْحَكَ اللهُ ! هل مثلك يُدْنَحِيْ له عن الطريق ؟ قال : ولم ؟ قالت : أَلَسْتَ القائل :

وما رَوْضَةٌ بالحزنِ طيّبةُ التّرى يَمِجُّ النَّدى جَنَاجُها وعَرَارُها^(٢)
بأطيبَ من فيها إذا جئتَ طارِقاً وقد أوقدتُ بالمِجْمَرِ^(٣) اللّذن^(٤) نارُها
ويحك يا هذا ! لو تَبَخَّرَ بالمِجْمَرِ اللّذن مثلي ومثلُ أمّك لطاب ريحها ؛ هلاًّ
قلت كما قال سيّدك امرؤ القيس :

وكنْتُ إذا ماجئتُ بالليل طارِقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تَطِيبْ
فَقَطَعْتَهُ^(٥) ، ولم يردَّ جواباً !

* المستطرف : ١ - ٥٥

(١) قارعة الطريق : أعلاه (٢) الجَنَاجَاتُ ، نبات له زهر أصفر طيب الريح . والعَرَارُ : نبت طيب الريح أيضاً (٣) المِجْمَرُ : ما يخبز به من عود وغيره (٤) اللّذن : الابن .
(٥) انقطع الرجل : إذا انقطعت حجته ، وقطعه أيضاً وأقطعه .

٨٣ — بين كثير وعزة *

دخل كثير بن عبد الرحمن على عزة، فقالت : ما ينبغي أن تأذن لك في الجلوس.
قال : ولم ذلك ؟ قالت : لأنى رأيت الأخوص ألين جانباً عند القوافى منك في
شعره ، وأضرع خدّاً للنساء ؛ وإنه الذى يقول :

يأبىها اللأئى فيها لأصرمها ^(١) أكثر لو كان يُغنى عنك إكثار
أقصر فليست مطاعاً إذ وثيت بها لا القلب سأل ولا في حُبها عار
ويعجبني قوله :

أدور ولو لأن أرى أمّ جعفر بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدور
وما كنت زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يُرز لا بدّ أن سيزور
لقد منعت معروفها أمّ جعفر وإنى إلى معروفها لفقىير
ويعجبني قوله :

كم من دنى لها ^(٢) قد صرت أتبعه ولو صحا القلب عنها كان لى تبعاً
لا أستطيع نزوعاً عن محبتها أو يصنع الحبّ بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيتبعنى حتى إذا قلت : هذا صادق نزعا
وزادنى رغبةً فى الحب أن منعت أشهى إلى المرء من دنياه ما منعا
وقوله ^(٣) :

إذا أنت لم تعشّق ولم تدّر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جَلَدَا

* ذيل زهر الآداب : ١٥٠

(١) أصرمها : أقطعها ، وأفارقها . (٢) الدنى : القريب . (٣) البتان الأخيران ألقبهما
العينى وغيره بهذا الموضع من شعر الأخوص ، وأنشدهما أبو بكر بن دريد لأعرابى .

وما العيشُ إلا ما تَلَذَّ وتَشْتَهَى وإنْ لَامَ فيه ذُو الشَّفَانِ وفَنَدَا^(١)
وإني لأَهْوَاهَا وأَهْوَى لقاءَهَا كما يَشْتَهَى الصَّادِي^(٢) الشَّرَابَ المَبْرَدَا
فقال لها كثير: والله لقد أجاد؛ فما اسْتَجَفَيْتِ^(٣) من قولي؟ قالت:
فذلك قولك:

وكنْتُ إذا ما جئتُ أَجْلَانِ نَجْلِسِي وَأُظْهِرَنَّ مِنِّي هَيْبَةً لَا تَجْهَمَا
يَحَازِرَنَّ مِنِّي غَيْرَةٌ قَدْ عَرَفَتْهَا قَدِيمًا فَمَا يَضْحَكُنَّ إِلَّا تَبَشُّمًا
تَراهنَّ إِلَّا أنْ يُؤدِينَ نَظْرَةَ بِمُؤَخَّرِ عَيْنٍ أَوْ يُقَلِّلَنَّ مِعْصَمَا
وقولك:

وددت - وبيت الله - أنْكَ بَكْرَةٌ هِجَانٌ^(٤) وَأَنِّي مُصْعَبٌ^(٥) ثُمَّ نَهْرَبُ
كَلَانًا بِهِ عُرٌّ^(٦) فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ - عَلَى حُسْنِهَا - جِرَاءُ تُعْدِي وَأَجْرُبُ
نَكُونُ لَدَى مَالٍ كَثِيرٍ مُفْعَلٌ فَلَا هُوَ يَرْعَانَا وَلَا نَحْنُ نَطْلُبُ
إِذَا مَا وَرَدَنَا مَنَهَلًا صَاحَ أَهْلُهُ عَلَيْنَا، فَمَا تَنفَكُ تُنْفِي وَنُضْرَبُ
ويحك! لقد أردتَ في الشَّعَاءِ، ما وجدتَ أُمِّيَّةً أَوْطَأَ مِنْ هَذِهِ! فخرج
من عندها خَجِلاً!

(١) ذو الشنان: البغض. فنده: خطأ رأيه (٢) الظمان (٣) استجفاه: عده جافياً
(٤) الهجان من الإبل: البيضاء الكريمة، يستوى فيه الذكر والمؤنث والجمع (٥) المصعب:
الفعل (٦) العر: داء يأخذ الإبل فيتمتع عنها وبرها حتى يبدو الجلد، وهو كالجرّب للإنسان:

٨٤ — حوار بين شعراء *

قَدِمَ عمرُ بنُ أبي ربيعة المدينةَ لأمرٍ ، فأقام شهراً ثم خرج إلى مكة ، وخرج معه الأحوص مُعْتَمِراً .

قال السائب راوية كثير : فلما مرّا بالروحاء ^(١) استنليا ^(٢) ، فخرجت أنلوهما ، حتى لحقتهما بالعرج ^(٣) . فخرجنا جميعاً حتى وردنا ودان ^(٤) ، فحبسهما نُصيب ، وذبح لهما وأكرمهما .

وخرجنا وخرج معنا نُصيب ، فلما جئنا إلى منزل كثير قيل لنا قد هبط قديداً ^(٥) ، فجئنا قديداً ، فقيل لنا : إنه في خيمة من خيامها ، فقال لي ابن أبي ربيعة : اذهب فادعُه لي ، فقال نُصيب : هو أحمق وأشد كبراً من أن يأتيك ، فقال لي عمر : اذهب كما أقول .

فجئته فهِش لي وقال : « اذكرُ غائباً تراه » ، لقد جئت وأنا أذكرك ، فأبلغته رسالة عمر ، فحدّثني نظره ، ثم قال : أما كان عندك من المعرفة بي ما كان يرَدُّكَ عن إتياني بمنزل هذا ؟ فقلت : بلى ، ولكن سترتُ عليك ، فأبى الله إلا أن يهتِكَ سترك ، قال : إنك والله يا بنَ ذَكْوَانَ ، ما أنت من شكلي ، فقل لابن أبي ربيعة : إن كنت قُرُشياً فإني قرشي ، وإن كنت شاعراً فأنا أشعرُ منك . فقلت : هذا إذا كان الحكم إليك ، قال : وإلى من هو ؟ ومن أولى به مني !

* الأغاني : ١١ - ١٧ ، الكامل للبرد : ١ - ٣٣٢ .

(١) الروحاء : موضع على ثلاثين ميلاً من المدينة (٢) استنليا : طلبا مني أن أنلوهما

(٣) العرج : قرية بالطائف في الحجاز (٤) ودان : موضع بين مكة والمدينة

(٥) قديد : موضع قرب مكة .

قال السائب : فرجعت إلى القوم فأخبرتهم ، فضحكوا ، ثم نهضوا معي إليه ، فدخلنا عليه في خيمة ، فوجدناه جالسا على جلد كبش ، فوالله ما أوسع للقرشي ، فلما تحدثوا مليا ، وأفاضوا في ذكر الشعراء أقبل كثير على عمر فقال له : أنت تنعت المرأة فتشيب بها ، ثم تدعها وتنسب بنفسك ! أخبرني عن قولك :

قالت : تصدّئي له ليعرفنا ثم اغزّيه يا أخت في خفر
قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت^(١) تشتد في أنرى
وقولها والدموع تسبقها لتفسدن الطواف في عمر
أترك لو وصفت بهذا الشموهرة أهلك ، ألم تكن قد قبّحت وأسأت لها ،
وقلت الهجر ! إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع ، كما قال هذا -
وأشار إلى الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر^(٢) بأبياتكم ؛ مادرت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى إذا لم يزّر لا بد أن يسبّر
لقد منعت معروفها أم جعفر وإني إلى معروفها لفقر
فدخلت الأحوص الأبهة ، وعرفت الخلاء فيه . فلما عرف كثير ذلك منه
قال له : أبطل آخرك أولك ، أخبرني عن قولك :

فإن نصلي أصلك وإن تعودى لهجر بعد وصلك لا أبالي
ولا ألتى كمن إن سيم صرما^(٣) تعرض كي يرد إلى الوصال
أما والله لو كنت فحلا لبأيت ولو كسرت أنفك ! ألا قلت كما قال هذا
الأسود - وأشار إلى نصيب :

(١) اسبطرت : أسرعت ، تشتد : تجري وتسرع (٢) أم جعفر : امرأة من الأنصار كان يشيب بها الأحوص (٣) صرما : قطيعة .

جزينب ألم قبل أن يرَحَلَ الركبُ وقُلْ : إن تَمَكِّينَا فَمَا مَلِكُ الْقَلْبِ
فَانكسر الأُحوصُ ، ودخل نُصَيِّبَا الأُبهة ، فلما فهم ذلك منه قال : وأنت
يا أُسود ؛ أخبرنا عن قولك :

أهيمُ بدَعْدِ مَا حَيَّيتُ وإن أُمْتُ فوا كبدِي مَنْ ذَا بِهِمْ بها بَعْدِي !
أهمك من يُسَبِّبُ بها بعدك ! فقال نصيب : استوى القِرْقُ (١) .

قال السائب : فلما أَمَسَكَ كَثِيرٌ أَقْبَلَ عليه عمر فقال : قد أَنْصَنَّا لَكَ فَاسْتَمِعْ ،
أخبرني عن قولك لنفسك وتخيَّرْ لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا ياعزَّ من غيرِ رِيبةٍ بعيران نَرَعِي في الخِلا ونُعَذِّبُ !
كلانا به عُرٌّ (٢) فمن يرنا يَقلُّ على حسنِها جرباء تعدى وأَجْرَبُ
إذا ماوردنا منها صاح أهله علينا ، فما نَنفَكْ نرى ونضرب
وددت ، وبيت الله ، أنك بكرة هِجَان (٣) وأنى مُصْعَب (٤) ثم نهزَّبُ
نكونُ بَعِيرِي ذِي غَنَى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحنُ نُطلبُ
ويلك ، تَمَنَيْتَ لها ولنفسك الرِّقَّ والجرب والرَّمَى والطرد والنسخ ، فأى مكروه
لم تَتَمَنَّ لها ولنفسك ! ولقد أصابها منك قول الأول : معاداة عاقل خير من مودة
أحمق ، فجعل يَخْتَلِجُ جَسَدَ كَثِيرِ كَلِه ، ثم أَقْبَلَ عليه الأُحوصُ فقال : أخبرني
عن قولك :

وقُلْنَ - وقد يكذبن - فيك تَعَفَّفُ وشوؤمُ إذا ما لم تطع صَاحَ نَاعِقَةٍ
وأعييننا لا راضياً بكراًمةٍ ولا تاركا شكوى الذى أنت صادقة

(١) القِرْقُ . نوع من الاعم ، ومعنى الجملة : استوتينا فلم يظلم واحد منا صاحبه ، وفي الكامل
« الفرقة » وهى لبة على خطوط فاستواؤها اقتضاؤها (٢) المر : الجرب (٣) الهجائن
من الإبل : البيضاء الكريهة (٤) المصعب : الفحل .

فأدركت صفو الودِّ منا فلمتَّنا وليس لنا ذنبٌ ، فنحن مَوَازِقُهُ^(١)
وَأَلْفَيْتَنَا سِلماً فصدَّعتَ بيننا كما صدَّعتَ بين الأديمِ خَوَالِقَهُ^(٢)
والله لو احتفل عليك هاجيك ما زاد على ما بُوتَ به^(٣) على نفسك . فحقَّق^(٤)
كثير كما يتخفَّق الطائر ، ثم أقبل عليه نصيب فقال : أقبل على ، فقد تمنيت
معرفة غائبٍ عندي علمه حيث تقول :

وددتُ ، وما تغني الودادةُ ، أننى بما فى ضمير الحاجيةِ عالمُ
فإن كان خيراً سرَّنى وعلمته وإن كان شراً لم تُلْمِنى اللوائِمُ
انظر فى مرأتك ، واعرف صورةَ وجهك تعرف ما عندها . فاضطرب اضطرابَ
المصفور ، وقام القوم يضحكون .

(١) مذاق الود : لم يخلصه (٢) الخالق : صانع الأديم .
(٣) رجعت به على نفسك ، أى ما وصفت به نفسك (٤) اضطرب .

٨٥ — احتال حتى أقرأها رسالته *

كان عمرُ بنُ أبي ربيعة ^(١) يهوى كَلِمَ بنتِ سعدِ الحِزْوَميةِ ، فأرسل إليها رسولاً ^(٢) فضرَبَها وحَلَقَها ^(٣) وأحَلَقَها ألا تُعاوِدَ ؛ ثم أعادها ثانية ففعلتُ بها مثلَ ذلك ، فتحامها رسولُهُ ؛ فابتاع أمةً سوداءَ لطيفةً رقيقةً ، وأتى بها منزله فأحسن إليها وكساها ، وآنسها وعرفها خبره ، وقال لها : إن أوصلتِ لي رُقعةً إلى كَلِمَ فقرأتها فأنتِ حرةٌ ولكِ معيشتكِ ما بقيتِ .

فقالت : اكتبُ لي مَكاتِبَةً ^(٤) واكتبُ حاجتكِ في آخرها . ففعل ذلك فأخذتها ومضتُ بها إلى بابِ كَلِمَ ، فاستأذنتُ ، فخرجتُ إليها أمةٌ لها ، فسألتها عن أمرها ، فقالت : مكاتِبَةٌ لبعضِ أهلِ مَوَلَاتِكَ جئتُ أستعينُها في مكاتِبتي ، وحادثتها وناشدتها حتى ملأتُ قلبها .

فدخلتُ إلى كَلِمَ وقالت : إن بالبابِ مكاتِبَةً لم أرقطُ أجلَ منها ولا أكل ولا آدب . فقالت : ائذني لها ، فدخلتُ ، فقالت : مَنْ كاتِبُكِ ؟ قالت : عمرُ ابنُ أبي ربيعةَ الفاسقُ ؛ فاقرئي مكاتِبَتِي . فدَّتْ يدها لتأخذها فقالت لها : لي عليك عهدُ اللهِ أن تَقْرَئيها ؛ فإن كانتِ منكِ إلى شيءٍ مما أُحِبُّه ، وإلا لم يَلْحَقَنِي

* الأغاني : ١ - ٢٠٤ .

- (١) من مخزوم ، بطن من قريش ، واختص شعره بوصف النساء ، والتشبيب بهن ، قال ابن جريج : ما دخل على الفواتق في جالهن شيءٌ أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة ، توفي سنة ٩٣ هـ .
(٢) رسول . يجوز استعماله للمذكر والمؤنث (٣) يقال : حلقة : أي أوجعه في حلقة .
(٤) المكاتبه : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجماً ، فإذا أداه صار حراً .

مِنْكَ مَكْرُوهٌ ، فَعَاهَدْتَهَا وَفَطِنْتَ ، وَأَعْطَيْتَهَا الْكِتَابَ فَإِذَا أَوَّلُهُ :

من عاشقٍ صَبَّ بِسِرِّهِ الْمَوَى قد شَفَّهُ الْوَجْدُ إِلَى كَلَمٍ
رَأَتْكَ عَيْنِي فَدَعَانِي الْمَوَى إِلَيْكَ لِلْحَيْنِ ^(١) وَلَمْ أَعْلَمْ
قَتَلْتِنَا ، يَا حَبِّذَا أَتَمُّ فِي غَيْرِ مَا جُزْمٍ وَلَا مَأْنَمٍ
وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ مُبَيَّنًا فِي آيَةِ الْحُكْمِ
مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا وَلَمْ يُقِدْهَا نَفْسَهُ بِظُلْمٍ
وَأَنْتَ تَأْرِي قَتْلَافِي دَمِي نَمِ اجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا أَوَأَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا فَاحْكِي
وَجَالِسِي نَجْلِيًّا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ مَاعَارٍ وَلَا تَحَرَمِ ^(٢)
وَحَبْرِي : مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ بِاللَّهِ فِي قَتْلِ أَمْرِيءِ مُسْلِمٍ ؟

فَلَمَّا قَرَأَتْ الشَّعْرَ قَالَتْ لَهَا : إِنَّهُ خَدَاعٌ مَلِيقٌ ، وَلَيْسَ لِمَا شَكَاهُ أَصْلٌ . قَالَتْ :
يَا مَوْلَاتِي ؛ فَمَا عَلَيْكِ مِنْ امْتِحَانِهِ ؟ قَالَتْ : قَدْ أَذِنْتُ لَهُ ، وَمَا زَالَ حَتَّى ظَفِرَ
بِبُغْيَتِهِ ، فَقَوْلِي لَهُ : إِذَا كَانَ الْمَسَاءَ فَلْيَجْلِسْ فِي مَوْضِعٍ كَذَا حَتَّى يَأْتِيَهُ رَسُولِي .
فَانصَرَفَتِ الْجَارِيَةُ فَأَخْبَرَتْهُ فَتَاهَبَ لَهَا .

فَلَمَّا جَاءَهُ رَسُولُهَا مَضَى مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ إِلَيْهَا وَقَدْ تَهَيَّأَتْ أَجَلَ هَيْئَةٍ . وَزَيَّنَتْ
نَفْسَهَا وَمَجْلِسَهَا وَجَلَسَتْ لَهُ مِنْ وَرَاءِ سِتْرٍ ، فَسَلَّمَ وَجَلَسَ ، فَتَرَكْتُهُ حَتَّى سَكَنَ ثُمَّ
قَالَتْ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنْكَ يَا فَاسِقُ ؛ أَلَسْتَ الْقَاتِلَ :

هَلَا أَرْعَوَيْتَ قَتْرَ حِجِّي صَبًّا صَدِّيقَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبًا
جَشِمَ الزِّيَارَةَ فِي مَوَدَّتِكُمْ فَأَرَادَ أَلَّا تَحْقِدِي ذَنْبًا

وَرَجَا مُصَالَحَةً فَكَانَ لَكُمْ سَلَامًا^(١) وَكَفْتُ تَرْيَنَهُ حَرْبًا
يَأْيُهَا الْمُصْنَفِي مَوَدَّتَهُ مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خِطْبًا^(٢)
لَا تَجْعَلَنِ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبًّا
وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شُغِفْتَ بِهِ وَاطُورِ الزِّيَارَةِ دُونَهُ غِيًّا
فَلَذَاكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاصَلَةٍ لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبًا
لَا ، بَلْ يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ فَيَقُولُ هَاهُ^(٣) وَطَالَمَا لَبَّيْ
فَقَالَ لَهَا : جُعِلْتُ فِدَاكَ ، إِنْ الْقَلْبَ إِذَا هَوَى نَطَقَ اللِّسَانُ بِمَا يَهْوَى !
فَتَزَوَّجَهَا ، فَوَلَدَتْ لَهُ ابْنَيْنِ .

(١) سلام (٢) الخطب : الخطاب (٣) هاه : كلمة وعيد .

٨٦ — مَنْ لِي بِمَثَلِكَ يُعْتَبِنِي إِذَا اسْتَعْتَبْتَهُ ! *

دخل حمزة بن بيض^(١) على محمد بن يزيد بن المهلب ، فوعده أن يصنع به خيراً ، ثم شغل عنه ، فاختلف عليه مراراً ثم لم يصل إليه ، وأبطأت عليه عِدَّتُهُ ، فقال ابن بيض :

أُخْلِدَ ^(٢) إِنْ اللَّهَ مَا شَاءَ يَصْنَعُ	يُجُودُ فَيَقْطَعُ مَا يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
وَإِنِّي قَدْ أَمَلْتُ مِنْكَ سَحَابَةً	فَجَادَتْ سَرَاباً فَوْقَ بَيْدَاءٍ تَلْمَعُ
فَأَجَمْتُ صَرَمًا ثُمَّ قُلْتُ لَعَلَّهُ	يَثُوبُ إِلَى أَمْرِ جَمِيلٍ وَيَرْجِعُ
فَأَيَّاسُنِي مِنْ خَيْرٍ مَخْلَدُ أَنَّهُ	عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ لِي فِيهِ مَطْمَعُ
يُجُودُ لِأَقْوَامٍ يُوَدُّونَ أَنَّهُ	مِنَ الْبُغْضِ وَالشَّنَانِ أَمْسَى يُقَطِّعُ
وَيَخِلُّ بِالْمَعْرُوفِ عَمَّنْ يُوَدُّهُ	فَوَاللَّهِ مَا أَذْرَى بِهِ كَيْفَ أَصْنَعُ
أَصْرِمُهُ ، فَالْصَّرْمُ شَرٌّ مَقْبُوعَةٌ	وَنَفْسِي إِلَيْهِ بِالْوَصَالِ تَطْلَعُ
وَشَتَانُ بَيْنِي وَالْوَصَالِ وَيَنْتَهِي	عَلَى كُلِّ حَالٍ اسْتَقِيمَ وَيُظْلَعُ ^(٣)
فَأَعْقَبَنِي صَرَمًا عَلَى غَيْرِ إِحْنَةٍ	وَبِخْلًا وَقَدْ مَا كَانَ لِي يَتَبَرَّعُ
وغيره ما غير الناس قبـله	فَنَفْسِي بِمَا يَأْتِي بِهِ لَيْسَ تَقْنَعُ

* الأغانى : ١٥ - ٢٣ .

(١) حمزة بن بيض : شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خليف ماجن ، وكان منقطعاً إلى المهلب ابن أبي صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد وبلال بن أبي بردة واكتسب بالشعر من هؤلاء مالا عظيماً ، توفي سنة ١٢٠ هـ (٢) أمير من بيت إمارة ورياسة وبطولة ، ولى إمارة خراسان على عهد عمر بن عبد العزيز نائباً عن أبيه ، ثم رحل إلى الشام وافداً على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأعجب به ، مات سنة ١٠٠ هـ (٣) الظلم : العرج .

ثم كتبها في قرطاس ، وختمه ، وبعث به مع رجل ، فدفعه إلى غلامه ، فدفعه الغلام إليه .

فلما قرأه سأل الغلام : مَنْ صاحبُ الكتاب ؟ قال لا أعرفه ، فأدخل إليه الرجل ، فقال : مَنْ أعطاك الكتاب ؟ ومن بعث به معك ؟ قال : لا أدري ، ولكن من صفته كذا وكذا ، ووصف صفة ابن بيض . فأمر به فضرب عشرين سوطاً على رأسه ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وكساه ، وقال : إنما ضربتك أدباً لك ؛ لأنك حملت كتاباً لا تدري ما فيه لمن لا تعرفه ، فإياك أن تعود لمثلها .

فقال الرجل : لا والله ، أصاحك الله ! لا أحمل كتاباً لمن أعرف ولا لمن لا أعرف . قال : احذر فليس كل أحد يصنع بك صنيعي .

وبعث إلى ابن بيض ، فقال له : أتعرف ما لحق صاحبك ؟ قال لا ، فحدثه مخدلاً بقصته . فقال ابن بيض : والله إنه لا يزال يتسوق إلى العشرين سوطاً مع الخمسمائة أبداً ؛ فضحك مخدلاً ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب ، وقال : وأنت والله لا تزال نفسك تتسوق إلى عتاب إخوانك أبداً . قال : أجل والله ، ولكن من لي بمثلك يُعتبني ^(١) إذا استعنته ، ويفعل بي مثل فعلك ، ثم قال :

وأبيض بهلول إذا جئت داره كفاني ، وأعطاني الذي جئتُ أسألُ
ويُعتبني يوماً إذا كنت عاتباً وإن قلت زدني قال حقاً سأفعل
تراه إذا ما جئتَه تطلبُ الندى كأنك تعطيه الذي جئتُ تسألُ

(١) يقال : أعتبني فلان ؛ إذا ترك ما كنت أجده عليه ، ورجع إلى ما أَرْضائي عنه ، بعد إسقاطه لإيائي عليه .

فله أبناء المهلب فتية إذا لقيت حَزْبٌ عوانٌ تأكلوا^(١)
 ترى الموت تحت الخافقات أمامهم إذا وَرَدُوا عَلُوا الرماح وأنهلوا^(٢)
 يجودون حتى يحسب الناس أنهم لجودهم نذر عليهم يحل
 فذلك ميراث المهلب ، إنه كريمٌ نساء للكارم أول

فلما أنشده ابنُ بيض هذه الأبيات أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب
 وقال : نزيديك ما زدتنا ونضعف لك ، فقال :

أتحبب لـ لم تترك لنفسى بقية وزدت على ما كنت أرجو وآمل
 فكنت كما قد قال معن فإنه بصير كما قد قال إذ يتمثل
 وجدت كثير المال إذ ضنّ معدماً يذم ويلجأ^(٣) الصديق المؤمل
 وإن أحق الناس بالجود من رأى أباه جواداً للكارم يحزل
 وجدت يزيداً والمهلب برزاً فقلت فإني مثل ذلك أفعل
 ففرت كما فازا وجاوزت غاية يقصر عنها السابق المتهمل
 فأت غياثاً لليتامى وعصمة إليك رجاء الطالبى الخير ير حل
 وموت الفتى خير له من حياته إذا كان ذا مال يضيئ ويبخل
 فقال له مغلدة : احكم ، فإني ، فأعطاه ألفى دينار وجاريةً وغلماً
 ويرزونا .

(١) تأكل الرجل : غضب وهاج كأنه يأكل بفضه بعضاً (٢) العل : الشرب الثاني ، والتهل :
 الشرب الأول (٣) يلومه .

٨٧ — هما قمرًا السماء وأنت نجم *

قَدِمَ الفرزدق إلى المدينة في سنة مُجْدِبَةٍ ، فمشى أهلُ المدينة إلى عمر بن عبد العزيز ، فقالوا له : أيها الأمير ؛ إن الفرزدق قدم مدينتنا في هذه السنة الجدبة التي قد أهلكت عامة الأموال التي لأهل المدينة ، وليس عند أحدٍ منهم ما يعطيه شاعراً ؛ فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وتقدّم إليه ألا يمرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء .

فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق قدِمْتَ مدينتنا في هذه السنة الجدبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرتُ لك بأربعة آلاف درهم ، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء .

فأخذها الفرزدق ، ومرت بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس في سقيفة داره ، عليه مطرف ^(١) خَزَرٍ أحمر ، وجبة خَزَرٍ أحمر ، فوقف عليه ، وقال :

أعبد الله أنت أحق ماشٍ وساعٍ بالجماهير الكبار
نما الفاروق ^(٢) أمك وابن أروى أبوك فأنْتَ مُنْصَدِعُ النهار
هما قمرًا السماء وأنت نجمٌ به في الليل يُدْلِجُ ^(٣) كل سارٍ

فخلع عليه الجبة والعامة والمطرف ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

* الأغاني : ١٩ - ٥٢ .

(١) رداء من خز مريح له أعلام (٢) عمر بن الخطاب (٣) أدلم : سار من أول الليل .

فخرج رجلٌ كان حضر عبد الله والفرزدقُ عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ،
وسمع ما أمره عمرُ به ألاَّ يعرض لأحد ؛ فدخل إلى عمر بن عبد العزيز ،
فأخبره ، فبعث إليه عمر : ألم أتقدم إليك يا فرزدقُ ألاَّ تعرض لأحدٍ بمدح ولا
هجاء ! أخرج ، فقد أجلتك ثلاثاً ، فإن وجدتُك بعد ثلاث نكلتُ بك ، فخرج
وهو يقول :

فَأَجَلَنِي وَوَعَدَنِي ثَلَاثًا كَأَوْعِدَتْ لِمَهْلِكهَا نُمُودُ^(١) !

٨٨ — تَقَى الْأَحْوصَ *

لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخِلَافَةَ لَمْ تَسْكُنْ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا عُمَرُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ
وَالْأَحْوصَ . فَكُتِبَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ : قَدْ عَرَفْتُ عُمَرَ وَالْأَحْوصَ بِالْخُبَثِ
وَالشَّرِّ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاشْدُدْهُمَا وَانْحِلْهُمَا إِلَى .

فَلَمَّا أَتَاهُ الْكِتَابُ حَمَلَهُمَا إِلَيْهِ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ لَهُ : هَيْه !
فَلَمْ أَرْكَ تَجَمُّيرًا ^(١) مَنْظَرَ نَاضِرٍ وَلَا كَلِمًا إِلَى الْحِجِّ أَفْلَتَنَ ذَا هَوًى
وَكَمْ مَالٍ فِي عَيْنَيْهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضِ كَالْدُمَى
فَإِذَا لَمْ يُفَلِّتِ النَّاسُ مِنْكَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فَتَيُّفُلْتُونَ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ اهْتَمَمْتُ
بِأَمْرِ حَجَّكَ لَمْ تَنْظُرْ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِنَفْيِهِ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَوْ
خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ! قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أَعَاهِدُ اللَّهَ أَلَّا أَعُودَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ أَبَدًا
وَأُجَدِّدُ تَوْبَةً عَلَى يَدَيْكَ . قَالَ : أَوْ تَفْعَلُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَعَاهَدَ اللَّهُ عَلَى تَوْبَةٍ وَخَلَاءَ .
ثُمَّ دَعَا بِالْأَحْوصِ فَقَالَ : هَيْه !

اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ قِيَمَتِهَا يَهْرُبُ مِنِّي بِهَا وَأَتَّبِعُ
بَلِ اللَّهِ بَيْنَ قِيَمَتِهَا وَبَيْنِكَ ! ثُمَّ أَمَرَ بِنَفْيِهِ إِلَى دَهْلَاك ^(٢) ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا .
فَرَحَلَ إِلَى عُمَرَ عِدَّةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَكَأَمَوْهُ فِي أَمْرِهِ ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يُقَدِّمَهُ ،

* الْأَغَانِي : ٩ - ٦٤

(١) التَّجْمِيرُ : رَمَى الْجَارِ (٢) دَهْلَاك : بَلَدَةٌ ضَيْقَةُ حَارَةٍ تَجَاهُ مِصْرَ ، كَانَ بَنُو أُمَيَّةٍ إِذَا
مَسَّخُوا عَلَى أَحَدٍ نَفَوْهُ إِلَيْهَا .

وقالوا له : قد عرفتُ نسبَه وقَدَمَه وموضعه ، وقد أُخْرِجَ إلى بلادِ الشِرك ، فنطلب
منك أن تردّه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودارِ قومه . فقال لهم عمر :
من الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها فُجَاءَةً فَأُبْهِتَ حَتَّى مَأْكَادُ أُحِيرُ^(١)

قالوا : الأحوص . قال : فمن الذى يقول :

أدورُ ولولا أن أَرَى أمَّ جعفرٍ بأَيِّاتكم مادرتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنّ ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بُدَّ أنْ سيزورُ
قالوا : الأحوص . قال : فمن ذا الذى يقول :

كَأَن لُبْنَى صَبِيرٌ^(٢) غَادِيَةٌ أَوْ دُمَيْةٌ زَيْنَتْ بِهَا الْبَيْعُ
الله يبنى وبين قيمهم يهربُ منى بها وأتبع
قالوا : الأحوص ، قال : والله لا أردّه مادام لى سلطان .

فمكث هناك حتى مات عمر ، وولى الأمرُ يزيدُ بن عبد الملك ، ففتنته
جميلة يوماً :

كريمُ قريش حين يُنسَبُ والذى أقرت له بالملك كَهْلًا وأُمَرَدًا
فطرب يزيد وقال : ويحك ! مَنْ كريم قريشٍ هذا ؟ قالت : أنتَ
يا أمير المؤمنين ، ومن عسى أن يكون ذلك غيرك . قال : ومن قائل هذا الشعر
في ؟ قالت : الأحوص وهو منفى .

(١) لم يجر جواباً : لم يرجع ولم يرد (٢) صير : سحابة يضاء .

فكتب برده وحمله إليه : وأنفذ إليه صلات سنّة ؛ فلما قدّم إليه أدناه وقرّبه
وأكرّمه ، وقال له يوماً في مجلس حافل : والله لو لم تمت ^(١) إلينا بحق ولا صهر
ولا رَحِيمٍ إلّا بقولك :

وإني لأستحييكم أن يقودني إلى غيركم من سائر الناس مَطْمَعُ
لكفالك ذلك عندنا . ولم يزل يُنَادِيهِ حتى مات .

٨٩ — شهادة *

قال دُكَيْنُ الرَاجِزُ : امتدحتُ عمرَ بنَ عبدِ العزیز وهو والی المدینة ، فأمر لی
بمخمسَ عشرةَ ناقةً كرائمَ ، ففكرتُ أن أُرْمِيَ بهنَّ الفِجَاجَ ^(١) ، ولم تُطَبِّ
نفسی ببیئِهِنَّ . فقدمتُ علینا رُقَّةً من مِصرَ ، فسألتهُم الصُّحْبَةَ ، فقالوا : ذلك
إلیك ، ونحنُ نخرجُ اللیلةَ .

فأتیتُهُ فودَّعتهُ ، وعنده شیخان لا أعرفهما ، فقال لی : یا دُكَيْنُ ؛ إن لی نفساً
توافةً ، فإن صیرتُ إلی أكثر مما أنا فیه فأنتی ولك الإحسان . قلت : أشهدُ لی
بذلك . قال : أشهدُ اللهَ به . قلت : ومن خَلَقَه ؟ قال : هذین الشیخین ، فأقبلتُ
علی أحدهما فقلت : مَنْ أنتَ أعرفك ؟ قال . سالم بن عبد الله بن عمر . وقلت
للآخر : مَنْ أنتَ ؟ قال : أبو یحیی مولى الأمير .

فخرجتُ إلی بلدی بهن ، فرمى اللهُ فی أذنانِهِنَّ بالبركة حتى اعتَقَدْتُ ^(٢)
منهنَّ الإبلَ والعبیذ ؛ فإنی لبصحراءَ فَلَجَ ^(٣) إذا ناعَ یَنعَى سلیمانَ . قلت : فَمَنْ
القائمُ بعده ؟ قال : عمرُ بن عبد العزیز ،

فتوجهتُ نحوه ، فلقینى جریر مُنصرِفاً من عنده ؛ فقلت : یا أبا حَرْزَةَ ^(٤) ،
من أين ؟ فقال : من عند مَنْ یُعْطى الفقراءُ ، ویمنعُ الشَّعراءُ ، فانطلقتُ فإذا هو فی
عرصةٍ ^(٥) دار ، وقد أحاط الناسُ به ، فلم أخلُصْ إلیه ، فنَادَبتُ :

* الأغانی : ٩ - ٢٦١ ، المقد الفرید : ١ - ٢٠٢

(١) أصل الفج : الطريق الواسع ، وجمعه فجاج (٢) اعتقد الشيء : اشتراه أو اقتناه .
(٣) فَلَج : اسم واد (٤) كنية جریر (٥) العرصة : كل بقعة بین الدور واسمة لیس فیها بناء .

يا عمرَ الخيراتِ والمكارِمِ وعمرَ الدَّسائِعِ ^(١) العظائمِ
إني امرؤٌ من قَطَنِ بنِ دارِمٍ طلبتُ دِينِي ^(٢) من أخِي مَكَارِمِ
إذْ تَلْتَحِي والليلُ غَيْرُ نَائِمٍ عند أبي يحيى وعند سالمٍ
فقام أبو يحيى فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لهذا البدويّ عندي شهادةٌ عليك ،
فقال ؛ أعرِفُها ؛ اذْنُ يا دُكَيْنَ ، أنا كما ذكرتُ لك ، إن نفسي لم تنل شيئاً قط
إلا تافت لما هو فوقه ، وقد نلتُ غايةَ الدنيا ، فنفسي تتوقُّ إلى الآخرة ، والله
ما رَزَأْتُ ^(٣) من أموال الناس شيئاً ؛ ولا عندي إلا ألفُ درهمٍ ، فخذ نصفها .
قال دُكَيْنَ : فوالله ما رأيتُ ألفاً كان أعظمَ بركةً منه .

(١) الدسائِع : الطايا (٢) يشير إلى وعده السابق (٣) رزأ من ماله شيئاً : إذا اُخذ .
(١٤ - قصص العرب - ٣)

٩٠ — ففضَّ الطرف إنك من نمير*

كان راعِي^(١) الإبل يَقْضِي للفرزدق على جرير^(٢) وَيُفَضِّلُهُ . فلما أكره من ذلك خرج جريرٌ إلى رجالٍ من قومه ، فقال : هَلَّا تَعَجَّبُونَ لهذا الرجل الذي يَقْضِي للفرزدق على ، وهو يهجو قَوْمَهُ وأنا أمدحهم !

ثم خرج ذاتَ يومٍ يمشى ولم يركب دابَّتَهُ — وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المَرْبَدِّ بالبصرة يجلسون فيها — قال جرير : فخرجت أنعرَضَ له لألقاه حيث كنتُ أراه يمرُّ إذا انصرف من مجلسه ، وما يسرنى أن يعلم أحد ، حتى إذا مرَّ على بغلة له وابنه جَنْدَلٌ يسير وراءه على مُهرٍ له أَحْوَى محذوف الذنب^(٣) ؛ فلما استقبلته قلت : مرحباً بك يا أبا جَنْدَلٍ ؟ وضربت بشمالى على مَعْرِفَةِ بفتلته ، ثم قلت : يا أبا جندل ؛ إن قولك يُسْتَمَع ، وإنك تُفَضِّلُ الفرزدقَ على تفضيلاً قبيحاً ، وأنا أمدحُ قومك وهو يهجوهم ، ويكفيك من ذلك إذا ذكركنا أن تقول : كلاهما شاعر كريم ، ولا تحتملُ منى ولا مِنْهُ لائمة .

فبينما أنا وهو كذلك وما ردَّ على شيئاً إذ لحق به ابنه جَنْدَل ، فرفع

(١) هو عبيد بن حصين ، وبكى أبا جندل ، والراعى لقب غلب عليه لكثرة وصفه الإبل وجوده نعتة إياها . (٢) هو جرير بن عطية الخطمي أشهر شعراء عصره ، وأصفاهم ديباجة ، عاش عمره كله يناضل الشعراء ويساجلهم ، وكان هجاء مرأ ، لم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل مات سنة ١١٠ هـ . (٣) الأحوى : الذى يضرب إلى السواد من شدة خضرته . وعذوف

كَرْمَانِيَّةً^(١) معه ، فضرب بها عَجَزَ بَقْلَتِهِ ، ثم قال : إِنِّي لَأَرَاكَ واقفاً على كلب من بنى كَلْبِيبَ كَأَنَّكَ تَخْشَى مِنْهُ شَرًّا أَوْ تَرْجُو مِنْهُ خَيْرًا !

وضرب البقلةَ ضَرْبَةً فَرَحَتْحَنِ^(٢) رَحْمَةً وَقَعَتْ مِنْهَا قَلَنْسُوتِي ، فَوَاللَّهِ لَوْ عَرِجَ عَلَى الرَّاعِي لَقَلَّتْ : سَفِيهٌ غَوَى - يَعْنِي جَنْدَلًا ابْنَهُ - وَلَكِنْ لَا وَاللَّهِ مَا عَاجَ^(٣) عَلَى ، فَأَخَذْتُ قَلَنْسُوتِي فَمَسَحْتُهَا ؟ ثُمَّ أَعَدْتُهَا عَلَى رَأْسِي ، ثُمَّ سَمِعْتُ الرَّاعِي قَالَ لِابْنِهِ : أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ طَرَحْتَ قَلَنْسُوتَهُ طَرَحَةً مَشْثُومَةً .

فَانصَرَفَ جَرِيرٌ غَضِبَانٌ حَتَّى صَلَّى الْمَشَاءَ بِمَنْزِلِهِ فِي عِلْيَةٍ^(٤) لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ارْفَعُوا إِلَى بَاطِيَةٍ^(٥) مِنْ نَبِيذٍ وَأَسْرَجُوا لِي . فَأَسْرَجُوا لَهُ ، وَأَتَوْهُ بِبَاطِيَةٍ مِنْ نَبِيذٍ . فَعَلَّ يَهُمُّهُمْ^(٦) ، فَسَمِعْتُ صَوْتَهُ عَجُوزَ فِي الدَّارِ ، فَاطْلَعْتُ فِي الدَّرَجَةِ حَتَّى تَطَرْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَجْتَبُو عَلَى الْفِرَاشِ غُرْيَانًا لَمَّا هُوَ فِيهِ ، فَانْحَدَرْتُ فَقَالَتْ : ضَيْفُكُمْ يَجْنُونَ ! رَأَيْتَ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا ! فَقَالُوا لَهَا : اذْهَبِي لِطَيْبَتِكَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ وَبِمَا يُبَارِسُ . فَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ السَّحَرُ ، ثُمَّ إِذَا هُوَ بِكَبَّرٍ ، قَدْ قَالَهَا ثَمَانِينَ يَتًا فِي بَنِي نَمِيرٍ ، فَلَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ :

فَفَضَّ الطَّرْفَ لِيَنَّكَ مِنْ مُنْمِيرٍ فَلَا كَغَبَاً بَلَفْتُ وَلَا كِلَابَاً
كَبَّرَ ، ثُمَّ قَالَ : أَخْزَيْتُهُ وَرَبَّ السَّكْبَةِ . ثُمَّ أَصْبَحَ ، حَتَّى إِذَا عَرَفَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ جَلَسُوا فِي مَجَالِسِهِم بِالْمَرْبِدِ ، وَكَانَ يَعْرِفُ مَجْلِسَهُ وَمَجْلِسَ الْفَرَزْدَقِ ، دَعَا بَدْهَنَ فَادَّهَنَ ، وَكَفَّ^(٧) رَأْسَهُ - وَكَانَ حَسَنَ الشَّعْرِ - ثُمَّ قَالَ : يَا غَلَامُ ! أَسْرِجْ لِي ،

(١) نوع من السباط . (٢) راحته : رفقته . (٣) عاج : رجوع وعاد . (٤) العلية : الغرفة . (٥) الباطية : الناجود ، وهو إناء الحجر . (٦) المهمة والمهينة : الصوت الحنفى . (٧) كف : شعره : جمعه وضم أطرافه .

فأُشْرِجَ لَهُ حَصَانًا ثُمَّ قَصَدَ مَجْلِسَهُمْ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِمَوْضِعِ السَّلَامِ قَالَ : يَا غَلَامُ -
وَلَمْ يَسْمَعْ - قُلْ لَعْنِيدٌ ^(١) أَبْعَثَكَ نَسْوَتَكَ تُكْسِبُهُنَّ الْمَالَ بِالْعِرَاقِ ! أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ
جَرِيرٍ بِيَدِهِ لَتَرْجَعَنَّ إِلَيْهِنَّ بِمَنْزِلٍ ^(٢) يُسَوِّهُنَّ وَلَا يَسْرِهُنَّ !
ثُمَّ لَمَّا نَدَفَعَ فِيهَا فَأَنْشَدَهَا ، فَكَسَّ الْفَرَزْدَقُ وَرَاعَى الْإِبِلَ ، وَأَرَمَ ^(٣) الْقَوْمَ ، حَتَّى
إِذَا فَرَّغَ مِنْهَا سَارَ ، وَثَبَتَ رَاعَى الْإِبِلَ سَاعَةً ، ثُمَّ رَكِبَ بَفَلَتِهِ بِشَرٍّ وَعَرَّةً ^(٤) ،
وَحَلَّى الْمَجْلِسَ حَتَّى تَزَقَّى إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي يَنْزِلُهُ ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : رَكَابَكُمْ رَكَابِكُمْ ،
فَلَيْسَ لَكُمْ هَاهُنَا مَقَامٌ ، فَضَحَّكُمْ وَاللَّهِ جَرِيرٌ ! فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ : ذَاكَ شَوْثُكُمْ
وَشَوْثُ ابْنِكَ . ثُمَّ رَحَلَ بَنُو نَمِيرٍ فَوَجَدُوا الْبَيْتَ قَدْ سَبَقَهُمْ .

(١) هُوَ رَاعَى الْإِبِلَ (٢) الْمِيْرَةُ : الْعَطَامُ يَمْتَارُهُ الْإِنْسَانُ ، وَقَدْ مَارَ مِيرًا (٣) أَرَمَ الْقَوْمَ :
سَكَنُوا . (٤) أَصْلُ الْعَرَّةِ : الْجَرْبُ .

٩١ — لا أهجو شاعراً هذا شعره *

هجا الأَحوصُ ^(١) رَجُلًا من الأنصار من بني حَرَامٍ يقال له ابن بشير ،
وكان كثيرَ المال ؛ فغضب من ذلك ، وخرج حتى قَدِمَ على الفرزدق بالبصرة ،
وأهدى إليه وألطفه ^(٢) فقبلَ منه ؛ ثم جلسا يتحدَّثان ، فقال الفرزدق :
ممن أنت ؟ قال : من الأنصار ؛ قال : ما أقدمك ؟ قال : جئتُ مستجيراً بالله
عز وجل ، ثم بك من رجلٍ هجاني ؛ قال : قد أجارك الله منه وكفأك مئوته ؛
فأين أنت عن الأحوص ؟ قال : هو الذي هجاني ؛ فأطرق ساعة ثم قال : أليس
هو الذي يقول :

أَلَا قِفْ بِرِسْمِ الدَّارِ فَاسْتَنْطِقِ الرَّسْمَا فقد هاج أحزاني وذكرني نَعْمَا
قال : بلى ؛ قال : والله لا أهجو أ رجلاً هذا شعره .

فخرج ابنُ بشير فاشتري أفضلَ من الشراء الأول من الهدايا ، فقدِمَ بها
على جرير ، فأخذها وقال له : ما أقدمك ؟ قال : جئتُ مستجيراً بالله وبك من
رجل هجاني ؛ فقال : قد أجارك الله عز وجل منه وكفأك ، أين أنت عن ابنِ عمك
الأحوص بن محمد ؟ قال : هو الذي هجاني ؛ فأطرق ساعة ثم قال : أليس هو
الذي يقول :

* الأغاني : ٤ : ٢٦٢

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله من الأوس ، وكان ميالاً إلى الرخاء ، قليل الروعة والدين
مع ميل إلى هجو الناس ، إلا أنه كان شاعراً ذا ديباجة صافية ، وحلاوة وعذوبة ، توفى سنة
١٠٥ هـ (٢) ألطفه : أكرمه وبره بطرف التحف .

تمشي بشتي في أكاريس^(١) مالك تُشيدُ به كالكلب إذ ينبج النجماً
فما أنا بالمخسوس^(٢) في جذم مالك^(٣) ولا بالمسمى ثم يلتزمُ الإسماءَ
ولكن يتي إن سألت وجدته توسط منها العزَّ والحسب الضخماً
قال : بلى والله ؛ قال : فلا والله لا أهجو شاعراً هذا شعره . فاشترى أفضل
من تلك الهدايا ، وقدم على الأحوص ، فأهداها إليه وصالحه .

(١) الأكاريس : جمع الكرس . وهو الجماعة من الناس . (٢) رجل مخسوس : مردول -
(٣) الجذم : الأصل .

٩٢ — جارية *

وفد الكُمَيْت^(١) على يزيد^(٢) بن عبد الملك ، فدخل عليه يوماً وقد اشترِيتْ له سلامة القَسْ ؛ فأدخِلتْ إليه والسكيتُ حاضر ، فقال له : هذه جارية تباع ، أفترى أن نبتاعها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، وما أرى أن لها مثلاً فى الدنيا فلا تفوتنك .

قال : فصفا لى فى شعر حتى أقبلَ رأيك ، فقال :

هى شمسُ النهار فى الحسنِ إلّا أنها فضلتْ بقتلِ الظُّرَافِ^(٣)
غَضَّةٌ بضة رخيمٌ لَمُوبٌ وعَثَّةٌ^(٤) المتن شخْنة^(٥) الأطراف
زانها دَلْها وتغرُّ نقيُّ وحديثٌ مرَّتلٌ غيرُ جافِ
خلقتْ فوقَ منيةِ التمنى فاقبلِ النصيحَ يابن عبد منافِ
فضحك يزيد وقال : قد قبلنا نصحك ومشورتك وأمر له بجائزة سنية .

* مذهب الأغاني : ٥ - ٢٠٧

- (١) هو السكيت بن زيد الأسدي ، كان شاعرا عالما بلغات العرب ؛ خبيراً بآياتها ، من شعراء مضر التميميين على البين ، وكان مشهوراً بالتشيع لبني هاشم ، توفى سنة ١٢٦ هـ .
(٢) من ملوك الدولة الأموية فى الشام ، تولى الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ ، ولم يطل عهده إذ توفى سنة ١٠٥ هـ .
(٣) الظراف : جمع ظريف . (٤) امرأة وعثة : كثيرة اللحم ، كأن الأصابع تسوخ فيها من لينها وكثرة لحمها . وامرأة وعثة الأرداف : ليتها . (٥) الشخنة : الدقيق الضامر من الأصل لا مزالا .

٩٣ — فَضَحْتُ شَيْخًا مِنْ قَرِيْشٍ وَعَذَّبْتَنِيْ *

حَدَّثَ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَتَانِي أَبُو السَّائِبِ ^(١) الْخَزُمِيُّ فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا رَقَدَ السَّائِبُ ^(٢) فَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ ؟ فَقَالَ : سَهَرْتُ اللَّيْلَةَ فَذَكَرْتُ أَخًا لِي أَسْتَمْتَعُ بِهِ ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا سِوَاكَ ! فَوَلَّوْا مَضِينًا إِلَى الْعَقِيقِ ^(٣) فَتَنَاشَدْنَا وَتَحَدَّثْنَا ! قُلْتُ : نَعَمْ ! فَتَزَلْتُ ؛ فَمَا زَالَ فِي حَدِيثٍ إِلَى أَنْ أُنْشَدْتَهُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ يَتَيْنِ لِلْعَرَجِيِّ :

بَاتَا بِالنَّعَمِ لَيْلَةً حَتَّى بَدَأَ صَبِيحُ تَلَوِّحٍ ^(٤) كَالْأَغْرَاءِ الْأَشْقَرِ
فَتَلَاوَزَا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْفَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ

فَقَالَ : أَعِذُّهُ عَلَيَّ ! فَأَعَدْتَهُ ! فَقَالَ : أَحْسَنَ وَاللَّهِ ، أَمْرَاتُهُ طَالِقٌ إِنْ نَطَقَ بِحَرْفٍ غَيْرِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ .

فَمَضِينَا فَلَقِينَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَسَنٍ ، فَلَمَّا صَرَّحْنَا إِلَيْهِ وَقَفَ بِنَا ، وَهُوَ مَنْصَرَفٌ يَرِيدُ الْمَدِينَةَ ، فَسَلَّمْ ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا أَبَا السَّائِبِ ؟ فَقَالَ لَهُ :
فَتَلَاوَزَا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْفَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ

* الْأَغَانِي : ١ : ٣٩٨ ، ذِيلُ زَهْرِ الْأَدَابِ : ٣٨

(١) اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَكَانَ أَشْرَافَ الْمَدِينَةِ يَقْدُمُونَهُ وَيَعْظُمُونَهُ لِشَرَفِ مَنْصِبِهِ وَحِلَاوَةِ طَرَبِهِ ، وَغَزَاةِ أَدَبِهِ ، وَجَدَّهُ يَكْنَى أَبَا السَّائِبِ أَيْضًا ، وَكَانَ خَلِيفَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْبَلَ الْإِسْلَامَ فَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ : نَعَمْ الْخَلِيسُ كَانَ أَبُو السَّائِبِ لَا يَدَارِي وَلَا يَمَارِي (٢) انْسَامِرُ : السَّامِرُ ، وَهُمْ الْقَوْمُ يَسْمُرُونَ ، وَالسَّمَرُ : حَدِيثُ اللَّيْلِ (٣) الْعَقِيقُ : مَوْضِعٌ بِالْمَدِينَةِ .
(٤) تَلَوِّحٌ : بَانَ وَوَضَحٌ .

فالتفت إلى وقال : متى أنكرت عقلَ صاحبك ؟ قلت : منذ الليلة ! قال :
إنا لله ! أى كهلٍ أصيبت به قريش !

ثم مضينا فلقينا محمد بنَ عمرَانَ التيمي ، قاضى المدينة ، يريد مالا على بغلة له ،
وكان أثقلَ الناس جِسمًا ، ومعه غلامٌ له على عنقه مُخْلَاةٌ فيها قيدُ البغلة ، فلم عليه ،
ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوبِ المعسر

فالتفت إلى وقال : متى أنكرت عقلَ صاحبك ؟ قلت : آنفًا ! فتركنى
وانصرف ، فقلت : أفتدعه هكذا ! ؟ ما آمنُ أن يتهور^(١) في بعض آبارِ العقيق ؛
قال : صدقت ! يا غلام ؛ هات قيد البغلة ، فوضعه في رجله ، وهو ينشدُ البيت
ويشير بيديه إليه ، يرى أنه يفهمُ عنه قصته ، ثم نزل الشيخُ عن البغلة ، وقال :
يا غلام ؛ احمله على بغلتى ، وألحقه بأهله .

فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته الخبر ، فضحك وقال : قبحك الله
ماجئًا ! فضحت شيخًا من قريش ، وعذبتنى وأنا لا أقدرُ أنْ أنحرَكَ !

(١) يتهور : يسقط .

٩٤ — في دار هشام بن عبد الملك *

قال حماد^(١) الراوية : كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك. فكان هشام^(٢) يَجْفُونِي لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد. فلما مات يزيد، وأَفْضَتْ الخلافة إلى هشام خِفْتُه ، فكنتُ في يَدَيَّ سنة لا أخرجُ إلّا لمن أُنقِ به من إخواني سرّاً .

فلما لم أسمع أحداً يذكرني سنة أمنتُ فخرجتُ فصلّيتُ الجمعة ، ثم جلستُ فإذا شُرَطيّان قد وقفا عليّ فقالا لي : يا حماد ؛ أجب الأمير يوسف بن عمر^(٣) . قلت في نفسي : من هذا كنتُ أُنذِر ، ثم قلت للشُرَطيّين : هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع مَنْ لا ينصرف إليهم أبداً ، ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل .

فاستسَلْتُ في أيديهما وصيرتُ إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر^(٤) . فسَلَّمْتُ عليه فرد عليّ السلام ، ورمى إليّ كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية مَنْ يَأْتِيكَ به غيرَ مَرْوَع ولا مُتَمَتِّع^(٥) ، وادفع إليه

* ثمرات الأوراق : ١ : ١١٢ ، الأغاني : ٦ : ٧٥

- (١) هو حماد بن ميسرة ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتهما ، وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ، فيسألونه ويمزلون سلته (٢) انظر صفحة ٤٥
(٣) لم يكن يوسف بن عمر والياً على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان الوالي عليها خالد القسري حتى سنة ١٢٠ هـ . ثم ولي يوسف بعده . (٤) الإيوان : البيت بيني طولا
(٥) غير متمتع : من غير أن يصيبه أذى بقلقه وزعجه .

خمسائة دينار وجلاً مَهْرِيًّا^(١) يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دِمَشْق .

فأخذت الخمسائة الدينار ونظرت فإذا جل مَرْحُول^(٢) ، فوضعتُ رجلى فى القَرْز^(٣) وسِرتُ اثنتى عشرة ليلة ، حتى وافيت بابَ هشام ، فاستأذنتُ فَأُذِنَ لى ، فدخلتُ عليه فى دار قَوْزَاء^(٤) مفروشةٍ بالرُّخام ، وهو فى مجلس مفروش بالرُّخام ، وبين كل رُخَامَتَيْنِ قضيبُ ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشامٌ جالسٌ على طِئْفَسَةٍ حمراء ، وعليه ثياب خَزَّ حُمْر ، وقد تَصَمَّخَ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت فى أوانى ذهب يُقَلِّبُهُ بيده فتفوحُ روائحُه ، فسَلَّمْتُ فرد على ، واستدنانى فدنوت حتى قَبِلْتُ رجلَه ، وإذا جاريتان لم أَرِ قبلهما مثلَهما ، فى أَذُنَيَّ كلٍّ واحدة منهما حَلَقَتان من ذهب ، فيهما لؤلؤتان تتوقدان .

فقال لى : كيف أنت يا حَمَاد ؟ وكيف حالُك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ؛ قال : أُنْدرى فيم بعثتُ إليك ؟ قلت : لا . قال : بعثتُ إليك لبيتِ خطر ببالى لم أَدْرِ مَنْ قاله . قلت : وما هو ؟ فقال :

فَدَعَوْا بالصَّبْرَ يوماً فجاءت قَيْنَةً فى يمينها إبريقُ

قلت : هذا يقوله عَدِي بن زيد فى قصيدةٍ له . قال فَأَنْشِدْنِيهَا ، فَأَنْشَدْتُهُ :
بَكَرَ العاذِلُونَ فى وَضَحِ الصُّبْحِ يقولون لى : أَلَا تَسْتَفِيقُ
ويلومون فيكَ يابنَةَ عبد الله والقلبُ عندكم موهوقُ^(٥)
لستُ أَدْرِ إذا كَثُرُوا العَذْلُ عندى أَعْدُوْهُ يُلومُنِي أم صَدِيقُ

(١) مهرة بن حيدان : أبو قبيلة ، ومم حتى عظيم ، ولبل مهربية : منسوبة إليهم (٢) مرحول : عليه الرحل - (٣) القَرْز : ركاب الرجل من جلد ، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب (٤) دار قوراء : واسمة (٥) اللوهوق : الشدود بالوهق ، وهو الجبل .

زَانَهَا حَسَنُهَا وَفَرَعٌ عِمِيمٌ وَأُنْثَى صُلْتُ الْجَبِينِ أُنَيْقُ^(١)
وَتَنَائِيَا مَفْلَجَاتٌ عِذَابٌ لَا قِصَارَ تَرَى وَلَا هُنَّ رُوقُ^(٢)
فَدَعُوا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَبَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهِمَا إِبْرِيْقُ
قَدَّمْتُهُ عَلَى عُقَارِ كَعِينِ الدِيَكِ صَفَى سِلَاقَهَا الرَّاُوُوقُ^(٣)
مُرَّةٌ قَبْلَ مَزْجِهَا ، فَإِذَا مَا مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمُهَا مَنْ يَذُوقُ
وَطَفَتْ فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كَالِدٍ رَّصِغَارٌ يُشِيرُهَا التَّصْفِيقُ
ثُمَّ كَانَ الْمَزَاجُ مَاءَ سَمَاءٍ غَيْرَ مَا آجِنٍ وَلَا مَطْرُوقِ

فطرب ، ثم قال : أحسنتَ والله يا حماد . يا جارية ؛ اسقيه . فسقتني
شربة ذهب بثلث عقلى . وقال : أعد . فأعدتُ فاستغفَّه الطرب ، حتى نزل
عن فرشه .

ثم قال للجارية الأخرى : اسقيه . فسقتني شربة ذهب بثلث عقلى . فقلت
إن سقتني الثالثة افتضحت . فقال : سل حوائجك . فقلت : كائنة ما كانت ؟
قال : نعم . قلت : إحدى الحاريتين ، فقال لى : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما .
ثم قال للأولى : اسقيه . فسقتني شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحتُ فإذا
بالجاريتين عند رأسى وإذا عذبة من الخدم مع كل واحد منهما بذرة ؛ فقال لى
أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : خذ هذه فانتفع بها .
فأخذتها والجاريتين وانصرفت .

(١) الفرع : الشعر ، والأنثى الكثير ، يطلق على الشعر وعلى البدن الممتلئ باللحم ، وهو
المراد هنا والصلت : الواضح (٢) روق : طوال (٣) الراووق : فاجود الشراب الذى
يروق فيه .

٩٥ — هروب الكميّة *

كان حكيمُ بن عُبَّاسِ الأعور الكَلْبِيّ وَاعِماً بهجاء مُضَرّ ، فكانت شعراءُ
مُضَرّ تهجوه ويُجيبهم ، وكان الكُمَيْتُ يقول : هو والله أشعرُ منكم ، قالوا :
فأجبِ الرجل ؛ قال : إن خالدَ بن عبد الله القسريُّ مُحسنٌ إليّ ، فلا أقدرُ أن
أردّه عليه . قالوا : فاسمعْ بأذنك ما يقول في بناتِ عمك وبناتِ خالك من الهجاء ،
وأنشدوه ذلك ؛ فغى الكميّة لعشيرته ، وقال قصيدة هجا فيها أهلَ اليمن ، وبلغ
خالدٌ خبرها فقال : لا أبالي ما لم يَجِرْ لعشيرتي ذِكرٌ ، فأنشدوه القصيدةَ وفيها ذمٌّ
لعشيرة خالد ، فأحفظته^(١) عليه ، ثم قال : فَعَلَهَا ، والله لأقتلنه !

ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيّرهن نهايةً في حُسْنِ الوجوه والكمال
والأدب ، فروّاهن الهاشميات ودسّهن مع نخاسٍ إلى هشامِ بن عبد الملك ، فاشترهن
جميعاً ، فلما أنسَ بهنّ استنطقهنّ ، فرأى فصاحةً وأدباً ، فاستقرأهن القرآنَ
فقرأن . واستنشدهن الشعرَ فأنشدته قصائد الكميّة الهاشميات ، فقال :
ويلكن ! مَنْ قاتل هذا الشعر ؟ قلن : الكميّة بن زيد الأسدي ، قال : وفي أي
بلد هو ؟ قلن : في العراق ، ثم بالكوفة .

فكتب إلى خالد - وهو عامله على العراق : ابعث إلى برأس الكميّة بن
زيد ، فبعث خالد إلى الكميّة في الليل ، فأخذه وأودّعه السجن ؛ ولما كان من

(١) الأعاني : ١٥ : ١١٠

(٢) أحفظته : أغضبته .

الغد أَقْرَأَ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ مُضَرِّ كِتَابِ هِشَامٍ ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ قَتْلِهِ ، وَأَذْنَهُمْ فِي
إِنْفَازِ الْأَمْرِ فِيهِ فِي غَدٍ .

ثُمَّ قَالَ لِأَبَانَ بْنِ الْوَلِيدِ الْبَجَلِيِّ - وَكَانَ صَدِيقًا لِلْكَمَيْتِ : انْظُرْ مَا وَرَدَ فِي
صَدِيقِكَ ، فَقَالَ : عَزَّ عَلَىَّ وَاللَّهِ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَامَ أَبَانٌ فَبَعَثَ إِلَى الْكَمَيْتِ بِغَلَامٍ عَلَى بَغْلٍ وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ حَرٌّ إِنْ لَحِقْتَهُ
وَالْبَغْلُ لَكَ ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ : « قَدْ بَلَغْنِي مَا صَرْتَ إِلَيْهِ وَهُوَ الْقَتْلُ إِلَّا أَنْ يَدْفِعَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَرَى لَكَ أَنْ تَبْعَثَ إِلَى حُبِّي ^(١) ، فَإِذَا دَخَلْتَ إِلَيْكَ تَنَقَّبْتَ بِنِقَابِهَا ، وَلبِستَ
ثِيَابَهَا وَخَرَجْتَ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا يُؤَايِسَ لَكَ » .

فَأَرْسَلَ الْكَمَيْتُ إِلَى أَبِي وَضَاحٍ حَبِيبِ بْنِ بَدِيلٍ وَإِلَى فُتَيَّانٍ مِنْ بَنِي عَمٍّ
فَدَخَلَ عَلَيْهِ حَبِيبٌ ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، وَشَاوَرَهُ فِيهِ ، فَسَدَّدَ رَأْيَهُ .

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى حُبِّي أَسْرَاتِهِ ، فَقَصَّ عَلَيْهَا الْقِصَّةَ وَقَالَ لَهَا : أَيُّ ابْنَةِ عَمٍّ ، إِنْ رَأَى
لَا يَقْدُمُ عَلَيْكَ ، وَلَا يُسَلِّمُكَ قَوْمُكَ ، وَلَوْ خَفَّتْهُ عَلَيْكَ لَمَّا عَرَّضْتُكَ لَهُ ؛ فَأَلْبَسَتْهُ
ثِيَابَهَا وَإِزَارَهَا وَخَرَّعَتْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَقْبِلْ وَأَدِيرْ ، فَفَعَلَ ، فَقَالَتْ : مَا أَنْكَرَ مِنْكَ
شَيْئًا إِلَّا بَيْسًا فِي كَيْتِكَ ، فَأَخْرَجَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ - وَأَخْرَجَتْ مَعَهُ جَارِيَةً لَهَا - فَخَرَجَ
وَعَلَى بَابِ السِّجْنِ أَبُو وَضَاحٍ وَمَعَهُ فُتَيَّانُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، فَلَمْ يُؤَايِسْ لَهُ ، وَمَشَى وَالْفُتَيَّانُ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَرَّ بِمَجَالِسٍ مِنْ مَجَالِسِ بَنِي تَمِيمٍ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَجُلٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ،
وَأَمْرٌ غَلَامُهُ فَاتْبَعُهُ ، فَصَاحَ بِهِ أَبُو وَضَاحٍ : يَا كَذَا وَكَذَا ، لَا أَرَاكَ تَتَّبِعُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ مِنْذُ
مِنْذُ الْيَوْمِ ! وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِتَغْلِهِ ، فَوَلَّى الْعَبْدُ مُدْبِرًا وَأَدْخَلَهُ أَبُو وَضَاحٍ مَنْزِلَهُ .

(١) حُبِّي بِنْتُ نَكَيْفٍ : زَوْجُ الْكَمَيْتِ ، وَكَانَتْ مِنْ بَنَشِيمٍ .

ولما طال على السجّان الأمر نادى الكميّ فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك ! لا أم لك ! فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر ؛ فأحضر حُبِّي ، وقال لها : يا عدوّ الله ؛ احتلتِ على أمير المؤمنين ، وأخرجت عدوّه ! لا مثُلن بك ، ولا صنم ولا فعلن ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ماسييلك على امرأة مِنّا خدعت ! فخافهم ، وخلى سبيلها .

قال الراوى : وسقط غرابٌ على الحائط فنمب^(١) ، فقال الكميّ لأبي وضاح : إني لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط . فقال : سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله . فقال له : لا بدّ من أن تحوّلنى^(٢) فخرج به إلى بنى علقمة - وكانوا يتشيّمون - فأقام فيهم ، ولم يُصبح حتى سقط الحائط الذى وقع عليه الغراب .

وأقام الكميّ مدةً متواريّاً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خفّ عنه خرج ليلاً فى جماعة من بنى أسد على خوفٍ ووجل ، وكان عالماً بالنجوم مهتدياً ، فلما صار سحيراً صاح بالفتيان هوّموا^(٣) وقام هو يصلى . ثم رأى واحد منهم شخصاً ، فتضمّض^(٤) له ، فقال الكميّ : مالك ؟ قال : أرى شيئاً مقبلاً ، فنظر إليه فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية ، فأطعموه يدَ جزور فتعرّقا^(٥) ، ثم أهووا له بإناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال الكميّ : ماله ؟ وبه ! ألمْ نطعمه ونسقيه ؟ وما أغرّفتنى بما يريد ؛ هو يعلمنا أنّا لسنا على الطريق ، تيامنوا يافتيان ، فتيامنوا . فسكن عواؤه !

(١) نمب : صاح (٢) تحوّل عنه : زال إلى غيره (٣) أصل التهويم والتهوم : هز الرأس من النعاس (٤) تضمض : خضع وذل (٥) تعرق العظم : أكل ما عليه من اللحم .

ولم يزل يسير حتى جاء إلى الشام ، وتوارى في بني أسد وتميم ، وأرسل إلى أشراف قريش - وكان سيدهم يومئذ عَنبَسَةُ بن سعيد بن العاص - فشت رجالات قريش بعضها إلى بعض ، وأتوا عَنبَسَةَ ، فقالوا : يا أبا خالد ؛ هذه مَكْرُمَةٌ قد أتاك الله بها ؛ هذا الكُمَيْتُ بن زيد لسانُ مضر ، كتب أميرُ المؤمنين في قتله ، فنجنا حتى تخلص إليك وإلينا .

قال : فرؤوه أن يعودَ بقبر معاوية بن هشام ؛ فمضى الكُمَيْتُ ، ففُسطاطه عند قبره ، ومضى عَنبَسَةُ ، فأتى مَسْلَمَةَ بن هشام فقال له : يا أبا شاكر ؛ مَكْرُمَةٌ أتيتك بها تبلغُ الثَّريَّا إن اعتَقَدْتَهَا^(١) ، فإن علمت أنك تني بها وإلا كتمتها . قال : وما هي ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم بما لم يُسمع بمثله ، فقال : على خلاصه .

ودخل على أبيه هشام في غير وقت دخول - فقال له هشام : أجبنت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هي مَقْضِيَّةٌ إلا أن يكون الكُمَيْت ، فقال : ما أحبُّ أن تستنني عليّ في حاجتي ، وما أنا والكُمَيْت ، فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت . قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قُطْرَيْهَا^(٢) ؛ قال : هي الكُمَيْت يا أمير المؤمنين ! وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولاً لم يُقَلْ مثله ، قال : قد أمنتته وأجزتُ أمانك له ، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا .

(١) اعتقد مالا وضیعة : افتناهما .

(٢) القطر : الجانب والناحية .

فقد له ، فتكلم بخطبة ارتجلها ما سَمِعَ بمثُلها قط ، وامتدحه بقصيدته الرائية ،
فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك من الوقوف بها وإنك غير صاغر
دَرَجَتْ عليها العاديات الرأحات من الأعاصر^(١)
إلى أن قال :

فالآن صرتُ إلى أمية والأمور إلى المصاير
وجعل هشامٌ ينفذُ مسلةً بقضيبٍ في يده ، فيقول : اسمع ، اسمع ، ثم استأذنه
في سرئية معاوية ، فأذن له ، فأنشده قوله :

سأبكيك للدين وللدنيا وإنني رأيتُ يدَ المعروف بعدك شَلَّتِ
فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام وصلت

فبكى هشام بكاءً شديداً ، فوثب الحاجب فسكنه ، ثم جاء الكميث إلى منزله
أمنًا ، فخشدت له المضربة بالهدايا ، وأمر له مسلة بعشرين ألف درهم ، وأمر له
هشام بأربعين ألف درهم ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته ، وأنه لا سلطان
له عليهم ، وجمعت له بنو أمية مالا كثيرا .

ولم يُجمع من قصيدته تلك يومئذٍ إلا ما حفظه الناس منها ، وسئل عنها ، فقال :
ما أحفظ منها شيئا ، إنما هو كلام ارتجلته .

(١) الأعاصر : الأعاصير .

٩٦ — وشاية *

كان الوليد^(١) بن يزيد يُكْرَم طُرِيحاً^(٢)، وكانت له منه منزلة قريية ومكانة، وكان يُدْنِي مجلسه، وجعله أول داخل وآخر خارج، ولم يكن يُصْدِر إلا عن رأيه. فاستفرغ مديحه كله وعامة شعره فيه، فحسده ناس من أهل بيت الوليد، وقَدِم حماد^(٣) الراوية على التفتة^(٤) الشام، فشكوا ذلك إليه، وقالوا: والله لقد ذهب طُرِيحٌ بالأمير، فما نالنا منه ليل ولا نهار؛ فقال حماد: انتوني من يُنشد الأمير بيتين من شعر؛ فأُسْقِطَ منزلته.

فطلبوا إلى الخادم الذي كان يقوم على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم على أن يُنشدَها الأمير في خلوة. فإذا سأله من قول من هذا؟ قال: من قول طُرِيح، فأجابهم الغلام إلى ذلك وعلموه البيتين.

فلما كان ذات يوم دخل طُرِيحٌ على الوليد، وفتّح الباب وأذن للناس؛ فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقى طريح مع الوليد وهو ولي عهد ثم دعا بَعْدائه فتغذّيا جميعاً.

* الأغانى : ٣ : ٣١٢

(١) كان الوليد قبل أن يلى الخلافة من فتيان بني أمية وطفرائهم وشعرائهم، ولما ولي الخلافة انهمك في اللهو والشراب وسماع الفناء، مات مقتولا سنة ١٢٦ هـ. (٢) هو طريح بن إسماعيل الثقفى، نشأ في دولة بني أمية، واستفرغ شعره في الوليد بن يزيد، وأدرك دولة بني العباس، ومات في أيام المهدي سنة ١٦٦ هـ. (٣) التفتة: الحين والزمان.

ثم إن طرّيحاً خرج وركب إلى منزله ، وترك الوليدَ في مجلسه ليس معه أحد .
فاستلقى على فراشه ، واغتم الغلامُ خلّوته ؛ فاندفع ينشد :

سَيرى ركباً إلى مَنْ تَسْعَدِينَ به قَدِ أَقْتُ بدارِ الهُونِ ماصِلِحاً
سَيرى إلى سَيِّدٍ تَمْنَحُ خِلَاتَهُ ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ^(١) قَرْمٍ يَحْمِلُ المَدْحَ^(٢)
فَأَصْنَى الوليدَ إلى الغلامِ بسمعه . وأعاد الغلامُ غيرَ مرة . ثم قال الوليد : ويحك
يا غلام ! مِنْ قولٍ مَنْ هذا ؟ قال : من قول طرّيح .

فغضب الوليد حتى امتلأ غَيْظاً ، ثم قال : والمفا على أمِّ لم تُلدْنِي ! قد جعلته
أولَ داخلٍ وآخر خارج ، ثم يزعم أن هشاماً يحمل المَدَحَ ؛ ولا أُحْمِلُها .
ثم قال : على الحاجب ، فأنابه . فقال : لا أعلم أنك أذنت لطرّيح ؛ فإن
حاورك في ذلك فاخطفه بالسيف .

فلما كان بالعشيّ وصُلِّيَتِ العصرُ جاء طرّيحُ للساعة التي كان يُؤدِّنُ له فيها ؛
فدنا من الباب ليدخل ؛ فقال له الحاجب : وراءك ! فقال : مالك ! هل دخل على
وليِّ العهدِ أحدٌ بعدى . قال : لا ! ولكن ساعةً ولَّيْتُ مِنْ عنده دعاني فأمرني
ألا آذن لك ، وإن حاورتني في ذلك خطفتك بالسيف .

فقال : لك عشرةُ آلاف وأذِنُ لي في الدخولِ عليه . فقال له الحاجب :
والله لو أعطيتني خراجَ العراقِ ما أذِنْتُ لك في ذلك ، وليس لك من خير في
الدخولِ عليه فارجع . قال : ويحك ! هل تعلمُ من دَهَانِي عنده ؟ قال الحاجب :

(١) الدسيعة : الطيبة ، والقرم : السيد . (٢) يحمل المدح : يدخرها ويعرفها ويكافئ عليها
من قوله تعالى : « وكأين من دابةٍ لا تحمل رزقها » .

لا والله، والله لقد دخلتُ عليه وما عنده أحد، ولكن الله يُحدث ما يشاء في الليل والنهار .

فرجع طُريح ، وأقام بباب الوليد سنة لا يَخْلُصُ إليه ^(١) ، ولا يقدر على الدخول عليه ، وأراد الرجوع إلى بلده وقومه . فقال : والله إن هذا لعَجْزٌ بى أن أرجع من غير أن ألقى ولىَّ العهد ، فأعلمَ مَنْ دهانى عنده ؛ ورأى أناساً كانوا له أعداء قد فرحوا بما كان من أمره ، فكانوا يدخلون على الوليد ويحدثونه ، ويصدُرُ عن رأيهم ، فلم يزل يَلُطْفُ بالحاجب ويمَنِّيهِ حتى قال له الحاجب : أما إذا أطلتَ المقام فإنى أكره أن تنصرفَ على حالك هذه ، ولكنَّ الأمير ، إذا كان يوم كذا وكذا ، دخل الحمام ثم أمر بسريره فأبرزَ ، وليس عليه يومئذ حِجَابٌ ، فإذا كان ذلك اليوم أعلمتُكَ ؛ فتكون قد دخلتَ عليه وظفِرتَ بحاجتك ، وأكون أنا على حال عُذْر .

فلما كان ذلك اليوم دخل الأميرُ الحمامَ وأمر بسريره فأبرزَ ، وجلس عليه ، وأذن للناس ؛ فدخلوا عليه ، والوليد ينظر إلى مَنْ أقبل . وبعث الحاجب إلى طُريح فأقبل وقد تتأَمَّ الناس ؛ فلما نظر الوليد إليه من بعيد صرف عنه وَجْهه ، واستَحْيَا أن يردَّه من بيت الناس ؛ فدنا فسَلَّمَ فلم يرد عليه السلام ؛ فقال طُريح يستعطفه ويتضرع إليه :

نام الخلى من الهموم وبات لى ليل أكايدُهُ وهمٌ مُضِلُّعٌ ^(٢)
جزعاً لمعتبة الوليد ولم أكن من قبل ذاك من الحوادث أجزعُ

(١) لا يخلص إليه : لا يصل إليه . (٢) مضلع : مثقل .

يا بن الخلائف إن سخطك لا مري
أنسيت عصمته بلا مؤظـع
فلا تزعن^(١) عن الذي لم تهوه
إن كان لي - ورأيت ذلك منزع
فاعطف فذاك أبي على توسع
وفضيلة فعلى الفضيلة تنبع
فلقد كفأك وزاد ما قد نالني
إن كنت لي ببلاء ضرر^(٢) تقنع
فقر به وأدناه وضحك إليه وعاد إلى ما كان عليه .

(١) نزع عن الشيء من باب جلس : انتهى . (٢) القصيدة في الأغانى صفحة ٣١٥ ج ٤ .

٩٧ - أشعب يبلغ رسالة*

بعث الوليد بن يزيد إلى أشعب^(١) بعد ما طلق امرأته سعدة ، فقال له :
يا أشعب ؛ لك عندي عشرة آلاف درهم ، على أن تُبَلِّغَ رسالتي سعدة ، فقال له :
أحضر المال أنظر إليه ، فأحضر الوليد بذرة^(٢) ، فوضعها أشعب على عنقه ، وقال :
هات رسالتك ، قال : قل لها يقول لك :

أسعدة هل إليك لناسيل ؟ وهل حتى القيامة من تلاق ؟
بلى ! ولعل دهرأ أن يؤاتى بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتا وتقر عيني ويجمع شملنا بعد افتراق
فأتى أشعب الباب ، فأخبرت نكاحه ، فأمرت ففرش لها فرش ، وجلست
وأذنت له ، وكان نساء المدينة لا يحتجبن عنه ، فدخل فأنشدها ، فلما أنشأ البيت
الأول :

أسعدة هل إليك لناسيل ؟ وهل حتى القيامة من تلاق ؟
قالت : لا والله ، لا يكون ذلك أبداً ، فلما أنشد البيت الثاني :
بلى ! ولعل دهرأ أن يؤاتى بموت من حليلك أو طلاق
قالت : كلاً إن شاء الله ، بل يفعل الله ذلك به ، فلما أنشد البيت الثالث :

* المقدم الفريد : ٣ : ١٨١ ، الأغاني : ٧ : ٢٧ ، نهاية العرب : ٤ - ٤١
(١) هو أشعب بن جبير ، من طرفاء أهل المدينة ، كان مولى لعبد الله بن الزبير ، وكان يجيد
الفناء ويضرب المثل بطمعه ، عمر طويلاً ، وتوفى سنة ١٥٤ هـ . (٢) البذرة : كيس فيه
عشرة آلاف درهم .

فأصبح شامتاً وتقرَّ عيني ويُجمع شملنا بعد افتراق
قالت : بل تكون الشامةُ به . ثم قالت لخدمها : خذوا الفاسق ، فقال :
ياسيدي ؛ إنها عشرة آلاف درهم ، قالت : والله لأقتلك أو تبلفه كما بلفتني ، قال :
وما تهيبين لي ؟ قالت : بساطي الذي تحتي ، قال : قومي عنه ، فقامت ، فطواه ، ثم
قال : هاتي رسالتك ، جعلتُ فداك ، قالت : قل له :

أتبكي على بُني وأنت تركتها فقد ذهبت بُني ؛ فما أنت صانع ؟
فأقبل أشعب حتى دخل على الوليد ، فأنشده البيت ، فقال : قَتَلْتَنِي وَاللَّهِ ؛
فما تراني صانعاً بك ؟

اخترِ إما أن أدلك مُنكساً في بئر ، أو أرزى بك من فوق القصر منكساً ،
أو أضرب رأسك بعمودي هذا ضربةً !

قال له : ما كنتَ فاعلاً بي شيئاً من ذلك ! قال : ولم ؟ قال : لأنك لم تكن
لتعذب عيني قد نظرنا إلى سعدة .
قال : صدقت !

٩٨ — رُعْتَنِي رَاعِكَ اللَّهُ *

غَذَى أَشْعَبُ جَدِيًّا بِلَبْنِ أُمِّهِ وَغَيْرِهَا حَتَّى بَلَغَ غَايَةً ، ثُمَّ قَالَ لَزَوْجَتِهِ : إِنِّي أَحِبُّ أَنْ تُرْضِعِيهِ بِلَبَنِكَ ، فَفَعَلَتْ .

ثُمَّ جَاءَ بِهِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ ، فَقَالَ : تَاللَّهِ إِنَّهُ لَا بَنِي ، رَضَعَ بِلَبْنِ زَوْجَتِي ، قَدْ حَبَبْتُكَ بِهِ ، وَلَمْ أَرِ أَحَدًا يَسْتَأْهِلُهُ ^(١) سِوَاكَ . فَنَظَرَ إِسْمَاعِيلُ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ فَذُبْحَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَشْعَبُ وَقَالَ : الْمَكَافَاةُ . فَقَالَ : مَا عِنْدِي وَاللَّهِ الْيَوْمَ شَيْءٌ ، وَنَحْنُ مَنْ نَعْرِفُ ، وَذَلِكَ غَيْرُ فَائِثِكَ .

فَلَمَّا يَتَيْسَ أَشْعَبُ مِنْهُ قَامَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَدَخَلَ عَلَى أَبِيهِ جَعْفَرٍ ، ثُمَّ انْدَفَعَ فَشَهَقَ حَتَّى التَّقَّتْ أَضْلَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَخْلِنِي ، قَالَ : مَا مَعْنَى أَحَدٍ يَسْمَعُ ، وَلَا عَلَيْكَ عَيْنٌ ، قَالَ : وَثَبَ ابْنُكَ إِسْمَاعِيلُ عَلَى ابْنِي فَذَبَحَهُ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ؛ فَارْتَبَعَ جَعْفَرُ وَصَاحَ ، وَيْلَكَ أَوْ فِيمَ ؟ وَتَرِيدُ مَاذَا ؟ قَالَ : أُمًّا مَا أُرِيدُ ، فَوَاللَّهِ مَالِي فِي إِسْمَاعِيلَ حِيلَةً وَلَا يَسْمَعُ هَذَا سَامِعٌ أَبَدًا بَعْدَكَ .

فَجَزَاهُ خَيْرًا ، وَأَدْخَلَهُ مَنْزِلَهُ ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ مَائَتِي دِينَارٍ ، فَقَالَ : خُذْ هَذِهِ وَلَكَ عِنْدَنَا مَا تَحِبُّ .

وَخَرَجَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ لَا يُبْصِرُ مَا يَطُأُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا بِهِ مُسْتَرْسِلٌ فِي مَجْلِسِهِ ، فَلَمَّا رَأَى إِسْمَاعِيلُ وَجْهَ أَبِيهِ أَنْكَرَهُ ، وَقَامَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ؛ فَعَلْتَهَا بِأَشْعَبٍ ! قَتَلْتَ وَلَدَهُ ؟ فَاسْتَضَحَّكَ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَأَخْبَرَهُ أَبُوهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ ؛ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ .

* نِهَايَةُ الْأَرْب : ٤ - ٢٨

(١) يَسْتَأْهِلُهُ : يَسْتَحْقُهُ .

فكان جعفر يقول لأشعب : رُعِنِي رَاعِكَ اللَّهُ ! فيقول : روعةُ ابنك بنا في
الجدى أكثرُ من روعتك بالمائتي الدينار .

٩٩ — كادت تموت فرحاً *

قال أشعب : تملّقتُ بأستار الكعبة ، فقلت : اللهم أذهبْ مني الجِرْصَ
والدَّملْبَ إلى الناس ، فمررت بالقرشيين وغيرهم فلم يعطني أحداً شيئاً ، فجئت إلى
أمي ، فقالت : مالك قد جئتَ خائباً ؟ فأخبرتها بذلك فقالت : والله لا تدخلُ حتى
ترجعَ فَتَسْتَقِيلَ ^(١) ربك ! فرجعت ، فجعلت أقول : ياربِّ أَقْلِنِي ، ثم رجعت ،
فما مررتُ بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطوني !

ووهب لي غلام ؛ فجئت إلى أمي بجمال موقرة ^(٢) من كل شيء ، فقالت :
ما هذا الغلام ! فخيّفتُ أن أخبرها فتموت فرحاً إن قلت : وهبوه لي ، فقالت :
أى شيء هذا ؟ فقلت : غين ، قالت : أى شيء ! قلت : لام ، قالت : أى شيء ؟
قلت : ميم ، قالت : أى ميم ؟ قلت : غلام ؛ ففُشِيَ عليها ، ولو لم أقطع الحروف
لماتت فرحاً .

* نهاية الأرب : ٤ : ٢٨

(١) تطلب منه الإقامة : العفو . (٢) موقرة : محلة .

١٠٠ — هَلَمْ إِلَى حَتَّى أَكْفِكَ *

قال ابن زَبَّج : كان أبان بن عثمان من أَهْزَلِ الناس ، فبينما نحن ذاتَ يوم عنده ، وعنده أَشْعَبُ ، إِذ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ، معه جمل أَشْقَرُ أَزْرَقُ أَزْعَرُ ^(١) يَتَلَطَّى ^(٢) كأنه أَفْعَى ، والشرُّ بَيْنَ فِي وجهه ، ما يدنو منه أَحَدٌ إِلَّا شَتَمَهُ وَهَرَّهَ ، فقال أبان : ادْعُوهُ لِي ، فدَعَوْهُ لَهُ ، وقيل : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك ؛ فَأَتَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فسأله أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ عَنْ نَسَبِهِ فَأَنْتَسَبَ لَهُ ، فقال لَهُ أَبَانُ : حَيَّاكَ اللَّهُ يَا خَالَ ؛ اجلس ، اجلس .

فقال لَهُ : إِنِّي أَطْلُبُ جَمَلًا مِثْلَ جَمَلِكَ هَذَا مِنْذُ زَمَانٍ فَلَمْ أَجِدْهُ كَمَا أَشْتَهِي بِهِذِهِ الصِّفَةِ وَهَذِهِ الْهَامَةُ وَالصُّورَةُ وَالْوَرَكُ وَالْأَخْفَافُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ ظَفَرِي بِهِ عِنْدَ مَنْ أُحِبُّهُ ، أَتَبِيعُنِيهِ ؟ فقال : نَعَمْ أَيُّهَا الأمير ! قال : فَإِنِّي قَدْ بَذَلْتُ لَكَ بِهِ مِائَةَ دِينَارٍ ؛ فَطَمَعَ الْأَعْرَابِيُّ وَسُرَّ وَانْتَفَخَ ، وَبَانَ الطَّمَعُ فِي وَجْهِهِ .

فَأَقْبَلَ أَبَانُ عَلَى أَشْعَبَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَيْلَكَ يَا أَشْعَبُ ! إِنْ خَالِيَ هَذَا مِنْ أَهْلِكَ وَأَقَارِبِكَ - يَعْنِي فِي الطَّمَعِ - فَأَوْسِعْ لَهُ تَمَامًا عِنْدَكَ ، فقال : نَعَمْ ! بِأَبَى أَنْتَ وَزِيَادَةُ ! فقال لَهُ أَبَانُ : يَا خَالَ ؛ إِنَّمَا زِدْتُكَ فِي الثَّمَنِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَّ الْجَمَلَ يَسَاوِي سِتِينَ دِينَارًا ، وَلَكِنِّي بَذَلْتُ لَكَ مِائَةَ دِينَارٍ لِقَلَّةِ النَّقْدِ عِنْدَنَا ، وَإِنِّي مَعْطِيكَ

* نهاية الأرب : ٤ : ٣٤

(١) الزعارة : التمراسة وسوء الخلق . (٢) يتلظى : يتقد من شدة الغضب .

عروضاً^(١) تساوى مائة دينار .

فزاد طمعُ الأعرابي ، وقال : قد قبِلْتُ ذلك أيها الأمير ! وأسرَّ أبان إلى أشعب ؛ فأخرج شيئاً مغطًى ، فقال له : أخرج ما جئتَ به ، فأخرج عمامةً باليةً تساوى أربعة دراهم ، فقال له : قوتها يا أشعب ، فقال : عمامةُ الأمير يشهدُ فيها الأعيادُ والجمعُ ويأتي فيها الخلفاءُ ! خمسون ديناراً ، قال : ضَعُها بين يديه .

قال ابن زَبَنَج : فقال لى : أثبت قيمتها ؛ فكتبت ذلك ، ووَضَعَت العمامة بين يدي الأعرابي ، فكادَ يدخلُ بعضُهُ فى بعض غيظاً ، ولم يقدر على الكلام .

قال أبان : هاتِ قَلَنْسُوتى ، فأخرج أشعب قَلَنْسُوتَ طويلةً باليةً قد علاها السخ والدُّهْن ونخرَقَتْ ، تساوى نصفَ درهم قال : قوِّم ، فقال : قَلَنْسُوتُ الأمير تَقْلُوْ هَامَتِه ، ويصلى فيها الصلوات الخمس ، ويجلسُ فيها للحُكْم ! ثلاثون ديناراً ، قال لى : أثبت ، فأثبت ذلك ، ووَضَعَت القَلَنْسُوتَ بين يدي الأعرابي ؛ فأربدَّ وجهه ، وجَحَظَتْ^(٢) عيناه ، وهمَّ بالوثوب ، ثم تماسك .

ثم قال لأشعب : هاتِ ما عندك ! فأخرج خُفَيْنِ خَلَقَيْنِ قد نُقِبَا وتَقَشَّرَا وتَفَتَّتَا فقال : قوِّم ، فقال : خُفَاُ الأمير يَطَّأُ بهما الرُّوضَةُ ويعلوهما منبرُ النبي صلى الله عليه وسلم ! أربعون ديناراً ، فقال : ضَعُها بين يديه ، ثم قال للأعرابي : اضمِّمِ إليك متاعَكَ وقال لبعض الأعوان : امضِ مع الأعرابي واقبضْ ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً .

(١) العروض : كل ماسوى التقدين . (٢) جحظت عينه : غظت مقلتها .

فوثب الأعرابي ، فأخذ القماش^(١) ، فضرب به وجوه القوم لا يألُو
في الرثني .

ثم نهض كالجنون ، حتى أخذ برأس بعيره ؛ وضحك أبانُ حتى سقط ،
وضحك من كان معه ، فكان الأعرابي بعد ذلك إذا لقي أشعبَ يقول له :
هلمَّ إليَّ حتى أُكافئك على تقويمك المتاع ، يوم قومت ، فيهرب منه
أشعب .

(١) القماش : جم قش ، وهو الرديء من كل شيء .

١٠١ - بوزع *

قال حماد : كان جعفر بن أبي جعفر المنصور ^(١) المعروف بابن الكردية يستخف مطيع بن إلياس ^(٢) ويحبّه ، وكان منقطعاً إليه ، وله معه منزلة حسنة ، فذكَر له حماداً الراوية ، وكان صديقه ، وكان مُطَرِّحاً مَجْفُوعاً في أيامهم ، فقال له : اننأ به لنراه .

فأتى مطيع حماداً فأخبره بذلك ، وأمره بالمسير معه إليه ، فقال له حماد : دعني فإن دولتي كانت مع بني أمية ، ومالي عند هؤلاء خير . فأتى مطيع إلا الذهاب إليه ، فاستعار حماداً سواداً وسيقاً ثم أتاه ، فضى به مطيع إلى جعفر ، فلما دخل سلم عليه سلاماً حسناً ، وأثنى عليه ، وذكر فضله ، فردّ عليه ، وأمره بالجلوس فجلس .

فقال جعفر : أنشدني ؛ فقال : لِمَن أيها الأمير ، الشاعر بعينه أم لمن حضر ؟ قال : بل أنشدني لجرير .

قال حماد : فسلخ والله شعر جرير كله من قلبي إلا قوله :

بان الخليلط برامتين ^(٣) فودّعوا أو كلما اعترموا لبين تجزع

* الأغاني : ٦ : ٨١

(١) انظر صفحة ٥٥ (٢) مطيع بن إلياس : شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان ظريفاً مليح النادرة ماجناً ، مولده ومنشؤه بالكوفة ، انقطع في الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور فكان معه إلى أن مات وكان صديقاً لحمد ، وتوفي سنة ١٦٦ هـ .
(٣) رامتين ثنية رامة ، ورامة : موضع في طريق البصرة إلى مكة ، وكثير من أسماء المواضع ثني في الشعر للضرورة .

فاندفعت فأنشدته إياها ، حتى انتهت إلى قوله :

وتقول بَوَزَعُ : قد دبت على العصا هلا هزئت بفيرنا يا بَوَزَعُ
فقال لي جعفر : أعد هذا البيت ، فأعدته ، فقال : بَوَزَعُ أى شيء هو ؟
فقلت : اسم امرأة ؛ فقال : امرأة اسمها بوزع ! هو برىء من الله ورسوله ونفى^(١)
من العباس بن عبد المطلب إن كانت بَوَزَعُ إلا غولاً من الغيلان ! تركتني والله
يا هذا لا أنام الليلة من فزع بَوَزَعُ ، يا غلمان ! قفاه ! فصُفِفتُ^(٢) والله حتى لم أذر
أين أنا ؛ ثم قال : جرؤوا برجله ؛ فجرؤوا برجلي حتى أُخْرِجْتُ من بين يديه
مسحوباً ، فتخرق السواد وانكسر جفنُ السيف ، ولقيت شراً عظيماً مما جرى على ؛
وكان أغلظ من ذلك كله وأشد بلاءً ثمن السَّواد وجفنِ السيف .

فلما انصرفتُ أنا إلى مطيع بن إياس يتوجَّع لي ، فقلت له : ألم أخبرك أني
لا أصيبُ منهم خيراً وأن حظي قد مضى مع بني أمية !

(١) نفى : منحى ومبعد . (٢) القفا : ما وراء العنق ، وهو مؤنث وقد يذكر .

١٠٢ — المنصور يطلب مَنْ يَسَلِّيهِ بالشعر *

لما مات جعفر بن أبي جعفر المنصور مشى أبوه في جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ، ومضى الناس أجمعون معه حتى دَفَنَهُ ، ثم انصرف إلى قصره ، وأقبل على الربيع فقال : ياربيع ؛ انظر مَنْ في أهلي ينشدني :

* أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ^(١) *

حتى أتسلى بها عن مصيبتى .

قال الربيع : فخرجتُ إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور ، فسألتهم عنها ؛ فلم يكن فيهم أحدٌ يحفظها ؛ فرجعت فأخبرتُه . فقال : والله لمُصِيبَتِي بأهل بيتي ألا يكون فيهم أحدٌ يحفظُ هذا ؛ لِقَلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْأَدَبِ ، أعظمُ وأشدَّ على من مصيبتى يا بني !

ثم قال : انظرْ هل في القوَّاد والعوام من الجند مَنْ يعرفها ؟ فإنى أحب أن أسمعها من إنسان يُنشدُها ؛ فخرجت فاعترضت الناس ؛ فلم أجد أحداً ينشدُها إلا شيخاً كبيراً مؤدِّباً قد انصرف من موضع تأديبه ؛ فسألتُه : هل تحفظ شيئاً من الشعر ؟ فقال : نعم ! شعر أبي ذؤيب ^(٢) ، فقلت : أنشدني ، فابتدأ القصيدة المينية

* عصر المأمون : ١ : ١٧٥ *

(١) بقية البيت : * والدمر ليس بمعتب من يمزج *

وهي نحو سبعين بيتاً أورد ابن رشيْق أحياناً منها في العمدة ، ورواها صاحب جهرة العرب في المرآة صفحة ٢٦٤ ، وهي لأبي ذؤيب الهذلي . في ديوان الهذليين ج ١ ص ١ - ٢١ طبع دار الكتب

(٢) هو خالد بن خويلد ، شاعر مجيد محضرم قدم المدينة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه ، وتوفى في غزوة إفريقية مع ابن الزبير .

فقلت له : أنت بُغْيَتِي ، ثم أوصَلْتُهُ إِلَى الْمَنُصُورِ ، فَاسْتَشَدَّه إِيَّاهَا ، فَأَنشَدَ :

أَمِنْ الْمَنُونِ ^(١) وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ	وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مِنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمِّيَّةٌ : مَا لِحَسَمِكَ شَاحِبًا	مَنْذَابُتْدَلَتْ ^(٢) ، وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ
أَمْ مَا لِحَسَمِكَ لَا يَلَامُ ^(٣) مَضْجَعًا	إِلَّا أَقْصَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
فَأَجِبْتُهُمْ — أ : أَمَا لِحَسَمِي إِنَّهُ	أُودَى ^(٤) بَنَى مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا
أُودَى بَنَى فَأَعْقَبُونِي ^(٥) حَسْرَةً	بَعْدَ الرُّقَادِ وَعِزَّةً مَا تُقْلِعُ ^(٦)
سَبَقُوا هَوًى وَأَعْتَقُوا ^(٧) لَهْوَاهُمْ	فَتَخَرَّمُوا ^(٨) ، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ
فَقَبَّرْتُ بَعْدَهُمْ بِعِيشٍ نَاصِبٍ	وَأِخَالِ أَنَّى لَاحِقٌ مُسْتَقْبَعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بَأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ	وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أُنْشَبَتْ ^(٩) أَظْفَارَهَا	أَلْقَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا ، فَأَجَازَهُ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ !

(١) اللنون : النية ، وهى مؤنثة . (٢) اجتذلت : أى اجتذلت قسك وأهنتها حسرة وأسى
(٣) لا يلام : لا يوافق . (٤) أودى بنى : ملكوا . (٥) أعقبونى : خلفوا لى .
(٦) ما تقلع : ما تنقطع . (٧) أعقوا : أسرعو . (٨) تخرموا : ماتوا .
(٩) أنشبت : أعلقت ، والمنية : التميذة .

١٠٣ - صر إلى متى شئت *

كان أزهر^(١) السّمان صديقاً لأبي جعفر المنصور في أيام بني أمية ، وكانا قد سافرا جميعاً ، وسمعا الحديث ، وكان المنصور يَأْلُفُهُ وَيَأْنَسُ إِلَيْهِ .

فلما أفضت الخلافة إليه شَخَّصَ^(٢) إليه من البصرة ؛ فسأله المنصور عن زوجته وبناته - وكان يعرفهنَّ بأسمائهنَّ - وأظهر برّه وإكرامه ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يَقْدَمَ إِلَيْهِ مُسْتَمِيعاً^(٣) .

فلما كان بعدَ حَوْلٍ صار إليه فقال له : ألم آمرك ألا تصيرَ إلى مستميعاً ! فقال له : ما صرتُ إليك إلا مسلماً ومجدّداً بك عهداً . قال : ما أرى الأمرَ كما ذكرتَ . وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يصيرَ إليه مسلماً ولا مُسْتَمِيعاً .

فلما كان بعد سنة صار إليه ، فقال : إني لم أَقْدَمَ عليكَ للأمرين اللّذين نهيتني عنهما ، وإني بلغني أَنَّ عِلَّةَ عَرَضَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَأَتَيْتُهُ عَائِداً ، فقال : ما أَظَنَّاكَ أَتَيْتَ إِلَّا مُسْتَوْصِلاً ، وأمر له بأربعة آلاف درهم .

فلما كان بعد الحَوْلِ ألحَّ عليه بناته وزوجُه ، وقلنَّ له : أمير المؤمنين صديقك ، فارجع إليه ، فقال : ويحكُنَّ ، ماذا أقول له ، وقد قلتَ له : أتيتك مُسْتَمِيعاً ومسلماً وعائداً ، ماذا أقول في هذه المرة ؟ وبِمَ أَحْتَجُّ ! فأبين على الشيخ إلا الإلحاح .

* السعدي : ٢ - ٢٣٧ . وثمرات الأوراق : ١ - ١٢٦

(١) هو أزهر بن سعد الباهلي ، عالم بالحديث من أهل البصرة كان يتردد على المنصور العباسي ، وله معه أخبار ، توفي سنة ٢٠٣ هـ . (٢) شَخَّصَ من بلد إلى بلد : ذهب . (٣) الاستماعة : طلب العطاء .

فخرج فأتى المنصور ، وقال : لم آتكَ مُسْتَرِ فِدَاً^(١) ولا زائراً ولا عائداً ، وإنما
جئتُ لسماع حديث كُنَّا سَمِعْنَاهُ جَمِيعاً فِي بَلَدِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، مَنْ سَأَلَ اللَّهَ بِهِ لَمْ يَرْدْهُ . وَلَمْ يَحْيَبْ دَعْوَتَهُ .
فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : لَا تُرِدُّهُ فَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُهِ فَوَجَدْتُهُ غَيْرَ مُسْتَجَابٍ . وَذَلِكَ أَنِّي
مَنْذُ جِئْتَنِي أَسْأَلُ اللَّهَ بِهِ أَلَّا يَرْدَّكَ إِلَيَّ ، وَأَنْتَ ذَا تَرْجِعُ ، لَا تَنْفُكْ تَقُولُ مُسَلِّماً
أَوْ عَائِداً أَوْ زَائِراً . وَوَصَّلَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَقَالَ لَهُ : قَدْ أَعْيَنْتَنِي فِيكَ الْحِيلَةُ ، فِصْرُ
إِلَيَّ مَتَى شِئْتَ .

١٠٤ — أَتَذْكُرُ إِذْ لَحَافَكَ جِلْدُ شَاةٍ*

تذاكر جماعةً فيما بينهم آثارَ مَعْنٍ^(١) وأخبارَ كرمه ، معجبين بما هو عليه من
الثَّوَدَةِ وَوَفَرَةٍ^(٢) الحلم ، ولين الجانب ، وغالوا في ذلك كثيراً ؛ فقام أعرابي ، وأخذ
على نفسه أن يُفَضِّضَهُ . فأنكروا عليه ، ووعدوه مائة بعير ، إن هو فعل ذلك .
فعمد^(٣) الأعرابي إلى بعير فسلكه ، وارتنى بإهابه^(٤) ، واحتذى^(٥) يبعضه
جاعلاً بباطنه ظاهراً ، ودخل عليه بصورته تلك ، وأنشأ يقول :

أَتَذْكُرُ إِذْ لَحَافَكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ !
قال مَعْنٍ : أَذْكُرُهُ وَلَا أَنْسَاهُ ! فقال الأعرابي :

فَسَبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكاً وَعَلَّمَكَ الْجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ !
فقال مَعْنٍ : إِنْ اللَّهُ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، فقال الأعرابي .
فَلَسْتُ مُسْلِماً إِنْ عِشْتُ دَهْرًا عَلَى مَعْنٍ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ
فقال مَعْنٍ : السَّلامُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ ضَيْرٌ^(٦) ، فقال الأعرابي :

سَأَرْحَلُ عَنْ بِلَادٍ أَنْتَ فِيهَا وَلَوْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى الْفَقِيرِ
فقال مَعْنٍ : إِنْ جَاوَزْتَنَا فَرَحَبًا بِالْإِقَامَةِ ، وَإِنْ جَاوَزْتَنَا فَصَحْبًا بِالسَّلَامَةِ ،
فقال الأعرابي :

* بحر الأداب : ٣ - ٢٦٣

(١) من أشهر أجياد العرب ، أدرك المصريين : الأموي والمباسبى ، ولاء المنصور إمارة
سجستان ، فأقام بها ، ثم قتل بها غيلة سنة ١٥١ هـ . (٢) كثرة . (٣) عمد إلى الشيء :
قصد إليه . (٤) الإهاب : الجلد ما لم يدبغ . (٥) احتذى : اتبع . (٦) الضير : الضرر .

فَجَدُّ لِي يَابْنَ^(١) نَاقِصَةً بِمَالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ
 قَال مَعْنَى : أَعْطَوْهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، تَخَفُّفٌ عَنْهُ مَشَاقَّ الْأَسْفَارِ ، فَأَخَذَهَا وَقَالَ :
 قَلِيلٌ مَا أَتَيْتَ بِهِ وَإِنِّي لِأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الْمَالِ الْكَثِيرِ
 فَتَنٌّ فَقَدْ أَتَاكَ الْمَلِكُ عَفْوَاً بَلَا عَقْلٍ وَلَا رَأْيٍ مُنِيرِ
 فَقَالَ مَعْنَى : أَعْطَوْهُ أَلْفًا ثَانِيًا ، كَيْ يَكُونَ عَنَّا رَاضِيًا . فَتَقَدَّمَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَيْهِ ،
 وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :

سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُبَيِّقَكَ دَهْرًا فَهَلَاكَ فِي الْبَرِيَّةِ مِنْ نَظِيرِ
 فَهَذَا الْجُودُ وَالْإِفْضَالُ حَقًّا وَفَيْضُ يَدَيْكَ كَالْبَحْرِ الْغَزِيرِ
 قَال مَعْنَى : أَعْطَيْنَاهُ عَلَى هَجْوِنَا أَلْفَيْنِ ، فَلْيُعْطِ أَرْبَعَةً عَلَى مَدْحِنَا ،
 فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : يَا أَبَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَنَفْسِي ! فَأَنْتَ نَسِجُ وَحْدِكَ فِي الْحِلْمِ ، وَنَادِرُهُ
 دَهْرِكَ فِي الْجُودِ (وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . وَلَقَدْ كُنْتُ فِي صِفَاتِكَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ
 وَمُكَذِّبٍ ، فَلَمَّا بَلَوْتُكَ صَفَرَ الْخَبَرِ^(٢) الْخَبَرَ ، وَأَذْهَبَ ضَعْفَ الشَّكِّ قُوَّةُ الْيَقِينِ ،
 وَمَا بَعَثَنِي عَلَى مَا فَعَلْتُ إِلَّا مَائَةٌ بَعِيرٍ جُمِلْتُ لِي عَلَى إِغْضَابِكَ .
 فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ : لَا تَتَرَيِّبُ^(٣) عَلَيْكَ ! وَوَصَلَهُ بِمَائَتِي بَعِيرٍ : نَصَفَهَا لِلرَّهَانِ
 وَالنَّصَفَ الْآخَرَ لَهُ ؛ فَانْصَرَفَ الْأَعْرَابِيُّ دَاعِيًا لَهُ ، شَاكِرًا لِهَبَائِهِ ، مُعْجَبًا بِأَنَانَتِهِ .

(١) يَابْنَ نَاقِصَةً بدلًا من قوله: ابْن زائدة (٢) الْخَبَرُ : الْخَبْرُ

(٣) لَا تَتَرَيِّبُ : لَا لَوْعَ عَلَيْكَ .

١٠٥ — لقد كان ذلك الرجل شؤماً *

خرج معنُ بنُ زائدة في جماعةٍ من خواصِّه للصيد ، فاعترضهم قَطِيعٌ ^(١) ظِبَاءٍ ، ففترقوا في طلبه ، وانفردَ معنٌ خَلْفَ ظَبْيٍ حتى انقطع عن أصحابه ، فلما ظَفِرَ به نزل فذبحه ؛ فرأى شيخاً مُقْبِلاً مِنَ الْبَرِّيَّةِ على حمار ؛ فركب فرسه ، واستقبله ؛ فسَلَّمَ عليه ؛ فقال : مِنْ أَيْنَ ؟ وإلى أين ؟ قال : أَتَيْتُ مِنْ أَرْضٍ لَهَا عَشْرُونَ سَنَةً مَجْدِبَةً ، وقد أَخْصَبَتْ في هذه السنة ؛ فزَرَعْتُهَا مَقْتَنَةً ^(٢) فَأَخْرَجَتْ الْقِتَاءَ في غير أوان ؛ فجمعتُ منها ما اسْتَحْسَنْتُهُ ، وقصدتُ به معنَ بنَ زائدة لكرمه المشكور ، وفضله المشهور ، ومعرفته المأثور ، وإحسانه الموفور .

قال : وكم أُمِلْتُ منه ؟ قال : أَلْفَ دِينَارٍ ، قال : فَإِنْ قَالَ لَكَ : كَثِيرٌ ! قال : خَمْسِمِائَةٍ : قال : فَإِنْ قَالَ لَكَ : كَثِيرٌ ! قال : ثَلَاثِمِائَةٍ ! قال : فَإِنْ قَالَ لَكَ : كَثِيرٌ ! قال : مِائَةٍ . فما زال به حتى قال : لَا أَقِلُّ مِنَ الثَّلَاثِينَ ! قال : فَإِنْ قَالَ لَكَ : كَثِيرٌ قال : أَذْخِلْ قِوَامَ حِمَارِي فِي عَيْنِهِ ، وأرجع إلى أهلي خائباً .

فضحك معن ، وساقَ جواده حتى لحق بأصحابه ، ونزل في منزله ، وقال لحاجبه : إِذَا أَتَاكَ شَيْخٌ عَلَى حِمَارٍ بِقِتَاءٍ فَأَدْخُلْ بِهِ عَلَيَّ .

فأتى الرجلُ بعد ساعة ، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلاله ، وكثرَ حَسَمِهِ وخَدَمِهِ ، وهو مُتَّصِدِّرٌ في دَسْتِهِ ^(٣) ، والخدمُ قِيَامٌ عن يمينه وشماله وبين يديه .

* المستطرف : ٢ - ٢٣٧ .

(١) القطيع من الظباء : الطائفة (٢) المقتاة : موضع زراعة القتاء (٣) الدست : صدر البيت .

فلما سلم عليه قال : ما الذى أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أملتُ فَضَلَ الأمير ،
وأَتَيْتُهُ بِقِشَاءٍ فى غير أوان . فقال : كم أملتَ فينا ؟ قال : ألف دينار . قال : كثير !
فقال فى نفسه : والله لقد كان ذلك الرجل شَوْماً على . ثم قال : خمسمائة دينار . قال :
كثير ، ثم ما زال به إلى أن قال : خمسين ديناراً ، فقال له : كثير . فقال : لأقل من
الثلاثين ؛ فضحك معن .

فعلم الأعرابي أنه صاحبه ؛ فقال : ياسيدى ؛ إن لم تُجِبْ إلى الثلاثين فالحمار
مربوط بالبَاب ، وهاهو ذا معن جالس . فضحك معن حتى استلقى على فراشه ،
ثم دعا بوكيله ، فقال : أعطه ألفاً ، وخمسمائة ، وثلاثمائة ، ومائة ، وخمسين ، وثلاثين ،
ودع الحمار مكانه .

١٠٦ - حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ *

شرب أبو دَلَامَةَ ^(١) في الحَانَاتِ ^(٢) ؛ فشى وهو يميل ؛ فَلَقِيَهُ الْمَسْسُ
فأخذه قليل له : من أنت ؟ وما دينك ؛ فقال :

دِينِي عَلَى دِينِ بَنِي الْعَبَّاسِ مَاخُتِمَ الطِّينُ عَلَى الْقِرْطَاسِ
إِذَا اضْطَبَحْتُ أَرْبَعًا بِالْكَاسِ فَقَدْ أَدَارَ شُرْبُهَا بِرَأْسِي

* فَهَلْ بِمَا قُلْتُ لَكُمْ مِنْ بَاسٍ *

فأخذه وخرقوا ثيابه وسأجه ^(٣) ، وَأَتَيْ بِهِ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ فَأَمَرَ بِجَنْبِهِ مَعَ
الدَّجَاجِ فِي بَيْتٍ ؛ فَلَمَّا أَفَاقَ جَعَلَ ينادي غلامه مرة ، وجاريته أخرى ، فلا يجيبه
أحد ؛ وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج ، وزُفَاءً ^(٤) الدُّيُوكَ .

فلما أكثر قال له السَّجَّانُ : مَا شَأْنُكَ ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟
قال : أنت في الحبس ، وأنا السَّجَّانُ . قال : وَمَنْ حَبَسَنِي ؟ قال : أميرُ المؤمنين . قال :
وَمَنْ خَرَّقَ طَيِّسَانِي ؟ قال : الْحَرَمَسُ .

فطلب أن يأتيه بدَوَاةٍ وِقِرْطَاسٍ ، ففعل ، فكتب إلى أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ
يقول :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَدُنْتُكَ نَفْسِي عِلَامَ حَبَسْتَنِي وَخَرَقْتَ سَاجِي !

* نهاية الأرب : ٤ - ٤٢ ، الأغاني : ١١٠ - ٢٥١ ، (طبعة دار الكتب) .
(١) هو زندي بن الجون شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، نشأ في الكوفة
واتصل بالخلفاء من بني العباس ، فكانوا يستلطفونه ، ويفدقون عليه صلاتهم ، وأخباره كثيرة .
توفي سنة ١٦١ هـ . (٢) الحانات : المواضع التي تباع فيها الخمر (٣) الساج : الطبلسان
الأخضر أو الأسود (٤) زفاء الديك : صياحه .

أمن صَهْبَاءُ^(١) صَافِيَةِ الْمِزَاجِ كَأَن شُعَاعَهَا لَهَبُ السَّرَاجِ
وقد طُبِخَتْ بِنَارِ اللَّهِ حَتَّى لَقَدْ صَارَتْ مِنَ النَّطْفِ^(٢) النَّضَاجِ
تَهَشُّ لَهَا الْقُلُوبُ وَتَشْتَبِيهَا إِذَا بَرَزَتْ تَرَقُّقُ فِي الزَّجَاجِ
أَقَادُ إِلَى السَّجُونِ نَفِيرَ جُرْمِ كَأَنِّي بَعْضُ عَمَالِ الْخُرَاجِ
فَلَوْ مَعَهُمْ حُبِسْتُ لَكَانَ سَهْلًا وَلَكِنِّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ
وَقَدْ كَانَتْ تَحْبِرُنِي ذُنُوبِي بِأَنِّي مِنْ عِقَابِكَ غَيْرُ نَاجِ
عَلَى أُنَى - وَإِنْ لَاقَيْتُ شَرًّا - خَلِيرِكَ بِمَدِّ ذَاكَ الشَّرِّ رَاجِ
فَاسْتَدْعَاهُ الْمَنْصُورُ ، وَقَالَ : أَيْنَ حُبِسْتَ يَا أَبَا دَلَامَةَ ؟ قَالَ : مَعَ الدَّجَاجِ !
قَالَ : فَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ ؟ قَالَ : أَقْوَقِي^(٣) إِلَى الصَّبَاحِ . فَضَحَكَ وَخَلَّى سَبِيلَهُ ،
وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ .
فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهُ الرَّبِيعُ : إِنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ :
« وَقَدْ طُبِخَتْ بِنَارِ اللَّهِ » - يَعْنِي الشَّمْسُ - فَأَمَرَ بِرَدِّهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا خَبِيثُ ؛ شَرِبْتَ الْخَمْرَ ؟
قَالَ : لَا ، قَالَ : أَفَلَمْ تَقُلْ : طُبِخْتُ بِنَارِ اللَّهِ - يَعْنِي الشَّمْسُ ؟ قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ
مَا عَنَيْتُ إِلَّا نَارَ اللَّهِ الْمَوْقَدَةِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى فُؤَادِ الرَّبِيعِ ! فَضَحَكَ الْمَنْصُورُ ، وَقَالَ :
خُذْهَا يَا رَبِيعُ ، وَلَا تُعَاوِدِ التَّعَرُّضَ لَهُ .

(١) الصَّهْبَاءُ : الْخَمْرُ (٢) النَّطْفَةُ : وَهِيَ الْخَمْرُ (٣) أَقْوَقِي : أَصْبِحُ .

١٠٧ — ما ضرّه لو أن ذنوب العالمين على ظهري ؟!

قال أيوب المورياني لأبي جعفر — وكان يشنأ^(١) أبادؤلامه : إن أبادؤلامه معتكف على الحجر ، فما يحضر صلاة ولا مسجداً ؛ وقد أفسد فتیان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لآجرت^(٢) فيه وفي غيره من فتیان عسكرك بقطعهم عنهم . فلما دخل عليه أبادؤلامه قال له : ما هذا الجون الذي يبلفني عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أنا والجون ، وقد شارفتُ بابَ قبري ! قال : دغني من استكانتك وتضرّعتك ، وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدي ؛ فلئن فاتتاك لأحسِنَ أدبك ولا أطيلنَ حبسك .

فوقع في شر ، ولزم المسجد أياماً ، ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه ، وكان فيها :

لم تعلّمَا أن الخليفة لَزَنِي ^(٣)	بمسجده والقصر ، مالى وللقصر !
أصلّي به الأولى جميعاً وعصرهما	فويلي من الأولى وويلي من العصر !
أصليهما بالكُره في غير مسجدي	فما لي في الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان في قومي مساجد جمّة	ولم ينشرح يوماً لنشيانها صدرني ^(٤)
يكلفني من بعد ما شئتُ خطّة ^(٥)	يحظ بها عنى الثقل من الوزر
وما ضرّه — والله يغفر ذنبه —	لو أن ذنوب العالمين على ظهري !

* تهذيب الأغاني : ٩ : ٣٣ ، الأغاني : ١٠ — ٢٤٦ ، ذيل زهر الآداب : ٩١ .
 (١) يفضّه ويكرهه (٢) نالك الأجر والثواب (٣) اللز : لزوم الشيء بالشيء .
 والزامه به (٤) الذهاب إليها (٥) الحطة : الأمر .

فقال : قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصليَ في مسجد قبيلتك ، ولكن على ألا تدع القيامَ معنا في ليالي شهر رمضان فقد أَظَلَّ^(١) ؛ فقال : أفعل . قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك ، والله لئن فعلت لأحدنك^(٢) . فقال أبو دلامة : البليةُ في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعة !

فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهدي يبعثُ إليه في كل ليلة حرسياً يحى به ، فشقَّ ذلك عليه ، وفزع إلى الخيزران ، وإلى أبي عبيد الله^(٣) ، وإلى كلٍّ من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجبههم ، فقال له أبو عبيد الله : الدَّالُّ على الخير كفاعله ، فكيف شكرك ؟ قال : أتم شكر ، قال : عليك برِيطه^(٤) فإنه لا يخالفها . قال : صدقت ، ثم رفع إليها رُقعةً يقول فيها :

أَبْلَغًا رِيطَةً أَنِي كُنْتُ عَبْدًا لَأَيِّهَا
فَضَى يَرْحُمُهُ اللَّهُ وَأَوْصَى بِي إِلَيْهَا
وَأَرَاهَا نَسِيتَنِي مِثْلَ نِسْيَانِ أَخِيهَا
جَاءَ شَهْرُ الصَّوْمِ يَمْشِي مِشْيَةً مَا أَشْتَبِهَا
قَائِدًا لِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ رِكَاتِي أَبْتَغِيهَا
وَلَقَدْ عَشْتُ زَمَانًا فِي فَيَافِي وَجِيهَا
فِي لَيَالٍ مِنْ شَتَاءٍ كُنْتُ شَيْخًا أَصْطَلِيهَا
قَاعِدًا أَوْقَدَ نَارًا لِضِيَابٍ^(٥) أَشْتَوِيهَا

(١) أَظَلَّ : قرب وأشرف (٢) حده : أقام عليه الحد (٣) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله كان من رجال آل المنصور ثم المهدي (٤) رِيطه : هي ابنة الخليفة أبي العباس ، وزوج المهدي (٥) الضب : دويبة من الحشرات ، تحرص العرب على صيده وأكله ، وجمعه ضباب .

وَصَبَّوحٍ وَغَبُوقٍ فِي عِلَابٍ ^(١) أَحْتَسِبُهَا
مَا أَبَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَلَا تُسْمِعُنِيهَا
فَاعْطَلِبِي لِي فَرْجًا مِنْهَا وَأَجْرِي لَكَ فِيهَا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت إليه : يصطبر حتى تمضي ليلة القدر
فكتب إليها : إني لم أسألك أن تكلميه في أعفائي عاماً قابلاً ، وإذا مضت ليلة
القدر فقد فني الشهر وكتب تحتها أبياتاً

خَافِي إِلَهَكَ فِي نَفْسٍ قَدْ احْتَضَرَتْ قَامَتْ قِيَامَتُهَا بَيْنَ الْمُصَلِّينَا
مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ مِنْ هَمِّي فَأَطْلُبُهَا إِنْ أَخَافُ الْمُنَايَا قَبْلَ عَشْرِينَا
يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَدْ كَسَّرْتُ أَرْجُلَنَا يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ حَقًّا مَا تَمْنِينَا !
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي خَيْرٍ أَوْمَلُهُ فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا قُنَا ثَلَاثِينَا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، ودخلت على المهدي ، فشغعت له إليه ، وأنشدته
الآبيات ، فضحك حتى استلقى ، ودعا به وربطه معه في الحجلة ^(٢) ، فدخل فأخرج
رأسه إليه وقال : قد شغعت ربطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم .

فقال : أما شفاعتي سيدتي في حتى أغفيتني فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة
الآلاف فإما أن تنمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصني منها ألفين فتصير
خمس آلاف ؛ فإني لا أحسن حساب السبعة . فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال :
أعبدك بالله أن تختار أدنى الحالين ، وأنت أنت ! ثم تكلمت فيه ربطة فأنتمها
له عشرة آلاف درهم .

(١) جمع علبه : وهي قدح ضخم من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيه (٢) الحجلة : بيت
يزين بالثياب والأسرة والستور .

١٠٨ — لو أَنَّ لِي مُهْجَةً أُخْرَى مُجِدَّتْ بِهَا*

قال أبو دُلَامة : أَنِي بِي إِلَى الْمَنْصُورِ وَأَنَا سَكْرَانٌ ؛ خَلَفَ لِيُخْرِجَنِي فِي
بَعْثِ حَرْبٍ ، فَأَخْرَجَنِي مَعَ رَوْحِ بْنِ حَاتِمٍ ^(١) الْمُهَلَّبِيِّ لِقِتَالِ الشُّرَاةِ ^(٢) . فَلَمَّا ابْتَقَى
الْجَمْعَانِ ، قُلْتُ لِرَوْحٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ نَحْيَ فَرَسِكَ ، وَمَعِيَ سِلَاحُكَ لَأَثَرْتُ فِي عَدُوِّكَ
الْيَوْمَ أَثْرًا تَرْضَاهُ .

فَضَحَكَ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَأُدْفَعَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ ، وَلَأَخْذَنَّكَ بِالْوَفَاءِ بِشَرِّطِكَ ؛ وَنَزَلَ
عَنْ فَرَسِهِ ، وَنَزَعَ سِلَاحَهُ . وَدَفَعَهُمَا إِلَيَّ وَدَعَا بَغِيرَهُمَا .

فَلَمَّا حَصَلَ ذَلِكَ فِي يَدَيَّ ، وَزَالَتْ عَنِّي حُلَاوَةُ الطَّمَعِ ، قُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ،
هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ ، وَقَدْ قُلْتُ يَتَيْنِ فَاسْمَعِيهِمَا . قَالَ : هَاتِ ، فَأَنْشَدْتُهُ :

إِنِّي اسْتَجَرْتُكَ أَنْ أَقْدَمَ فِي الْوَغَى لَتَطَاعِنٍ وَتَنَازِلٍ وَضِرَابِ
فَهَبِ السِّیُوفَ رَأَيْتُهَا مَشْهُورَةً فَتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ فِي الْهَرَابِ
مَاذَا تَقْبُولُ لَمَّا يَجِيءُ وَمَا يُرَى مِنْ وَارِدَاتِ الْمَوْتِ فِي النَّشَابِ ^(٣) !
فَقَالَ : دَعْ عَنْكَ هَذَا .

وَبَرَزَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ يَدْعُو لِلْبَارِزَةِ . فَقَالَ : أَخْرِجْ إِلَيْهِ يَا أَبَا دُلَامة !
فَقُلْتُ : أُنْشِدُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ فِي دَعَايَ ! قَالَ وَاللَّهِ لَتَخْرُجَنَّ . فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ،

(١) هُوَ رَوْحُ بْنُ حَاتِمِ بْنِ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، وَلِيْ أِفْرِيقِيَّةَ وَالْبَصْرَةَ وَغَيْرَهُمَا ، وَكَانَ
جَلِيلًا شَجَاعًا (٢) الشُّرَاةُ : هُمُ الْخَوَارِجُ ، وَقَدْ لَزِمَهُمْ هَذَا اللَّقْبُ ، لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ شَرُّوا
دُنْيَاهُمْ بِالْآخِرَةِ ، أَيْ بَاعَوْهَا (٣) النَّشَابُ : السَّهْمُ .

فإنه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ماشبعت منى جارحة من الجوع ، فمرّ لي بشيء آكله ثم أخرج .

فأمر لي برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف . فلما رآني الشّاري^(١) أقبل نحوي وعليه قزوة قد أصابه المطر فابتلّ ، وأصابته الشمس فاقفعل^(٢) ، وعينه تقدّان ، فأسرع إلى . فقلت له : على رسلك^(٣) يا هذا كما أنت ! فوقف .

فقلت : أقتل من لا يُقاتلك ؟ قال لا . قلت : أقتل رجلاً على دينك ؟ قال : لا . قلت : أفستحلّ ذلك قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، قال : فاذهب عني إلى لعنة الله ! قلت : لا أفعل أو تسمع مني . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا فطة عداوة أو ترّة^(٤) ؟ أو تعرفني بحال تحفظك عليّ^(٥) ؟ أو تعلم بين أهلي وأهلك وترّاً ؟ قال : لا ، والله . قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأي ، وإني لأهواك ، وأنتحلّ مذهبك ، وأدين دينك ، وأريدُ السوء لمن أرادك لك . قال : يا هذا ؛ جزاك الله خيراً فانصرفت .

قلت : إن معي زاداً أحبُّ أن آكله معك ، وأحبُّ مواكلتك لتتأكّد منودة بيننا ، ويرى أهلُ العسكر هوانهم علينا : قال : فافعل .

فتقدمت إليه حتى اختلّفت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكاً . فلما استوفينا ودّعني . ثم قلت له : إن هذا الجاهل - إن أقمت على طلب المبارزة - ندبني إليك فتتعبني وتتعب . فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل - قال : قد فعلت . ثم انصرف وانصرفت .

(١) الخارجى (٢) اقفعل : تقبض (٣) تمهل (٤) ثار (٥) تفضبك .

فقلت لروح : أما أنا فقد كفيتك قرني ، قل لنيري أن يكفيك قرنه كما
كفيتك . فأمسك ! وخرج آخر يدعو إلى المبارزة فقال لي : اخرج إليه . فقلت :
إني أعوذ بروح أن يقدمني إلى البراز^(١) فتخزي بي بنو أسد
إن البراز إلى الأقرب أعلمه مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها وأصبحت لجميع الخلق بالرصدي
إن المهلب حب الموت أوردكم وما ورثت اختيار الموت عن أخذ
لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها لكنها خلقت فرداً فلم أجدي
فضحك وأعفاني .

١٠٩ — يهجو نفسه *

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ،
وجاعة من بني هاشم ، فقال المهدي : يا أبا دلامة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين !
قال : لئن لم تهجُ واحداً من في هذا المجلس لأقطعنَّ لسانك . فنظر إلى القوم ،
فكلما نظر إلى واحدٍ منهم غمزه بأن عليه رِضاه . فعلم أنه قد وقع ، وقال : أنا أحدُ
من بالجلس ثم أنشد :

ألا أبلغُ إليكَ أبا دُلامَةَ فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبسَ العمامةَ كان قِرْداً وخِزيراً إذا نزعَ العمامةَ
جمعتَ دمامةً وجمعتَ لزوماً كذاك اللومُ تنبَعُه الدمامةُ
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنْيَا فلا تفرَحْ فقد دَنَتْ القيامةُ

فضحك المهدي وسرَّ القومُ إذ لم يسمِء إلى أحدٍ منهم ، ثم قال له المهدي :
تَمَنَّ . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لي بكلب صَيِّد . فسبَّه وقال : ما تصنعُ به ؟
فقال : الحاجةُ لي أم لك ؛ فقال : صدقت ؛ أعطوه كلباً . فأعطيه . فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ لا بد لهذا الكلب من كَلَّاب ^(١) . فأمر له بغلام مَمْلُوك ؛ فقال :
يا أمير المؤمنين ، أو يتهَيَّأ لي أن أصيدَ راجلاً ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن
يسوسُ الدَّابة ؟ فقال : أعطوه غلاماً سائساً . فقال : ومن يَنَحْرُ الصيدَ ويُصلِّحه ؟

* ذيل زهر الآداب : ٨٩ ، ٩٠ . هذب الأغاني : ٩ - ٢٠ ، المستطرف : ١ - ٨٦ ، المحاسن
والساوى : ٢٨٧ ، طبع ليزج الأغاني : ١٠ - ٢٥٨
(١) الكلاب : من يرعى الكلاب .

فقال : أعطوه طَبَّاخًا . فقال : ومن يَأْوِيهم ؟ فقال : أعطوه دارًا .
فبكى أبو دلامة وقال : ومن يَمُونُ هؤلاء كلَّهم ؟ فقال : يُكْتَبُ له بمائة
جَرِيب^(١) عامرة ، ومائتي جريب عامرة . فقال : وما العامرة ؟ قال : التي لا نَبَاتَ
فيها . قال : فأبا أعطيك مائتي ألف جريب من فيافي بني أسد . فضحك وقال
ماتريد ؟ قال : بيت المال . قال : عَلَى أَنْ أُخْرِجَ المالَ منه . قال : يصيرُ حينئذٍ
غامرًا ، فاستفرغَ ضَحِكًا^(٢) وقال : اذهب فقد جعلتها لك كلها عامرة . فقال :
يا أمير المؤمنين ، ائذن لي أن أَقِيلَ يدك . قال : أمّا هذه فدَعْها . فقال : والله
ما تمنعُ عيالي شيئًا أهونَ عليهم منها ! فناولوه يَدَهُ فقبَّلها .

(١) الجريب : الزرعة (٢) بالغ في الضحك .

١١٠ — كلُّ امرئٍ يأكلُ زَادَهُ *

خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد ، فسَنَحَ لهما ^(١) قطعاً من غلباء ،
فَأَرْسَلَتِ السَّكِلَابُ ، وَأُجْرِيتِ الْخِيلُ ، فَرَمَى الْمَهْدِيُّ سَهْمًا ، فَصَرَعَ ظَبْيًا ، وَرَمَى
عَلِيَّ بْنَ سُلَيْمَانَ فَأَصَابَ كَلْبًا فَقَتَلَهُ ؛ فَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو دُلَامَةَ :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ ظَبْيًا شَكَّ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ
وَعَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ
فَهَيْئًا لَهَا كُلُّ امْرِئٍ يَأْكُلُ زَادَهُ

فضحك المهدي حتى كاذ يسقط عن سَرْجِهِ ، وَقَالَ : صَدَقَ وَاللَّهِ أَبُو دُلَامَةَ ،
وَأَمْرُهُ بِجَائِزَةٍ ، وَلَقَّبَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ بِصَائِدِ الْكَلْبِ ، فَعَلَّقَ الْقَبْ بِهِ .

* معاهد التنصيص : ١ - ٢١٤ ، الأغاني : ١٠ - ٢٥٨

(١) عرض لهما .

١١١ — حماد والمفضل *

قال بعض الرواة :

كُنَّا فِي دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيِّ بِعِيسَابَاذَ^(١) ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا عِدَّةٌ مِنَ الرُّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَدَابِهَا وَأَشْعَارِهَا وَلُغَاتِهَا ، إِذْ خَرَجَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَاجِبِ ، فَدَعَا بِالْمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ الرَّاوِيَةِ فَدَخَلَ ، فَكَثَّ مَلِيًّا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا وَمَعَهُ حَمَّادُ الْمُفَضَّلِ^(٢) جَمِيعًا ، وَقَدْ بَانَ فِي وَجْهِ حَمَّادٍ الْانْكَسَارُ وَالْغَمُ ، وَفِي وَجْهِ الْمُفَضَّلِ السَّرُورُ وَالنَّشَاطُ .

ثُمَّ خَرَجَ حُسَيْنُ الْحَادِمِ بَعْدَهُمَا ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ؛ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُعَلِّمُكُمْ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ حَمَّادُ الشَّاعِرِ بَعْشَرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، لِمُجُودَةٍ شَعْرَةٍ ، وَأَبْطَلَ رِوَايَتَهُ لَزِيَادَتِهِ فِي أَشْعَارِ النَّاسِ مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَوَصَلَ الْمُفَضَّلُ بِخَمْسِينَ أَلْفًا لِمُصَدِّقَةٍ وَصِحَّةٍ رِوَايَتِهِ ؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ شِعْرًا جَيِّدًا مُحَدَّثًا فَلْيَسْمَعْ مِنْ حَمَّادٍ ، وَمَنْ أَرَادَ رِوَايَةً صَحِيحَةً فَلْيَأْخُذْهَا عَنِ الْمُفَضَّلِ .

فَسَأَلْنَا عَنْ السَّبَبِ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الْمَهْدِيَّ قَالَ لِلْمُفَضَّلِ لِمَا دَعَا بِهِ وَخَدَّاهُ : إِنِّي رَأَيْتُ زُهَيْرَ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ افْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ بِأَن قَالَ :

دَعَا ذَا وَعْدٍ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ^(٣)

* الأغانى : ٦ - ٩٠

(١) عيساباذ : محلة كانت شرقي بغداد ، بنى بها المهدي قصره الذي سماه قصر السلام .

(٢) هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ؛ راوية عالم بالأدب من أهل الكوفة ، لزم المهدي ، وصنف له كتاب الفضليات ، توفي سنة ١٦٨ هـ (٣) هرم بن سنان : ممدوح زهير .

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بِتَرْكِه ؟ فقال له المفضل : ما سمعتُ
يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً إلا أنى توهمتُه كان يفكر فى قولٍ يقوله ، أو يروى
فى أن يقول شيئاً ، فعدّل عنه إلى مَدْحِ هَرَمٍ وقال : « دَعْ ذا ... » أو كان
مفكراً فى شيء من شأنه فتركه وقال : « دع ذا ... » أى دَعْ ما أنت فيه من الفكر
وعدّ القول فى هَرَمٍ . فأمسك عنه .

ثم دعا حمّاداً فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل فقال : ليس هكذا قال زهير
يا أمير المؤمنين ؛ قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لَمَنِ الدِّيَارُ بُقْنَةَ^(١) الْحَجَرِ أَقْوَيْنَ^(٢) مُذْ حَجَجَ وَمُذْ دَهَرَ
قَفَرًا بِمُنْدَفَعِ النَّحَائِتِ مِنْ^(٣) ضَفْوَى^(٤) أُولَاتِ الضَّالِّ وَالسَّدْرِ^(٥)
دَعْ ذَا وَعْدِ الْقَوْلِ فِي هَرَمٍ خَيْرِ الْكُهُولِ وَسَيِّدِ الْخَضِرِ
فَأَطْرَقَ الْمَهْدَى سَاعَةً ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى حَمَادٍ فَقَالَ لَهُ : قَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ
خَبْرٌ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِحْلَافِكَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَهُ بِأَيِّمَانِ الْبَيْعَةِ وَكُلِّ يَمِينٍ مُخْرَجَةٍ
لِيَصُدَّقَتْهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ ، خَلَفَ لَهُ بِمَا تَوَثَّقَ مِنْهُ .

ثم قال له : اصدقنى عن حال هذه الأبياتِ وَمَنْ أَضَافَهَا إِلَى زَهِيرٍ ؛ فَأَقْرَءْ لَهُ
حِينَئِذٍ أَنَّهُ قَائِلُهَا ، فَأَمَرَ فِيهِ وَفَى الْمَفْضُلُ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ شَهْرَةٍ أَمْرٍ هَا وَكَشَفَهُ .

(١) القنة : أعلى الجبل ، والحجر : موضع باليمامة (٢) أقوين : (٣) النحائت : آبار فى موضع معين (٤) ضفوى : مكان دون المدينة (٥) الضال والسدر : نوعان من الشجر (اللسان مادة نحت) .

١١٢ — في خِباء الأعرابي *

خرج المهديُّ يَتَصَيَّدُ ؛ فغَارَ ^(١) به فرسهُ ، حتى وقع في خِباء أعرابي ، فقال :
يا أعرابي ؛ هل من قِرَى ؟ فأخرج له قُرْص شعير فأكله ؛ ثم أخرج له فَضْلَةً من
لبن فسقاه ، ثم أتاه بنييذ في رَكْوَةٍ ^(٢) فسقاه .

فلما شرب قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا ! قال : أنا من خَدم أمير المؤمنين
الخاصة . قال : بارك الله لك في موضعك ! ثم سقاه مرةً أخرى فشرب ، فقال :
يا أعرابي ؛ أتدرى مَنْ أنا ؟ قال : زعمتَ أنك من خَدم أمير المؤمنين الخاصة .
قال : لا ؛ أنا من قُوّاد أمير المؤمنين .

قال : رَحِبْتُ بلادك ، وطابَ مُرادك ! ثم سقاه الثالثة ، فلما فرغ قال :
يا أعرابي ؛ أتدرى مَنْ أنا ؟ قال : زعمتَ أنك من قُوّاد أمير المؤمنين . قال : لا ؛
ولكنني أميرُ المؤمنين ! فأخذ الأعرابي الرُّكْوَةَ فأوكأها ^(٣) . وقال : إليك عني !
فوالله لو شربتَ الرابعةَ لادَّعَيْتَ أنك رسولُ الله .

فضعك المهدي حتى غَشِيَ عليه . ثم أحاطت به الخليل ، ونزلت به الأسماء
والأشراف ؛ فطار قلبُ الأعرابي ؛ فقال له : لا بأس عليك ، ولا خوف ! ثم أمر له
بِكُسوةٍ ، ومالٍ جزيل .

* المستطرف : ٢ - ٢٣٣

(١) غار : أتى الغور ، وهو المطنن من الأرض (٢) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب
فيه الماء (٣) أوكى على ما في سقائه : شده بالوكاء . والوكاء : ما يشد به رأس القرية ، والمراد
ربطها وكف عن سقيها منها .

١١٣ — دَعَا بِفِرَاقٍ مِّنْ تَهْوَى أَبَانَ*

قال أَبَان بن عبد الحميد : نزل في ظاهر البصرة قومٌ من أعراب قَيْسِ عَيْلان ، وكان فيهم بِيَّان وفَصَّاحَة ، فكان بَشَّار يَأْتِيهِمْ ، وَيُنْشِدُهُمْ أَشْعَارَهُ التي يمدح بها قَيْسًا ؛ فَيُجِئُونَهُ لذلك ، ويعظمونه ، وكان نساؤهن يجلسن معه ، ويتحدثن إليه ، وينشدهن أَشْعَارَهُ في الغزل . وكنتُ كثيرًا ما آتَى في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم .

فَأَتَيْتُهُمْ يوماً فإذا هم قد ارتحلوا ، فجئتُ إلى بَشَّار ؛ فقلت : يا أبا معاذ ؛ أعلمتَ أن القومَ قد ارتحلوا ؟ قال : لا . قلت : فأعلم ، قال : قد علمتُ لا علمتُ ! ومضيت .

فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناس ينشدون :

دَعَا بِفِرَاقٍ مِّنْ تَهْوَى أَبَانُ ففاض الدمعُ واحترق الجَنَانُ
كَأَنَّ شَرَارَةً وَقَعَتْ بقلبي لها في مقلتي وذِمي اسْتِنَانٌ^(١)
إذا أُنْشِدْتُ أَوْ نَسَمْتُ عَلَيْهَا رياح الصيف هاجَ لها دخان

فعلمتُ أنها لبشار ؛ فَأَتَيْتُهُ ، فقلت : يا أبا معاذ ؛ ما ذنبِي إليك ! قال : ذنبُ غُرَابِ البين . فقلت : هل ذكرتنِي بغير هذا ؟ قال : لا . قلت : أَنشدك الله ألا تزيد ، فقال : امضِ لسانك فقد تركتك .

* عصر المأمون : ٢ - ٢٧٢

(١) استن الرجل : مضى على وجهه ، واستن السراب : اضطرب .

١١٤ — راوية أبي نواس والعتابي *

كان كلثوم العتابي^(١) يَضَعُ من قَدَرٍ أبي نواس ، فقال له راوية أبي نواس يوماً : كيف تضع من قَدَرٍ أبي نواس وهو الذي يقول :

إذا نحن أُنْذِنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ الَّذِي نُنْئِي وَقَوْكَ الَّذِي نُنْئِي
وإن جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ لِنِيرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَنْعِي

قال العتابي : هذا سَرَقَهُ ! قال : مِمَّنْ ؟ قال : من أبي دهبيل الجمحي حيث يقول :

وإذا يقال لبعضهم : نِعَمَ الْفَتَى فَأَبْنُ الْمَغِيرَةِ ذَلِكَ النَّعْمُ
عَقِمَ النِّسَاءَ فَلَا يَجِئْنَ بِمِثْلِهِ إِنْ النِّسَاءُ بِمِثْلِهِ عُنْمُ

قال : لقد أحسن في قوله :

فَعَمِشْتُ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشْتُ الْبِرَّ فِي السَّقَمِ

قال : سَرَقَهُ أَيْضًا ! قال له : مِمَّنْ ؟ قال : من سوسة الفقعسي حيث يقول :

إذا مَا سَقِمْتُ حَلَّ عَنْهَا وَكَأَنَّهَا تَصَعَّدَ فِيهِ بَرُّهَا وَتَصَوَّبَا
وإن خَالَطْتُ مِنْهُ الْحَشَى خِلْتُ أَنَّهُ عَلَى سَالِفِ الْأَيَّامِ لَمْ يُبْقِ مُوَهَّبَا

قال : فقد أحسن في قوله :

* المسعودي : ٢ - ٢٧٤

(١) هو الحسن بن هانيء ، رحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء من بني العباس ، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، توفي سنة ١٩٢ هـ .

وما خُلِقَتْ إِلَّا لِبَذْلِ أَكْفُهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مِنْبَرٍ
قال : قد سَرَقَهُ أَيْضاً ، قال : مِمَّنْ ؟ قال : من مروان بن أبي حفصة
حيث يقول :

وما خُلِقَتْ إِلَّا لِبَذْلِ أَكْفُهُمْ وَالسُّنْهُمِ إِلَّا لِتَجْبِيرِ مَنْطِقٍ
قال : فسكت الراوية ، ولو أني بِشَعْرِهِ كُلِّهِ لَقَالَ : سَرَقَهُ !

١١٥ - أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ * ١

كان المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حالاً ضعيفاً ، فبينما هو فى بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث^(١) ، وأهل الأدب إذ أنشده :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فهذا العيش مالا خير فيه
أَلَا رَحِمَ الْمُتَمِيمِينَ نَفْسَ حُرٍّ تصدَّقْ بالوفاةِ على أخيه
فرئى له رفيقه ، وأحضر له بدرهم ، وما أمسك رَمَقَهُ ، وحفظ البيتَين وتفرقا .
ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة ، وأُخِنَى الدهر على ذلك الرجل ؛ فتوصل إلى إيصال
رقعة مكتوب فيها :

أَلَا قُلُوبٌ لِلزُّوْجَرِ - فَدَتُهُ نَفْسِي - مقالاً ذا كِرَامٍ مَا قَدْ نَسِيَهُ
أَتَذَكَّرُ إِذْ تَقُولُ لِنَفْسِكَ عَيْشٍ : أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ !
فلما قرأها تذكَّرَ ما كان ؛ وأمر له بسبعائة درهم ، ووقع تحت رقعته : ﴿ مَثَلُ
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ . ثم قلدهُ عملاً يَرْتَزِقُ مِنْهُ .

* المستطرف : ٢ - ٦٠

(١) الحرث : الزرع .

١١٦ — قد وجدناك ممتعا *

قال الأصمعي^(١) : تصرّفت بي الأسبابُ على باب الرشيد مؤثلاً الظفرَ به ،
والوصولَ إليه ؛ حتى إنى صرتُ لبعضِ حرسِهِ خَدِيناً^(٢) . فأنى في ليلةٍ قد نثرت السعادةُ
والتوفيقُ فيها الأرقَ بين أجفان الرشيد ، إذ خرج خادم فقال : أما بالحضرة أحد
يُحسِّن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! ربَّ قَيْدٍ مُضَيِّقٍ قد حلّه التيسير ! فقال لى
الخادم : ادخل ، فلعلها تكون ليلة يُغرس في صباحها الفنى إن فُرّت بالخطوة
عند أمير المؤمنين .

فدخلتُ فواجهتُ الرشيد في مجلسه ، والفضلُ بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بى
الخادم حيث يسمعُ التسليم ؛ فسلمتُ فردّ على السلام ، ثم قال : يا غلام ؛ أريحهُ
ليُفرخ رُوعه^(٣) ! إن كان وجد للروعة حساً !

فدنوتُ قليلاً ثم قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إضاءةُ مجدك وبهاءُ كرمك مُجبران
لمن نظر إليك من اعتراض أذية ! فقال : اذنُ . فدنوت ، فقال : أشاعرُ أم
راوية ؟ فقلت : راوية لِكُلِّ ذى جِدٍّ وهَزَلٍ ؛ بعد أن يكون محسناً ! فقال :
تالله ما رأيت أدعاءً أعظم من هذا ! فقلت : أنا على الميدان ؛ فأطلق من عنانى
يا أمير المؤمنين !

* خزانة الأدب : ٤ - ٣٤٦ ، أمالى المرتضى : ٣ - ٩٦

(١) الأصمعي : عبد الملك بن قريب راوية العرب ، كان كثير التطواف في البوادي يقتبس علومها
ويطابق أخبارها ويتحف بها الخلفاء ، توفي سنة ٢١٦ هـ .

(٢) خليلاً وصديقاً (٣) يذهب خوفه .

قال : أَنْصَفَ الْقَارَةَ ^(١) مِنْ رَمَاهَا . ثم قال : ما المعنى في هذه الكلمة بَدِينًا ؟ قلت : القارة هي الحرة من الأرض ؛ وزعت الرواة أن القارة كانت رُمَاءً لِلتَّبَاعَةِ ، وَالْمَلِكُ إِذْ ذَاكَ أَبُو حَسَانٍ ، فَوَاقِفٌ ^(٢) عَسْكَرُهُ عَسْكَرُ السُّفْدِ ^(٣) ، فَخَرَجَ فَارِسٌ مِنَ السُّفْدِ ، قَدْ وَضَعَ سَهْمَهُ فِي كَبْدِ قَوْسِهِ فَقَالَ : أَيْنَ رِمَاءُ الْعَرَبِ ؟ فَقَالَتِ الْعَرَبُ ؛ قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مِنْ رَمَاهَا . فَقَالَ لِي الرَّشِيدُ : أَصَبْتُ .

ثم قال : أَتُرَوِي لِرُؤْبَةِ بْنِ الْعَجَّاجِ وَالْعَجَّاجِ شَيْئًا ؟ قلت : هما شاهدان لك بالقوافي وإنْ غُيِّبَا بِالْأَشْخَاصِ ، فَأَخْرَجَ مِنْ ثُنَى فَرْشِهِ رَقْعَةً ثُمَّ قَالَ : أَنْشِدْنِي :

* أَرْقَنِي طَارِقُ هَمَّ طَرَقًا *

فَضِيتُ فِيهَا مَضَى الْجَوَادِ فِي سَنَنِ مِيدَانِهِ تَهْدِيرُ بِهَا أَشْدَاقِي ، فَلَمَّا صَرْتُ إِلَى مَدِيحِهِ لَبِنِي أُمِيَّةً ، ثَنَيْتُ لِسَانِي إِلَى امْتِدَاحِهِ لِأَبِي الْعَبَّاسِ فِي قَوْلِهِ :

* قَلْتُ لَزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرَّيْمَةٌ *

فَلَمَّا رَأَيْتَنِي قَدْ عَدَلْتُ مِنْ أَرْجُوزَةٍ إِلَى غَيْرِهَا قَالَ : أَعَنْ حَيَرَةً أَمْ عَنْ عَمْدٍ ؟ قلت : عَنْ عَمْدٍ ، تَرَكْتُ كَذِبَهُ إِلَى صِدْقِهِ فِيمَا وَصَفَ بِهِ جَدَّكَ مِنْ مُجْدِهِ ! فَقَالَ

(١) فِي اللِّسَانِ : زَعَمُوا أَنَّ رَجُلَيْنِ التَّقِيَّ ، أَحَدُهُمَا قَارِي (وَالْقَارَةُ قَبِيلَةٌ) ، وَالْآخَرُ أَسَدِي ، فَقَالَ : إِنْ شِئْتَ صَارَ عَيْتُكَ ، وَإِنْ شِئْتَ سَابَقْتُكَ ، وَإِنْ شِئْتَ رَامَيْتُكَ ، فَقَالَ الْقَارِي : قَدْ أَنْصَفْتَنِي وَأَنْشَدَ :

قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مِنْ رَامَاهَا إِنْذَا مَا فَتَحَ نَفْسَهَا

فَرَدَّ أَوْلَاهَا عَلَى أَخْرَاهَا

(٢) الْمَوَاقِفَةُ : أَنْ تَقِفَ مَعَهُ وَيَقِفَ مَعَكَ فِي حَرْبٍ أَوْ خُصُومَةٍ (٣) السُّفْدُ : بَسَاتِينُ تَرْهَةِ وَأَمَا كُنْ مَشْرَعَةً بِسَرْقَدٍ .

الفضل : أحسنت ، بارك الله فيك ! مثلك يؤهل لمثل هذا المجلس ! فلما أتيتُ على آخرها قال لى الرشيد : أنروى كلمة عدى بن الرقاع :

✽ عَرَفَ الدِّيَّارَ تَوَهُّمًا فَأَعْتَادَهَا ✽

قلت : نعم . قال : هات ! فمضيت فيها حتى إذا صرت إلى وصف الجمل قال لى الفضل : ناشدتك الله أن لا تقطع علينا ما أمتعنّا به من السهر فى ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب . فقال له الرشيد : اسكت فالإبل هى التى أخرجتك من دارك ، واستلّبت تاج ملكك ، ثم ماتت وعملت جلودها سياتاً ضربت بها أنت وقومك !

فقال الفضل : لقد عوقبتُ على غير ذنب ، والحمد لله ! فقال الرشيد : أخطأت ، الحمد لله على النعم ، ولو قلت : أستغفر الله كنت مُصيباً . ثم قال لى : امض فى أمرك ، فأنشدته ، حتى بلغتُ إلى قوله :

✽ تَرْجِي أَعْنَ كَانَ إِبْرَةَ رَوْقِهِ (١) ✽

استوى جالساً ثم قال : أنحفظ فى هذا ذكرأ ؟ قلت : نعم ذكرت الرواة أن الفرزدق قال : كنتُ فى المجلس ، وجريت إلى جانبى ، فلما ابتدأ عدى فى قصيدته قلت لجريز مُسرّاً إليه : هلمّ نسخر من هذا الشامى ، فلما ذقنا كلامه يئسنا منه ، فلما قال :

✽ تَرْجِي أَعْنَ كَانَ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ✽

(١) الروق : القرن ، والأعْنَ من الغرلان : الذى فى صوته غنة .

— وعدي كالمستريح — قال جرير : أما تراه يستلب بها مثلاً ؟ فقال الفرزدق :
بالكعب ، إنه يقول :

❖ قلمٌ أصابَ من الدَّواةِ مدادها ❖

فقال عديّ : قلم أصاب من الدواة مدادها .

فقال جرير : أكان سمعك مخبوءاً في قلبه ؛ فقال له : اسكت ، شغلني سُبُك
عن جيد الكلام ! فلما بلغت إلى قوله :

ولقد أراد الله إذ ولّا كَهَا من أمةٍ إصلاحها ورشادها

قال الرشيد : ما تراه حين أنشده هذا البيت ؟ قلت : قال كذلك أراد الله .
فقال الرشيد : ما كان في جلالته ليقولَ هذا ، أحسبه قال : ما شاء الله ! قلت : وكذا
جاءت رواية ؛ فلما أتيت على آخرها قال : أتروى لذي الرُّمة شيئاً ؟ قلت : الأكثر ،
قال : فما أراد بقوله :

مُمرٌّ أَمَرَتْ فَتَلَهُ أَسَدِيَّةٌ ذِرَاعِيَّةٌ حَلَالَةٌ بِالْمَصَانِعِ

قلت : وصف حمار وحشٍ أَسَمَنَهُ بقل روضةٍ تَوَاشَجَتْ أصوله ، وتشابكت
فروعه من مطر سحابة كانت بنوء الأسد ثم في الذراع من ذلك ، فقال الرشيد :
أرح ، فقد وجدناك مُمتِعاً ، وعرفناك محسنًا .

ثم قال : أجدُ مَلَالَةً — ونهض — فأخذ الخادم يصلح عقب النعل في رجله —
وكانت عربية — فقال الرشيد : عَمَرْتُني يا غلام ! فقال الفضل : قاتل الله الأعاجم !
أما إنها لو كانت سِنْدِيَّةً لما احتجبت إلى هذه الكلفة ، فقال الرشيد : هذه نعل
ونعل آباءى ، كم تعارضُ فلا تُترك من جواب ممض .

ثم قال : يا غلام ، يُؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم على هذا الرجل ، في ليلته هذه ، ولا يحجب في المستأنف ، فقال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه غيره ، لأمرت لك بمثل ما أمر لك ، وقد أمرتُ لك به إلا ألف درهم ، فتلق الخادم صباحاً .

قال الأصمعيّ : فما صلّيتُ من غدٍ إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف

درهم .

١١٧ — نَمَوْدَتْ حَسَنَ الصَّبْرِ حَتَّى أَلْفَتْهُ *

قال أبو العتاهية : حبسني الرشيد لَتَرْكِي الشعر ، وَغُلِّقَتْ عَلَيَّ الأبواب ،
فَبَقِيتُ دَهْشًا كَمَا يَدْهَشُ مِثْلِي لَتَلِكِ الْحَالِ ؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ فِي جَانِبِ
السَّجْنِ وَهُوَ مَقِيدٌ ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ سَاعَةً ، فَتَمَثَّلَ بِقَوْلِهِ :

نَمَوْدَتْ حَسَنَ الصَّبْرِ حَتَّى أَلْفَتْهُ فَأَسْلَمَنِي حَسَنُ الْعِزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَصَبَّرَنِي يَا أَسَى مِنَ النَّاسِ رَاجِيًا لِحَسَنِ صَنِيعِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أُدْرِي

فَقُلْتُ لَهُ : أَعِذْ - أَعِزَّكَ اللَّهُ - هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فَقَالَ لِي : وَيْلَكَ يَا أَبَا الْعَتَاهِيَةِ !
مَا أَسْوَأَ أَدَبِكَ ! وَأَقْلَّ عَقْلِكَ ! دَخَلْتَ عَلَى السَّجْنِ فَمَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَ الْمُسْلِمِ عَلَى
الْمُسْلِمِ ، وَلَا سَأَلْتَ مَسْأَلَةَ الْحُرِّ لِلْحُرِّ ، وَلَا تَوَجَّعْتَ تَوَجُّعَ الْمُبْتَلَى لِلْمُبْتَلَى ، حَتَّى إِذَا
سَمِعْتَ يَتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي لَا فَضِيلَةَ فِيكَ سِوَاهُ لَمْ تَصْبِرْ عَنْ اسْتِعَادَتِهِمَا ، وَلَمْ تُقَدِّمْ
قَبْلَ مَسْأَلَتِكَ عَنْهُمَا عُذْرًا لِنَفْسِكَ فِي طَلِبِهِمَا !

فَقُلْتُ : يَا أَخِي ؛ إِنِّي دَهَشْتُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ فَلَا تَعْذِرْنِي وَاعْذُرْنِي مُتَفَضِّلًا ،
فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ بِالْدَّهْشِ وَالْخَيْرَةِ أَوْلَى مِنْكَ ؛ لِأَنَّكَ حُدِثْتَ عَلَى أَنْ تَقُولَ الشَّعْرَ
الَّذِي بِهِ ارْتَفَعْتَ وَبَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ ، وَإِذَا قُلْتَهُ أَمِنْتَ ، وَأَنَا حُدِثْتُ عَلَى أَنْ أَدُلَّ
عَلَى ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ لِيُقْتَلَ أَوْ أُقْتَلَ دُونَهُ ، وَاللَّهِ لَا أَدُلُّ عَلَيْهِ أَبَدًا ، وَالسَّاعَةَ يُدْعَى
بِي فَأُقْتَلَ ، فَأَيْنَا أَحَقُّ بِالْدَّهْشِ ؟

فقلت : أنت والله أولى ، سلمك الله وكفاك ! ولو علمتُ أن هذه حالك
ماسألتك ، فقال : إذن لا أبجل عليك ، ثم أعادَ علىَ البيتين حتى حفظتهما ،
وأجزتهما بقولي :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكرهتُ منه طالَ عَتْبِي على الدهر
ثم سأله عن اسمه ، فقال : أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد .
ولم نلبث إلا قليلاً حتى سمعنا صوتَ الأقفال ، فقام ، فسكَبَ عليه ماءً من جرّةٍ
كانت عنده ، ولبس ثوباً نظيفاً ، ودخل الحرسُ ومعهم الشموع ، فأخرجونا جميعاً ،
وقدّم قبلي إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسأَلْنِي عنه ، وافعل
ما بدّالك ، فلو أنه تحت ثوبي ما كشفتُ عنه ؛ فأمر به فضرَبَتِ عنقه . ثم قال
لي : أظنك يا أبا إسماعيل ارتعت ، فقلت : دون ما رأيته نسيلاً منه النفوس ! فقال :
ردّوه إلى محبسه ، فردّوني .

١١٨ — مَلِّ كِتَابَهُ إِخْصَاءَ مَا يَهَبُ *

خرج الفضل^(١) بن يحيى للصيد والقَنَص، ويبدأ هو في موكبه إذ رأى أعرابيا على ناقه قد أقبل من صَدْرِ الْبَرِّيَّةِ، يَرْكُضُ في سيره، فقال: هذا يقصدني فلا يكلمه أحدٌ غيري.

فلما دنا الأعرابي، ورأى المضاربَ تُضْرَبُ، والخيام تُنْصَبُ، والعسكر الكثير والجَمَّ الغفير، وسمع النغواء والضجة، ظن أنه أمير المؤمنين؛ فنزل وعَقَلَ راحِلَتَهُ، وتقدَّم إليه، وقال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: اخْفِضْ عليك ماتقول. فقال: السلام عليك أيها الأمير، قال: الآن قَارَبْتَ؛ اجلس، فجلس الأعرابي.

فقال له الفضل: من أين أقبلتَ يا أخا العرب؟ قال: من قُصَاة، قال: من أذناها أو من أقصاها؟ قال: من أقصاها. فقال: يا أخا العرب؛ مثلك من يَقْصِدُ من ثمانمائة فرسخ لأى شيء؟ قال: قصدتُ هؤلاء الأماجدَ الأنجاد، الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد، قال: مَنْ هم؟ قال: البرامكة!

قال الفضل: يا أخا العرب؛ إن البرامكة خلُقَ كثير، وفيهم جليلٌ وخَطِيرٌ، ولكل منهم خاصَّة وعامة؛ فهل أفرَدتَ لنفسك منهم من اخترتَ وأتيتَه

* المختار من نواذر الأخبار — مخطوط .
(١) وزير الرشيد، كان من أجود الناس، وله في هذا أخبار كثيرة، سجن في نكبة البرامكة، وتوفى في سجنه بالرقعة سنة ١٩٣ هـ.

لحاجتك؟ قال: أجل، أطولهم باعاً، وأسمحهم كفاً. قال: من هو؟ قال: الفضل ابن يحيى.

قال له الفضل: يا أخا العرب؛ إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر، إذا جلس للناس مجلساً عاماً لم يحضر تجلسه إلا العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء، والكتاب والمناظرون للعلم. أعلم أنت؟ قال: لا. قال: أفأديب أنت؟ قال: لا. قال: أفعارف أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال: لا. قال: ورَدْتُ على الفضل بكتاب وسيلة؟ قال: لا. فقال: يا أخا العرب غَرَّتْكَ نفسك؛ مثلك يقصد الفضل بن يحيى، وهو ماعرفتك عنه من الجلالة! بأى ذريعة أو وسيلة تقدّم عليه؟

قال: والله يا أمير؛ ما قصدته إلا لإحسانه المعروف، وكرمه الموصوف، وبينتين من الشعر قلتهما فيه. فقال الفضل: يا أخا العرب؛ أنشدني البيتين، فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك ببقائه، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالى، ورجعت إلى باديتك، وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً. قال: أفتفعل أيها الأمير؟ قال: نعم. قال: فإني أقول:

ألم تر أن الجلود من عهد آدم تحدّر حتى صار يمتصّه الفضل
ولو أن أمّا مسها جوع طفلها غذّته بإسم الفضل لا غنّداً الطفل
قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك: هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر، وأخذ الجائزة عليهما فأنشدني غيرهما فما تقول؟ قال: أقول:

قد كان آدم حين حان وفاته أو صاك وهو يجمود بالحوباء^(١)
ببنّيه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عولة الأبناء

(١) الحوباء: النفس.

قال : أحسنت يا أخا العرب ؛ فإن قال لك الفضلُ - مُمتحنا : هذان البيتان
أَخَذْتَهُمَا مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ ، فَأَنْشَدْنِي غَيْرَهُمَا ، فَمَا تَقُولُ وَقَدْ رَمَقْتِكَ الْأَدْبَاءُ بِالْأَبْصَارِ ،
وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ إِلَيْكَ ، وَأَنْتَ تَحْتَاجُ أَنْ تَنَاضِلَ عَنْ نَفْسِكَ ؛ قال : إِذَنْ أَقُولُ :
مَلَّتْ جَهَا بَذُ^(١) فَضْلٍ وَزَنَ نَائِلُهُ وَمَلَّ كِتَابُهُ إِحْصَاءَ مَا يَهَبُ
وَاللَّهِ لَوْلَاكَ لَمْ يُدْخِ بِمَكْرُمَةٍ خَلَقْتُ وَلَمْ يَرْتَفِعْ تَجْدُّ وَلَا حَسَبُ
قال : أحسنت يا أخا العرب ! فإن قال لك الفضلُ : هذان البيتان مسروقان ،
أَنْشَدْنِي غَيْرَهُمَا ، فَمَا تَقُولُ ؟ قال : إِذَنْ أَقُولُ :

ولو قيل للمعروف نادِ أخا العَلَا لنادى بأعلى الصوت يافضلُ يافضلُ
ولو أنفقت جدواك من رَمَلِ عَالِجٍ^(٢) لأصبح من جدواك قد نفذَ الرَمَلُ
قال : أحسنت يا أخا العرب ؛ فإن قال لك الفضلُ : هذان البيتان مسروقان
أيضاً : أَنْشَدْنِي غَيْرَهُمَا فَمَا تَقُولُ ؟ قال : أَقُولُ :

وما الناس إلا أنسان صَبُّ وَبَاذِلُ وَإِنِّي لَدَاكَ الصَّبُّ ، وَبَاذِلُ الْفَضْلُ
على أَنَّ لِي مِثْلًا إِذَا ذَكَرَ الْوَرَى وليسَ لِفَضْلٍ فِي سَمَاحَتِهِ مِثْلُ
قال : أحسنت يا أخا العرب ! فإن قال لك الفضلُ : أَنْشَدْنِي غَيْرَهُمَا فَمَا تَقُولُ ؟
قال : أَقُولُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ :

حكى الفضلُ عن يَحْيَى سَمَاحَةِ خَالِدٍ فَقَامَتْ بِهِ التَّقْوَى وَقَامَ بِهِ الْعَدْلُ
وقام به المعروفُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَلَمْ يَكُ لِلْمَعْرُوفِ بَعْدُ وَلَا قَبْلُ
قال : أحسنت ؛ فإن قال لك : قد ضَجِرْنَا مِنَ الْفَاضِلِ وَالْمَفْضُولِ ، أَنْشَدْنِي
بَيِّنَ عَلَى الْكُنْيَةِ لَا عَلَى الْأَسْمِ ، فَمَا تَقُولُ ؟ قال : إِذَنْ أَقُولُ :

(١) جهابذ جمع جهبذ : وهو النقاد الحبير (٢) موضع به رمل .

ألا يا أبا العباس يا واحدَ الورى وباملِكَا خَدَّ الملوِكِ له نَعْلُ
إليك تَسِيرُ النَّاسُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فُرَادَى وَأَزْوَاجًا كَانَتْهُمْ تَمَلُّ
قال : أحسنت يا أخا العرب ؛ فإن قال لك الفضل : أنشدنا غير الاسم والكنية .
قال : والله لئن زادني الفضل ، وامتنعني بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ما سبقتني
إليها عربى ولا عجمى ، ولئن زادني بعدها لأجمعن قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى فيه ،
ولأرجعن إلى قضاة خاسراً ولا أبالى .

فنكس الفضل رأسه ، وقال للأعرابي : يا أخا العرب ؛ أتممى الأبيات
الأربعة ، قال : أقول :

ولائمةٍ لامتك يا فضلُ فى الندى فقلت لها : هل يقدحُ اللومُ فى البحر ؟
أنهم ين فضلًا عن عطاياه للورى فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطرِ
كان نوال الفضل فى كلِّ بلدةٍ تحذرُ ماء المزن فى مَهْمِهِ قَفَرِ
كان وفود الناس فى كلِّ وَجْهَةٍ إلى الفضل لا قوا عنده ليلة القَدَرِ
فأمسك الفضل ثم سقط على وجهه ضاحكاً ! ثم رفع رأسه وقال :
يا أخا العرب ؛ أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ما شئت ؛ فقال : سألتك بالله أيها
الأمير إنك لهو ! قال : نعم : قال له : فأقِلْنِي ، قال : أقالك الله ، اذْكُرْ حاجتك .
قال : عشرة آلاف درهم . قال الفضل : اذدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ،
نُعْطى عشرة آلاف فى عشرة آلاف ، وأمر بدفع المال .

فلما صار المال إليه ، حسده بعض أتباع الفضل ، وقال : يامولاي ؛ هذا إسراف ،
يأتيك جِلْفٌ من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب ، فتجزيه بهذا
المال ! قال : استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاة .

قال : أفستُ عليك إلا أخذتَ سَهْمًا من كِنَانَتِكَ ، ورَكِبْتَهُ في كَبِدِ قَوْسِكَ
وأومأت به إلى الأعرابي ، فإن ردَّ عن نفسه بيتَ من الشعر ، وإلا كان له في
بعض المال كفاية .

فأخذ الفضلُ سَهْمًا ، وركبه في كَبِدِ قَوْسِهِ ، وأومأ به إلى الأعرابي وقال له :
وَدَّ سَهْمِي بَيْتَ من الشعر ، فأنشأ يقول :

لقوسك قوسُ الجود والوترُ الندى وسهمك سهمُ العزِّ قازمٌ به قفري
فضحك الفضل ، وأنشأ يقول :

إذا مَلَكْتَ كَفِّي منالًا ولم أنلِ فلا انبَسَطَتْ كَفِّي ولا نهضتُ رجلى
على الله إخالُ الذي قد بذلته فلا يُبْقِي لي بُحْلِي ولا مُتْلِفِي بذلي
أروني بخيلًا نال مجداً يَبْخُلُهُ وهاتوا كريمًا مات من كثرةِ البذلِ

ثم قال الفضل لتابعه : أعطِ الأعرابي مائة ألف درهم لقصدِهِ وشعره ، ومائة ألف
ليكفينا شرَّ قوائم ناقته .

فأخذ الأعرابي المال وانصرف وهو يبكي ، فقال له الفضل : ثم بكائك يا أعرابي ؟
أستقللاً للمال الذي أعطيناك ؟ قال : لا ، ولكني أبكي على مثلك يا كله التراب
وتواريه الأرض ، وتذكَّرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرِّزْيَةُ فَقْدُ مالٍ ولا فرسٌ يموتٌ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرِّزْيَةَ فَقْدُ حُرِّ يموتُ لموتهِ خَلْقٌ كثيرُ

ثم انصرف الأعرابي .

١١٩ — اسمي مشتق من اسمك *

قال عبد الله بن منصور : كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحيى فأتاه الحاجب ، فقال : إنَّ بالبَاب رجلاً قد أَكْثَرَ في طَلَبِ الإِذْنِ ، وزعم أنَّ له يداً يَمْتُ بها ، فقال : ادْخُلْهُ .

فدخل رجل جميل رث الثياب ، فسلم وأحسن ؛ فأوما الفضل إليه بالجلوس فجلس ، فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام ، قال له : ما حاجتك ؟ قال له : قد أعرَبْتُ عنها رِثائَةً هَيْئَتِي ، وَضَعْتُ طَاقِي ! قال : أَجَل ! فما الذي تمتُّ به ؟ قال : ولادة تقربُ من ولادتك ، وجِوار يدنو من جِوارك ، واسمٌ مشتق من اسمك !

قال : أما الجِوار فقد يمكن أن يكون كما قلت ، وقد يوافق الاسمُ الاسمَ ، ولكن ما علمك بالولادة ؟ قال : أعلمتني أُمِّي أنها لما وضعتني ، قيل : إنه ولد الليلة ليحيى بن خالد غلام ، وُسِّمَ الفضل ، فسَمَّيتُ قُضَيْلاً ، إعظاماً لاسمك أن تلحقني بك ؛ فقبَّس الفضل ، وقال : كم أتى عليك من السنين ؟ قال : خمس وثلاثون . قال : صدقت ! هذا المقدار الذي أتيتُ عليه ، فما فعلتُ أمُّك ؟ قال : توفَّيت ، رحمها الله ! قال : فما منعك عن اللحاق بنا فيما مضى ؟ قال : لم أرضَ نفسي للقائك في حادثة تُقعدني عن لقاء الملوك ! قال : يا غلام ؛ أعطه لكل عامٍ من سِنِيهِ ألفاً ، وأعطه من كُسُونِنا ومراكبنا ما يَصْلُحُ له !

١٢٠ — بديهة قينة *

اعترض هارون الرشيد قينة ففنت :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْمَلُونَ إن غَضِبُوا
فلما ابتدأت به تَغَيَّرَ وجهُ الرشيد ، وعِلِمَتْ أنها قد غَلِطَتْ ، وأنها إن مَرَّتْ
فيه قَتِلَتْ ، ففنت :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْمَلُونَ إن غَضِبُوا
وأنهم معدِنُ النِّفاقِ فما تَفْسُدُ إلا عليهمُ العربُ ^(١)
فقال الرشيد ليحيى بن خالد - وكان حاضراً : أَسَمِعْتَ يا أبا علي ؟ فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ تُبْتَاعُ ، وتُسَنَّى ^(٢) لها الجائزة ، ويمَجَّلُ لها الإذنُ لِسَكْنِ قَلْبِهَا ؛
قال : ذلك جزاؤها ، قُومِي فَأَنْتِ مَنِي بِحَيْثُ تَحْبِبِينَ . فقال يحيى :
جُزِيتَ أميرَ المؤمنين بِأَمْنِهَا من الله جناتٍ تَفُوزُ بِعَدَنِهَا

* الأغانى : ٥ : ٨٥ .

(١) والشعر في الأصل :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْمَلُونَ إن غَضِبُوا
وأنهم سادة الملوك فما تَصْلَحُ إلا عليهمُ العربُ

(٢) تسنى الجائزة : تجزل حتى تكون سنية .

١٢١ — لا أذوق المدام إلا شميما*

حبس أبو نؤاس في شرب الخمر ، وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ويتفقدهم ، ودخل في حبس الزنادقة ؛ فرأى فيه أبا نؤاس - ولم يكن يعرفه - فقال له : يا شاب ؛ أنت مع الزنادقة ! قال : معاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ قال : أنا آكل الكبش بصوفه ! قال : فلعلك ممن يعبد الشمس ؛ قال : إني لأتجنب القعود فيها بُفْضاً لها ! قال : فبأي جُرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برى ! قال : ليس إلا هذا ! قال : والله لقد صدقتك .

فجاء إلى الفضل فقال له : يا هذا ؛ أيُّ حبس الناس بالتهمة ! قال : وما ذاك ؟ فأخبره بما ادّعى من جُرمه . فتبسم الفضل ، ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعاه ، وتقدّم إليه أن يحتنب الخمر والسكر . فقال : نعم ، قيل له : فبعمد الله ! قال : نعم ! فأخرج .

فبعث إليه فتيان من قریش ، فقال لهم : إني لا أشرب . قالوا : وإن لم تشرب فآنسنا بحدیثك . فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترنح لها ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أَيْهَا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ لَوْ مَا	لَا أَذُوقُ الْمَدَامَ إِلَّا شَمِيمًا
نَاَلَنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ	لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا
فَاصْرِفَاها إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي	لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
كَبُرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ	أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيمَا
فَكَأَنِّي وَمَا أَحْسَنُ مِنْهَا	قَعْدِي ^(١) يَزِينُ التَّحْكِيمَا
كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ	بِـ فَاَوْصَى الْمَطِيقَ إِلَّا يُقِيمَا

(١) القعدى من الحوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا ؛ غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

١٢٢ — إِنْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرٌ*

قال مسلم بن الوليد^(١) : كُنتُ جَالِسًا عِنْدَ خِيَاطٍ يَأْزِءُ مَنْزِلِي ؛ فَمَرَّ بِي إِنْسَانٌ أَغْرَفَهُ ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَاسْلَمْتُ عَلَيْهِ ، وَجِئْتُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِي لِأُضِيفَهُ^(٢) ، وَلَيْسَ مَعِيَ دَرَاهِمٌ ، بَلْ كَانَ عِنْدِي زَوْجٌ أَخْفَافٌ فَأَرْسَلْتُهُمَا مَعَ جَارِيَتَيْنِ لِبَعْضِ مَعَارِفِي ، فَبَاعَهُمَا بِتِسْعَةِ دَرَاهِمٍ ، وَاشْتَرَى بِهِمَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ .

فَجَلَسْنَا نَأْكُلُ ، وَإِذَا بِالْبَابِ يُطْرَقُ ، فَنَظَرْتُ مِنْ شَقِّ الْبَابِ ، وَإِذَا بِإِنْسَانٍ يُسَالُ : هَذَا مَنْزِلُ فُلَانٍ ؟ فَقَفَعْتُ الْبَابَ وَخَرَجْتُ ، فَقَالَ : أَنْتَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَأَخْرَجَ لِي كِتَابًا ، وَقَالَ : هَذَا مِنَ الْأَمِيرِ^(٣) ؛ فَإِذَا فِيهِ :

قَدْ بَعَثْنَاكَ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ لِتَكُونَ فِي مَنْزِلِكَ ، وَثَلَاثَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ تَتَجَمَّلُ بِهَا لِقُدُومِكَ عَلَيْنَا .

فَأَذْخَلْتُهُ إِلَى دَارِي وَزِدْتُ فِي الطَّعَامِ ، وَاشْتَرَيْتُ فَاكْهَةً ؛ وَجَلَسْنَا فَأَكَلْنَا ، ثُمَّ وَهَبْتُ لِضَيْفِي شَيْئًا يَشْتَرِي بِهِ هَدِيَّةً لِأَهْلِهِ .

وَتَوَجَّهْنَا إِلَى الْأَمِيرِ بِالرَّقَّةِ^(٤) ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْحَمَامِ ، فَلَمَّا خَرَجَ اسْتَوْذَنْ لِي عَلَيْهِ ، فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى كَرْمِي ، وَيَدُهُ مُسْطًى ، يُسَرِّحُ بِهِ لِحِيَّتَهُ ،

* المستطرف : ٢ - ٧٠

(١) أحد الشعراء المبدعين ، اتصل بالرشيد ، وعد من شعرائه ، ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه ثم قرّبه الفضل بن سهل ، ومات سنة ٢٠٨ هـ بمجران (٢) أضاف الرجل : أنزله ضيفاً (٣) هو يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد (٤) الرقة : بلد على الفرات واسطة ديار ربيعة وبلد آخر غربي بغداد .

فسلمت عليه فردّ أحسن ردّ ، وقال : ما الذى أقعدك عنا ؟ قلت : قلة ذات اليد ، وأنشدته قصيدة مدحته بها . قال : أتدرى لم أحضرتك ؟ قلت : لا أدرى ، كنت عند الرشيد منذ ليل أحادثه ، فقال لى : يا يزيد ؛ من القائل فيك :

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بنى مُضَرٍّ يَمْضى فيخترقُ الأجسامَ والهَامَا^(١)
كالدهرِ لا يَنْثنى عَمَّا يَهْمُ به قد أوسع الناس إنعاماً وإزغاماً

فقلت : والله لا أدرى يا أمير المؤمنين ! فقال : سبحان الله ! أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله ؟ فسألت ؛ فقل لى : هو مسلم بن الوليد !

فأرسلت إليك ، فانهض بنا إلى الرشيد . فسرنا إليه ، واستؤذن لنا ، فدخلنا عليه ، فقبلت الأرض بين يديه ، وسلمت فرد على السلام ، فأنشدته مالى فيه من شعر ، فأمر لى بمائتى ألف درهم ، وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم ، وقال : ما ينبغي أن أسأوى أمير المؤمنين فى العطاء .

(١) الهامة : الرأس ، والجمع هام .

١٢٣ - رَاوِيَة مسلم بن الوليد*

كان داودُ بن يزيد بن حاتم المهلبى ^(١) يجلسُ للشعراء في السنةِ نجلساً واحداً ، فيقصدهونه لذلك اليوم ويُنشدونه ، فوجه إليه مسلم رَاوِيَتَه بقصيدته التي أولها :
لا تدعُ بي الشوقَ إني غيرُ معمود نهى النّهي عن هوى الهيفِ الرّعايد ^(٢)
فقدِم عليه يومَ جلوسه للشعراء ولحقه عقب خروجه عنه ، فتقدم إلى الحاجب وحسّرَ لثامه عن وجهه ، ثم قال : استأذن لي على الأمير ؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد انصرمَ وقتُك وانصرف الشعراء وهو على القيام .

فقال له : ويحك ! إني قد وفدتُ على الأمير بشعرٍ ما قالت العربُ مثله ، وكان مع الحاجب أدبٌ يفهمُ به ما يسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمرُ كما ذكرتُ أو صلتُك إليه ؛ فأنشده بعضَ القصيدة ، فسمع شيئاً يقصرُ عنه الوصف ؛ فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعرٌ يشعرُ ما قالت العرب مثله ، فقال : أدخلْ قائله ! فلما مثل بين يديه سلم ، وقال : قدمتُ على الأمير - أعزّه الله - بمدحٍ يسمعه ، فيعلم تقدّمى على غيرى بمنّ امتدّحه ؛ فقال : هات !

فلما افتتح القصيدة وقال : « لا تدعُ بي الشوق .. » استوى جالساً ، وأطرق حتى

* عصر المأمون : ٢-٣٨١

(١) أمير من الشجعان القلاء ولاه الرشيد السند فانسقت له أمورهما واستمر إلى أن توفي فيها سنة ٢٠٥ هـ . (٢) أى لا تدعنى مشتاقاً ، وسأله دعبل عن معنى ذلك ، فقال : لا تدعنى صريع الفؤادى ، فليست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارهاً . والممود : المشغوف عشقاً . والهيف : الضامرات المحصور . وامرأة رعديدة : يترجى لها من نعمتها . وكذلك الرخصة الناعمة .

أنى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه ، فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم
أيها الأمير ! قال : فى كم قلته يافتى ؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله . قال : لو قلته
فى ثمانية أشهر لكنت محسناً ، وقد انتهتكَ ، لجودة شعرك وخمول ذِكْرِكَ ، فإن
كنتَ قائلَ هذا الشعر فقد أنظرْتُكَ أربعة أشهر فى مثله ، وأمرتُ بالإجراء عليك ،
فإن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا جَرَمْتُكَ .

فقال : أو الإقالة - أعزَّ الله الأمير . قال : قد أقلتكَ ، قال : الشعر لمسلم بن
الوليد وأنا راويته والوَأَفِدُ عليك بشعره . فقال : أنا ابنُ حاتم ! إنك لما افتتحت
شعره فقلت : « لا تدع بى الشوق إني غير مَعْمُود ^(١) » سمعتُ كلامَ مسلم ينادينى ،
فأجبت نداءه واستويتُ جالساً ، ثم قال : يا غلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ،
واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم .

(١) انظر القصيدة فى عصر المأمون : ٢ : ٢٨٢

١٢٤ — لَبَاقَةٌ*

قال محمد بن أيوب : كان بالبصرة رجلٌ من بني تميم ، وكان شاعراً ظريفاً ،
خبيثاً ماكرًا ، وكنتُ أنا وإلى البصرة ، آنَسَ به وأستَحْلِيهِ^(١) ، فأردت أن
أخذَعه ؛ فقلتُ له : أنت شاعر ظريف ، والمأمون أجودُ من السحابِ الحافلِ^(٢)
والريحِ العاصفِ ، فما يمنعُك منه ؟

قال : ما عندي ما يُقَلِّتِي^(٣) . قلت : فأنا أعطيك نجيباً^(٤) فارهاً ، ونفقةً
سابقةً ، وتخرجُ إليهِ وقد امتدحتَه ، فإنَّكَ إن حَظَّيْتَ بِلِقائِهِ صِرْتَ إلى
أُمْنِيَّتِكَ .

قال : والله أيتها الأمير ، ما إخالكَ أبعدتَ ، فأعِدَّ لي ما ذَكَرْتَ . فدعوتُ له
بِنَجِيبٍ فارِهِ ، وقلتُ له : شأنُكَ به فامْتِطِهْ ، قال : هذه إحدى الحسينين ، فما بال
الأخرى ؟ فدعوتُ له بثلاثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال . أَحْسَبُك أيتها الأمير
قَصَرْتَ في النفقة ، قلت : لا ، هي كافية إن قَصَرْتَ^(٥) عن السَّرَفِ ، قال : ومتى
رأيتَ في أكابرٍ سَعَدَ سَرَفًا حتَّى تراه في أصاغرِها !

فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عَمِلَ أرجوزةً ليست بالطويلة ، فأنشَدَ فيها وحذف
منها ذِكْرِي والثناء على ، وكان مَارِدًا^(٦) ، فقلتُ له : ما صنعتَ شيئاً ، قال .

* الطبري : ١٠ : ٢٩٧

(١) أَسْتَحْلِيهِ : أَسْتَخْفِهْ . (٢) السحاب الحافل : كثير الماء . (٣) أَقْلَهُ : حَمَلَهُ . (٤) النجيب
من الإبل : القوى الخفيف السريع ؛ فارهاً : نشيطاً حاداً قويا . (٥) قصر عن السرف : امتنع
عن الإسراف . (٦) المارد من الرجال : العاقب الشديد .

وكيف ؟ قلت : تأتي الخليفة ولا تُثني على أميرك ! قال : أيها الأمير ؛ أردت أن تجدني فوجدتني خداعاً ! أما والله ما ليكرامتي حملتني على نجييك ، ولا جدت لي بمالك الذي ما رآه أحد قط إلا جعل الله خده الأسفل ، ولكن لأذكرك في شعري ، وأمدحك عند الخليفة .

قلت : قد صدقت ؛ فقال : أما إذا أبديت ما في ضميرك ، فقد ذكرتك وأثبتت عليك ؛ قلت : فأنشدني ما قلت ، فأنشدني ، فقلت : أحسنت ، ثم ودعني وخرج .

وأتى الشام وإذا للمأمون بسلموس .

قال : فأخبرني ، قال : بينا أنا في غزاة قرّة ، قد ركبْتُ نجيبي ذاك ، ولبست مُقطّعاتي ^(١) ، وأنا أرموم العسكر ، إذا أنا بكهل على بغلٍ فارِه ، ما يقرُّ قراره ، ولا تدرك خطاه ؛ فتلقاني مكافحةً ^(٢) ومواجهة ، وأنا أردد نشيد أرجوزتي ، فقال : سلامٌ عليكم ، بكلام جهوري ولسان بسيط ؛ فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! قال : قف إن شئت ، فوقفت ، فتضوّعتُ منه رائحة العنبر وللسك الأذفر ، فقال : ما أولئك ! قلت : رجل من مُضر ، قال : ونحن من مُضر . قال : ثم ماذا ؟ قلت : رجل من بني تميم . قال : وما بعد تميم ؟ قلت : من بني سَمد ، قال : هيه ! فما أقدمك هذا البلد ؟ قال : قصدتُ هذا الملك الذي ما سمعتُ بمثله أندي رائحةً ، ولا أوسع راحةً ، ولا أطول باعاً ، ولا أمدّ يفاعاً ^(٣) !

(١) اللقطعات : الثياب (٢) الكافّة : مصادفة الوجه بالوجه مفاجأة
(٣) اليفاع في الأمل : المشرف من الأرض والجبل .

قال : فما الذى قصدته به ؟ قلت : شعرك طيب يلذ على الأفواه ، وتقتنيه الرواة ، ويحلوفى آذان المستمعين ؛ قال : فأنشدنيه ، ففضبت وقلت : يا ركيك^(١) ! أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعرك قلته ، ومديح خبرته ، تقول : أنشدنيه ! فتغافل والله عنها ، وتطامن لها .

قال : وما الذى تأمل منه ؟ قلت : إن كان على ما ذكر لى عنه فألف دينار ، قال : فأنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً والكلام عذباً ؛ وأضع عنك العناء ، وطول التردد ، ومتى تصل إلى الخليفة ، وبينك وبينه عشرة آلاف راح ونابل^(٢) !

قلت : فلى الله عليك أن تفعل ! قال : نعم ، لك الله على أن أفعل ؛ قلت : ومعك الساعة مال ؟ قال : هذا بنلى ، وهو خير من ألف دينار ، أنزل لك عن ظهره .

ففضبت أيضاً ، وعارضنى نزع سعد وخفة أحلامها ، فقلت : ما يساوى هذا البغل النجيب ! قال : فدع عنك البغل ، ولك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار ! فأشددته :

مأمون إذا اللن الشريف	وصاحب المرتبة الضعيف ^(٣)
وقائد الكتيبة ^(٤) الكتيبة	هل لك فى أرجوزة ظريفه ؟
أظرف من فقه أبى حنيفة	لا والذى أنت له خليفة
ما ظلمت فى أرضنا ضعيفه	أميرنا مؤنته خفيفه

(١) الركيك من الرجال : الضعيف فى عقله ورأيه (٢) الراح : ذو الراح ، والنابل : صاحب النبل ، وهى السهام (٣) المنيفة : المالفة المرتفعة (٤) الكتبة : الجيش .

وما جتبي شيئاً سوى الوظيفة فالذئبُ والنعجةُ في سقيفه
* واللصُّ والتاجرُ في قطيفة ^(١) *

فوالله ما عدا أن أنشدته، فإذا زهاه ^(٢) عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق،
يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! فأخذني أفكلاً ^(٣) ،
ونظر إلى تلك الحالة ، فقال : لا بأس عليك أي أخى ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ؛
جعلني الله فداك ! أتعرف لغات العرب ؟ قال : إى لعمر الله ! قلت ، فمن جعل
الكاف منه مكان القاف ^(٤) ؟ قال : هذه حمير ؛ فقلت : لعننا الله ولعن من
استعمل هذه اللّغة بعد اليوم !

فضحك المأمون وعلم ما أردت ، والتفت إلى خادمٍ إلى جانبه ، فقال : أعطه
ما معك ، فأخرج إلى كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هاك ، ثم قال :
السلام عليك ومضى ، فكان آخر العهد به !

(١) أصل القطيفة : دثار مخمل (٢) زهاه : قدر (٣) أفكل كاحد : رعدة وقشعريرة
(٤) يشبر إلى قوله له أولاً : ياركيك .

١٢٥ — لولا حمقه وحق صاحبه لمت جوعاً*

قال المأمون يوماً لأحمد بن أبي خالد^(١) : اغدُ عليّ بأكرأ لأخذ القضيض التي عندك ، فإنها قد كثرت لنقطع في أمور أصحابها ، فقد طال انتظارهم إياها .
فبكر ، وقعد له المأمون ، فجعل يمرضها عليه ويوقع عليها ، إلى أن مرَّ بقصة رجل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدي ؛ فصَحَفَ^(٢) وكان جائعاً فقال : الثريد ؛ فضحك المأمون ، وقال يا غلام ، ثريدة ضخمة لأبي العباس ، فإنه أصبح جائعاً ؛ فضجل أحمد ، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ، ولكنَّ صاحبَ هذه القصة أحقُّ ، وضع فوق نسبته ثلاث نقط ، قال : دَعُ هذا عنك ، فالجوعُ أضرُّ بك حتى ذكرت الثريد ؛ فجاءوه بصَحْفَةٍ عظيمة ، كثيرة العُراق والودك^(٣) ؛ فاحتشم أحمد ، فقال المأمون : بحياتي عليك ، لما عدلتَ نحوها . فوضع القصص ومال إلى الثريد ، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر إليه ، فلما فرغ دعا بطستٍ فغسل يده ، ورجع إلى القصص ، فترت به قصة فلان الحمصي فقال : فلان الخبيص ، فضحك المأمون وقال : يا غلام ، جاماً^(٤) فيه خبيص ، فإن غداء أبي العباس كان مبتوراً^(٥)

* عصر المأمون : ١ - ٣٠٦

(١) أحمد بن أبي خالد وزير المأمون بعد الفضل بن سهل وكان شرها (٢) المصحف : الذي يروى الخطأ عن قراءة الصحف بأشياء الحروف - مولدة (٣) الودك : الدسم ، والعراق جمع هرق : وهو القطعة من اللحم (٤) الجسام : إناء من فضة . الخبيص : المعمول من التمر والسمن (٥) بتره : قطعه قبل الإتمام .

فنجبل أحمد وقال : يا أمير المؤمنين ؛ صاحبُ هذه القصة أحق ، فتح الميم فصارت كأنها ستتان ، قال : دَعْ عَنْكَ هذا ، فلولا حَقُّه وحقُّ صاحبه لَمَتَّ جوعاً ، فجاءوه بحام خَبِيص ، فنجل ، فقال له المأمون : بحياتي عليك إلامت إليها ! فانحرف فانثنى عليه ، وغسل يده ، ثم عاد إلى القصص ، فأسقط حرفاً حتى أتى على آخرها .

١٢٦ — إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ

نصيبٌ ولا حظٌ تمنى زوالها*

أشرف المأمون يوماً على قصره فرأى رجلاً يكتب بفحمةٍ على حائط قصره . فقال المأمون لبعض خدَمِهِ : اذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر ما كتب وأنتني به . فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً ، وقبض عليه ، وقال له : ما كتبت ؟ فإذا هو قد كتب هذا البيت :

يا قصرُ جُمِعَ فيكَ الشُّومُ واللُّومُ متى يُعَشَّشُ في أركانك البُومُ !

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين . فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بي إليه ، فقال الخادم : لا بد من ذلك ، ثم ذهب به .

فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين ، وأُعْلِمَ بما كتب ، قال له المأمون : ويحك ! ما حملك على هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لا يخفى عليك ما حوَّاه قصرُك هذا ؛

من خزائن الأموال والخليّ والحلّل ، والطعام والشراب والقرش والأواني ، والأمتعة
والجوارى ، والخدم وغير ذلك ، مما يقصُرُ عنه وصفي ، ويعجزُ عنه فهمي . وإني
قد مررتُ عليه الآن وأنا في غاية من الجوع والفاقة ؛ فوقفتُ مُفكراً في أمري ،
وقلتُ في نفسي : هذا القصر عامر عال ، وأنا جائع ، ولا فائدة لي فيه فلو كان خراباً
ومررت به لم أعدم رُخامةً أو خشبةً أو مساراً أبيعُه وأتقوّتُ بشمنه ؛ أو ما علِمَ أميرُ
المؤمنين رعاه الله قولَ الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولةٍ امرئٌ نصيبٌ ولا حظٌ تمنّى زوالها
وما ذاك من بُغضٍ لها غيرَ أنه يُرجى سواها ، فهو يهوى انتقالها
فقال المأمون : يا غلام ؛ أعطه ألفَ درهم . ثم قال : هي لك في كل سنة ،
مادام قصرُنا عامراً بأهله مسروراً بدولته .

١٢٧ — خُلِقَ دِغْبِلُ *

قال محمد بن موسى الضَّبِّي ، وكان نديماً لعبد الله بن طاهر : بينا نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة ، يُذاكرنا بالأدب وأهله ، وشعراء الجاهلية ، إذ بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذِكْرِ دِغْبِلِ^(١) فقال : وَيَحْكُ يَا ضَبِّي ! إني أريد أن أحدثك بشيء على أن تسترّه طولَ حياتي ؛ فقلت له : أصلحك الله ، أنا عندك في موضع ظَنَّة ؟ قال : لا ، ولكن أظنُّ نفسي أن توثق لي بالآيمان ؛ لأركن إليها ، ويسكن قلبي عندها ، فأحدثك حينئذ .

قلت : إن كنتُ عند الأمير في هذه الحال فلا حاجةَ به إلى إفشاء سره إلى ، واستعفيته سراً فلم يعفني ؛ فاستحييتُ من مراجعته ، وقلت : فليَرَ الأميرُ رأيَه ؛ فقال لي : يا ضَبِّي ؛ قل : والله ، قلت : والله ، فأمرها على غموساً^(٢) مؤكدة بالبيعة والطلاق وكلُّ ما يَحْلِفُ به مسلم .

ثم قال : أشعرت أن دِغْبِلًا مَدْخُولُ النَّسَبِ ؟ وأمسك ، فقلت : أعزَّ الله الأمير ، أفي هذا أخذتَ العهد والمواثيق ومغلَّظَ الآيمان ! قال : إى والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأنني رجلٌ لي في نفسي حاجة ، ودِغْبِلُ رجلٌ قد حَمَلَ نفسه على المهالك ، وحلَّ جذعَهُ على عنقه ، فليس يجد مَنْ يَصْلُبُهُ عليه ، وأخاف إن بلغه أن يقول

* الأغاني : ١٧ - ٥٦ .

(١) هو دِغْبِلُ بن علي بن رزين ؛ شاعر مطبوع هجاء ، لم يسلم من لسان أحد من طاعره من الخلفاء والوزراء والولاة ، ولا ذى نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن ، توفي سنة ٢٤٦ هـ .
(٢) الميمن الغموس : التي تنمس صاحبها في الإثم .

فَ مَا يَبْقَى عَلَى عَارِهِ عَلَى الدَّهْرِ ، وَقَصَّارَايَ إِن ظَفَرْتُ بِهِ ، وَأَسْلَمْتَهُ الْيَمِينَ - وَمَا
أَرَاهَا تَفْعَلُ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمَ شَاعِرُهَا ، وَالذَّابُّ عَنْهَا ، وَالْحَامِي لَهَا دُونَهَا - أَن أَضْرِبَهُ
مِائَةَ سَوْطٍ ، وَأَثْقَلَهُ حَدِيدًا ؛ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ عِوَضٌ عَلَى مَا سَارَ فِي مِنَ الْهَجَاءِ وَفِي
عَقَبِي مِنْ بَعْدِي .

قُلْتُ : مَا أَرَاهُ يَفْعَلُ وَيُقَدِّمُ عَلَيْكَ ، فَقَالَ لِي : يَا عَاجِزُ ؛ أَتَرَاهُ أَقْدَمَ عَلَى
الرَّشِيدِ وَالْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ وَعَلَى أَبِي وَلَا يُقَدِّمُ عَلَى - أَقُلْتُ : فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
قَدْ وَفَّقَ الْأَمِيرُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَى .

وَكَانَ دَعْبِلُ صَدِيقًا لِي ، قُلْتُ : هَذَا شَيْءٌ قَدْ عَرَفْتَهُ ، فَمَنْ أَيْنَ قَالَ الْأَمِيرُ
إِنَّهُ مَدْخُولُ النَّسَبِ ، وَهُوَ فِي الْبَيْتِ الرَّفِيعِ مِنْ خُرَازْمِ ؟ فَقَالَ : أَسْمَعُ ، إِنَّهُ كَانَ أَيَّامَ
تَرْغَرِخَ خَامِلًا لَا يُؤْتِيهِ لَهُ ، وَكَانَ يَنَامُ هُوَ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي إِزَارٍ وَاحِدٍ لَا يَمْلِكُكَانَ
غَيْرُهُ ، وَمُسْلِمُ أَسْتَاذُهُ ، وَهُوَ غُلَامُهُ يَخْدُمُهُ ، وَدَعْبِلُ حِينَئِذٍ لَا يَقُولُ شَيْئًا يَفْكُرُ فِيهِ ،
حَتَّى قَالَ :

لَا تَعْجِبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبَ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
وَعَفَى فِيهِ بَعْضُ الْمُنْفِينَ وَشَاعَ ، فَغَفَى بِهِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ، فَطَرَبَ ، وَسَأَلَ
عَنْ قَائِلِ الشَّعْرِ ، فَقِيلَ لَهُ : دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَهُوَ غُلَامٌ نَشَأَ مِنْ خُرَازْمِ ، فَأَمَرَ
بِإِحْضَارِ عَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَخِلْعَةٍ مِنْ ثِيَابِهِ ، فَأَحْضَرَ ذَلِكَ ، فَدَفَعَهُ مَعَ خَادِمٍ مِنْ
خَاصَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى خُرَازْمِ ، فَاسْأَلْ عَنْ دَعْبِلِ بْنِ عَلِيٍّ ، فَإِذَا
دُلَّتْ عَلَيْهِ فَأَعْطِهِ هَذَا ، وَقُلْ لَهُ : لِيَحْضُرَ إِنْ شَاءَ ، وَإِنْ لَمْ يُحِبَّ ذَلِكَ فَدَعِهِ ،
وَأَمَرَ لِلْمَغْنَى بِجَائِزَةٍ .

فسار الغلام إلى دِغْبِل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه . فلما دخل عليه وسلم أمره بالجلوس لجلس ، واستنشد الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقاً سنياً ، فكان أولَ مَنْ حرَّضَهُ على قول الشعر ؛ فوالله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على ما فعله من العطاء السنِّي ، والغنى بعد الفقر ، والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة ، وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجاً الرشيد :

وليس حتى من الأحياء نعلمه	من ذى يمان ومن بكرٍ ومن مُضَرٍ
إلا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك أيسارٌ على جزر ^(١)
قتل وأسرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ	فعل الغزاة بأرض الروم والخرز ^(٢)
أرى أميةً معذورين إن قتلوا	ولا أرى لبنى العباس من عُذرٍ
أربع بطوسٍ على قبر الزككى إذا	ما كنت ترابعٌ من دين على وطر ^(٣)
قبران في طوس : خيرُ الناس كلَّهم	وقبرُ شرِّهم ؛ هذا من الدبر !
ما ينفعُ الرِّجسَ من قرب الزكى ولا	على الزكى بقرب الرِّجس من صرر
هيهات كل امرئٍ رهن بما كسبت	له يداه فخذ ما شئت أو فذر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإنَّ المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس إليه قوله :

(١) أيسار : جمع ياسر ، وهو الذى يلى قسمة الجزور ، والجزر : نوق تذبح وتقسم أقساماً للقائمة (٢) الخزر : جبل من الترك ، بلادهم شمال فارس . (٣) طوس : مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد ، دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا . واربع : أقم . والوطر : الحاجة .

أَنْنى يَكُونُ وَليس ذاك بِكائِنٍ يَرِثُ الْخِلاَفَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقٍ
إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ ^(١) مُضْطَلَعًا بِهَا فَلتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخَارِقِ ^(٢)

فلما قرأها للمأمون ضحك وقال : قد صفحتُ عن كل ما هجانا به ؛ إذ قرن
إبراهيم بمخارق في الخلافة ، وولاه عهده وكتب إلى أبي أن يكتبه بالأمان ،
ويحمل إليه مالا ، وإبى شاء أن يقيمَ عنده أو يصيرَ إلى حيث شاء فليفعل .
فكتب إليه أبي بذلك ، وكان واثقا به ، فصار إليه ، فحمله وخلع عليه ، وأجازه
وأعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه ،
ثم قال : أنشدنى ^(٣) :

مدارسُ آياتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرِ الْعَرَصَاتِ ^(٤)
فَجَزِعَ ، فقال له : لك الأمان فلا تخف ، وقد رويتها ولكنى أحب سماعها
مِنْ فَيْكِ ، فأنشده :

مدارسُ آياتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرِ الْعَرَصَاتِ
لَالِ رَسُولِ اللَّهِ بِالْخَلِيفِ مِنْ مَنَى وَبِالرَّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَرَاتِ ^(٥)
دِيَارُ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ وَحُمْرَةَ وَالسَّجَّادِ ذِي الثَّنَائَاتِ ^(٦)
دِيَارُ عَفَاها ^(٧) كُلُّ جَوْنٍ مُبَادِرِ ^(٨) وَلَمْ تَعْفُ لِلْأَيَّامِ وَالسَّنَوَاتِ

(١) يريد إبراهيم بن المهدي ، وهو عم المأمون ، وقد اشتهر بالفناء وأتقى من قدره .
(٢) مخارق : مغل ، من معروف (٣) من القصائد المشهورة في مدح آل البيت (٤) المقفر :
الخالي من الناس ، والعرصات : ساحات الدار (٥) أسماء مواضع بمكة (٦) الثفنة : الركبة
وجتمع الساق والفخذ ، والسجاد ذو الثفات : علي بن الحسين لأن طول السجود أثر في ثفاته
(٧) عفاها : محامها (٨) الجون المبادر : السحاب الماطر .

قفا نسأل الدار التي خَفَّ أهلها متى عَهْدُها بالصوم والصلوات !
 وابن الأُلى شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النوى أَفَانِينَ ^(١) في الآفاقِ مُفْتَرَقَاتِ
 وما الناسُ إِلَّا حاسِدٌ ومكذَّبٌ ومُضْطَغِنٌ ^(٢) ذُو إْحْنَةٍ وَتِرَاتِ
 ومضى فيها حتى أتى على آخرها .

والمأمون يبكي حتى اخضَلَّتْ لحيته بدمعه . فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له
 آياتٌ يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به ، حتى كان أول داخل وآخر
 خارج من عنده ^(٣) .

(١) الأفانين : الأنواع أو الأحوال (٢) مضطغن : حاد ، والإحنة : العداوة والحقد ،
 والترات : جمع ترة : الثأر (٣) كان مما قاله في المأمون :

أبسمنى المأمون خُطَّةَ جاهل أوما رأى بالأمس رأس محمد
 لاني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
 شادوا بذكرك بمد طول خوله واستفذك من الحضيض الأوهـد

وكان المأمون إذا أنشد هذه الآيات يقول :

فبح الله دعبلأ ، فما أوقعه كيف يقول عنى هذا ، وقد ولدت في حجر الخلافة ، ورضعت
 ثديها ، وربيت في مهدها .

١٢٨ -- دِيكُ دِعْبِلْ *

قال أحمد بن خالد : كنا يوماً بدار صالح بن علي ببغداد ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على سطح البيت ديك طار من بيت دِعْبِلْ ، فلما رأيناه قلنا : هذا صيدنا ، فأخذناه .

فقال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحه ، فذبحناه وشوينا . وخرج دِعْبِلْ فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح ، فطلبه منا فوجدناه ؛ وشربنا يومنا ، فلما كان من الغد خرج دِعْبِلْ ، فصلى الغداة ، ثم جلس في المسجد ، وكان ذلك المسجد يجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ، وينتابهم الناس . وقال :

أَسْرَ الْمُؤَذِّنَ صَالِحٌ وَضِيْفُهُ أَسْرَ الْكَمِيِّ هَفَا خِلَالَ الْمَاقِطِ ^(١)

بَعَثُوا إِلَيْهِ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ مِنْ بَيْنِ نَاتِفَةٍ وَآخِرِ سَامِطٍ ^(٢)

يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْثَقُوا خَاقَانَ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطٍ ^(٣)

نَهَشُوهُ فَأَنْزَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ وَتَهَشَّمَتْ أَقْفَاؤُهُمْ بِالْحَانِطِ

فكتبها الناس عنه ومضوا ، فقال لي أبي - وقد رجع إلى البيت - ويحكم ! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديك دِعْبِلْ ، ثم أنشد الشعر وقال : لا تدع ديكاً ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته ، وبعثت به إليه وإلا وقعنا في لسانه ، ففعلت ذلك !

* مذهب الأغاني ٢ : ٢٥٥

(١) المآط : موضع القتال ، والكمي : الشجاع

(٢) سمطه : قناه مما عليه من الريش .

(٣) ناعط : قبيلة من همدان .

١٢٩ — بين البادية والحضر *

قدم على بن الجهم ^(١) على المتوكل - وكان بدويًا جافيًا - فأنشده قصيدة قال فيها :

أنت كالكلب في حِفَاظِكَ لِلْوُدِّ وكالتيس في قِرَاعِ الخُطُوبِ
أنت كالذَّلْوِ لَا عَدِمْنَاكَ دَلْوًا من كبار الدَّلَا كثير الذَّنُوبِ ^(٢)

فعرف المتوكل قوته ، ورقة مقصده ، وخشونة لفظه ، وأنه ما رأى سوى ماشبه به لعدم المخالطة وملازمة البادية ، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة ، فيها بستان حسن ، يتخلله نسيم لطيف يفسد الأرواح ، والجسر قريب منه ، فيخرج إلى محلات بغداد ، فيرى حركة الناس ومظاهر مدينتهم ويرجع إلى بيته .

فأقام ستة أشهر على ذلك ، والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضراته ، ثم استدعاه الخليفة بعد مدة لينشده ؛ فحضر وأنشد :

عيون المها بين الرصافة ^(٣) والجسر جكبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
فقال المتوكل : لقد خشيتُ عليه أن يذوب رقة ولطافة .

* محاضرات الأبرار : ٢ - ٣

(١) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع ، خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ، ثم أبغضه به ذلك ونفاه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة ، وذلك لكثرة سعايته بندماته ، مات سنة ٢٤٩ هـ .
(٢) يطلق الذنوب على ما في الدلو من الماء (٣) الرصافة : محلة ببغداد .

١٣٠ — الجاحظ في مرضه *

قال بعض البرامكة : كنت أتقلد السند ؛ فاتصل بي أن صُرِفْتُ عنها وكنت
كسبتُ ثلاثين ألف دينار ؛ فحِثْتُ أن يَفْجَأَ بي الصارف ، ويُسْعَى إليه بالمال ؛
فصُعْتُه عشرة آلاف إهليلجَةٍ ^(١) ، في كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل ، وجملتها في
رَحْلي ، ولم أبعد أن جاء الصارف ؛ فركبتُ البحر ، وانحدرت إلى البصرة ،
فخَبَرْتُ أن بها الجاحظ ^(٢) وأنه عليل .

فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه ، فأفضيت إلى باب دار لطيف
فقرعته ؛ فخرجت إليَّ خادم صفراء ؛ فقالت : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب ،
يحبُّ أن يدخلَ إلى الشيخ ، فيسرَّ بالنظر إليه !

فأدت ما قلت - وكانت المسافة قريبةً لصغر الدهليز والحجرة - فسمعتة يقول :
قولي له : وما تصنع بشقي مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ^(٣) ! فأخبرتني ،
قلت : لا بدَّ من الوصول إليه . فقال : هذا رجل قد اجتازَ البصرة ؛ فسمع بي
وبعلتي ؛ فقال : أراه قبل موته ؟ ليقول قد رأيت الجاحظ !

ثم دخلت فسلمت ؛ فردَّ ردًّا جميلاً ، واستدنانى ، وقال : من تكون أعزَّك
الله ! فانتسبت له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد الكرام الأتجاد

* زهر الآداب : ٢ - ١٨٦ ، ذيل زهر الآداب : ١٦٥

(١) الإهليلج : ثمر ، والواحدة بهاء ، ويظهر أنه صاغها على شكل هذا الثمر (٢) هو عمرو بن
بحر ، والجاحظ لقبه ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، ألف كثيراً ، وعاش
طويلاً ، وتوفي سنة ٢٥٥ هـ (٣) حال لونه : تغير .

فقد كانت أيامهم رَوْضَ الأزمنة ، ولقد انجَبَرَ بهم قوم كثير ، فسَقِيَا لهم ورَعِيَا^(١) ! فدعوت له ، وقلت : أنا أسأل الشيخ أن ينشدني شيئاً من الشعر ؛ أذكره به ، فأنشدني :

لئن قُدِّمَتْ قَبْلِي رِجَالٌ فَطَالَمَا مَشَيْتَ عَلَى رِسْلِي فَكُنْتَ الْمَقْدَمَا^(٢)
وَلَكِنْ هَذَا الدَّهْرُ تَأْتِي صُرُوفُهُ فَتَبْرِمُ مَنْقُوضًا وَتَنْقُضُ مُبْرَمًا
نَمْ نَهَضْتُ ، فَلَمَّا قَارَبْتُ الدَّهْلِيْزَ صَاحِبِي فَقَالَ : يَا فَتَى ؛ أَرَأَيْتَ مَفْلُوجًا يَنْفَعُهُ
الْإِهْلِيلِجُ ؟ فَقُلْتُ : لَا ! قَالَ : فَأَنَا يَنْفَعُنِي الْإِهْلِيلِجُ الَّذِي مَعَكَ ! فَأَهْدِ لَنَا مِنْهُ ،
فَقُلْتُ : السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ .

وخرجت مُفْرِطَ التَّعَجُّبِ مِنْ وَقُوعِهِ عَلَى خَبْرِي ، حَتَّى كَانَ يَعْضُ أَحْبَابِي كَاتِبَهُ
بِخَبْرِي حِينَ صَفَّتَهُ ، وَأَنْفَذْتُ إِلَيْهِ مَائَةَ إِهْلِيلَاجَةٍ .

(١) سقيا لهم ورعيا : دعاء لهم بالخير (٢) رسلي : هبلي .

١٣١ — ظبي مذبوح ، ورجل ميت جريح ، وقتاة ميتة *

قال موسى بن هارون : كنت عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد جاءه الزبير بن بكار^(١) فأعلمه أن المعتز بعث إلى أخيه محمد بن عبد الله بن طاهر يأمر بإحضاره وتقليده القضاء . فقال له الزبير بن بكار : قد بلغت هذه السن وأتولى القضاء ! أو بعد ما رويت أن من ولي القضاء فقد ذبح بنيرسكين ! فقال له : فتلحق بأمر المؤمنين بسر من رأى ، فقال له : أفعل .

فأمر له بمل ينفعه ، وبظهر يحمله ويحمل ثقله . ثم قال له : إن رأيت يا أبا عبد الله أن تفيدنا شيئاً قبل أن تفرق ؟ قال : نعم ! انصرفت من عمرة المحرم ، فبينما أنا بأثاية العرج ، إذا أنا بجاعة مجتمعة ، فأقبلت إليهم وإذا رجل كان يقنص الطباء ، وقد وقع ظبي في حبالته فذبحه ، فاستفض في يده فضرب بقرنيه صدره ، فنسب القرن فيه فمات . وأقبلت فتاة كالمهاة ، فلما رأت زوجها ميتاً شهقت ثم قالت :

يا حُسنُ لو بطل لكنه أجلُ على الأثاية ما أودى به البطلُ
يا حُسنُ جمع أحشائي وأقلعها وذاك يا حُسنُ لولا غيره جَلَلُ

* الأغانى ٩ - ٤٢ ، معجم الأدباء : ١١ - ١٦٢

(١) الزبير بن بكار ، كان علامة نسابة إخبارياً ، ثقة ، توفي سنة ٢٥٦ هـ

(٢) جمع أحشائي : جعلها منضمة إلى بعضها ، وجلل : سير ، إذ المراد أن الأمر القى كان يسير لولا غيره مما هو مترتب عليه من العظام .

أضحت فتاة بني نهد علانية^(١) وبعلمها بين أيدي القوم محتمل
ثم شهقت فانت ، فما رأيتُ أعجبَ من الثلاثة : الطي مذبوح ، والرجل
جريح ميت والفتاة ميتة .

فأمر له عبيد الله بـمال آخر . ثم أقبل إلى أخيه محمد بن عبد الله بعد خروج
الزبير ، فقال : إن الذي أخذناه من الفائدة في خبره أكثرُ عندي مما أعطينا من
الحب^(٢) والصلة .

(١) علانية : ظاهرة (٢) الحب : العطاء .

١٣٢ — جوائزه الصَّلَاة *

كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر فلم يرضَ شعره قال لقلامه : امض به إلى المسجد الجامع ، فلا تفارقه حتى يصليَ مائة ركعة ! ثم خَلَّه .
فتحمامه الشعراء إلا الأفراد الجيدين ، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري ، فاستأذنه في النشيد ، فقال : قد عرفتَ الشرط ؟ قال : نعم ! وأنشده :

أردنا في أبي حسنٍ مديحاً كما بالمدح يُنتَجَعُ الولايةُ
فقلنا : أكرمُ الثقلين طُرّاً ومن كَفَاهُ دجلةُ والفراتُ^(٢)
فقللوا : يَقْبَلُ المدحُ لَكن جوائزه عليهم الصَّلَاةُ
فقلتُ لهم : وما تُغْنِي صلاتي عِيَالِي ، إنما الشأنُ الزكاةُ
فيأمر لي بكسر الصاد منها فتصبح لي الصَّلَاة هي الصَّلَاتُ
فضحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذتَ هذا ؟ قال . من قول أبي تمام الطائي :

هذا الحمام فإن كسرت عِيافَةً^(٣) من حائِنٍ فَإِنَّهُنَّ حِمَامٌ^(٤)
فأحسن صلاته .

* زهر الآداب : ٢ - ١٨١

(١) اتجم فلاناً : أتاه يطلب معروفه (٢) الثقلين : الإنس والجن (٣) عفت الطير عيافة : زجرتها ، وهو أن تعبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتتسعد أو تنشام . (٤) الحمام : الموت.

١٣٣ — مامعى إلا قفأى*

كان رجل ببغداد يعرف بابن المغازلى يتكلم على الطريق ، ويقصُّ على الناس أخباراً ونوادِر ومضحك ، وكان فى نهاية الحدِّق لا يستطيع من يراه ويسمع كلامه إلاَّ يضحك .

قال : وقت يوماً فى خلافة المعتضد^(١) على باب الخاصة ، فحضر حلقتى بعضُ خدام المعتضد ، فأخذت فى حكاية الخدم ، فأعجب خادم بحكايتى وشُفِّف بنوادرى ثم انصرف عني .

فلم يلبث أن عاد إلىَّ وأخذَ ييدى ، وقال : إني لما انصرفت عن حلقتك دخلت : فوقفتُ بين يدي المعتضد أمير المؤمنين ، فذكرت حكايتك ، وما جرى من نوادرِكَ فاستضحكت ، فرآنى أمير المؤمنين ، فأنكر ذلك منى ، وقال : ويلك ، مالك ! فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ على الباب رجل يعرف بابن المغازلى يضحك ويحاكى ، ولا يدع حكاية أعرابى وتركى ومكئى ونحوى وزنجى وخادم إلاَّ حكاها ، ويخلط ذلك بنوادر تضحك الثَّاكل وتُصبى الحليم ، وقد أمرنى بإحضارك ، ولى نصف جائزتك . فقلت له ، وقد طمعت فى الجائزة السنوية : يا سيدى ؛ أنا ضعيف وفقير ، وقد منَّ الله علىَّ بك ، فما عليك إن أخذت بعضها ؛

* السمردى : ٢ - ٢٤٤

(١) بوبع بالخلافة بُشْد وفاة عمه المعتضد سنة ٢٧٩ هـ ، وظهر بظهر الخلفاء العاملين ، وكان عارفاً بالأدب موصوفاً بالحلم ، توفى سنة ٢٨٩ هـ .

سُدَّ سَهَا أَوْ رُبَعَهَا ، فَأَبَى إِلَّا نَصْفَهَا ، فَطَمَعْتُ فِي النِّصْفِ ، وَقَنَعْتُ بِهِ .

فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ وَأَحْسَنْتُ ، وَوَقَفْتُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْقَفْتُ فِيهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ فِي كِتَابٍ ، فَلَمَّا نَظَرَ فِي أَكْثَرِهِ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ ، وَقَالَ : أَنْتَ ابْنُ الْمَازَلِيِّ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَحْكِي وَتُضْحِكُ ، تَأْتِي بِحِكَايَاتٍ عَجِيبَةٍ وَنَوَادِرَ ظَرِيفَةٍ ، قُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الْحَاجَةُ تَفْتَقُ الْحِيلَةَ ؛ أَجْمَعُ بِهَا النَّاسَ ، وَأَتَقَرَّبُ إِلَى قُلُوبِهِمْ بِحِكَايَتِهَا أَلْتَمِسُ بِرَّهْمٍ ، وَأَعِيشُ بِمَا أَنَالُهُ مِنْهُمْ ، قَالَ : فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ ، وَخُذْ فِي فَنَّاكَ ، فَإِنْ أَضْحَكْتَنِي أَجْرَتُكَ بِخِصْمَانَةِ دَرَاهِمٍ ، وَإِنْ لَمْ أَضْحَكْ فَمَا لِي عَلَيْكَ ؟ قُلْتُ : مَا مَعِيَ إِلَّا قَفَايَ ، فَاصْفَعْهُ مَا أَحْبَبْتَ ، وَكَمْ سَنَتْ وَبِمَا سَنَتْ ! فَقَالَ لِي : قَدْ أَنْصَفْتَ ؛ إِنْ ضَحِكْتُ فَلَكَ مَا ضَمَنْتَ ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَضْحَكْ صَفَعْتُكَ بِهَذَا الْجِرَابِ عَشْرَ صَفَعَاتٍ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَلِكٌ لَا يَصْفَعُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ خَفِيفٍ هَيْنَ ؛ ثُمَّ التَفْتُ ، وَإِذَا أَنَا بِجِرَابٍ أَدَمَ نَاعِمٍ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا أَخْطَأَ حَزْرِي ^(١) وَلَا أَخْلَفَ ظَنِّي ، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جِرَابٍ فِيهِ رِيحٌ ! إِنْ أَضْحَكْتُهُ رَجَحْتُ ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَضْحَكْهُ فَأَمَرْتُ عَشْرَ صَفَعَاتٍ بِجِرَابٍ مَنفُوخٍ هَيْنَ .

ثُمَّ أَخَذْتُ فِي النُّوَادِرِ وَالْحِكَايَاتِ ، فَلَمْ أَدَعُ حِكَايَةَ أَعْرَابِيٍّ وَلَا نَحْوِيٍّ وَلَا قَاضٍ ، وَلَا عِبَارَةَ وَلَا نَادِرَةَ ، وَلَا حِكَايَةَ ، إِلَّا أَحْضَرْتُهَا ، وَأَتَيْتُ بِهَا حَتَّى نَفِدَ جَمِيعُ مَا عِنْدِي ، وَتَصَدَّعَ رَأْسِي ، وَلَمْ يَبْقَ وَرَائِي خَادِمٌ إِلَّا هَرَبَ ، وَلَا غَلَامٌ إِلَّا ذَهَبَ لَمَّا اسْتَفْزَعَهُمُ الضَّحْكُ .

(١) الحزير : التقدير والظن .

قلت : قد نفذ - والله يا أمير المؤمنين - مامى ، وتصدّع رأسى ، وذهب معاشى ، وما رأيت قط مثلك ، وما بقيت لى إلا نادرة واحدة ، فقال : هاتها اقلقت : يا أمير المؤمنين ؛ وعدتني أن تصفنى عشراً ، وجعلتها مكان الجائزة ؛ فأسألك أن تضعف الجائزة ، وتضيف إليها عشراً ؛ فأراد أن يضحك ، فاستمسك ، ثم قال : نفعل . يا غلام ؛ خذ يده ، فأخذ ييدى ، ومددت قفاى ؛ فصفت بالجراب صفة ، فكأنما سقط على قفاى قلعة ، وإذا فيه حصى مدور ، كأنه صنجات ، فصفت به عشراً ، كادت أن تنفصل رقبتى ، وينكسر عنقى ، وطنت أذناى ، وقدح الشعاع من عيني .

فلما استوفيت العشرة صحت : ياسيدى ؛ نصيحة ، فرغ الصفع عني ، فقال : مانصحتك ؟ قلت : ياسيدى ؛ إنه ليس فى الدنيا أحسن من الأمانة ، ولا أقبح من الخيانة ، وقد ضمنت للخادم الذى أدخلنى عليك نصف هذه الجائزة على قلتها أو كثرتها . وأمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - بفضل وكرمه قد أضعفها ؛ وقد استوفيت نصفها ، وبقى لخادمك نصفها .

فضحك حتى استلقى ، واستفرّجه ما كان قد سمعه منى أولاً ، وتحامل له ، وصبر عليه ؛ فإزال يضرب برجليه ، ويمسك بمراق^(١) بطنه ، حتى إذا سكن ضحكّه ، ورجعت إليه نفسه قال : على بفلان الخادم ، فأتى به - وكان طوّالاً - فأمر بصفعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أى شيء قضيتى ؟ وأى جناية جنائيتى ؟ قلت له : هذه جائزتي ، وأنت شريكى ، وقد استوفيت نصفها ، وبقى نصيبك منها ، فلما أخذه

(١) المراق : ما رق من أسفل البطن ولان ، ولا واحد لها ، أو جم مرق .

الصَّفْع ، وطرق قَفَاه الصافع أقبلت عليه أقول له : أقول لك : إني ضعيف فقير ،
وشكوتُ إليك الحاجةَ والمسكنة ، وقلت لك : ياسيدى ؛ لا تأخذ نصفها ، لك
سدسها ، لك ربعها ، وأنت تقول : ما آخذ إلا نصفها ، ولو علمت أن أمير المؤمنين -
أطال الله بقاءه - جوائزُه صفْعٌ ، وهَبْتُها لك كلها ؛ فعاد إلى الضحك .

فلما استوفى صَفْعَه ، وسكنَ أميرُ المؤمنين من ضحكه أخرجَ صُرَّةَ كان قد أعدَّها
فيها خمسمائة درهم ، ثم قال له - وقد أراد الانصراف - قِفْ ، هذه كنتُ أعدَدْتُها
لك ، فلم يدعك فضولك حتى أحضرتَ لك شريكاً فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
وَأَيْنَ الأمانة ؟ وِدِدْتُ أنك تدفعها كلها إليه وتصفعه مع العشرة عشرة أخرى ،
وتدفع له الخمسمائة الدرهم . فقسم الدراهم بيننا وانصرفنا .

١٣٤ — قد شفى منه صدورنا*

قال أبو علي الحاتمي^(١) : كان أبو الطيب المتنبي^(٢) عند وروده مدينة السلام
التَّحَفَ رِدَاءَ الْكِبَرِ ، وَأَذَالَ^(٣) ذِيُولَ التَّيِّهِ ، وَصَمَرَ خَدَّهُ ، وَنَأَى بِجَانِبِهِ ؛ وَكَانَ
لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا نَافِضًا^(٤) مِذْرَوِيَّهُ ، رَافِلًا مِنَ التَّيِّهِ فِي بُرْذَبِهِ . يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ
الْعِلْمَ مَقْصُورٌ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ الشَّعْرَ بِحَرٍّ لَمْ يَفْتَرِفْ نَمِيرَ مَائِهِ غَيْرُهُ ، وَرَوْضٌ لَمْ يَرْعَ
نَوَارَهُ سِوَاهُ ، فَذَلَّ بِذَلِكَ مُدَيَّدَةً أَجْرَتَهُ رَسَنَ^(٥) الْجَهْلِ فِيهَا ، فَظَلَّ يَمْرَحُ فِي
تَنَنِّيهِ . حَتَّى تُخَيَّلَ أَنَّهُ الْقَرِيعُ^(٦) الَّذِي لَا يُقَارَعُ ، وَالزَّرِيعُ^(٧) الَّذِي لَا يُجَارَى وَلَا
يُنَازَعُ ، وَأَنَّهُ رَبُّ الْقَلْبِ وَمَالِكُ الْقَصَبِ ، وَثَقُلَتْ وَطْأَتُهُ عَلَى أَهْلِ الْأَدَبِ
بِمَدِينَةِ السَّلَامِ .

فَطَاطَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ رَأْسَهُ ، وَخَفَضَ جَنَاحَهُ ، وَطَاطَمَ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ جَأَشُهُ^(٨) .
وَتُخَيَّلَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيُّ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُسَاجَلَتِهِ وَمُجَارَاتِهِ ، وَلَا يَقُومُ
لِتَتَّبِعِهِ بَشِيءٌ مِنْ مَطَاعِنِهِ ، وَسَاءَ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ أَنْ يَرِدَ عَنْ حَضْرَةِ عَدُوِّهِ رَجُلٌ ،

* معجم الأدباء : ١٨ - ١٥٩

(١) هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة
(٢) هو أحمد بن الحسين ، أشهر شعراء المحدثين ، وصاحب الشعر الحكيم والمعاني الدقيقة والمختصرة ،
ولد بالكوفة ونشأ بها ، وتأدب بفصاحة أهل البدو ، ومدح سيف الدولة من أهل الشام ، ومدح
كافوراً بمصر ، ومدح عضد الدولة أعظم ملوك بني بويه ووزيره ابن العميد ، وقتل قرب بغداد
سنة ٣٥٤ هـ (٣) أذال : تبخر ، وجر ذيله على الأرض تيهياً (٤) نافضاً : محرّكاً ،
والمذروان : ناحيتا الرأس (٥) الرسن : الحبل (٦) القرير : الذي يقارعك ، والمقارعة :
المضاربة بالسيف (٧) الزريع : الشريف من القوم الذي نزع إلى عرق كريم (٨) الجأش :
النفس ، وقيل القلب .

فلا يكون في مملكته أحدٌ يماثله في صناعته ، ويساويه في منزلته .

فنهذت^(١) حينئذٍ مُتَتَبِعًا عَوَارَهُ ، ومتعقبًا آثاره ، ومُطْفِئًا نَارَهُ ، ومُهْتَكًا أَسْتَارَهُ ، ومقلماً أظْفَارَهُ ، وناشراً مطاويه ، ومزقاً جلبابَ مساويه ، متحييناً أن نجتمعنا داراً ، فأجري أنا وهو في مِضْمَارٍ يُعْرَفُ فيه السابقُ من المسبوق ؛ حتى إذا لم أجد ذلك قصدتُ موضعه الذي كان يحُلُّهُ في رَبَضٍ حُمَيْدٍ^(٢) .

فوافقَ مَصِيرِي إليه حضورَ جماعةٍ تقرأ شيئاً من شعره عليه ، فحين أودِنَ بحضوري ؛ واستوْدِنَ عليه لدخولي نهضَ عن مجلسه مُسْرِعًا ، ووارى شخصه عني مُسْتَخْفِيًا ؛ فنزلتُ عن بغلةٍ كانت تحتي ، وهو يراني نازلاً عنها ؛ لاتبهائي بها إلى أن حاذَيْتُهُ ، فجلستُ في موضعه ، وإذا تحته قطعة من « زيلو »^(٣) مُخْلَقَةٌ ، قد أكلتها الأيامُ ، وتعاوَرَتْهَا السنون ؛ فهي رسومٌ خافية ، وسلوكٌ^(٤) بادية ، حتى إذا خرج إلى نهضتُ إليه فوفيته حق السلام ، غير مُشَاحٍ^(٥) له في القيام ؛ لأنه إنما اعتمدَ بنهوضه ألا ينهض لي عند مُوَافَاتِي .

وإذا هو قد لبس سبعة أقبية ؛ كلَّ قَبَاءٍ^(٦) منها لون ، وكان الوقتُ آخر أيام الصيف ، وأخْلَقَهَا بتخفيف اللبس ؛ فجلستُ وجلس ، وأعرَضَ عني ساعة لا يُعِيرُنِي فيها طَرْفَهُ ، ولا يسألُنِي عما قصدتُ له ، وقد كِدْتُ أُمَيِّزُ^(٧) غيظًا ، وأقبلتُ أَسْخَفُ رَأْيِي في قَصْدِهِ ، وأفندُ نفسي في التوجُّهِ نحوَ مثله ، ولَوَى عِذَارَهُ عني مقبلاً على تلك الزُّعْفَةِ^(٨) التي بين يديه ، كلَّ واحدٍ يومى إليه ، ويوحى

(١) نهذ : نهض ، وعواره : عيبه (٢) ربض حميد : موضع (٣) زيلو : معناها لحاف بالفارسية .
(٤) السلوك : جمع جمع لسلكة ، وهي الحيط الذي يخط به الثوب (٥) منازع (٦) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب (٧) أُمَيِّزُ : أقطع (٨) الزعفة : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أسلمهم واحداً .

بطرفه ، ويشير إلى مكانى بيده ، ويوقظه من سِنَةِ جهله ؛ وهو يابى إلا ازوراراً ونفاراً ، وجرياً على شاكلة خُلِقِه المشكلة .

ثم رأى أن يثني رأسه إلى ؛ فوالله ما زادنى على أن قال : أى شئ خبرك ؟ قلت : أنا بخير ، لولا ما جنيتُ على نفسى من قَصْدِكَ ، وكَلَفْتُ قَدَمِيَّ فى المصير إلى مثلك ؛ ثم تحدّرتُ عليه تحدُّرَ السيلِ إلى القَرَارِ ، وقلتُ له : أين لى - عفاك الله - مَ تِهَكَ وخيلاؤك وعُجْبُكَ ؟ وما الذى يوجبُ ما أنتَ عليه من التجبُّرِ والتنمر^(١) ؟ أنسَبَ فرَعْتَ سماءَ المجدِّ به أم عِلِمَ أصبحتَ علماً يقعُ الإيماءُ إليك فيه ! هل أنتَ إلا وَتِدٌ بِقَاعٍ^(٢) فى شرِّ البقاع ؟ وجفَاء^(٣) سيلٍ دَفَاعٍ ! يا لله ! استنَّتِ الفِصَالُ حتى القرعى^(٤) ؛ وإنى لأسمع جَعَجَعَةً^(٥) ولا أرى طِحْنًا .

فامتَّعَ لونه عند سماع كلامى ، وعَصِبَ^(٦) ريقه ، وجَحَظَتْ عيناه ، وسَقَطَ فى يده ، وجعل يلينُ فى الاعتذار لينا ، كاد يَمُطِفُ عليه عِظْفَ صَفْحِي عنه . ثم قلت : يا هذا ؛ إن جاءك رجلٌ شريف فى نسبه تجاهلتَ نسبه ، أو عظيم فى أدبه صغرت أدبه ، أو مُتَقَدِّمٌ عند سلطانِه لم تَعْرِفْ موضعه ؛ فهل العِزُّ تُرَاثٌ لك دون غيرك ؟ كلا والله ؛ لكنك مددتَ الكِبَرَ سِتْرًا على نَقْصِكَ وضربته رَوَاقًا دون جَهْلِكَ .

فعاد إلى الاعتذار ، وأخذتِ الجماعةُ فى تليين جانبى ، والرغبة إلى فى قبول

(١) التنمر : التشبه بالنمر ، والنمر لا يلقى إلا متكرراً غضبان (٢) القاع : أرض سهلة مطمئنة (٣) ما قناه السيل من الزبد (٤) مثل يضرب للرجل يدخل نفسه فى قوم ليس منهم ، والقرعى من الفصال : الذى أصابها قرع ، وهو بر ، والاستنان : النشاط (٥) مثل يضرب للذى يكثر الكلام ولا يعمل ، ولذى يمد ولا ينى ، والجمجمة : صوت الرحن ونحوها ، والطنن : الدقيق - (٦) عصب : جف .

عُذْره ، واعتماد مَيَّاسَرَتِه ، وأنا آبَى إِلَّا اسْتَشْرَاءَ^(١) واجترأ ، وهو يُوَكِّدُ الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفني ؛ فأقول له : يا هذا ؛ أَلَمْ يُسْتَأْذَنْ لِي عَلَيْكَ بِاسْمِي وَنَسْبِي ! أَمَا فِي هَذِهِ الْعَصَابَةِ مَنْ يَعْرِفُكَ بِي لَوْ كُنْتَ جِهَلْتَنِي ! وَهَبْ ذَلِكَ كَذَلِكَ ؛ أَلَمْ تَرَنِي مُتَمَطِّيًا بَغْلَةً رَائِعَةً يَعْلُوهَا مَرْكَبٌ ثَقِيلٌ ، وَبَيْنَ يَدَيَّ عِدَّةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ؟ أَمَا شَاهَدْتَ لِبَاسِي ؟ أَمَا شَمِمْتَ نَشْرَ عَطْرِي ؟ أَمَا رَأَيْتَ شَيْءًا مِنْ أَمْرِي أَمَيَّزُهُ بِهِ فِي نَفْسِكَ عَنْ غَيْرِي ؟ وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ مَا أَكَلَّمَهُ يَقُولُ : خَفَضَ عَلَيْكَ ، اِرْفُقْ ، اسْتَأْنِ^(٢) ؛ فَأُصْحَبَ^(٣) جَانِبِي بَعْضَ الْإِصْحَابِ ، وَلَانَ شِمَاسِي^(٤) بَعْضَ اللَّيْلِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ سَاعَةً .

ثم قلت : أشياء تختلجُ في صدري من شعرك أحبُّ أن أراجمَكَ فيها ، قال : وما هي ؟ قلت : خبرني عن قولك :

فَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِلدَّوْلَةِ فَنِي النَّاسِ بَوَاقَاتُ لَهَا وَطُبُولُ
أَهْكَذَا يَمْدَحُ الْمُلُوكُ ! وَعَنْ قَوْلِكَ :

وَلَا مَنْ فِي جَنَازِهَا تَجَارُ يَكُونُ وَدَاعِهَا نَفْضُ النَّعَالِ
أَهْكَذَا تُؤَبِّنُ أَخَوَاتُ الْمُلُوكِ^(٥) ! وَاللَّهِ لَوْ كَانَ هَذَا فِي أَدْنَى عِبِيدِهَا لَكَانَ قَبِيحًا .
وَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ :

خَفَّ اللَّهُ وَاسْتَرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقَعٍ فَإِنْ لُحَّتْ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاقِقُ^(٦)

(١) استشراء : لجاجة وعنادا (٢) استأن : لا تعجل (٣) أصحب جاني : انقاد
(٤) شماسي : امتناعي ولبائي (٥) المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبي في رثاء والده
سيف الدولة وأولها :

نعد المشرفية والموالي وتقتلنا المنون بلا قتال
(٦) العواتق ، جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت ، والخدور : الستور .

أهكذا تنسبُ بالمحبوبين ! وعن قولك :

وإذا أشار محدثاً فكانه قَرْدٌ يُقَهِّقُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

أما كان لك في أفانين الهجاء التي تصرفَتْ فيها الشعراء مندوحةً عن هذا الكلام الرَّذَل الذي ينفر عنه كلُّ طبع ، وبمجه كلُّ سمع ! وعن قولك :

وضاقت الأرضُ حتى كانَ هاربُهُم إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنه رجُلاً

أفعلُ مرتينياً يتناولُه النظرُ لا يقعُ عليه اسمُ شيءٍ ! وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

مازلتَ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهم خيلاً تَكُرُّ عليهمُ ورجالاً

فأحلتَ المعنى عن جهته ، وعبرتَ عنه بغيرِ عبارته ؛ وعن قولك :

أليس عجيباً أنَّ وَصفَكَ مُعْجَزٌ وأنَّ ظنونِي في معاليكَ بَظْلَعٌ ^(١)

فاستعرت الظَّلَعَ لظنونك ، وهي استعارةٌ قبيحة ! وتمجبتَ من غيرِ متمجَّب ، لأنَّ من أعجزَ وصفه لم يُسْتَنَكَّرْ قصورُ الظنون وتحيرُها في معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته من قول أبي تمام :

ترقتُ مناهُ طوودَ عِزٍّ لو ارتقتُ به الريحُ فترا ^(٢) لاشتتْ وهى ظالِعُ

وعن قولك تمدحُ كافوراً :

فإن نلتُ ما أملتُ منك فربما شربتُ بماءٍ يُعْجِزُ الطيرَ ورْدُهُ

إنها مدحٌ أو ذمٌ ! قال : مدح ! قلت : إنك جعلتهُ بخيلاً لا يوصلُك إلى خيره من جهته ، وشبهتَ نفسك في وصولك إلى ما وصلتَ إليه منه بشربك من ماء يُعْجِزُ الطيرَ ورْدُهُ لبعده وتراى موضعه .

(١) الظلع : الغمز في المشي (٢) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة .

وأخبرني أيضا عن قولك في صفة كلبٍ وظبي :

وصارَ ما في جلده في المرَجَلِ فلم يَضِرْنا معه فَقَدْ الأَجْدَلُ^(١)

فأيُّ شيءٍ أعجبك من هذا الوصف ؟ أعذوبةُ عبارته ؟ أم لطفُ معناه ؟ أما قرأتَ رَجَزٍ^(٢) ابن هانيٍّ وطَرَدَ^(٣) ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعاني التي ابتدعها هذا الشاعران وغررِ المعاني التي افْتِنَصَّاهَا ما تتشاغلُ به عن بُنَيَّاتِ صَدْرِكَ هذه ؟ وألا اقتصرْتَ على ما في أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تُسِفْ إلى هذه الألفاظ القَلِقَةَ والأوصاف المختلفة !

فأقبل على ، ثم قال : أين أنت من قولي :

كَانَ الْهَامُ^(٤) في الهيجا عِيُونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُك من رُقَادٍ
وقد صُفَّتِ الأَسِنَّةُ من هُمُومٍ فما يَخْطُرُنْ إلّا في الفؤادِ

وأين أنت من قولي في صفة جيش :

في قَيْلَقٍ^(٥) من حَدِيدٍ لو رَمِيتَ به صَرَفَ الزمانِ لما دَارَتْ دوائرُهُ
وأين أنت من قولي :

لو تَعَقَّلُ الشَّجَرُ التي قَابَلَتْهَا مَدَّتْ مَحِيَّةً إِلَيْكَ الأَغْصَنَا

وأين أنت من قولي :

(١) الضمير في جلده للظبي ، والمرجل : القدر من النحاس ، والضمير في معه للكلب ، والأجدل : الصقر (٢) الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستطعلن ست مرات (٣) الطرد : مزاوله الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر (٤) الهام : جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب ، وطبع السيف : طرقه (٥) القيلق : الجيش . وجمله من حديد لكثرة ما عليه من الدروع ، وصرف الزمان : حدثانه ..

أَيَقْدَحُ^(١) فِي الْخِيَمَةِ الْعَذْلُ وَتَشْمَلُ مِنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ !
وَمَا اعْتَمَدَ اللَّهُ تَقْوِيضَهَا^(٢) وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ
وَفِيهَا أَصِفُ كِتَابَةً :

وَمَلُومَةٌ^(٣) زَرَدَتْ ثَوْبَهَا وَلَكِنَّهُ بِالْقَنَاءِ مُحْمَلُ
وَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ قَوْلِي :

النَّاسُ مَا لَمْ يَرَوْكَ أَشْبَاهُ وَالْدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ
وَالْجَوْدُ عَيْنٌ وَأَنْتَ نَاطِرُهَا وَالْبَاسُ بَاعٌ وَأَنْتَ يُمْنَاهُ
أَمَّا يُلِيهِكَ إِحْسَانِي فِي هَذِهِ عَنْ إِسَاءَتِي فِي تِلْكَ !

قلت : مَا أَعْرَفُ لَكَ إِحْسَانًا فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرْتَهُ ؛ إِنَّمَا أَنْتَ سَارِقٌ مُتَّبِعٌ ،
وَأَخَذْتُ مَقْصَرٌ ، وَفِيمَا تَقْدَمُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ابْتَكَرَهَا أَصْحَابُهَا مَنْدُوحَةٌ عَنْ
التَّشَاغُلِ بِقَوْلِكَ . فَأَمَّا قَوْلُكَ :

كَانَ الْمَهَامَ فِي الْمِيجَا عَيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
فَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ بَيْتِ مَنْصُورِ النَّمِيرِيِّ :
فَكَأَنَّمَا وَقَعَ الْحُسَامُ بِهَامِهِ خَذَرَ النَّيَّةِ أَوْ نُعَاسُ الْهَاجِمِ
وَأَمَّا قَوْلُكَ :

فِي فَيْلَقِي مِنْ حَدِيدٍ لَوْ رَمَيْتَ بِهِ صَرَفَ الزَّمَانِ لِمَا دَارَتْ دَوَائِرُهُ
فَنَقْلَتُهُ نَقْلًا لَمْ تُحْسِنْ فِيهِ ، مِنْ قَوْلِ النَّاجِمِ :

(١) ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ريع هبت (٢) تقويضها : هدمها ، واعتد
الأمير : قصده (٣) ملامة : بمجموعة مضمونة . والمحمل : ما جبل له خل ، وهو عذب القليفة ونحوها .

ولي في حامدٍ أملٌ بعيدٌ ومدحٌ قد مدّحتُ به طريفُ
مدحٌ لو مدحتُ به الليالي لما دارتُ على لها صروفُ
والناجمُ إنما نظمه من قول أرسطاليس ، قد تكلمت بكلام لو مدحتُ به الدهر
لما دارتُ على صروفه :
وأما قولك :

لو تعقلُ الشجرُ التي قابلتها مدّت محبّةً إليك الأغصنا
فهذا معنى متداول ، تساجلته ^(١) الشعراء ، وأكثرت فيه ؛ فمن ذلك قول
القرزوق :

يكاد يُمسكه عرفان راحته ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ
ثم تكرر في أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :
لو سعت بقعة لإعظام أخرى لَسَعَى نحوها المكانُ الجديبُ
وأخذه البحريُّ فقال :
لو أن مُشتاقاً تكلفَ فوق ما في وسعهِ لمشي إليك المنبرُ
وأما قولك :

وما اعتمد الله تقويها ولكن أشار بما تفعلُ
فقد نظرت فيه إلى قول رجلٍ مدح بعض الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم على
السَّير فاندقَ لواءه ، فقال :
ما كان مُندقَ اللواء لريبةٍ تخشى ولا أمرٍ يكون مزيلةً ^(٢)

(١) تساجلته : تبارت فيه (٢) زيله : فرقه .

لَكِنْ لَأَنْ الْعُودَ ضَعَّفَ مَتْنَهُ صِغَرُ الْوَلَايَةِ فَاسْتَقَلَّ الْمُؤَصِّلَ
وَأَمَّا قَوْلُكَ :

وَمَلُومَةٌ زَرَدٌ ثَوْبُهَا وَلَكِنَّهُ بِالْقَنَاءِ مُخْمَلٌ
فَمِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ :

أَمَامَ خَيْسٍ^(١) أَرْجُوَانٍ كَأَنَّهُ قَبِيضٌ مُخَوِّكٌ مِنْ قَنَاءٍ وَجِيَادٍ^(٢)
وَأَمَّا قَوْلُكَ :

النَّاسُ مَا لَمْ يَرْوِكَ أَشْبَاهُ وَالْدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ
فَمِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ بَسَّامٍ فِي عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ يَرْثِيهِ :

قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَمَالُ وَصَاحَ صَرْفُ الدَّهْرِ : أَيْنَ الرِّجَالُ !
هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ فِي نَعْتِهِ قَوْمُوا انْظُرُوا كَيْفَ تَزُولُ الْجِبَالُ !
فَقَوْلُهُ : « قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَمَالُ » هُوَ قَوْلُكَ : « النَّاسُ مَا لَمْ يَرْوِكَ

أَشْبَاهُ » .

فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ : مَا أَحْسَنَ قَوْلَهُ ! « قَوْمُوا وَانْظُرُوا كَيْفَ تَزُولُ الْجِبَالُ ! »

فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ : اسْمُكَتْ ؛ مَا فِيهِ مِنْ حُسْنٍ ، أَلَمْ يَسْرِقْهُ مِنْ قَوْلِ

النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي :

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْتِي نَفْسُهُمْ وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالْجِبَالُ جُنُوحُ !

قَالَ الْحَاتِمِيُّ : فَقُلْتُ : قَدْ سَرَقَهُ النَّابِغَةُ مِنْ أَوْسٍ حِينَ قَالَ :

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ شَمْسُ النِّهَا رٍ وَالْبَدْرُ لِلْقَمَرِ الْوَاجِبِ^(٣)

• (٣) الْوَاجِبُ : الْغَائِبُ .

(٢) جَمْعُ جَيِّدٍ : الْمَدْرَعَةُ الصَّغِيرَةُ

(١) الْخَيْسُ : الْجَبِيضُ

لَقَدْ فَضَالَةٌ لَا يَسْتَوِي إِلَا قُعُودٌ وَلَا خَلَّةٌ الذَّاهِبِ
ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ .

فقال الرجل : أَجَلٌ ، فقال المتنبي : يَا مُحَسَّدُ ؛ خذ بيده ، وأخرجْهُ - يريد
بِمَحْسَدِ ابْنِهِ - فراجعته إِلَى أَن تَرَكَهُ ، ثم قلت له : وأما قولك : « والدهرُ لفظٌ
وأنتَ معنا » فمتقول من قول الأخطل - إن كان البيت له - في عبد الملك بن مروان :
وإن أُمير المؤمنين وفعله لكالدهرِ ، لا عارٌ بما فعل الدهرُ
وقد قال جرير :

أنا الدهرُ يَفْنَى الموتُ والدهرُ خالدٌ ففَنِي بِمِثْلِ الدهرِ شَيْئًا تُطَاوِلُهُ
حين قال له الفرزدق :

فإني أنا الموتُ الذي هو نازلٌ بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ تَحَاوِلُهُ
أفترى أن جريراً أخذ قوله : « يَفْنَى الموتُ » من أحدي ؟ وأن أحداً شَرِكَه
في إِفْنَاءِ الموتِ ؟ ففكر طويلاً ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ، عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ
حيث يقول :

لن يُفْجَزَ الموتُ شَيْءٌ دُونَ خَالِقِهِ والموتُ فَإِنْ إِذَا مَا نَالَهُ الْأَجَلُ
وكلُّ كَرْبٍ أَمَامَ الموتِ مُتَضَعٌ بالموتِ والموتُ فيما بعده مَجْلَسٌ
فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إِلَى ذَلِكَ أَحَدٌ .

ثم قلت له : أترى أن البيتَ المتقدم ، الذي يقول فيه :

وإن أُمير المؤمنين وفعله لكالدهرِ لا عارٌ بما فعل الدهرُ
مأخوذٌ من أحدي ؟ فأطرق هنيهةً ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يُسْتَدَلُّ

على موضعك ، وموضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ؛ أساء سمعاً
فأساء إجابة ! ما أردتُ ما ذهبتَ إليه . قلت : فإنه أخذه من قول النابغة ، وهو
أول من ابتكره :

وَعَيَّرَنِي بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتَهُ وما على بَأْسٍ أَخْشَاكَ مِنْ عَارِ
ثُمَّ أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَأَحْسَنَ بِقَوْلِهِ :

خَشَعُوا لَصَوْلَتِكَ الَّتِي هِيَ فِيهِمْ كَالْمَوْتِ يَأْتِي لَيْسَ فِيهِ يُعَارِ
قال : وَمَنْ أَبُو تَمَامٍ ؟ قلت : الذي سرقتَ شعره ، فَأَنْشَدْتَهُ . قال : هذه
خلائقُ الشُّفَّاءِ ، لا خلائقُ العلماء . قلت : أجل ، أنتَ سَفَهْتَ رَأْيِي وَلَمْ يَكُنْ
سَفِيهاً ، أَلَسْتَ الْقَائِلَ :

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَمْلُونْ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا
شَرَفٌ يَنْطَحُ الثَّرِيَا بِرَوْقِيهِ ^(١) وَخَرُّ يُقْلَقُ الْأَجْبَالَا
قال : بلى ، قلت : فَإِنَّكَ أَخَذْتَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ بَيْتِ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ :
يَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَبِيٍّ وَصُدُّورَ الْقَنَا بِوَجْهِ وَقَاحِ
هَكَذَا هَكَذَا تَكُونُ الْمَعَالَى طُرُقُ الْجِدِّ غَيْرُ طُرُقِ الْمَزَاحِ
وَأَخَذْتَ الْبَيْتَ فَأَنْشَدْتَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

هَمَّةٌ تَنْطَحُ الثَّرِيَا وَجَدُّ أَلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهَوُ حَضِيضُ
قال : وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَفْسَدْتُهُ ؟ قلت : بِأَنْ جَمَلْتَ لِلشَّرَفِ قَرْنًا . قال : وَأَتَى لَكَ
بِذَلِكَ ؛ قلت : أَلَمْ تَقُلْ : يَنْطَحُ السَّمَاءُ بِرَوْقِيهِ ، وَالرُّوْقَانِ : الْقَرْنَانِ ؟ قال : أَجَلْ !
لِنَمَا هِيَ اسْتِعَارَةٌ . قلت : نَعَمْ ، هِيَ اسْتِعَارَةٌ خَبِيثَةٌ .

قال : أقسمتُ غيرُ مُخْرَجٍ في قسَمي إنني لم أقرأ شعراً قطُّ لأبي تمامكم هذا !
قلت : هذه سوءةٌ لو سترتها كان أولى ! قال : السوءةُ قراءةُ شعرٍ مثله ؛
أليس هو القائلُ :

خَشَنْتُ عَلَيْهِ أختَ بَنِي خُشَيْنٍ وَأُنْجِحَ فِيكَ قولُ العاذِلِينَ
والذي يقول :

لعمري ، لقد حرَّرتُ يومَ لَقِيتهُ لو أنَّ القضاءَ وحده لم يُبرِّدِ
والذي يقول :

تَكَادُ عطاياهُ يَمْنُ جُنُونُهَا إذا لم يَمُودْهَا ^(١) بِنِعْمَةِ طَالِبٍ
والذي يقول :

تَسْمَعُونَ ألقاً كَأَسَادِ الشَّرَى ^(٢) نَضِجَتْ أعمارُهُم قبلَ نُضْجِ التَّيْنِ والعنَبِ
والذي يقول :

وَلَيْ وَلَمْ يَظْلَمْ وَهَلْ ظَلَمَ امرؤٌ حَتَّى النَّجَاءِ ^(٣) وَخَلَفَهُ التَّنِينُ
والذي يقول :

كَانُوا رِدَاءَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصَّوفاً
والذي يقول :

أَقُولُ لَمُرْحَانٍ مِنَ الْبَيْنِ لَمْ يُصَبْ رَسِيسٌ ^(٤) الْهَوَى بَيْنَ الْحِشَا وَالتَّرَائِبِ
مَا قُرْحَانُ الْبَيْنِ ؟ أَخْرَمَ اللَّهُ لِسَانَهُ ! فَأَحْفَظُنِي ^(٥) ذَلِكَ وَقُلْتُ : يَا هَذَا ؛ مِنْ

(١) يمودها : يحفظها (٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل (٣) النجاء :

السرعة في المشي (٤) رسيس الهوى : بقيته وأثره (٥) فأحفظني : فأغضبي .

أَدَلَّ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّكَ قَرَأْتَ شِعْرَ هَذَا الرَّجُلِ تَتَّبِعُكَ مَسَاوِيهِ ؛ فَهَلْ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى
اخْتِلَافِكَ إِنْكَارَهُ أَوْضَحُ مِمَّا ذَكَرْتَهُ ؟ وَهَلْ يَعْصُمُ أَبَاتِمًا أَوْ يَسْمُهُ بِمِيسَمِ
النَّقِيسَةِ مَا عَدَدْتَهُ مِنْ سَقَطَاتِهِ ، وَنَحْوَتَتِهِ ^(١) مِنْ أُنْبِيَاتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي
النُّونِيَةِ :

نَوَالِكُ رَدِّ حُسَادَى فُلُولًا وَأَصْلَحَ بَيْنَ آبَائِي وَيَنِي
فَهَلَّا اغْتَفَرْتَ الْأَوَّلَ لِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ !
وَأَمَّا قَوْلُهُ :

تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نَضْجِ التِّينِ وَالْعَنْبِ ^(٢)
فَلِهَذَا الْبَيْتِ خَيْرٌ لَوْ اسْتَفْرَيْتَ صُحُفَهُ لِأَقْصَرْتَ عَمَّا تَنَاوَلْتَهُ بِالطَّعْنِ فِيهِ .
ثُمَّ قَصَصْتُ الْخَبَرَ ، وَقُلْتُ : فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ مُتَقَدِّمِي
الشُّعْرَاءِ وَأَمْرَاءِ الْكَلَامِ وَأَرْبَابِ الصَّنَاعَةِ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قُلْتُ : لَوْ قَالَ قَائِلُ : إِنْ أَحَدًا لَمْ يَبْتَدِئْ بِأَوْجَزٍ وَلَا أَحْسَنَ
وَلَا أَخْصَرَ مِنْ قَوْلِهِ :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ
لَمَّا عَنَّ فِي ذَلِكَ ، وَفِيهَا يَقُولُ :

(١) نَحْوَتُهُ : تَتَقَبَّضُهُ (٢) أَيْ أَنَّ جَيْشَ الْعَدُوِّ كَانَ تَسْعِينَ أَلْفًا حُلَّ أَجْلِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْضَجَ
التِّينُ وَالْعَنْبُ ، وَفِي هَذَا تَهْمُكُ بِالْمُنْجِمِينَ وَالْبَيْتَ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي ابْتَدَأَهَا بِقَوْلِهِ :
السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ
وَقَدْ حَكَّوْا أَنَّ الْمُنْجِمِينَ كَانُوا حَنَرُوا الْمُتَعَصِّمَ فَتَحَ عُمُورِيَّةٌ فِي هَذَا الْأَوَانِ ، وَقَالُوا : لِمَا نَجِدُ فِي
الْكُتُبِ أَنَّهَا لَا تَفْتَحُ إِلَّا فِي وَقْتِ نَضْجِ التِّينِ وَالْعَنْبِ فَلَمْ يَسْمَعْ الْمُتَعَصِّمَ لِقَوْلِهِمْ ، وَسَارَ بِجَيْشِهِ
فَفَتَحَهَا .

رمى بك الله بُرْجِيهَا فهدمها ولورمى بك غيرُ الله لم يُصِب
وفيها يقول :

فتَحُّ تَفْتَحُ أبوابُ السماء له وتبرزُ الأرضُ في أنوابها القُشْبِ
وفيها يقول :

بِكْرُ فَا افترَعَتْهَا كَفَتْ حَادِثَةً وَلَا تَرَقَتْ إِلَيْهَا همةُ الثُوبِ
وفيها يقول :

غَادَرَتْ فِيهَا بِهِمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحَى يَشْلُهُ ^(١) وَسَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حتى كَانَ جَلَايِبَ الدُّجَى رَغَبَتْ عَنْ لونها ، وَكَانَ الشَّمْسُ لَمْ تَنْبِ
وفيها يقول :

أَجَبْتَهُ ^(٢) مُعَلِّمًا بِالسَّيْفِ مُنْصَلِّيًا وَلَوْ أَجَبْتَ بغيرِ السَّيْفِ لَمْ تَجِبْ
وأما قوله :

أقول لقرُحانٍ من البين ... فإنه يريد رجلاً لم يَقْطَعْهُ أَحِبَابُهُ ، ولم يَبِينُوا
عنه قَبْلَ ذلك ، إِذَا كَانَتْ حَالُهُ كَذَلِكَ كَانَ مَوْقِعُ الْبَيْنِ أَشَدَّ عَلَيْهِ ، وَأَفْتَى فِي
عَضْدِهِ ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا : أُنْ الْقُرْحَانُ الَّذِي لَمْ يُجَدَّرْ ^(٣) قَطْ ، وَقَدْ
قَالَ جَرِيرُ :

* وَكَفْتُ مِنْ زَقَرَاتِ الْبَيْنِ قُرْحَانًا *

وفي هذه القصيدة من المعاني الرائعة ، والتشبيهات الواقعة ، والاستعارات

(١) يشله : يطرده ، يقول : لأن الليل المظلم صار نهراً باشتعال النيران التي كانت تطارد الظلام

(٢) المراد صوت المرأة التي استغاثت به (٣) يجدر : يصب بالجدري .

البارعة ما يَنْتَفِرُ معه هذا البيتُ وأمثالُه . على أَنَّا أَبْنَا عن صحة معناه وعن أمثاله ،
فمن ذلك :

إذا العيسُ لَاقَتْ بِي أَبَا دَلْفٍ فَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَابِ
يرى أَقْبَحَ الْأَشْيَاءِ أَوْبَةً آمِلٍ كَسَبَهُ يَدُ الْمَأْمُولِ حُلَّةَ خَائِبِ
وأحسنُ من نُورٍ يَفْتِجُهُ النَّدَى يياضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ
ولو كان يَفْنَى الشَّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَّتْ^(١) حَيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْعُصُورِ النَّوَاهِبِ
ولكنه فيضُ الْعُقُولِ إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابُ جُودٍ أُغْصِبَتْ بِسَحَابِ

فبهذه ما أوردته وقصرَ عِنانَ عبارته ، وجبَسَ بُنْيَانِ صدره ، وعَقَلَ عن
الإجابة لسانه ، وكاد يَشْفَبُ^(٢) لولا ما نخوفه من عاقبة شغبه ، وما عرفه من
مكانى فى تلك الأيام ، وأن ذلك لا يتمُّ له ، فإزاد على أن قال : قد أكرت فى
أبى تمام ، لا قدسَ اللهُ أبانمام وذويه !

قلت : ولا قدسَ السارقَ منه والواقعَ فيه اثمَ قلت له : ما الفرقُ فى كلام
العرب بين التقديسِ والقداسِ والقداسِ ؟ فقال : وأى شيء غرضك فى
هذا ؟ فقلت : المذاكرة . فقال : بل المهارة^(٣) اثم قال : التقديسُ : التطهيرُ فى
كلام العرب ؛ ولذلك سُمِّيَ الْقُدُسُ قُدْسًا ، لأنه يشتمل على الذى به الطهور ، وكل
هذه الأحرف تؤول إليه .

قلت : ما أحسبك أنعمتَ النظرَ فى شيء من علوم العرب ، ولو تقدمتْ
منك مطالعةٌ لها لما استعجزتْ أن تجمعَ بين معانى هذه الكلمات مع تباينها ،

(١) ماقرت : ما جمعت (٢) يشغب : يهيج الشعر (٣) المهارة : المسابة بالفيح من القول .

وذلك لأن «القدّاس» بتشديد الدال : حجرٌ يُلقَى في البئر ليُعلَمَ به غزارةُ ماؤها من قَلْبِهِ ، حكى ذلك ابنُ الأَعرابي . والقدّاس ، الجَمَانُ ، حكى ذلك الخليل ، و « القادس » : السفينة ، قال الشاعر يصف ناقة :

وتَهْفُو بِهَا دِلْمَا مُتَلِيعٌ ^(١) كَمَا اقْتَحَمَ الْقَادِسَ الْأَرْدَمُونَ ^(٢)
فلما علوته بالكلام قال : يا هذا ، مسلمةٌ إليك اللّفة . قلت : وكيف تسلمها ، وأنت أبو عذرها ^(٣) وأولى الناس بالتحقق بها والتوشع في اشتقاقها ، والكلام على أفانينها ! وما أحدٌ أولى بأن يُسأل عن لُغَتِهِ منك . فشرعت الجماعة الحاضرة في إعفائه وقبول عذره ، والتواطؤ ^(٤) له ، وقال كلٌّ منهم : أنت أولى بالمراجعة والياسرة لمثل هذا الرجل من كل أحد .

وكنتُ قد بلغتُ شفاءَ نفسي ، وعلمتُ أن الزيادة على الحدّ الذي انتهيتُ إليه ضَرْبٌ من البَغْيِ لا أراه في مذهبي ، ورأيتُ له حقَّ القَدَمَةِ ^(٥) في صناعته ، فطأطأتُ له كَتِفِي ، واستأنفتُ جميلًا من وصفه ، ونهضتُ .

فنهض لي مشيِّعًا إلى الباب ، حتى ركبْتُ ، وأقسمتُ عليه أن يعودَ إلى مكانه ، وتشاغلْتُ بقية يومٍ بشُغْلٍ عَنِّي ، تأخرتُ معه عن حَضْرَةِ المَهْلَبِ ، وانتهى إليه الخبرُ ، وأتتني رسَلُهُ ليلاً ، فأتيتُهُ ، فأخبرتهُ بالقصة ؛ فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما بعثته على مِباكَرَةِ مُعْزِ الدَّوْلَةِ ، قائلاً له : أعلمتَ ما كان من فلان والمتنبّي ؟ قال : نعم ، قد شَفَى مِنْهُ صُدُورُنَا !

(١) من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا (٢) الأردمون . جمع أردم : وهو الملاح الحافق
(٣) أبو عذرها : يريد ممد سبيلها (٤) أى موافقته (٥) القدمة : التقيم .

١٣٦ — نقد شعر امرئ القيس *

وصل إلى حَصْرَةِ سيف الدولة رجل من أهل بغداد ، وكان يَنْقُرُ^(١) العلماء
والشعراء بما لم يَدْفَعْهُ . ولا يَنْكُرُهُ الوَهْمُ .

فلقاه سيفُ الدولة باليمن ، وأَعْجَبَ به إعجاباً شديداً ، فقال يوماً : أخطأ
أمرؤ القيس في قوله :

كأني لم أركبَ جَوَاداً للذة ولم أبتطنَ كاعباً^(٢) ذاتَ خلخال
ولم أَسْبَأْ^(٣) الزُّقَّ^(٤) الرويَّ^(٥) ولم أقل خليلي كَرِّيْ كَرَةً بَعْدَ إجفالٍ^(٦)
وهذا معدول عن وجهه ، ولا شك فيه .

ف قيل : وكيف ذلك ؟ إنما سبيله أن يقول :

كأني لم أركبَ جَوَاداً ولم أقل خليلي كَرِّيْ كَرَةً بَعْدَ إجفالٍ
ولم أَسْبَأْ الزُّقَّ الرويَّ للذة ولم أبتطنَ كاعباً ذاتَ خلخال
فيقترن ذكر الخيل بما يشاكلها في البيت كله ، ويقترن ذكر الشراب واللهو
بالنساء ، ويكون قوله : « للذة » في الشراب أطبع منه في الركوب .

فبُهِتَ الحاضرون ، واهتز سيف الدولة ، وقال : هذا التَّهْدِيْ وحقّ أبي !
فقال له بعض الحاضرين من العلماء : أنت أخطأت وطعنت في القرآن إن
كُنتَ تَعْمَدُ .

* ذيل زهر الآداب : ٢٥٩ .

(١) قهر الرجل : عابه (٢) الكاعب : من نهّد ثديها (٣) سبأ الخمر : شراها
(٤) الزق : السقاء (٥) الروي : المروي (٦) أجفل : أسرع وذهب .

فقال سيف الدولة : وكيف ذلك ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ إِنْ لَكَ إِلَّا تَجْمُوعٌ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ، وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ ، وعلى قياسه يجب أن يكون : وإن لك ألا تجموع فيها ولا تنظم ، ولا تعرى فيها ولا تضحى ! وإنما عطفه امرؤ القيس بالواو التي لا توجب تعقيبا ، ولا ترتب ترتيباً ^(١) .
فجبل وانقطع !

(١) روى مثل هذا عن النبي مع سيف الدولة إذ أنشده قصيدته التي مطلعها :
على قدر أهل العزم تأتي الزمائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
إلى أن قال :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
فأنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزيهما على صدريهما ، وقال : ينبغي أن تطبق عجز الثاني على الأول ، وعجز الأول على الثاني ، وأنت في ذلك مثل امرئ القيس في قوله :
كأنى لم أركب الخ

فقال له أبو الطيب : أدام الله عز مولانا ! إن صح أن الذى استمدرك هذا على شعر امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس ، وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن البراز لا يعرف الثوب معرفة الحائك . . . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن الساحة في شراء الحر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجاسه ، ولما كان وجه المهزم لا يغلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية قلت : « ووجهك وضاح » ؛ لأجمع بين الأضداد في المعنى . فأعجب سيف الدولة ووصله بخمسمائة دينار .

١٣٥ — لَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرٍ *

قال الرياشي : اشترى بصرى جارية على أرفع ماتكون من الجمال والصباحة ،
فكلف بها - وكان مثيراً - فأفق عليها ما في يده حتى أملك ^(١) ؛ فأشارت عليه
ببيعها شفقة عليه .

فلما حصر بها السوق أخذت إلى ابن معمر - وكان عاملاً على البصرة -
فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وهم بالانصراف أنشدت :

هنيئاً لك المال الذي قد حوته	ولم يبق في كفي غير التذكري
أقول لنفسي وهي في غشي كربة	أقل قد بان الحبيب أو اكثري
إذا لم يكن للأمر عندي حيلة	ولم تجدى شيئاً سوى الصبر فاصبري
فاشدت بكاء مولاها ، وأنشد :	

فلولا تعود الدهر بي عنك لم يكن	يفرقنا شيء سوى الموت فاصبري
أروح بهم في الفوائد مبرج	أناجي به قلباً طويلاً التفكير
عليك سلام لا زيارة بيننا	ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذها ولك المال ، فانصرفا راشدين ، فوالله
لا كنت سبياً لفرقة محبين !

* تزيين الأسواق : ١٣١

(١) أملك : افتقر .

١٣٦ - الشعر بضاعة تجدى *

قال إبراهيم السويقي مولي المهابلة : تنابت علي سنون ضيقة ، وألح علي العُسْرُ وكثرة العيال وقلة ذات اليد ؛ وكنت مُشْتَهراً بالشعر أقصدُ به الإخوان وأهل الأقدار وغيرهم ، حتى جفاني كلُّ صديق ؛ وملّني من كنت أقصدُهُ ، فأضرتني ذلك جدا .

فبينما أنا جالس مع امرأتى في يوم شديد البرد ، إذ قالت : يا هذا ؛ قد طال علينا الفقرُ ، وأضرَّ بنا الجهد ^(١) ، وقد بقيت في بيتي كأنك زَمَن ^(٢) ؛ هذا مع كثرة الولد ؛ فأخرج عنى واكفني نفسك ، ودعني مع هؤلاء الصبيان ، أقوم بهم مرّة ، وأقعدُ بهم أخرى ؛ ثم ألحّت علي في الخصومة ، وقالت : يا مشنوم تعلّمت صناعة لا تجدى عليك شيئاً .

قال : فضجرتُ منها ومن قولها ، وخرجتُ علي وجهي في ذلك البرد والريح ، وليس علي إلا قَرَوٌ خَلَقَ ، ليس فوقه دِنَارٌ ، ولا تحته شعار ، وعلى عنفي إزار ، لو قد جاءت ريح شديدة ذهب به من بلاه وكثرة رقّاعه ؛ فخرجتُ متحيراً لا أدرى أين أقصدُ ، ولا حيث أذهب .

فبينما أنا أجيل الفكرة إذ أخذتني سماءٌ بقطرٍ متدارك ، فدَقَعَت ^(٣) إلى دار

* العقد الفريد : ٤ - •

(١) الجهد : المشقة (٢) الزمن : البتلى (٣) دَفَعَت إلى مكان كذا : انتهت إليه .

على بابها رَوْشَنٌ ^(١) مُطْلَـةٌ ، ودكان ^(٢) لطيف ، وليس عليه أحد ، فقلت : أَسْتَتِرُ
بالرَّوْشَنِ إلى أن يسكن المطر .

فقصبت قَصْدَ الدار فإذا بجارية قاعدة ، قد جلست على باب الدار كالحافظة
عليه ، فقالت لي : إليك يا شيخُ عن بابنا ، فقلت : أنا - ويحك ! لستُ بسائل ،
ولا أنا بمن تُتَخَوَّفُ نَاحِيَتَهُ . فجلست على الدُّكَّانِ ، فلما سكنتُ نفسى سمعت
نعمة رخيمة من وراء الباب تدلُّ على نعمة امرأة فأصغيتُ ، فإذا بكلام يدلُّ على
عتاب ، ثم سمعت نعمة أخرى مثل ذلك وهى تقول : فعلتِ وفعلتِ ، والأخرى
تقول : بل أنت فعلتِ وفعلتِ ، إلى أن قالت إحداها : أنا - جعلتُ فداك - إن
كنتِ أسأتِ فاغفري ، واحفظي بيتين لمولانا إبراهيم السويقي ، فقالت الأخرى :
وما قال ؟ فإنه يبلغنى عنه أشعارٌ ظريفة ، فأنشدتها تقول :

هينى يا مُعَذِّبَتى أسأتُ وبالهِجْرَانِ قبلُكم بدأتُ

فأين الفضلُ منك ، فدَتَكَ نفسى على إذا أسأتِ كما أسأتُ !

فقلت : ظَرَفَ والله وأحسن .

قال إبراهيم : فلما سمعتُ ذكرى ، وذكر مولانا ، علتُ أنهما من بعض نساء
المهالبة ، فلم أتمالك أن دفعت الباب ، وهجمتُ عليهما فصاحتا : وراءك يا شيخُ عنا
حتى نستتر . وتوهمتا أنى من أهل الدار ، فقلت لهما : جعلتُ فداكما ! لا تحتشما
منى ، فإنى أنا إبراهيم السويقي ، ثم قلت لإحداها : بحقِ حرمتى إلا شفعتنى فيها ،
وهبت لي ذنبها ، واسمى منى ، فأنا الذى أقول :

(١) الروشن : الرف ، والمراد الظلة (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

خذى بيدي من الحزن^(١) الطويل فقد يغفو الخليل عن الخليل

قالت : قد فعلتُ ، وصفحتُ عن زلتها ؛ ثم قالت : يا أبا إسحاق ؛ مالي أراك بهذه الهيئة الرثة ، والبرزة الخلق^(٢) ! ققلت : يا مولاتى ، تعدى على الدهر ، ولم ينصفنى الزمان ، وجفانى الإخوان ، وكسدت بضاعتى ، ققلت : عزَّ على ذلك ! وأوماتُ إلى الأخرى ، فضربتُ بيدها على كُمها ، فسَلت دُمْلُجاً^(٣) من ساعدها ، ثم ثنتُ باليد الأخرى فسَلت منها دُمْلُجاً آخر ، ققلت : يا أبا إسحاق ؛ خذ هذا ، واقعد على الباب مكانك وانتظر الجارية حتى تأتيك ، ثم قالت : يا جارية ، سكن المطر ؟ قالت : نعم ، ققامتا .

وخرجتُ وقعدتُ مكانى ، فما شعرتُ إلا والجارية قد وافت بمديل فيه خمسة أثواب ، وصرَّة فيها ألف درهم ، وقالت : تقول لك مولاتى : أُنْفِقْ هذه فإذا احتجبتَ فصرَّ إلينا حتى نزيدك إن شاء الله .

فأخذت ذلك وقت ، وقلت فى نفسى : إن ذهبتُ بالدُمْلُجَيْنِ إلى امرأتى قالت : هذا لبناتى وكأثرتنى^(٤) عليهما ، فدخلت السوق ، فبعتهما بخمسين ديناراً ، وأقبلت .

فلما فتحت الباب صاحت امرأتى وقالت : قد جئتُ أيضاً بشوئُمك ، فطرحَت الدنانير والدرهم بين يديها والثياب ، ققلت : من أين لك هذا ؟ قلت : من الذى تشاءمت به ، وزعتِ أنه بضاعتى التى لا تجدى ، ققلت : قد كانت عندى فى غاية الشؤم ، وهى اليوم فى غاية البركة !

(١) الحزن : ضد السرور (٢) يستوى فيه المذكر والمؤنث (٣) الدمليج : ما على الساعد من الحلى (٤) كأثرته : غلبه بالكثرة .

١٣٧ — حديث جويرية*

قال متم العبدى : خرجتُ من مكة زائراً قبر النبي صلى الله عليه وسلم
فإني لبِسُوقُ الْجُحْفَةِ ^(١) إذا جُوَيْرِيَّة ^(٢) نسوق بعيراً ، وتترنم بصوتٍ مَلِيحٍ طَيِّبٍ
حُلُو في هذا الشعر :

ألا أيُّها البَيْتُ الذي حِيلَ دونه بنا أنت من بيتٍ وأهلك من أهل
بنا أنت من بيتٍ وحولك لذّة وظلّك لو يسطاع بالبارد السَّهْلُ
ثلاثة آيَاتٍ : فَيْتٌ أَجِبُهُ ، ويتان لَيْسَا من هَوَايَ ولا شَكْلِي
فقلت : لمن هذا الشعر يا جُوَيْرِيَّة ؟ قالت : أما ترى تلك الكُوَّةَ الموقاةَ
بالِكَلَّةِ ^(٣) الحمراء ! قلت : أراها ، قالت : من هناك نهض هذا الشعر ؛ قلت :
أو قائله في الأحياء ؟ قالت : هيهات ! لو أن لميت أن يرجع لطول غيبته لكان ذلك ؛
فأنجبنى فصاحة لسانها ، ورقّة ألفاظها : فقلت لها : ألك أبوان ؟ فقالت : فَقَدْتُ
خبرهما وأجلهما . ولى أمّ ، قلت : وأين أمّك ؟ قالت : منك بمَرَأَى وَمَسْمَعٍ .
فنظرتُ فإذا امرأة تَبِيعُ الخُرَزَ على ظهر الطريق بالجُحْفَةِ ، فأتيتهَا فقلت :
يا أمّاه ، استمعي مِنِّي ، فقالت لها : يا أمّاه ، فاستمعي من عَمَى ما يلقيه إليك ،
فقلت : حيّاكَ الله اِهْيَا ، هل من خبر ؟ قلت : أهذه ابنتك ؟ قالت :
كذا كان يقول أبوها ، قلت : أفترجئنيها لي ؟ قالت : أَلِمَّةٌ رَغِبَتْ فيها ! والله
ما عندها جمال ولا لها مال ، قلت : لحلاوة لسانها ، وحسن عقلها ، فقالت :

* الأغانى : ٢٠ - ٦

(١) الجحفة : قرية على اتّابن وثمانين ميلاً من مكة (٢) جويرية : تصغير جارية (٣) الكلة :
السراويل الرقيق .

أيتنا أملكُ بها ، أنا أم هي بنفسها ؟ قلت : بل هي بنفسها . قالت : فإيّاها فخطب ،
قلت : لعلها أن تستحي من الجواب في مثل هذا ! فقالت : ما ذاك عندها ،
أنا أخبرُ بها . قلت : يا جارية ، أما تستمعين ما تقول أمك ؟ قالت : قد سمعت .
قلت : فما عندك ؟ قالت : أو ليس حسبك أن قلت : إني أستحي من الجواب في
مثل هذا ؟ فإن كنت أستحي من شيء فلم أفعله ؟ أتريد أن يكون سلطانك على ؟
لا والله ، لا يشدّ على رجل حواء^(١) وأنا أجد مدّة^(٢) لبن أو بقلّة اللبن
بها معاً .

فورد على الله أعجبُ كلام على وجه الأرض ، قلت : أنزّوَجك والإذنُ
فيه إليك ؛ وأعطى الله عهداً ألا أصدر في أمرك شيئاً إلا عن إرادتك ، قالت :
إذن والله لا تكون لي في هذا إرادة أبداً ولا بعد الأبد إن كان بعده بعد ! قلت :
فقد رضيت بذلك ، وتزوجتها وحمّلها وأتمها معي إلى العراق . وأقامت معي حتى
قارقت الدنيا .

(١) الحواء اسم المكان الذي يحوى الشيء ويحميه (٢) مدقّ اللبن : خلطه ، والمذقة : الطائفة
من اللبن المذوق .

١٣٨ — أحلف وأنا في هذه السن *

باع مَزِيدَ المدينى دابةً ، فلما كان من الغد أتاه النخاسون ^(١) طمعاً ، فلما نظر إليهم قد أقبلوا نحوه قام يصلى ، فأطال الصلاة ، فقالوا له : وهم لا يعرفونه : يا عبد الله ؛ قد ذهب يومنا - وأطمعهم طول قيامه ، وكان أحسن الناس سمتاً ، وأظهرهم هدياً - فأنفقتل ^(٢) عن صلاته ، وقال : ما بالكم ؟ قد قطعتم على صلاتى !

فقالوا له : قد ظهر بالدابة عيب ، قال : وما عيبه ^(٣) ؟ قالوا : يخلع الرّسن ^(٤) ! قال : لا أعرفه بهذه الصفة ؛ فماذا تريدون ؟ قالوا : خصلة من ثلاث : إما الحطيطة ^(٥) ، وإما ردّ الثمن وأخذ الدابة ، وإما اليمين بالله إنك ما تعرف هذا فيه .

فقال : أما الثمن فقد فرقناه ، وأما الحطيطة فما تمكنا ، وأما اليمين فإني ما حلفت قط على حق ولا على باطل ؛ فأعفوني منها ، فإنها أصعب الخلط ^(٦) عندي . قالوا : مامن ذلك بدّ ؛ فأنطلق بنا إلى الوالى .

فقام معهم ، فلما بصر به الوالى ضحك ، وقال : ما جاء بك يا أبا إسحاق ؟ فقص عليه القصة ، فقال : قد أنصفك القوم : فقال : أعزّ الله الأمير ، أحلف وأنا في هذه السن

* ذيل زهر الآداب : ١٥٧

(١) النخاس : بائع الدواب (٢) انقتل عن صلاته : انصرف (٣) الدابة تقع على المذكر أيضاً (٤) الرسن : الحبل ، وما كان من زمام على أقب (٥) الحطيطة : ما يحيط من الثمن (٦) الحطة : الطريقة .

السن ! وضرب يده على لحيته وبكى ! وقال : ما حلفتُ على حقٍّ ولا على باطل والتوى ^(١) .

قال : لا بد ! فالتوى ساعة ، ثم قال ، أصلح الله الأمير ؛ فإن حملتُ نفسي على اليمين وحلفتُ وأعنتوني ^(٢) بعد ! قال : أوجعهم ضرباً وأجسمهم !
فلما سمع ذلك استقبل القبلة ، وأقسم بأغلظ الأيمان . وقال : لقد كان عندي دواب كلها تَحْلَعُ أَرْسانها ، فكان الحمار يقوم فيعيدها عليها ، ويصلحها بضمه قليلاً قليلاً ؛ فضحك الوالى حتى فَحَصَ الأرض برجليه ، وبُهِتَ الناحسون وعجبوا منه ؛ وانصرفوا عنه !

(١) التوى : تناقل ولم يفعل (٢) الإعنات : تكليف غير الطاقة .

١٣٩ — ضربتان *

تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة ، فكانت جارية الجديدة تمر على
بيت القديمة ، فتقول :

وما يستوى الرجلان رجلٌ صحيحٌ وأخرى رى فيها الزمان فشلت
ثم تعود فتقول :

وما يستوى الثوبان ثوبٌ به البلى وثوبٌ بأيدي البائعين جديد
فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت :

قل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحينئذ أبدأ لأول منزل

١٤٠ — من كذب الأعراب *

تكاذب أعرابيان ؛ فقال أحدهما : خرجت مرةً على فرس لي ، فإذا بظلمةٍ
شديدةٍ فيمْتَثِبُ^(١) حتى وصلت إليها ، فإذا قطعة من الليل لم تَذْتَبِبه^(٢) ، فما زلتُ
أحمل بفرسي عليها حتى أُنْبَهْتُها ؛ فأنجابت^(٣) .

فقال الآخر : لقد رميتُ ظبيًّا مرةً بسهمٍ ، فعدل الظبيُ يَمْنَةً ، فعدل السهمُ
خَلْفَهُ فتياسر^(٤) الظبيُ ، فتياسر السهمُ خَلْفَهُ ، ثم علا ، فعلا السهم خلفه ، وانحدر
فانحدرَ خلفه ، حتى أخذه !

* الكامل : ١ - ٣٥٧

(١) قصدها (٢) لم تستيقظ (٣) انجابت : انكشفت (٤) تياسر : سار يساراً .

١٤١ — قَسَمَ فَأَحْسَنَ الْقِسْمَةَ*

حَدَّثَ أَعْرَابِيٌّ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِالْبَصْرَةِ قَالَ : قَدِمَ أَعْرَابِيٌّ مِنَ الْبَادِيَةِ ، فَأَنْزَلَتْهُ وَكَانَ عِنْدِي دَجَاجٌ كَثِيرٌ ، وَلِي امْرَأَةٌ وَابْنَانُ وَابْنَتَانُ مِنْهَا ، فَقُلْتُ لَامْرَأَتِي : بَادِرِي وَاشْوِي لَنَا دَجَاجَةً وَقَدِّمِيهَا إِلَيْنَا تَغْدِي .

فَلَمَّا حَضَرَ الْفَدَاءُ جَلَسْنَا جَمِيعًا أَنَا وَامْرَأَتِي وَابْنَايَ وَابْنَتَايَ وَالْأَعْرَابِيَّ فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ الدَّجَاجَةَ ، وَقُلْنَا لَهُ : اقْسِمْهَا بَيْنَنَا - نَزِيدُ أَنْ نَضْحَكَ مِنْهُ - فَقَالَ : لَا أَحْسِنُ الْقِسْمَةَ ؛ فَإِنْ رَضِيتُمْ بِقِسْمَتِي قِسْمَتَهَا بَيْنَكُمْ ، قُلْنَا : فَإِنَّا نَرْضَى ، فَأَخَذَ رَأْسَ الدَّجَاجَةِ فَقَطَعَهَا فَنَاقِلْنِيهِ ، وَقَالَ : الرَّأْسُ لِلرَّأْسِ - وَقَطَعَ الْجَنَاحَيْنِ - وَقَالَ : الْجَنَاحَانِ لِلْإِبْنَيْنِ - ثُمَّ قَطَعَ السَّاقَيْنِ - فَقَالَ : السَّاقَانِ لِلْإِبْنَتَيْنِ ، ثُمَّ قَطَعَ الزَّمَكِيَّ^(١) وَقَالَ : الْمَجْزُ لِلْمَجُوزِ ؛ وَقَالَ : الزُّورُ لِلزَّائِرِ ، وَأَخَذَ الدَّجَاجَةَ بِأَمْرِهَا وَسَخَّرَ بِنَا .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قُلْتُ لَامْرَأَتِي : اشْوِي لَنَا خَمْسَ دَجَاجَاتٍ ، فَلَمَّا حَضَرَ الْفَدَاءُ قُلْتُ : اقْسِمْ بَيْنَنَا . قَالَ : إِنِّي أَظُنُّ أَنَّكُمْ وَجَدْتُمْ^(٢) فِي أَنْفُسِكُمْ ، قُلْنَا : لَا ، لَمْ نَجِدْ فِي أَنْفُسِنَا ؛ فَاقْسِمْ ! قَالَ : اقْسِمْ شَفْعًا أَوْ وَثْرًا^(٣) ؟ قُلْنَا : اقْسِمْ وَثْرًا ، قَالَ : أَنْتِ وَامْرَأَتُكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ ، وَرُمِي إِلَيْنَا بِدَجَاجَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَابْنُكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ ، وَرُمِي إِلَيْهِمَا بِدَجَاجَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَنَا وَدَجَاجَتَانِ ثَلَاثَةٌ ، وَأَخَذَ دَجَاجَتَيْنِ ، وَسَخَّرَ بِنَا !

* نِهَاجَةُ الْأَرْب : ١ - ١٧ ، الْحَيَوَان : ٢ - ١٣٠

(١) الزَّمَكِي : ذَنْبُ الطَّائِرِ (٢) وَجَدَ : جَزَنَ (٣) الْوَتَرُ : الْفَرْدُ ، وَالشَّعْغُ ضِدُّهُ .

ثم رأنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه ؛ فقال : ما تنظرون ؟ أعلّمكم كرهتم قسمة
الوتر ، لا يجيء إلا هكذا ؛ فهل لكم في قِسْمَةٍ لِلشَّفْعِ ؟ قلنا : نعم ؛ فضمّهن إليه
ثم قال : أنت وابنك ودجاجة أربعة ، ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : والمعجوز
وابنتها ودجاجة أربعة ، ورمى إليهن بدجاجة ، ثم قال : أنا وثلاث دجاجات
أربعة ، وضمّ إليه الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت
فهمتها !

١٤٢ — زهد وأدب *

قال محدث : قصدت منزل ابن بكَّار المرواني في أشبونة ^(١) ونُفِرت الباب، فنادى : مَنْ هذا ؟ فقلت : رجلٌ ممن يتوسَّلُ لرؤياك بقَرابة ، فقال : لا قرابة إلا بالتُّقى ؛ فإن كنتَ من أهله فادخل ، وإلا فتنح عني .

فقلت : أرجو في الاجتماع بك والاعتباس منك أن أكون من أهل التُّقى ، فقال : ادخل ، فدخلت عليه ، فإذا به في مُصَلَّاه ، وسُجَّحَةٌ أمامه ، وهو يمدُّ محبوبها ويستبح ، فقال لي : أمهلني حتى أنعم وظيفتي من هذا التسبيح ، ثم أقضى حَقَّك ؛ فقمعت إلى أن فرغ .

فلما قضى شغله عطف عليّ ، وقال : ما القرابة التي بيني وبينك ؟ فانتسبت له فعرف أبي ، وترحم عليه ، وقال لي : لقد كان نِعَمَ الرجل ، وكان لديه أدبٌ ومعرفة ، فهل لديك أنتَ مما كان لديه شيء ؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلُّم الأدب ، وقد تعلقْتُ من ذلك بما أتميزُ به ، فقال لي : هل تنظم شيئاً ؟ قلت : نعم ! وقد أُلْجِئني الدهر إلى أن أرزقَ به . فقال : يا ولدي ، إنه بئسما يُرْتَزَقُ به ، ونعم ما يُتَحَلَّى به إذا كان على غير هذا الوجه ، ولكن تحلِّ المِيتَةَ عند الضرورة ! فأنشدني — أصلحك الله — مما على ذِكْرِكَ من شعرك .

* فتح الطيب : ٢ : ١١٢

(١) أشبونة : بلد بالمغرب .

فطلبتُ بخاطري شيئاً أقابله به مما يوافق حاله ، فما وقع لى إلا فيما لا يوافقه من مجون ووصف خمر وما أشبه ذلك . فأطرقتُ قليلاً ، فقال : لعلك تنظم ! فقلتُ : لا ، ولكنى أفكر فيما أقابلك به ، فقولى أكثره فيما حملنى عليه الصبا والشخف ، وهو غير لائق بمجلسك .

فقال : أنشدنى ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدنى خاطرى إلا بشعر أئجن^(١) فيه ، فقال : أما كان فى نظمك أظهر من هذا ؟ فقلت له : ما وقفتُ لغيره^(٢) ، فقال : لا بأس عليك ، فأنشدنى غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولى :

ولما وقفتُ على ربهم تجرعتُ وجدي بالأجرع^(٣)
وأرسل دمعى شيراراً الدُموع لنارٍ تأنججُ فى الأضلع
فقام عدوى لـمـأراى بكائى وقفاً على الأذمع
فقلت له : هذه سنة لمن حفظ العهد فى الأزبع^(٤)

فرايت الشيخ قد اختلط ، وجعل يحى ويذهب ؛ ثم أفاق ، وقال : أعد بحق آبائك الكرام . فأعدتُ فأعاد ما كان فيه ، وجعل يردد . فقلت له : لو علمت أن هذا يحررك ما أنشدتك إياه ، فقال : وهل حررك منى إلا خيراً وعِظَةً يا بُنى ؛ إن هذه القلوب الخلاة لله كالأوراق التى جفت ، وهى مستعدةٌ لمهبوب الرياح ، فإن هبَّ عليها أقلُّ ريح لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طوعه .

(١) أئجن من باب قعد : هزل .

(٢) راجع هذا الشعر فى صفحة ١١٢ من الجزء الثانى من نفع الطيب ، وقد حذفناه لما فيه من المجون (٣) الأجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل (٤) الأربع ، جمع ربيع : الدار بعينها .

فأعجبني مَنزعه ، وتأنستُ به ، ولم أر عنده ما يُعتادُ من هؤلاء المتدينين من الانكماش ؛ بل ما زال يحدّثني بأخبارٍ فيها هَزَلٌ ، ويذكر لي من تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاحُ له ، ولا أعلم أكثره .

فلما كثرتْ تأنسي به ، أهويتُ إلى يده كي أُقبلها ، فضمها بسرعة ، وقال : ما شأنك ؟ فقلت : أرغب في أن تنشدني شيئاً من نظمك ؛ فقال : أمّا نظمي في زمان الصبا فكان له وقتٌ ذهب ، ويجب للنظم أن يذهبَ معه ، وأمّا نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ؛ وهو يثقل عليك ، فقلت له : إن أنصفَ سيدي أنشدني من نظمِ صباه ، ومن نظمِ شيخوخته ، فيأخذُ كلانا بحظه . فضحك ، وقال : ما أعصيك وأنت ضيفٌ ، ولك حرمة أدب ، ووسيلة قصد ، ثم أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وخفقتُ العبرة :

ثق بالذي سواك من	عدمِ فإياك من عدمٍ
وانظر لنفسك قبل قر	ع السن من قرطِ الندم
واحذر - وقيت - من الوري	واصحهم أعمى أصم
قد كنتُ في تيهٍ إلى	أن لاح لي أهدي علم
فأقذتُ نحو ضيائه	حتى خرجتُ من الظلم
لكن قناديلُ الهوى	في نور رشدي كالحُصم ^(١)

فوالله لقد أدركني فوق ما أدركه ، وغلب على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات ، وفلمتُ بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد حين ، فقال لي الشيخ : إن هذه يقظة يرجى معها خيرك ، والله مرشدك ومنقذك ، ثم قال لي :

(١) اللحم : الرماض والنعم ، وكل ما احترق من النار .

يَابْنِي ؛ هَذَا مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ الْآنَ ، فَاسْمَعْ مَا قُلْتُهُ فَيَا مَضَى ، وَاللَّهِ وَلِيُّ الْمَغْفِرَةِ ،
وَأَشَدُّ :

أَطْلَّ عِذَارًا عَلَى خَدِّهِ فَفَظَنُوا سُلوًى عَنْ مَذْهَبِي
وَقَالُوا : غَرَابُ لَوْشِكِ النَّوَى قُلْتُ : اكَتَسَى الْبَدْرُ بِالْغَيْهَبِ ^(١)
وَنَادَيْتُ قَلْبِي : أَيْنَ الْمَسِيرُ وَبَدْرُ الدُّجَى حَلَّ بِالْمَقْرَبِ ^(٢)
فَقَالَ : وَلَوْ رُمْتُ عَنْ حَبِّهِ رَحِيلاً عَصَيْتُ وَلَمْ أَذْهَبِ

فسمعت منه ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدم ، وقلت له :
لم أر أحسنَ من نظمك في جذرٍ ولا هزل . ثم قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم ؛
ما أرى فيه بأساً بعد اطلاع من يَعْلَمُ السرائرَ على ما في الضمائر ، فقلت له : فإِزْ
أَسْبَغْتَ عَلَى النِّعْمَةِ بزيادة شيء من هذا الفنَ فقلت ما تملك به قلبي آخر الدهر .
فقال يابني ؛ لا تملك قلبك غير حبِّ الله تعالى ، ثم قال : ولا أجمع عليك ردَّ قول
ومنعاً ، ثم أشد :

أَيُّهَا الشَّادِنُ الَّذِي حُسْنُهُ فِي الْوَرَى غَرِيبُ
لَحْظُ ذَاكَ الْجَمَالِ يُطْ فِي مَا بِي مِنَ الْهَيْبِ
وَعَلَيْهِ أَحُومُ دَهْ رِي وَلَكِنِّي أَخِيبُ
كَلَّا رُمْتُ زَوْرَةً قِيضَ اللَّهُ لِي رَقِيبُ

فَمَا زَجَّ قَلْبِي مِنَ الرِّقَةِ وَاللِّطَافَةِ لِهَذَا الشَّعْرِ مَا أَعْجَزُ عَنْ التَّعْبِيرِ عَنْهُ ، فَقُلْتُ لَهُ :
زِدْنِي زَادَكَ اللَّهُ خَيْراً ، فَأَنْشَدَنِي :

مَا كَانَ قَلْبِي يَدْرِي قَدَرَ حُبِّكُمْ حَتَّى بَعْدْتُمْ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْجَلْدِ

(١) الغيب : الطامة (٢) المقرب : برج في السماء

وكنيت أحسب أنى لا أضيق به ذرعاً فما حان حتى فت في عضدى
 ثم استمرت على كرهٍ مريرته^(١) فكاد يفرق بين الروح الجسد
 صاكن أن تلافوا باللقا رمقى فليس لى مهجة تقوى على الكمد
 ثم قال : حسبك ، وإن كلفتى زيادة ، فالله حسبك ، فقلت له : قد وكلتنى
 إلى كريم غفور ، فبالله إلا مازدتنى ؛ وأكبت لأقبل رجليه ، فضمهما وأنشدنى
 شعراً رقيقاً ؛ ملا سمعى عجائب ، وبسط أنسى ، وكتبت كل ما أنشدنى ، ثم قلت
 له : لولا خوفاً من التثجيل عليك لم أزل أستدعى منك الإنشاد حتى لا تجد
 ما تنشده . فقال : إن عدت إلى هنا تذكرت وأنشدتك ، فما عندى مما أضيفك به
 غير ما ممعته وما تراه .

ثم قام وجاء من بيت آخر فى داره بصحفة فيها حساً^(٢) من دقيق وكسور
 باردة ، فجعل يفت فيها ، ثم أشار إلى أن أشرب ، فشربت ، ثم شرب إلى أن
 أتينا على آخرها ، ثم قال : هذا غداء عمك نهاره ، وإنه لنعمة من الله تعالى ، أستديم
 بشكرها اتصالها .

فقلت له : يا عم ؛ ومن أين عيشك ؟ فقال : يا بنى ؛ عيشتى بتلك الشبكة أصطاد
 بها فى سواحل البحر ما أقتات به ، ولى زوجة وبنت يعود من غزلها مع ذلك ما نجد
 به معونة ؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خير كثير .

فتركته ، وفى نيتى أن أعود إلى زيارته بعد أيام خوف التثجيل ، فعدت إليه
 بعد ثلاثة أيام ، فنقرت الباب ، فكلمتنى المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت :
 إن الشيخ قد خرج إلى الغزو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ، ناله كالجنون ،

فقلت له : ما شأنك ؟ فقال : إني أريد أن أموت شهيداً وهؤلاء جيران لي قد عزموا على الغزو ، وأنا ماضٍ معهم ! ثم احتال في سيف ورمح ، وتوجه معهم ، وقال : نفسي هي التي تقتلني بهواها ، أفلا أقتصُّ منها فأقتلها ! فقلت لها : من خَلَفَ للنظر في شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ؛ فالذي خلقنا له لا نحتاج معه إلى غيره ، فأدركني من جوابها روعة ، وعلمتُ أنها مثله زهداً وصلاحاً .

فقلت : إني قريبه ، ويجب عليّ أن أنظرَ في حالكم بعده ؛ فقالت : يا هذا ؛ إنك لستَ بذى مَحْرَمٍ ، ولنا من العجائز من ينظرُ لنا ، ويبيع غزلنا ، ويتفقد أحوالنا ؛ فجزاك الله عنا خيراً . انصرف عنا مشكوراً !

فقلت لها : هذه دراهم خذوها لتستعينوا بها ، فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ من غير الله ، وما كان لنا أن نخلّ بالعادة .

فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ . ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه ، فقالت لى المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ؛ فعلت أنه قتل ؛ فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

فانصرفتُ معتبراً من حاله .

١٤٣ — تشابه خاطرين*

قال ابنُ ظافر : صِرْنَا فِي بَعْضِ الْعَشَايَا عَلَى الْبَسَاتِينِ ، فَرَأَيْنَا فِيهَا بُتْرًا عَلَيْهَا
دَوْلَابَانِ مُتَحَاذِيَانِ ، وَهَمَا يَتَنَاقَصَانِ الْأَشْوَاقَ ، وَيَفِيضَانِ مَاءَ أَغْزَرٍ مِنْ دَمُوعِ
الْعُشَاقِ ، وَالرُّوضُ قَدْ جَلَا لِلْأَعْيُنِ زَبْرُجَدُهُ ، وَالْأَصِيلُ قَدْ رَاقَهُ حَسَنُهُ ، فَثَرَّ عَلَيْهِ
عَسَجَدُهُ ، وَالزَّهْرُ قَدْ نَظَّمَ جَوَاهِرَهُ فِي أَجْيَادِ الْغُصُونِ ، وَالسَّوَاقِ قَدْ أَزَالَتْ مِنْ
سُلَّاسِلِ فِصَّتِهَا كُلَّ مَصُونٍ ، وَالنَّبَاتُ قَدْ اخْضَرَ شَارِبُهُ وَعَارِضُهُ ، وَطَرَفُ النَّسِيمِ
قَدْ رَكَّضَهُ فِي مِيَادِينِ الزَّهْرِ رَاكِضُهُ ، وَرُضَابُ الْغَيْثِ قَدْ اسْتَقَرَّ مِنَ الطَّيْفِ فِي
لَمَى ، وَحَيَاتِ الْمَجَارَى حَائِثَةٌ تَخَافُ مِنْ زَمَرْدِ النَّبَاتِ أَنْ يَدْرِكَهَا الْعَمَى ، وَالْبَحْرُ قَدْ
صَفَلَ النَّسِيمَ دِرْعَهُ ، وَزَعَقَرَانَ الْعَشَى قَدْ أَلْقَى فِي ذَيْلِ الْجَوِّ دِرْعَهُ ؛ فَأَوْسَعَ ذَلِكَ
الْمَكَانَ قُلُوبَنَا اسْتَحْوَاذًا ، وَمَلَأَ أَبْصَارَنَا وَأَسْمَاعَنَا مَسْرَّةً وَالتَّذَاذًا ، وَجَلَسْنَا تَتَذَاكِرُ
مَا فِي تَرْكِيبِ الدَّوَالِيبِ مِنَ الْأَعَاجِيبِ ، وَنَتَنَاشِدُ مَا وُصِفَتْ بِهِ مِنَ الْأَشْعَارِ الْغَالِيَةِ
الْأَسْعَارِ ، فَأَفْضَى بِنَا الْحَدِيثَ الَّذِي هُوَ ذُو شَجُونٍ إِلَى ذِكْرِ قَوْلِ الْأَعْمَى^(١) الطَّلِيظِيِّ
فِي أَسَدٍ نَحْمَاسٍ يَقْذِفُ الْمَاءَ :

أَسَدٌ وَلَوْ أَتَى أَنَا قَشَهُ الْحَسَابِ لَقَلْتُ : صَخْرَهُ
فَكَأَنَّهُ أَسَدُ السَّمَاءِ يَمِجُّ مِنْ فِيهِ الْجُرَّةُ

* نفع الطيب : ٢ - ٢٩٢

(١) هو أبو جعفر الأعْمى الطَّلِيظِيُّ ، وَقَالَ عَنْهُ فِي مَطْمَحِ الْأَنْفُسِ : لَهُ ذَهْنٌ يَكْشِفُ الْقَامُضَ الَّذِي
يَخْفَى ، وَيَعْرِفُ رَسْمَ الْمَشْكَلِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عَفَا ، . . . ص ٢٨٥ مِنْ مَطْمَحِ الْأَنْفُسِ .

فقال القاضي أبو الحسن على بن المؤيد : يتوَلَّد من هذا في الدولاب معنى يأخذ بمجامع السامع ويطربُ الرائي والسامع ؛ فتأملت ما قاله بعين بصيرتي البصيرة ، واستمددت مادةَ غَرَبَتِي الغزيرة ؛ فظهر لي معني ملأني إطراباً ، وأوسعني إعجاباً ؛ وأطرق كلُّ منا ينظّم ما خاش به مدُّ محرمه ، وأنباه به شيطان فكره ، فلم يكن إلا كنفرة العصفور ، الخائف من الناطور^(١) ، حتى كمل ما أردناه من غير أن يقف واحدٌ منا على ما صنعه الآخرُ ، فكان الذي قال :

حَبِّذا ساعة العشاء والدُّو لَابٌ يُهْدِي إِلَى النفوسِ السَّرَّةِ
أَدْهَمَ لَا يَزَالُ يَمْدُو وَلَكِنْ لَيْسَ يَمْدُو مَكَانَهُ قَدَّرَ ذَرَّةُ
ذُو عَيْنٍ مِنَ الْقَوَادِسِ يَبْكِي كُلَّ عَيْنٍ مِنْ فَائِضِ الدَّمْعِ ثَرَّةُ
فَلَكَ دَائِرَةٌ يُرِينَا نَجُومًا كُلُّ نَجْمٍ يُبْدِي لَنَا الْجَرَّةُ
وَكَانَ الَّذِي قُلْتُ :

ودولابٍ يَنْثُنْ أَنْيْنَ نَكَلِي وَلَا قَدْرَ شَكَاةٍ وَلَا مَضَرَّةُ
تَرَى الْأَزْهَارَ فِي ضَحْكٍ إِذَا مَا بَكَى بِدَمْعٍ عَيْنٍ مِنْهُ ثَرَّةُ
حَكَى فَلَكَا تَدَوُّرُ بِهِ نَجُومٌ تَوَزَّرَ فِي سَرَائِرِنَا الْمَسَرَّةُ
يَظْلُ النَّجْمُ يُشْرِقُ بَعْدَ نَجْمٍ وَيَضْرِبُ بَعْدَ مَا جَرَى الْجَرَّةُ
فَعَجَبْنَا مِنْ اتِّفَاقِنَا ، وَقَضَى الْعَجَبَ مِنْهُ سَائِرُ رَفَاقِنَا .

(١) الناطور : حافظ الكرم .

١٤٤ — إنما توجد في قعر البحار الفصوص *

ألف أبو العلاء صاعدٌ كتابَ الفصوص ، واتفق أن أبا العلاء دفعه - حين
كَمَل - لعلام له يحمله بين يديه ، وعبر النهر - نهرَ قرطبةَ - فخانَت الغلامَ رجلُه ؛
فسقط في النهر هو والكتاب !

فقال في ذلك بعضُ الشعراء بيتاً بحضرة المنصور هو :
قد غاص في البحر كتاب الفصوصُ وهكذا كل ثقیلٍ يغوصُ
فضحك المنصور والحاضرون .

فلم يرُعْ ذلك صاعداً ، ولا هالَهُ ، وقال مرتجلاً مجيباً :
عاد إلى مَعْدِنِهِ إِنَّمَا توجد في قَعْرِ البحارِ الفصوصُ !

البَابُ الرَّابِعُ

في القصص التي تُوَرِّخُ مَذْكُورَ أَيامهم وتفصِّلُ مشهور
وقائعهم، ومقتل كبرائهم، وتصف الحروب والمنازعات التي
كانت تدور بين قبائلهم أخذاً بالثار، أو حماية للذمار.

[اقتصرنَا في هذا الباب على القصص الأدبي ، أما تفصيل الأيام وتاريخها فقد
أفردنا لها كتابي « أيام العرب في الجاهلية » و « أيام العرب في الإسلام »]

١٤٥ — كأن لم يكن بين الحُجُونِ إلى الصَّفا

أنيسٌ ولم يسُر بمكة سامرٌ*

حدث بعض أهل العلم ، أن سَيْلاً جاء فدخل البيت فأنهَدَمَ ، فأعادته جُرُهم
على بناء إبراهيم ، ثم استخفَّت جرم بحق البيت ، وارتكبوا فيه أموراً عظيماً ،
وأحدثوا فيه أحداثاً قبيحة ، وكانت للبيت خِزَانَةٌ ، وهي بئرفى بطنه يلقى فيها المتاع
الذي يُهدى له ، وهو يومئذ لا سَقْفَ عليه ، فتواعد خمسة من جُرهم أن يسرقوا
كلَّ ما فيها ، فقام على كل زاوية من البيت رجلٌ منهم ، واقتحم الخامس ، فجعل
الله عز وجل أعلاه أسفله ، وسقط منكساً فهلك ، وفرَّ الأربعة الآخرون .

فلما كثر بُغْيُ جُرهم بمكة قام فيهم مُضاض بن عمرو فقال : يا قوم ؛ احذروا
البُغْيَ فإنه لا بقاء لأهله ، وقد رأيتم من كان قبلكم من العالِق استخفَّوا بالحرم ،
ولم يعظّموه ، وتنازعوا بينهم ، واختلفوا حتى سلَّطكم الله عليهم فاجتَحَمَموهم ، فتنفروا
في البلاد ، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله ، ولا تظلموا من دخله ، وجاءه
معظماً لحُرُماته ، أو خائفاً ورغب في جواره ، فإنكم إن فعلتم ذلكم تخوفت أن
تخرجوا منه خروج دُلٍّ وصغار ، حتى لا يقدر أحدٌ منكم أن يصل إلى الحرم ، ولا
إلى زيارة البيت الذي هو لكم حِرْزٌ وأمن ، والطير تأمن فيه .

فقال قاتل منهم : ومن الذى يُخرجنا منه ؟ ألسنا أعزَّ العرب وأكثر مالا وسلاحاً ! فقال مُضاض : إذا جاء الأمر بطل ما تذكرون ، فقد رأيتم ما صنع الله بالعالمين ... بقت في الحرم فسَلَطَ الله عليهم الذَّيْرَ ^(١) فأخرجهم منه ، ثم رُمُوا بالجدب من خلفهم حتى ردهم الله إلى مساقط رءوسهم . ثم أرسَلَ عليهم الطوفان .

فلما رأى مُضاض بن عمرو بغيثهم ومقامهم عليه عِد إلى كنوز السكبة وهى غَزَالان من ذهب ، وأسياف قَلَمِيَّة ^(٢) فخر لَهَا لَيْلاً في موضع زمزم ودثها .

فبيناهم على ذلك إذ سارت القبائل من أهل مَأْرِب ، وعليهم مُزَيْقياء ، وهو عمرو بن عامر ، فلما انتهوا إلى مكة وأهلها أرسل إليهم ابنه ثعلبة فقال لهم : يا قوم ؛ إنا قد خرجنا من بلادنا ، فلم نزل بلدة إلا أنفسح أهلها لنا ، فقيم معهم حتى نرسل رُؤاداً فيرتادوا لنا بلداً يحملنا . فأنفحوا لنا في بلادكم حتى قيمَ قَدَر ما نستريح ، ورسَلَ رُؤاداً إلى الشام وإلى الشرق فيخبرنا بلغنا أنه أمثل لحِقنا به ، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيراً .

فأبَتْ ذلك جُرْهم إباءً شديداً ؛ واستكبروا في أنفسهم ، وقالوا : لا والله ، ما نحبُّ أن ينزلوا فيضيّقوا علينا صرايقنا ومواردنا ، فازحلُّوا عنا حيث أحببتهم ، فلا حاجة لنا بجواركم .

فأرسل إليهم : أنه لا بد من المقام بهذا البلد حولاً حتى ترجعَ إلى رُسُلِي التى

(١) الذر : صغار النمل (٢) قلمية : نسبة إلى قلمة ، وهى بلد بالهند ، إليها ينسب الرماص والسيوف .

أرسلت ، فإن أنزلتموني طَوْعًا نزلت وحمدتكم وآسيتكم^(١) في الرغى والماء ، وإن أبيتُم أقت على كُرْهِكم ، ثم لم ترتعوا معي إلا فضلًا ، ولا تشربوا إلا رَنَقًا^(٢) ، وإن قاتلتُموني قاتلتكم ، ثم إن ظهرتُ عليكم سببتُ النساء ، وقتلتُ الرجال ، ولم أترك منكم أحدًا ينزل الحَرَمَ أبدًا .

فَأَبَتْ جُرْهم أن تُنْزِلَه طَوْعًا ، وتَهَيَّأتُ لِقْتالَه ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أفرغ عليهم فيها الصبر ، ومُنِعُوا النصر ، ثم انهزمت جُرْهم ، فلم يُقِلت منهم إلا الشديد ، وكان مُضَاض بن عمرو قد اعتزل حربهم ، ولم يعنهم في ذلك وقال : قد كنت أحذرهم هذا .

ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قَنَوْنِي^(٣) وما حوله .

فلما حازت خُزاعة أمر مكة ، وصاروا أهلها جاءهم بنو إسماعيل - وقد كانوا اعتزلوا حرب جُرْهم وخُزاعة ، فلم يدخلوا في ذلك - فسألوهم الشكْنى معهم وحوْلهم ، فأذِنوا لهم ، فلما رأى ذلك مُضَاض - وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة أمر عظيم - أرسل إلى خُزاعة يَسْتَأْمِنُها ، ومَتَّ إليهم برأيه وتَوْرِيعه^(٤) قومَه عن القتال ، وسوء العِشرة في الحَرَم ، واعتزاله الحرب ، فَأَبَتْ خُزاعة أن يُقِرُّوهم ونَفَّوهم عن الحَرَم وقالوا : مَنْ دخله منهم فدمُه هَدَر^(٥) .

فنزعت بل لمضاض من قَنَوْنِي تريد مكة ، فخرج في طلبها حتى وجدها قد دخلت مكة ، فضى إلى الجبال نحو أجْيَاد حتى ظهر على أبي قُبَيْس يتبصر

(١) آسيتكم : شاركتكم .
(٢) الرنق : الكدر من الماء . (٣) قنوني : واد يصب في البحر في أوائل أرض اليمن .
(٤) التوريع : الكف عن الشيء . (٥) أي باطل ليس فيه قود .

الإبل في بطن وادي مكة ، فأبصر الإبل تُنَحَّر وتؤكل لا سبيل له إليها ، تخاف إن هبط الوادي أن يُقتل ، فوَلَّى منصرفاً إلى أهله وأنشأ يقول :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ
ولم يترتع واسطاً فجنوبة	إلى المنحنى من ذى الأراكة حاضرُ
بلى نحنُ كنّا أهلها فأبادنا	صروفُ الليالي والجدودُ ^(١) العوائرُ
وأبدلنا ربّي بها دارَ غربةٍ	بها الذئبُ يعوى والعدوُّ المخامرُ
أقول إذا نام الخلى ولم أتم	أذا العرش لا يبعد سهيلٌ وعامرُ ^(٢)
وبدلتُ منهم أوجهما لا أريدها	وحيرٌ قد بدلتها واليحابرُ ^(٣)

فهل فرجٌ آتٍ بشيءٍ تحبّه وهل جزعٌ منجيك مما تحاذرُ !

(١) الجدود : المخطوط (٢) إذا العرش : أى ياذا العرش (٣) يحابر : اسم قبيلة .

١٤٦ -- ألا من يشتري سَهراً بنوم *

تفرقت حَمِيرٌ على مَلِكها حَسَنان ، وخالفت أَمْره ؛ لسوء سِيرته فيهم ، ومالوا إلى أخيه عمرو ، وحملوه على قَتْل حَسان ، وأشاروا عليه بذلك ، ورغبوه في المَلِك ، ووعدوه حَسَنَ الطاعة والمُوازرة ، فنهاه ذُو رُعَيْن من بَيْت حَمير عن قَتْل أخيه ، وعلم أنه إن قَتَلَ أخاه نَدِمَ ونَفَرَ عنه النوم ، وانتَقَضَتْ عليه أُموره ، وأنه سَيُعاقِبُ الذي أشار عليه بذلك ، ويعرف غِشَّهم له .

فلما رأى ذُو رُعَيْن أنه لا يقلل ذلك منه ، وخشى العواقب قال :

ألا من يشتري سَهراً بنومٍ سعيدهُ من بيتِ قَريرَ عَيْنِ
فإِما حَميرٌ غدرت وخانتُ فمَـذَرَةُ الإلهِ لذي رُعَيْنِ

ثم كتب البيتين في صحيفة ، وختم عليها بخاتم عمرو ، وقال : هذه وديعةٌ لي عندك إلى أن أطلبها منك ؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خازِنه ، وأمره برفعها إلى الخزانة ، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها :

فلما قَتَلَ أخاه ، وجلس مكانه في المَلِك مُنِعَ منه النوم ، وسلَّطَ عليه السهر ؛ فلما اشتد ذلك عليه ، لم يَدْعُ باليمن طبيباً ولا كاهناً ، ولا مُنَجِّماً ، ولا عرافاً ولا عاتقاً ، إلا جمعهم ، ثم أخبرهم بقصته ، وشكا إليهم ما به . فقالوا له : ما قَتَلَ رجلٌ أخاه أو ذا رحمٍ منه على نحو ما قَتَلْتَ أخاك إلا أصابه السهر ، ومُنِعَ منه النوم !

فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من أقبالٍ حَيْرَ ، فقتلهم وأفتأهم .

فلما وصل إلى ذى رُعَيْن قال له : أيُّها الملك ؛ إنَّ لى عندك براءة مما تريد أن تصنع بى . قال : وما براءتُك وأمانك ؟ قال : مُرْ خازِنك أن يُخرج الصحيفة التى استودعتكها يوم كذا وكذا .

فأمر خازِنه فأخرجها ، فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضَّها ، فإذا فيها البيتان :

* ألا من يشتري سهرأ بنوم ^(١) *

ثم قال له : أيُّها الملك ؛ قد نهيتك عن قتل أخيك ، وعلمتُ أنك إن فعلتَ ذلك أصابك الذى قد أصابك ، فكتبتُ هذين البيتين براءةً لى عندك مما علمتُ أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك !

فقبل ذلك منه وعفا عنه ، وأحسنَ جائزته .

(١) ذهب مثلاً ، ويضرب لمن غمط النعمة وكره العافية .

١٤٧ — غثك خيرٌ من سمين غيرك *

كانت بين مذحج وحي من أحياء العرب حربٌ شديدة ، فرَّ مَعْنُ بن عطية المذحجي في حَمَلَةٍ حملها برجل من أعدائهم صريعاً ؛ فاستغاثه وقال :
 امْنُ عَلَى كَفَيْتَ البلاء ! فأقامه مَعْنُ ، وسار به حتى بلغ مَأْمَنَهُ ، ثم عطف
 أولئك القوم على مَذْحِج فهِزْمُوهم وَأَمَرُوا مَعْنًا وَأَخَاهُ يَقَالُ لَهُ : روق ، وكان
 يُضَعَفُ وَيُحْمَقُ ^(١) .

فلما انصرفوا إذا صاحبُ مَعْنُ الذي نَجَّاهُ أخو رئيس القوم ، فناده
 مَعْنُ وقال :

يا خَيْرَ جَارٍ بَيْدٍ أُولَيْتَهَا نَجَجَ مُنْجِيكَ
 هل من جزاء عندك اليوم لمن ردَّ عواديك

فعرفه صاحبه ، فقال لأخيه : هذا المانُّ عَلَى ، وَمُنْقِذِي بعد ما أشرفتُ على
 الموت فنهبني لي ، فوهبه له : فخلني سبيله ، وقال : إني أَحِبُّ أَنْ أضعاف لك
 الجزاء ، فاخترتُ أسيراً آخر ؛ فاختر مَعْنُ أخاه رَوْقًا ، ولم يلتفتْ إلى سَيِّدِ مَذْحِج
 وهو في الأسارى .

ثم انطلق مَعْنُ وأخوه راجعين ، فرَّ بأسارى قومهما ، فسألوا مَعْنًا عن حال

* يجمع الأمثال : ٢ - ٤

(١) حمقه : نسبه إلى الحمق . وضعفه : عده ضعيفا .

سيدهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا لمن : قبحك الله تدعُ سيد قومك وشاعرهم
لا تفكّه ، وتفقّ أخاك هذا الأنوك^(١) الفسل^(٢) الرذل^(٣) . فوالله ما نكأ جرّحاً
ولا أعمل رحماً ، ولا ذعر مَرَحاً^(٤) ؛ وإنه لقييحُ المنظر سيّئُ الخبر ، لئيم : فقال
معن : « غثك خيرٌ من سمينٍ غيرك^(٥) » .

(١) الأنوك : الأحمق (٢) الفسل : الرذل الذي لا مروءة له (٣) الرذل : الدون
الحسيس . (٤) السرح : المال السائم (٥) ذهب مثلاً .

١٤٨ — مقتل كليب *

كان كُليب^(١) قد عزَّ وساد في ربيعة ؛ فَبَغَى كَفِيًّا شَدِيدًا ، وكان هو الذي يُنْزِلُهُمْ منازلَهُمْ ويرحِّلُهُمْ ، ولا يَنْزِلُونَ ولا يرحلون إلَّا بأمره ؛ فضرِبَ به المثلُ في العِزِّ ؛ فقيل : أعزُّ من كليبِ وائل ! وكان لا يُجِيرُ أحدٌ من بكرٍ وتغلبٍ إلَّا بإذنه ، ولا يُحْمِي حَمِيًّا إلَّا بأمره ، وكان إذا حَمَى حَمِيًّا لا يُقْرَب .

وكان لمرَّةٍ بن ذُهل بن شيبان عشرة بنين ، جَسَّاسٌ أصفرهم ، وكانت أختهم عند كليب .

وكان لجساس^(٢) خالة تُعرف بالبَسُوس ؛ فجاءت فنزلت على ابن أختها جَسَّاس ، فكانت جارةً لبني مرة ، ومعها ابنٌ لها ، ولها ناقة خَوَّارة^(٣) ، ومعها فَصِيلٌ ، فرأى كُليبُ الناقة فأنكرها ، فقال : لمن هذه ؟ قالوا : لخالة جَسَّاس ، قال : أَوَقَدْ بَلَغَ من أمر ابن السَّعْدِيَّة أن يُجِيرَ علىِّ بغيرِ إذني الرِّمِ ضَرَعُها يا غلام ، فأخذ القوسَ فرمى ضَرَعَ الناقة ، فاختلف دَمُها بلبنها .

وراحت الرُّعاة على جَسَّاس فأخبروه بالأمر ، فقال : احلبوا لها مِكْيالًا لبن ، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا .

* الأغاني : ٥ - ٣٤ ، الأمثال : ١ - ٣٤١ ، العقد الفريد : ٣ - ٣٤٨ ، نهاية الأرب : ٥ - ٢١٤ ، الكامل لابن الأثير : ١ - ٣١٢ .
(١) كليب بن ربيعة ، سيد الحيين : بكر وتغلب في الجاهلية ، ومن الشجعان الأبطال وقتل نحو سنة ١٣٥ ق . هـ . (٢) جَسَّاس بن مرة من بني بكر بن وائل ، شجاع شاعر من أمراء العرب في الجاهلية ، وقتل في أواخر الحرب نحو ٨٥ ق . هـ . (٣) ناقة خَوَّارة : رقيقة حسنة .

وسكت جَسَّاسٌ ثم مَرَّتْ بِكَرٍّ عَلَى نَهْيٍ ^(١) يقال له : شَبَّيْثُ ، فنفاهم كليب عنه ، وقال : لا يذوقون منه قطرة . ثم مروا على نَهْيٍ آخر يقال له : الأَحْصَى ، فنفاهم عنه ، ثم مروا على نَظْنِ الْجَرِيبِ ^(٢) فنعمهم إياه ، حتى نزلوا الذَّنَّابُ ^(٣) ، وتبعهم كليبٌ وحيه حتى نزلوا عليه

ثم مرَّ عليه جَسَّاسٌ وهو واقف على غدير الذَّنَّابِ ، فقال : طردت أهلنا عن المياه حتى كِدْتَ تَقْتُلُهُمْ عَطْشًا ! فقال كليب : مامنعناهم من ماءٍ إلَّا ونحنُ له شاغلون . فقال له جَسَّاسٌ : هذا كفعلك بناقةٍ خالتي ! فقال له : أَوْقَدْ ذَكَرْتَهَا ! أما إني لو وجدتها في غير إبلٍ مُرَّةٍ لاستحلتُ تلك الإبلَ بها !

فعمط عليه جَسَّاسٌ فرسه ، فطعمته برُمُحٍ فَأَنْمَذَ حِصْنِيهِ ^(٤) ، فلما تَدَاوَمَ ^(٥) الموتُ قال : يا جَسَّاسُ ! اسقني من الماء ، قال : مَا عَقَلْتَ اسْتَدَاءَكَ الماءَ منذ وَلَدْتُكَ أُمُّكَ إلَّا سَاعَتَكَ هذه ! ثم أَمَّالَ يَدَهُ بالفرس حتى انتهى إلى أهله .

فَقَالَتْ أُخْتُهُ - حِينَ رَأَتْهُ - لِأُيُوبَ : إِنْ ذَا جَسَّاسٌ ! أَنَّى خَارِجَةً رُكِبَتْهُ ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا خَرَجَتْ رُكِبَتْهُ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ .

فلما جاء قول : ما وراءك يابني ؟ قال : ورأى أَنَّى قَدْ طَعَنْتُ طَعْنَةً لَتُشْفَلَنَّ بِهَا شَيْوُخٌ وَائِلُ زَمَنًا ؟ قال : أَقَتَلْتَ كَلْبِيًّا ؟ قال : نَعَمْ ! قال : وَدِدْتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتَكَ كُنْتُمْ مُتُّمْ قَبْلَ هَذَا ، مَا بِي إِلَّا أَنْ تَتَشَاءَ بِي أَبْنَاءُ وَائِلٍ ! فقال جَسَّاسٌ : تَاهَبُ عَنْكَ أَهْبَةٌ ذِي امْتِنَاعٍ فَإِنَّ الْأُمْرَ جَلَّ عَنْ التَّلَاحِي ^(٦)

(١) النهي : الغدير (٢) الجريب : واد عظيم (٣) الذنَّاب : موضع بنجد (٤) الحِصْنُ : مادون الإبط إلى الكشح (٥) تَدَاوَمَ الأمر : تراكم عليه (٦) التلاحى : المنازعة .

فإني قد جنيتُ عليك حرباً تُفصّر الشيخ بالماء القراح
فأجابه أبوه :

فإنّ تكُ قد جنيتَ علىّ حرباً فلا وانٍ ولا رثّ السلاح
سألِسُ ثوبها وأذُبُ عني بها يوم المذلة والفِضاح^(١)
وكان هَمَام^(٢) بن مُرّة آخى مهلهلاً^(٣) وعاقده ألا يكتمه شيئاً ، فجاءت
أمة له فأسرّت إليه قتلَ جساس كليياً ، فقال له مهلهل : ما قالت ؟ فلم يجبره ، فذكره
العهد بينهما ، فقال : أخبرتنى أن جساساً قُتلَ كليياً ، فلم يصدق مهلهل الخبر .
واجتمع نساء الحى للماتم ، فقلن لأخت كليب : رحّلى جلييلة - زوج كليب وأخت
جساس - عن ماتمك ؛ فإن قيامها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب ، فقالت لها : يا هذه ؛
اخرُجى عن ماتمنا ؛ فأنتِ أختُ وائرنا وشقيقةُ قاتلنا . فخرجت وهى تجرُ أعطافها ،
فلقبها أبوها مُرّة فقال : ما وراءك يا جلييلة ؟ فقالت مُكلُّ العدد وحزنُ الأبد ،
وفقد خليل ، وقتل أخٍ عن قليل ، وبين ذَيْن غَرَسُ الأحقاد ، وتفتّت الأكباد .
فقال لها : أويكفُ ذلك كرمُ الصفح وإغلاهِ الدّيات ؟ فقالت جلييلة : أُمّنية
مخدوع ورب الكعبة ! أبالبُذن^(٤) تدعُ لك تغلِبُ دمَ رها ! .

ولما رحلت جلييلة قالت أخت كليب : رِحْلةُ المعتدى ، وفراق الشامت ! ويلٌ
غداً لآل مُرّة ، من الكرّة بعد الكرّة . فبلغ قولها جلييلة ، فقالت : وكيف تَشَمّت
الحرّة بهتِكِ سِتْرِها وترَقُبِ وترها ! أسعد الله جدّ أختى ، أفلا قالت : نفرة الحياه ،
وخوف الاعتداء ! ثم أَسَأَتْ تقول :

(١) فضحه : كشف مساوئه ، والاسم الفِضاح ، وفي الاغانى : إن هذا الشعر لأخيه نضلة
(٢) همام : أخو جساس (٣) مهلهل : أخو كليب (٤) المراد الإبل .

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا
فإذا أنت تبينت الذى
إن تكن أخت امرئ ليمت على
جل عندى فعل جساس فيا
فعل جساس على وجدى به
لو بعين فقت عيني سوى
تحمل العين قذى العين كما
يا قتيلاً قوِّض الدهر به
هدم البيت الذى استحدثته
ورمانى قتله من كذب^(٢)
يا نسائي دونكن اليوم قد
خصنى قتل كليب بلظى
ليس من يبكى ليومين كن
بشتفى المذرك بالثار وفى
لته كان دمي فاحتلبوا
إننى قاتلة مقتولة

تفجلى باليوم حتى تسأل
يوجب اللوم فلومي واعذلى
شفق منها عليه فافعل
حسرتى عما انجلى أو تنجلي
قاطع ظهري ومذن أجلى
أختها فانفقات لم أخفل
تحمل الأم أذى ماتفتلى^(١)
سقف بيتي جميعاً من عل
وانثنى فى هدم بيتي الأول
رمية المصنى^(٣) به المستأصل
خصنى الدهر برزء مفضل
من ورائى ولظى مستقبلى
إنما يبكى ليوم ينجلي
دركى ثارى ثكل المشكل^(٤)
بدلاً منه دما من أكحلى^(٥)
ولم الله أن يرتاح لى

(١) تفتلى : تربي (٢) كذب : قرب (٣) أصماه : قتله فى مكانه (٤) المشكل :
الذى لازمها الحزن (٥) الأكحل : عرق فى الذراع يفصد .

ثم قال بنو تَغْلِبَ بعضهم لبعض : لا تَعْبَجُوا على إخوانكم حتى تَعْذِرُوا ^(١) بَيْنَكُمْ وبينهم ، فأنطلق رَهْطٌ من أشرافهم وذوى أسنانهم حتى أتوا مِرَّةَ بن ذُهْل ، فعظَّموا ما بينهم وبينه وقالوا : اختَرْنَا مَنَّا خِصَالًا : إما أَنْ تَدْفَعَ إلينا جَسَاسَ فَنَقْتَلَهُ بصاحبنا ؛ فلم يَظْلِمَ من قتل قاتله ، وإما أَنْ تَدْفَعَ إلينا هَمَامًا ، وإما أَنْ تَقِيدَنَا من نَفْسِكَ .

فسكت وقد حضرته وجوهُ بنى بكر بن وائل ، فقالوا : تكلمْ غيرَ نَحْذُول ، فقال : أَمَّا جَسَاسٌ فعَلَامٌ حَدِيثُ السَّنِّ رَكِبَ رأسه ، فهرب حين خاف ، فلا عِلْمَ لى به ؛ وأما هَمَامٌ فأبو عشرة ، وأخو عشرة ، ولو دفعته إليكم لصيَّح ^(٢) بنوه فى وجهى ، وقالوا : دفعت أبا نالٍ لِلْقَتْلِ بِحَرِيرَةِ غَيْرِهِ ؟ وأما أنا فلا أُنَعِّجِلُ الموت ، وهل تَزِيدُ الخليل على أَنْ تَجُولَ جَوْلَةً فَأَكُونَ أولَ قَتِيلٍ .

ولكن هل لكم فى غير ذلك ؟ هؤلاء بَنِيَّ ، فدوَّنكم أحدَهم فاقتلوه به ، وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمَّنْها لكم بكر بن وائل ، فغضبوا وقالوا : إنا لم نَأْتِكَ لِنَرْدِلَ ^(٣) لنا بنيك ، ولا لتسومنا اللذين ؛ ففترقوا ووقعت الحرب .

(١) تعذروا : أى عملوا على ألا يكون بينكم وبينهم ما يوجب الاعتذار (٢) صيَّح : صاح .
(٣) لردل لنا بنيك : أى تعطينا رذال بنيك .

١٤٩ — الهِجْرَس بن كليب يثَارَ لآيِهِ *

ولدت جلييلة زوج كليب غلاماً فسمته الهِجْرَس ، ورباه خاله جَسَّاس ، فكان لا يعرف أباً غيره ، وزوجه ابنته . فوقع بين الهِجْرَس وبين رجل من بني بكر بن وائل كلامٌ ؛ فقال له البكرى : ما أنت مُنْتَهٍ حَتَّى نُلْحِقَكَ . بأبيك ! فأمسك عنه ودخل على أمه كئيباً ، فسألته عما به ، فأخبرها الخبر .

فلما أَوَى إلى فراشه ، ونام إلى جَنْبِ امرأته وضعَ أنفه بين ثديها ، فنَفَسَ تَنْفَسَةً تَنْفَطُ^(١) ما بين ثديها من حرارتها ، فقامت الجارية فَرَعَةً ، قد أَقْلَتْهَا رَعْدَةٌ حَتَّى دَخَلَتْ على أبيها ، فقصت عليه قصَّةَ الهِجْرَس ، فقال جَسَّاس : نائِرٌ وَرَبُّ الكَعْبَةِ !

وبات جَسَّاسٌ على مثل الرَضْفِ^(٢) حَتَّى أَصْبَحَ ، فأرسل إلى الهِجْرَس فأتاه فقال له : إنما أنت ولدى ومَنى بالمكان الذى قد علمتَ ، وقد زَوَّجْتُكَ ابنتى ، وأنت معى ، وقد كانت الحربُ فى أَيْمِكَ زماناً طويلاً حَتَّى كدنا نَنفَى ، وقد اصطَلَحنا وتَحَاجَزْنَا ، وقد رأيتُ أن تدخلَ فيما دخل الناس فيه من الصلح ، وأن تنطلقَ حَتَّى نأخذَ عليك مثل ما أَخَذَ عَلَيْنَا وعلى قومنا .

فقال الهِجْرَس : أنا فاعل ؛ ولكنْ مثلى لا يأتى قومه إلا بِلَأْمَتِهِ وفرسه ، فعمله جَسَّاس على فرسه وأعطاه لَأْمَةً^(٣) ودرعاً ، فخرجا حَتَّى أتيَا جماعةً من

* الأغاني ٥١ - ٦١

(١) تنفط : قرح
(٢) الرضف : الحجارة التى حيت بالشمس أو النار يسخن بها اللب ،
(٣) اللأمة : السلاح .
واحدتها رضفة

قومهما . فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من العافية ،
ثم قال : وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخلَ فيما دخلتم فيه وبعقدَ ما عقدتم . فلما
قرّبوا^(١) الدمّ ، وقاموا إلى العقد أخذ الهجرسُ بوسط رُمحِه ، ثم قال : وفرّسى
وأذُنِيه ، ورمحي ونَصْلِيه ، وسيفي وغَرِيه^(٢) ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو
ينظر إليه ، ثم طعن جسّاساً فقتله ، ولحق بقومه ، فكان آخر قتيل في
بكر بن وائل .

(١) كان من عادة العرب أن يحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً فيدخلوا فيه أيديهم عند
التحالف ليم عقدهم باشتراكهم في شيء واحد . (٢) غر السيف : حده ، وكذلك غراره .

١٥٠ — قرَّباً مَرِبط النعمة منى *

لما قَتَلَ جَسَّاسُ البَكْرِىَّ كَلِيباً التَغَلَبِيَّ ، وهاجَتِ الحربُ بينَ بَكْرٍ وتَغَلَبِ
ابنِ وائِلٍ - وهى حَرْبُ البَسُوسِ - اعْتَزَلَهُمَا الحَارِثُ بْنُ عُبَادٍ ^(١) وقال : هذا أَمْرٌ
لَا نَاقَةَ لِي فِيهِ وَلَا جَمَلَ ؛ فقال سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ مَعْرُضاً بِهِ :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتُ ^(٢) أَرَاهُطَ فَاسْتَرَا حُوا
وَالْحَرْبُ لَا يَبْقَى لَهَا حِيَا ^(٣) التَّخْيِيلُ وَالْمِرَاحُ
إِلَّا الْفَتَى الصَّبَّارُ فِي النَّجَدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ ^(٤)
بِئْسَ الْخِلَافُ بَعْدَنَا أَوْلَادُ يَشْكُرُ وَاللَّقَّاحُ ^(٥)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهِمَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ ^(٦)
الْمَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا قَصْرَ ^(٧) وَلَا عَنْهُ جِمَّاحُ ^(٨)
وَكَأَنَّمَا وَرَدُ الْمَنِيَّةَ عَبْدُنَا مَلَا وَرَاحُ

* الأمثال : ١ - ٣٤١ المقد : ٣ - ٣٤٨ ، خزائن الأدب : ١ - ٤٢٣ ، الكامل لابن الأثير : ١ - ٣٢٣

(١) الحارث بن عباد : من بكر ، حكيم جاهلي ، كان شجاعاً من السادات ، شاعراً ، وانتهت إليه لأمرة بني ضبيعة وهو شاب مات نحو سنة ٥٠٠ ق . هـ . (٢) وضعت : حطت وأسقطت ، وأراهط : جم أراهط الذي هو جمع رهط ، والرهط : عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة (٣) جامها : مشيرها وموقدها ، والتخييل : التكبر من الحيلة ، والمراح : النشاط والبطر ، أى أن الحرب تكف خدة البطر النشط ، وهو تعرض بالحارث (٤) الصبار : مبالغة صابر ، والنجدة : الشدة ، والوقاح : الفرس الذى حافره صلب شديد (٥) أى إذا ذهبنا وبقيت يشكر وخيفة فبئس الخلاف هم منا ، لا يحمون حرباً ، ولا يأبون ضيماً ، وكانت بنو حنيفة تلعب : اللقاح لأنهم لم يدينوا للملك ، وهو يذم الحين لعودهما عن بكر في حروبهم (٦) لا براح : لا ريب . (٧) القصر : الحبس (٨) الجماح : الهروب .

ولكن الحارث لم يحفل بذلك ، وتحنّى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه ، ولم يزل مُعْتَزلاً ، حتى إذا كان في آخر وقائعهم خرج ابنُ أخيه بُجَيْرٌ ^(١) بن عمرو ابن عباد في إثر إبلٍ له نَدَّتْ يَطْلُبُهَا ، فعرض له مُهْلِلٌ في جماعة يطلبون غِرَّةَ بكر بن وائل . فقال لمهلل امرؤ القيس بنُ أبيان - وكان من أشراف بني تغلب ، وكان على مُقَدِّمَتِهِمْ زماناً طويلاً : لا تفعل ؛ فوالله لئن قتلتَه لَيُقَتِّلَنَّ به منكم كبشٌ لا يُسألُ عن خاله : من هو ! وإياك أن تحقرَ البغي ؛ فإنَّ عاقبتَه وخيمة ، وقد اعتزلنا عمُّه وأبوه وأهلُ بيته وقومه . فأبى مهْلِلٌ إلا قَتْلَه ، فطعنه بالرمح فقتله وقال : « بُؤْسِشِعِ نعلِ كليب ^(٢) » .

فبلغ فعلُ مهْلِلِ عمَّ بُجَيْرٍ - وكان من أحلم أهل زمانه ، وأشدَّهم بأساً - فقال الحارث : نعم القَتِيلُ قَتِيلُ أَصْلَحَ بين ابني وائل ! فقيل له : إنما قتله بِشِشِعِ نعلِ كليب ، فلم يقبل ذلك ، وأرسل إلى مهْلِلِ : إن كنت قتلتَ بُجَيْراً بكَلْبِيب ، وانقطعت الحربُ بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه مهْلِلُ : إنما قتلتَه بِشِشِعِ نعلِ كليب ! فغضب الحارث ، ودعا بفرسه - وكانت تسمى النعامه - فجزَّ ناصيتها . وهَلَبَ ^(٣) ذَنَبَهَا ، وقال :

قَرَّبَا مِرْبَطَ ^(٤) النعامه منى لِقِيتَ ^(٥) حربُ وائل عن حِيَالِ

(١) قيل هو ابن الحارث (٢) يقال : أبأت فلاناً فبَاء به : إذا قتلتَه به ، ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثاني كفف له ، والشسم : السير الذي يدخل بين الإصبعين (٣) هلب الذنب : تنف شعره ، ويقولون : إن الحارث هو أول من فعل ذلك (٤) المربط : ما ربطت به الدابة ، والنعامه : اسم فرس كانت للحارث بن عباد (٥) لقيت : حملت ، وعن بمعنى بعد ، والحِيَال : أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل ، وهذا مثل ضربه ، وإنما يعظم أمر الحرب لما تولد عنها من الأمور التي لم تكن تحتسب ، والمراد أن حرب وائل هاجت بعد سكون .

لا يَجِيرُ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْطُ كَلِيبَ تَزَاجَرُوا عَنْ ضَلَالٍ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِمَجَرَّهَا الْيَوْمَ صَالِي
قَرَبًا مِرْبَاطِ النِّعَامَةِ مَنَى إِنَّ قَتَلَ الْغُلَامِ بِالشُّعْ غَالِي

ثم ارتحل الحارث مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل ، وعليهم يومئذ الحارث بن همام بن مرة ، فقال الحارث بن عباد له : إن القوم مستقلون قومك ، وذلك زادهم جراءة عليكم ، فقاتلهم بالنساء ، قال له الحارث بن همام : وكيف قتال النساء ! قال : قلد كل امرأة إداوة من ماء ؛ وأعطها هراوة ؛ واجعل جمعهن من ورائكم ؛ فإن ذلك يزيدكم اجتهداً ؛ وعلموا أنفسكم بعلامات يعرفنها ؛ فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته ، فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته ، وأنت عليه .

فأطاعوه ، وحلقت بنو بكر يومئذ رهوسها استيسالاً للموت ، وجعلوا ذلك علامةً بينهم وبين نساءهم ، واقتتل الفرسان قتالاً شديداً ، وانهمزت بنو تغلب ، وحلقت بالظعن بقية يومها وليلتها ، وأتبعهم سرعان ^(١) بكر بن وائل ، وتخلف الحارث بن عباد ، فقال لسعد بن مالك : أتراني بمن وضعته ^(٢) ؟ قال : لا ، ولكن لا نخبأ لعطير بعد عروس ^(٣) .

ثم إن الحارث بن عباد أسر مهلهلاً ، وهو لا يعرفه ، فقال له : دُلّني على

(١) سرعان الناس : أوائلهم المستبقون إلى الأمر (٢) يشير إلى قوله :

يا بؤس للحرب التي وضعت أراهم فاستراحوا

(٣) يريد : إن لم تنصر قومك الآن ، فلن تدخر نصرك ؟

المهلهل ؛ قال : ولي دمي ؟ قال : ولك دمك ؛ قال : ولي ذمتك وذمة أهلك ؟ قال :
نعم ذلك لك . قال : فأنا مهلهل . قال : دلني على كفء لبجير ، قال : لا أعلمه إلا
امراً القيس بن أبان ، هناك علمه ؛ فجز ناصيته ، وقصد قصداً امرئ القيس فشد
عليه فقتله ، وقال الحارث في ذلك :

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْ	رَفْ عَدِيًّا إِذْ أُمَكْنَنْتِي الْيَدَانِ
طُلٌّ ^(١) مِنْ طُلٍّ فِي الْحُرُوبِ وَلَمْ أَوْ	تِرْ بِجَيْرٍ أَبَاتِهِ ^(٢) ابْنِ أَبَانَ
فَارِسٌ يُضْرَبُ الْكِتَابَةُ بِالسَّيِّ	فِ وَتَسْمُو أَمَامَهُ الْعَيْنَانِ

(١) طال دمه : ذهب . امرأ
(٢) أباء القليل بالقتيل : قتله به .

١٥١ — ضَيْعَنِي صَغِيرًا، وَحَمَلَنِي دَمَهُ كَبِيرًا*

كَانَ حُجْرٌ فِي بَنِي أَسَدَ ، وَكَانَتْ لَهُ عَلَيْهِمْ إِتَاوَةٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ مُوقَّتَةٌ ، فَغَبَرَ^(١)
ذَلِكَ دَهْرًا ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ جَابِيَهُ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُمْ ، فَنَعَمُوهُ ذَلِكَ — وَحُجِرَ^(٢)
يَوْمَئِذٍ بِتِهَامَةٍ — وَضَرَبُوا رُسْلَهُ ، وَضَرَبُوا جُوهَهُ^(٣) ضَرْبًا شَدِيدًا قَبِيحًا .

فَبَلَغَ ذَلِكَ حُجْرًا فَسَارَ إِلَيْهِمْ بِمَجْدٍ مِنْ رِبِيعَةٍ وَقَيْسٍ وَكِنَانَةٍ ، فَأَتَاهُمْ وَأَخَذَ
سَرَاتِمَهُمْ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُهُمْ^(٤) بِالْعَصَا ، وَأَبَاحَ الْأَمْوَالَ ، وَصَيَّرَهُمْ إِلَى تِهَامَةٍ ، وَآلَى
بِاللَّهِ أَلَا يُسَاكِنُوهُمْ فِي بَلَدٍ أَبَدًا ، وَحَبَسَ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودِ الْأَسَدِيِّ ، وَكَانَ
سَيِّدًا وَعَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ الشَّاعِرَ ، فَسَارَتْ بَنُو أَسَدٍ ثَلَاثًا .

ثُمَّ إِنَّ عُبَيْدَ بْنَ الْأَبْرَصِ قَامَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ اسْمَعْ مَقَالَتِي :

يَا عَيْنُ قَابَسِكِي مَا بَنَى	أَسَدٍ فَهَمُّ أَهْلِ النَّدَامَةِ
أَهْلَ الْقِيَابِ الْحَرِّ وَالذِّ	هَمُّ الْمُؤَبِّلِ ^(٥) وَالْمَدَامَةِ
وَذَوَى الْجِيَادِ الْجُرُودِ وَالْ	أَسْلَ الْمُتَّقَةِ الْمُقَامَةِ
حَالًا ^(٦) أَيْتَ اللَّعْنِ حِلًّا	إِنَّ فِيمَا قَلَّتْ آمَةٌ ^(٧)
فِي كُلِّ وَادٍ بَيْنَ يَدَيْ	رَبِّ فَالْقُصُورِ إِلَى الْبِيَامَةِ
تَطْرِبُ عَانٍ أَوْ صِيَا	حُحْرَقٍ أَوْ صَوْتُ هَامَةٍ

* الْأَغَانِي : ٩ - ٨٧

(١) غَبَرَ : لَبِثَ وَبَقِيَ (٢) ضَرَبَهُ : أَضْمَاهُ (٣) سَمَوْا ذَلِكَ عُبَيْدَ الْعَصَا (٤) الْمُؤَبِّلُ
الْمَقْتُلُ (٥) حَلَا : أَيُّ تَحَلَّلَ مِنْ يَمِينِكَ (٦) الْآمَةُ : الْعَيْبُ .

ومَنَّهُمْ جَدًّا قَدَّ حَلُّوا عَلَى وَجَلِ تِهَامَةٍ
 بَرِمَتْ بِوَأَسَدٍ كَمَا بَرِمَتْ بِيَبْضَتِهَا الْحَامَةُ
 جَلَّتْ لَهَا غُودِينَ مِنْ نَشَمٍ وَآخِرٍ مِنْ ثَمَامَةٍ^(١)
 إِمَّا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفَّ وَأَوْقَلْتَ فَلَا مَلَامَةَ
 أَنْتَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ
 ذَلُّوا لِسَوْطِكَ مِثْلَ مَا ذَلَّ الْأَشْيَقِرُّ^(٢) ذَوَالْخِزَامَةِ

فرق لهم حُجْرٌ حين سمع قوله ؛ فبعث في أثرهم فأقبلوا ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم^(٣) فقال لبني أسد : مَنْ الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلَّب ، في الإبل كأنها الرِّبْرَبُ^(٤) ، لا يعلق رأسه الصَّخَبُ ! هذا دمه ينثعب^(٥) ، وهذا غداً أول من يُسَلَب .

قالوا : مَنْ هو ؟ قال : لولا أن تجيشَ نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحية .

فركبوا كل صَعْبٍ وذَلُولٍ ، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْرٍ فهجموا على قَبْتِهِ ، وهزموا أصحابه وأسروه فحبسوه ، وتشاور القوم في قتله ؛ فقال لهم كاهنٌ من كهنتهم بعد أن حبسوه ليرَوْا رأيهم فيه : أى قوم ! لا تمجّلوا بقتل الرجل حتى أزجر لكم .

فانصرف عن القوم لينظرَ لهم في قتله ؛ فلما رأى ذلك عِلباء بن الحارث

(١) النشم : شجر جبلى تتخذ منه القسي ، والثمامة : نبت بالبادية (٢) الأشيقر : تصغير الأشقر : الأحمر من الدواب ، والخزامة : حلقة من شعر تجعل في وتره أف البعير يشد بها الزمام (٣) هو عوف بن ربيعة (٤) الربرب : القطيع من بقر الوحش (٥) ينثعب : يجري .

الكاهل - خشى أن يتواكلوا في قتله ، فدعا غلاماً من بني كاهل - وكان ابن أخته ^(١) - فقال : يا بني ؛ أعنذك خير فتناً بأبيك ، وتنال شرف الدهر ، وإن قومك لن يقتلوك !

فلم يزل بالغلام حتى حرّبه ^(٢) ، ودفع إليه حديدة قد شحّدها ، وقال : ادخلْ عليه مع قومك ، ثم اطعمه في مَقْتَلِهِ .

فعمد الغلامُ إلى الحديدة فخبأها ، ثم دخل على حُجْرٍ في قَبْتِهِ التي حُبِسَ فيها . فلما رأى الغلام غَفْلَةَ وثب عليه فقتله ، فوثب القوم على الغلام فقالت بنو كاهل : ثأرنا وفي أيدينا !

فقال الغلام : إنما ثأرتُ بأبي ، فخلّوا عنه .

وأقبل كاهنهم المزدَجِر فقال : أي قوم ! قتلتموه ! ملك شهر ، وذُلّ دهر ، أما والله لا تحظون عند الملوك بعده أبداً .

ولما طعن الغلام حُجْراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له : انطلق إلى ابني نافع - وكان أكبر ولده - فإن بكى وجزع فآلهُ عنه ، واستقرهم واحداً واحداً ، حتى تأتي امرأة القيس ^(٣) - وكان أصغرهم - فأيتهم لم يجزع ، فادفع إليه سلاحي وخيلى وقُدُورى ووصيتي ، وبين في وصيته مَنْ قُتِلَ ، وكيف كان خبره .

فانطلق الرجلُ بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، ثم

(١) كان حجر قد قتل أبا زوج أخت علباء ، وقيل بل كان حجر قتل أبا علباء نفسه .

(٢) حربه : حرشه (٣) أشهر شعراء العرب ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان ، وقال الشعر وهو غلام ، وجعل يشب ويلهو ويعاشر صغاليك العرب ، ومات سنة ٨٠ ق . هـ .

استقرأهم واحداً واحداً ، فكلّهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشربُ الخمرَ ويلاعبه بالتزدد ؛ فقال له : قُتِلَ حُجْرٌ ؛ فلم يلتفتْ إلى قوله ، وأمسك نديمه . فقال له امرؤ القيس : اضربْ فضرب ، حتى إذا فرغ قال : ما كنتُ لأفُسد عليك دَسْتك .

ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : الخمرُ على والنساء حرام ، حتى أقتلَ من بنى أسيرَ مائةً وأجزَ (١) نواصي مائة .

وكان امرؤ القيس قد طرده أبوه حُجْر ، وآلى ألا يقيمَ معه أنفةً من قوله الشعْرَ - وكانت الملوك تأنف من ذلك - فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاطٌ من شذاذ (٢) العرب ، من طيئٍ وكلبٍ وبكر بن وائل ؛ فإذا صادفَ غديراً أو روضةً أو موضعَ صَيْدٍ أقام فذبح لمن معه في كلِّ يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد فأكَل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقامهم وغنمته قِيَانُهُ .

ولا يزال كذلك حتى ينفدَ ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره . فأتاه خبرُ أبيه ومقتله وهو بدثمون من أرض اليمن ، فقال :

تطاول الليلُ على دَمُونٍ دَمُونُ إِنَّا معشرٌ يَمَانُونُ

* وَإِنَّا لِأَهْلِنَا مُحِبُّونُ *

ثم قال : ضيغني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً . لا صححو اليوم ، ولا سُكَّرَ غدأ ، اليوم خمر ، وغدأ (٣) أمر . ثم قال :

خَلِيلِي لَا فِي الْيَوْمِ مَصْحَى لشاربٍ وَلَا فِي غَدٍ إِذَاكَ مَا كَانَ يُشْرَبُ

(١) يريد حتى أقتل منهم مائة وأسر مائة (٢) شذاذ العرب : الذين لم يكونوا في جبههم ومنازلهم (٣) ذهب مثلاً .

ثم شرب سَبْعًا ، فلما صَحَا آلى أَلَّا يَأْكُلَ لَحْمًا ، ولا يشربَ خمرًا ، ولا
يَذَّهِنَ بَدْهَنَ ، ولا يصيبَ امرأةً حتى يُدْرِكَ بَثَّارُهُ ؛ فلما جنَّه الليل رأى
بَرَقًا ، فقال :

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ بَلِيلٍ أَهْلٌ يَضِيءُ سَنَاهُ بِأَعْلَى الْجَبِيلِ
أَتَانِي حَدِيثٌ فَكَذَّبْتُهُ بِأَمْرِ تَزَعَزَعُ^(١) مِنْهُ الْقُلُلُ
بَقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلٍ^(٢)
فَأَيْنَ رَبِيعَةٌ عَنْ رَبِّهَا وَأَيْنَ تَمِيمٌ وَأَيْنَ الْخَوْلُ^(٣)
أَلَّا يَخْضُرُونَ لَدَى بَابِهِ كَمَا يَخْضُرُونَ إِذَا مَا أُكِّلَ

وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بَكْرًا وتغلب ، فسألهم النصر ، وبعث العيون
على بني أسد ، فلما كان الليل قال لهم غلبناه : يامعشر بني أسد ، تعلمون والله أن
عيون امرئ القيس قد أتتكم ، ورجعت إليه بخرمكم ، فازحوا بليل ولا تعلموا
بني كنانة . ففعلوا .

وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب ، حتى انتهى إلى بني كنانة ، وهو
يحسبهم بني أسد ، فوضع السَّلاحَ فيهم ، وقال : يالثرات الملك ! يالثرات الهَمَام !
فخرجت إليه عجوزٌ من بني كنانة فقالت : أبيت اللعن ! لسنا لك بَثَّار ، نحن من
كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم ، فإن القوم ساروا بالأمس .
فتبع بني أسد ، فقاتوه ليلتهم تلك ، فقال :

(١) أصله : تَزَعَزَع (٢) جَلَل : هين
(٣) الخول : جمع خولى : وهو الراعى الحسن
القيام على المال

أَلَا يَالْهَفَ هِنْدٍ إِثْرَ قَوْمٍ هُمُ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا
وَقَامَ جَدُّهُمْ بَيْنَ أَبِيهِمْ وَالْأَشْقَيْنِ^(١) مَا كَانَ الْعِقَابُ
وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءَ جَرِيضًا^(٢) وَلَوْ أَدْرَكْنَهُ صَفِرُ الْوِطَابِ^(٣)

وَأَدْرَكَهُمْ ظُهُرًا ، وَقَدْ نَقَطَتْ خَيْلُهُ ، وَقَطَعَ أَغْنَاهُمْ الْعَطَشُ ، وَبَنُو أَسَدٍ
جَامُونَ^(٤) عَلَى الْمَاءِ ، فَهَدَّ إِلَيْهِمْ فَقَاتَلَهُمْ ، حَتَّى كَثُرَتْ الْجَرْحَى وَالْقَتْلَى فِيهِمْ ،
وَحَجَزَ اللَّيْلُ بَيْنَهُمْ ، وَهَرَبَتْ بَنُو أَسَدٍ .

فَلَمَّا أَصْبَحَتْ بَكَرَ وَقَلَبَ أَبَوَا أَنْ يَتَّبِعُوهُم ، وَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَصَبْتَ ثَارَكَ . قَالَ :
وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ وَلَا أَصَبْتُ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَحَدًا . قَالُوا :
بَلَى ، وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ مَشْنُومٌ ، وَكَرِهُوا قِتَالَهُمْ ، وَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَمَضَى هَارِبًا لَوَجْهِهِ
حَتَّى لَحِقَ بِحِمِيرٍ .

فَاسْتَأْجَرَ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ رَجَالًا ، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَصَرَ بِتَبَالَةٍ^(٥) ،
وَبِهَا ضَمَّ لِلْعَرَبِ تُعَظَّمُهُ ، فَاسْتَقْسَمَ^(٦) عَنْدهُ بِقِدَاحِهِ ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ : الْأَمْرُ ، وَالنَّاهِي
وَالْمُتَرَبِّصُ . فَأَجَالَهَا فَخَرَجَ النَّاهِي ، ثُمَّ أَجَالَهَا فَخَرَجَ النَّاهِي ، فَجَمَعَهَا فَكَسَرَهَا وَضَرَبَ
بِهَا وَجْهَ الضَّمَمِ ، وَقَالَ : لَوْ أَبُوكَ قُتِلَ مَا عُقَّتَنِي ، ثُمَّ خَرَجَ فَظَفَرَ بَيْنِي أَسَدٍ .

وَأَلَحَّ الْمُنْذِرُ^(٧) فِي طَلَبِ أَمْرِ الْقَيْسِ ، وَوَجَّهَ الْجِيُوشَ فِي طَلَبِهِ مِنْ إِيَادٍ

(١) الجِد : الحِط ، وَالْأَشْقَيْنِ : جَمْعُ أَشَقٍ ، وَيَقْصِدُ بِهِمْ بَنِي كِنَانَةَ (٢) أَيْ بَعْدَ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ
وَالضَّمِيرُ فِي «أَفْلَتَهُنَّ» وَ«أَدْرَكْنَهُ» لِلْخَيْلِ الَّتِي كَرَوْا بِهَا عَلَيْهِمْ (٣) صَفِرُ الْوِطَابِ ، أَيْ لَوْ أَدْرَكُوهُ
فَقَتَلُوهُ وَسَاقُوا إِلَيْهِ فَصَفَرَتْ وَطَابَهُ مِنَ اللَّبَنِ (٤) أَيْ مَجْتَمِعُونَ مُسْتَرِجِحُونَ (٥) مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ
وَالْيَمَنِ عَلَى مَسِيرَةِ سَبْعِ لَيَالٍ مِنْ مَكَّةَ (٦) الِاسْتَقْسَامُ : طَلَبُ مَعْرِفَةٍ مَا قَسَمَ لِلْمَرْءِ مِمَّا لَمْ يَقْسَمْ
(٧) كَانَتْ فِي نَفْسِ الْمُنْذِرِ مَوْجِدَةٌ عَلَى آلِ أَمْرِ الْقَيْسِ ؛ لِأَنَّ الْحَارِثَ جَدَّ أَمْرِ الْقَيْسِ زَاحِمَ
لِلْمُنَازِرَةِ مَلُوكِ الْحَيَرَةِ عِنْدَ كَسْرَى فِي النَّبَاةِ عَنْهُ عَلَى مَلِكِ الْحَيَرَةِ ، وَقَدْ أَنَّ شَجَرَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُنَازِرَةِ
وَكَسْرَى قَبَازٍ .

وبَهْرَاءَ وتَنَوُّخَ ، وأَمَدَهُ أَنُوشَرَوَانُ بِحِيشٍ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ فَسَرَّحَهُمْ فِي طَلْبِهِ ، فَلَمْ
يَسْكُنْ لَأَمْرِ الْقَيْسِ بِهِمْ طَاقَةً ، وَتَفَرَّقَتْ حَمِيرٌ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَنْهُ ، فَتَجَا فِي
عُصْبَةٍ مِنْ بَنِي آكَلِ الْمَرَارِ ، وَنَزَلَ بِيَعُضِ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ يَسْتَجِيرُ بِهِمْ ، وَصَارَ
يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، حَتَّى نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي فَرَازَةَ ، يُقَالُ لَهُ : عَمْرُو بْنُ جَابِرِ
ابْنِ مَازَنَ ، فَطَلَبَ مِنْهُ الْجَوَارَ ، حَتَّى يَرَى ذَاتَ عَيْنِهِ ^(١) .

فَقَالَ لَهُ الْفَزَارِيُّ : يَا بَنَ حُجْرٍ ، إِنِّي أَرَاكَ فِي خَلٍّ مِنْ قَوْمِكَ ، وَأَنَا أَنَفْسُ ^(٢)
بِمَثَلِكَ مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ ، وَقَدْ كِدْتَ بِالْأَمْسِ تَوْكُلُ فِي دَارِ طِيٍّ ، وَأَهْلُ الْبَادِيَةِ
أَهْلُ وَبَرٍ ، لَا أَهْلُ حَصُونٍ تَمْنَعُهُمْ ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ أَهْلِ الْهَيْمِ ذُؤُبَانٌ مِنْ قَيْسٍ ،
أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَلَدٍ أَفْقَدَ جُتٌ قَيْصَرَ ، وَجُتٌ النِّعْمَانَ ؛ فَلَمْ أَرَ لَضَيْفٍ نَازِلٍ وَلَا
لِجُتَدٍ ^(٣) مِثْلَهُ وَلَا مِثْلَ صَاحِبِهِ .

قَالَ : مَنْ هُوَ وَأَيْنَ مَنْزِلُهُ ؟ قَالَ : السَّمُوءِلُ بَيْتِيَاءُ ، هُوَ يَمْنَعُ ضَعْفَكَ حَتَّى
تَرَى ذَاتَ عَيْنِكَ ، وَهُوَ فِي حَصْنٍ حَصِينٍ وَحَسْبٍ كَبِيرٍ .

فَقَالَ لَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ : وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَ : أَوْصَلْتُكَ إِلَى مَنْ يُوَصِّلُكَ إِلَيْهِ .

فَصَحِبَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي فَرَازَةَ يُقَالُ لَهُ : الرَّبِيعُ بْنُ ضُبُعِ الْفَزَارِيِّ ، مِمَّنْ
يَأْتِي السَّمُوءِلَ فَيَحْمِلُهُ وَيُعْطِيهِ .

فَلَمَّا صَارَ إِلَيْهِ قَالَ لَهُ الْفَزَارِيُّ : إِنَّ السَّمُوءِلَ يُعْجِبُهُ الشَّعْرُ ، فَتَعَالَ تَقْنَشِدْ لَهُ
أَشْعَارًا ؛ فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : قُلْ حَتَّى أَقُولَ . فَقَالَ الرَّبِيعُ :

(١) أَيْ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِ ، وَيُصْلِحُ مِنْ شَأْنِهِ . (٢) أَنْفُسُ بَكَ : أَضْنُ بِكَ (٣) طَالِبُ
عَطَاءٍ .

قل للنينة أى حين نلتقى بفناء بيتك فى الحضيض الزلقى^(١)
 ولقد أتيتُ بنى المصاضِ مفاخرأ وإلى السموءل زُرته بالأبلى^(٢)
 فأُتيتُ أفضلَ مَنْ تحمل حاجةً إن جئتَه فى غارمٍ أو مرهق
 عرفتُ له الأقوامُ كلَّ فضيلة وحوى المكارم سابقاً لم يُسبق
 فقال امرؤ القيس :

طَرَفْتِكَ هَندٌ بعد طول تجنُّبٍ وهنا ولم تكُ قبل ذلك تطرُق^(٣)
 ثم مضى القومُ حتى قدموا على السموءل ، فأنشده الشعر ، وعرف لهم حقهم ،
 ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ليوصله
 إلى قيصر .

ومضى حتى انتهى إلى قيصر ، فقَبِلَهُ وأكرمه ، وكانت له عنده منزلة .
 ثم إن قيصر ضمَّ إليه جيشاً كثيفاً ، فيه جماعةٌ من أبناء الملوك ، فلما فَصَلَ^(٤)
 قال لقيصر قومٌ من أصحابه : إن العرب قومٌ غَدَر ، ولا تأمنُ أن يظفروا بما يريد ،
 ثم يغزوك بمن بعثت معه .

فبعث إليه حينئذ بحمالةٍ وشيٍّ مسمومٍ منسوجةٍ بالذهب ، وقال له : إني
 أرسلتُ إليك بحمالتى التى كنت ألبسها تكريماً لك ؛ فإذا وصلت إليك فآلبسها
 باليمن والبركة ، واكتب إلى بخبرك من منزلٍ منزل .

فلما وصلت إليه لبسها ، واشتدَّ سروره بها ؛ فأسرع فيه الشَّمَّ وشقَطَ جلده
 فقال :

(١) الزلقى : الموضع الذى لا تثبت عليه قدم (٢) الأبلق : حصن السموءل (٣) يقول
 صاحب الأغاني : أظن أن هذه القصيدة منحولة (٤) فصل : رحل .

لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَا حُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ لِيَلْبِسَنِي مِمَّا يَلْبَسُ أَبُو سَا
فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلَكِنهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

فَلَمَّا صَارَ إِلَى بَلَدَةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ تَدْعَى أَنْقَرَةَ احْتَضَرَ بِهَا فَقَالَ :

رَبِّ جَفْنَةٍ مُتَعَنِّجَةٍ ^(١) وَطَعْنَةٍ مُسَحْنَفَةٍ ^(٢)

تَبْقَى غَدًا بِأَنْقَرَةٍ *

وَرَأَى قَبْرَ امْرَأَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ مَاتَتْ هُنَاكَ ، فَدُفِنَتْ فِي سَفْحِ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ :
عَسِيبٌ ، فَسَأَلَ عَنْهَا ، فَأَخْبَرَ بِقِصَّتِهَا ، فَقَالَ :

أَجَارَتَنَا إِنَّ الزَّارَ قَرِيبُ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ
أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

نَحْنُ مَاتَ فِدْفُنْ هُنَاكَ .

(١) الثعنجرة من الجفان : التي يفيض ودكها

(٢) مسحنفرة : متسعة .

١٥٢ — ما كان لولا غيرة الليل يغلب *

ورد شأس بن زهير من عند النعمان بن المنذر ، وقد حباه أفضل الحبوة :
مِسْكَاً وَكُساً وَقُطْفاً ^(١) وَطَنَافِسَ ؛ فَأَنَاحَ نَاقَتَهُ فِي يَوْمِ شَمَالٍ ^(٢) وَقُرَّ ^(٣) عَلَى
رَدْهَةٍ ^(٤) فِي جَبَلِ رِيَّاحِ بْنِ الْأَسْكَ الْغَنَوَى ، وَلَيْسَ عَلَى الرَدْهَةِ غَيْرُ بَيْتِهِ بِالْجَبَلِ ،
فَأَلْقَى ثِيَابَهُ بِفَنَائِهِ ، ثُمَّ قَعَدَ يَهْرِيْقُ ^(٥) عَلَيْهِ الْمَاءُ ، وَامْرَأَةٌ رِيَّاحُ قَرِيبَةٌ مِنْهُ ، وَإِذَا هُوَ
مِثْلُ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ ، فَقَالَ رِيَّاحُ لَامْرَأَتِهِ : أَعْطَيْنِي قَوْمِي ، فَذَلَّتْ إِلَيْهِ قَوْسَهُ
وَسَهْمَهَا ، وَانْتَزَعَتِ الْمَرْأَةُ نَصْلَهُ لثَلَا يَقْتُلَهُ ، فَأَهْوَى عَجْلَاناً إِلَيْهِ ، وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي
مُسْتَدَقِّ الصَّلْبِ ، بَيْنَ فِقَارَتَيْنِ ^(٦) فَفَصَلَّاهُمَا ، وَخَرَّ سَاقِطاً ، وَحَفَرَ لَهُ خَفْراً ، فَهَدَمَهُ
عَلَيْهِ ، وَنَحَرَ جَمْلَهُ وَأَكَلَهُ ، وَأَدْخَلَ مَتَاعَهُ فِي بَيْتِهِ .

وَقَدِّدَ شَأْسُ ، وَقُصَّ أَثَرُهُ وَنُشِدَ؛ وَرَكِبُوا إِلَى الْمَلِكِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ :
حَبَوْتُهُ وَسَرَّحْتُهُ . فَقَالُوا : وَمَا مَتَّعَ ^(٧) بِهِ ؟ قَالَ : مَسَكْتُ وَنُطُوْعَ وَقُطْفَ ،
فَأَقْبَلُوا يَقْصُونَ أَثَرَهُ ، فَلَمْ تَتَّضَحْ لَهُمْ سَبِيلُهُ ، فَكَثَبُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، حَتَّى
انْقَطَعَ ذِكْرُهُ .

* الْأَغَانِي : ٨ - ١٠ ، ابن الأنبار : ١ - ٣٣٧ ، مَهْذَبُ الْأَغَانِي : ٢ - ٨

(١) الْقَطِيفَةُ : دَنَارٌ مَخْمُولٌ ، جَمْعُهُ قُطْفٌ (يَضْمَتَيْنِ) (٢) الشَّمَالُ : الرِّيحُ الَّتِي تَهْبُ بَيْنَ مَطْلَعِ
الشَّمْسِ وَبَيْنَاتِ نَفْسٍ ، وَيَكُونُ اسْمُهَا وَصْفَةً (٣) الْقَرُ : الْبَرْدُ (٤) الرَدْهَةُ : الثَّقَرَةُ يَجْتَمِعُ
فِيهَا مَاءُ السَّمَاءِ (٥) دَرَأَ الْمَاءَ : أَرَاقَهُ (٦) الْفَقْرَةُ وَالْفَقَارَةُ : مَا اتَّصَدَّ مِنْ عِظَامِ الصَّلْبِ
(٧) مَتَعَ الرَّجُلَ : جَادَ .

قال الراوى : ثم إن الناس أصابهم جائحةٌ وجُوع ، فنحر زُهَيْرُ^(١) بن جذيمة - أبو شأس - ناقته ، فأعطى امرأةً من شحمها وسنامها ، وقال : اشترى لى الهدب والطيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبعه حتى دفعت إلى امرأة رياح ، فقالت : إن معى شحماً أبيعه فى الهدب والطيب ، فاشتريت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيراً بذلك ، فعرف الهدب ، وذهب إلى غنى ، فقالوا : نعم ، قتله رياح بن الأسك ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطَّمَّاح .

ولما تبَيَّنَ لَزُهَيْرٍ أن رياحاً نأَرُهُ قال يرنى شأساً :

بكيتُ لِشَاسٍ حين خَبَرْتُ أَنَّهُ	بماء غنىٍ آخِرَ اللَّيْلِ يُسَلِّبُ
لَقَدْ كَانَ مَأْتَاهُ الرَّدَاةُ ^(٢) لَحْنَفِهِ	وما كان لولا غِرَّةُ اللَّيْلِ يُغْلِبُ
قَتِيلُ غَنَىٍ لَيْسَ شَكْلُهُ كَشَكْلِهِ	كذلك لعمري الحَيْنُ ^(٣) للمرءِ يُجْلِبُ
سَابِكِي عَلَيْهِ إِنْ بَكَيْتَ بِعَبْرَةٍ	وَحَقَّ لِشَاسٍ عَبْرَةٌ حين تَسْكُبُ
وَحَزَنٌ عَلَيْهِ مَا حَيَّتْ وَعَوَّلَةٌ	على مثل ضوءِ البدرِ أَوْ هُوَ أَعْجَبُ
إِذَا سَمِىَ ضِيماً كَانَ لِلضَّيْمِ مُنْكَرًا	وكان لدى الهِجَاءِ ^(٤) يُخْشَى وَيُرْهَبُ
وَإِنْ صَوَّتَ الدَّاعَى إِلَى الْخَيْرِ مَرَّةً	أَجَابَ لَمَّا يَدْعُو لَهُ حين يَكْرَبُ
فَفَرَّجَ عَنْهُ ثُمَّ كَانَ وَلِيًّا	فقلبي عليه لو بدا القلبُ مُتَلَبُّ

ثم انصرف إلى قومه من بنى عَبَسَ ، فكان لا يقدر على غَنَوَىٍ إِلَّا قتله .

(١) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب المعدودين فى الجاهلية ، قتله خالد بن جعفر العاصرى نحو سنة ٥٠ ق . هـ (٢) الرداة : الصخرة (٣) الحين : الهلاك (٤) الهجاء : الحرب .

وتجهّز بنو عبّس لغزو غنى قبل أن يطلبوا قوداً أو ديةً، وتولّى رياستهم الحصينُ ابن زهير، أخو شأس، والحصينُ بن أسيد بن جذيمة، ابن أخى زهير، فقيل ذلك لغنى، فقالت لرياح: انجُ لعلنا نصلح على شيء أو نرضيهم بديةٍ وفداء.

فخرج رياحُ رديفاً^(١) لرجل من بنى كلاب، فينماهما سائران إذا هما بالقوم أدنى ظلام^(٢)، وقد كانا يظنان أنهما خالفاً وجهة القوم، قال صاحب رياح: اذهب فإنى آتى القوم أشاغلم عنك، وأحدثهم حتى تُعجزهم، ثم أنا ماضٍ إن تركونى. فانحدر رياح عن عجز الجبل فأخذ أدراجيه، وعدا إثرَ الراحلة حتى أتى ضفةً، فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب، فوَلَج فيه، ثم أخذ نعليه، فجعل إحداها على سرتّه، والأخرى على صَفْنِه^(٣)، ثم شدَّ عليهما العمامة، ومضى صاحبه حتى لقي القوم، فسألوه، فحدثهم، وقال: هذه غنىٌ كاملة، وقد دنوتُ منهم، فصدّقوه وخلّوا سِرْبَه^(٤).

فلما ولى رأوا سرّك الرجل خلفه، فقالوا: من هذا الذى كان خَلْفك؟ قال: لا مكذوبة! ذلك رياح فى الأول من السّمُرات، فقال الحَصِينان لمن معهما: قِفُوا علينا حتى نَعْلَمَ علمه، فقد أمكننا الله من ثأرنا ولم يريد أن يشركهما فيه أحد، فضيا ووقف القوم عنهما، فلما رآهما رياح رمى الأول منهما فبترَ صلبه، وطعنه الآخر قبل أن يرميه، وأراد السّرة فأصاب الرّيلة^(٥)، ومَرَّ الفرس يهوى به، فاستدبره رياح بسهم رشق به صلبه فانفقر منحنى الأوصال، ونَدَّت فرسها فلحقها بالقوم، وانطلق رياح حتى ورد رَدْهه، عليها بيت أثمار بن بغيض، وفيه امرأة، ولها ابنان

(١) الرديف: الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة (٢) أدنى ظلام: أدنى شيء (٣) الصفن: وعاء الحصى (٤) خلّوا سربه: أى طريقه (٥) الريلة: أصل الفخذ.

قريبان منها ، وجلَّ لها راتعٌ في الجبل ، وقد مات رِيَّاح عطشاً ، فلما رأته يستدمني ^(١)
طمعت فيه ، ورجت أن يأتيها ابنها ، فقالت له : استأمِر ، فقال لها : دعيني
- ويحك - أشرب ! فأبت ، فأخذ حديدة فجذم بها رواهشها ^(٢) ، وعَبَّ في
الماء حتى نهل ، ثم قال فيها وفي الحصينتين :

قالت لي استأمِر لتكفني ^(٣) حيناً ويعـ لو قولها قولي
ولأنت أجراً من أسامة أو مني غداة وقت للخيل
إذ الحصين لدى الحصين كما عدل الرجزة ^(٤) جانب الليل

(١) استدمني الرجل : طأطأ رأسه يقطر منه الدم (٢) جذم : قطع . الرواهش : عروق ظاهر الكف (٣) كفته : أحاط به وآواه (٤) الرجزة : شيء يكون مع المرأة في هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعت في الناحية الأخرى ليعتدل .

١٥٣ — لَأَقْتُلَنَّهٗ وَلَوْ كَانَ فِي حِجْرِ النِّعْمَانِ *

لَمَّا قَتَلَ خَالِدُ بْنُ جَعْفَرٍ بَنَ كَلَابَ زَهِيرَ بْنَ جَذِيمَةَ الْعَبْسِيَّ ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ ،
وَعَلِمَ أَنَّ غَطَفَانَ غَيْرُ تَارِكِيهِ ؛ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى النِّعْمَانَ فَاسْتَجَارَ بِهِ فَأَجَارَهُ ، وَمَعَهُ
أَخُوهُ عُتْبَةُ بْنُ جَعْفَرٍ .

وَنَهَضَ قَيْسُ بْنُ زَهِيرٍ فَتَهَيَّأَ لِلْحَارِثَةِ بَنَى عَامِرَ ، وَهَجَمَ الشِّتَاءَ ؛ فَقَالَ الْحَارِثُ
ابْنَ ظَالِمٍ : يَا قَيْسُ ؛ أَتُمْ أَعْلَمُ وَحَرْبَكُمْ ، وَأَنَا رَاحِلٌ إِلَى خَالِدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ ، قَالَ قَيْسُ :
قَدْ أَجَارَهُ النِّعْمَانُ ، قَالَ الْحَارِثُ : لَأَقْتُلَنَّهٗ وَلَوْ كَانَ فِي حِجْرِهٖ !
وَكَانَ النِّعْمَانُ قَدْ ضَرَبَ عَلَى خَالِدٍ وَأَخِيهِ قُبَّةً ، وَأَمْرُهُمَا بِحُضُورِ طَعَامِهِ
وَمُدَامِهِ ^(١) .

فَاقْبَلَ الْحَارِثُ وَمَعَهُ تَابِعٌ لَهُ مِنْ بَنِي مُحَارِبٍ فَأَتَى بَابَ النِّعْمَانِ ، فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ
النِّعْمَانُ وَفَرَحَ بِهِ . فَدَخَلَ الْحَارِثُ ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا وَحَدِيثًا ، وَأَعْلَمَ
النَّاسَ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ ؛ فَاقْبَلَ النِّعْمَانُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ يَحْدِثُهُ ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ تَمْرٌ يَأْكُلُونَهُ .
فَلَمَّا رَأَى خَالِدٌ إِقْبَالَ النِّعْمَانِ عَلَى الْحَارِثِ غَاظَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا لَيْلَى ؛ أَلَا
تَشْكُرُنِي ! قَالَ : عَلَّامٌ ؟ قَالَ : قَتَلْتُ زَهِيرًا فَصِرْتُ بَعْدَهُ سَيِّدَ غَطَفَانَ — وَفِي يَدِ
الْحَارِثِ تَمْرَاتٌ ؛ فَاضْطَرَبَتْ يَدُهُ ، وَجَعَلَ يُرْعِدُ وَيَقُولُ : أَنْتَ قَتَلْتَهُ !! وَالتَّمْرُ يَسْقُطُ
مِنْ يَدِهِ .

* الأمثال : ٢ - ٢٣٤ ، عيون الأخبار : ١ - ١٨٣

(١) اللدَام : الْحَرُّ .

ونظر النعمان إلى مابه من الزَّمْع^(١) ، فنَخَسَ خالداً بعصاه ، وقال : هذا يقتلك !
 فقال : أيت اللعن ! فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني ! وافترق القوم ، وبقي الحارثُ
 عند النعمان ، وأُشْرِجَ^(٢) خالدٌ قُبَّتَه عليه وعلى أخيه ونائماً .

وانصرف الحارثُ إلى رَحْلِهِ ، فلَمَّا هَدَأَتِ العيون خرج بسيفه حتى أتى قُبَّةَ
 خالد فَنَهَكَ شَرَجَهَا^(٣) بسيفه ، فدخل فرأى خالداً نائماً وأخوه إلى جنبه ، فأيقظ
 خالداً فاستوى قائماً ، فقال له الحارث : يا خالد ؛ أظننت أن دم زهير كان سائناً
 لك ! وعَلَاهُ بسيفه حتى قتله . وانتَبَهَ عُتْبَةُ ، فقال له الحارث : لئن نَبَسْتَ^(٤)
 لَأُحِقِّفَنَّكَ به !

وانصرف الحارثُ ، وركب فرسه ومضى على وجهه ، وخرج عُتْبَةُ صارخاً حتى
 أتى باب النعمان ، فنادى : ياسوء جواراه ! فأجيب : لارُوع عليك ! فقال : دخل
 الحارثُ على خالد فقتله ، وأخْفَرَ^(٥) الملك .

فوجه النعمانُ فوارسَ في طلبه فلحقوه سَحَرًا ، فَعَطَفَ^(٦) عليهم ، فقتل جماعةً
 منهم وكثُرُوا عليه ، فجعل لا يقصد لجماعة إلا فَرَّقَهَا ، ولا لفارس إلا قَتَلَهُ .
 فارتدع القوم عنه ، وانصرفوا إلى النعمان .

فقال عمرو بن الإطنابة :

عَلَّلَانِي وَعَلَّلَا صَاحِبِيَا وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمُرُوقِ رِيَا
 إِنَّ فِينَا الْقِيَانَ يَعْرِفُنَ بِالضَّرِّ بَ لِقَتِيَانِنَا وَعَيْنَا رَضِيَا
 يَنْتَاهَيْنَ فِي النِّعَمِ وَيَضُرُّ نَ خِلَالَ الْقُرُونِ مِسْكَاذَ كِيَا

(١) الزمع : شبه الرعدة تأخذ الإنسان (٢) أشرج الحية : أدخل بعض عراها في بعض بين
 أشراجها (٣) الشرج : عرا الحية (٤) نبس : أقل الكلام (٥) أخفر الملك : قض
 عهده وغدره . (٦) عطف : مال .

أُبْلِغَا الحارثَ بنَ ظالمِ الرُّءُوسِ^(١) ديدَ والناذِرَ الذُّؤورَ عَلَيَّ :
 إِنَّمَا تَقْتُلُ النِّيَامَ وَلَا تَقْتُلُ يَقْظَانَ ذَا سِلَاحٍ كَمِيًّا^(٢)
 وَكَانَ عَمْرُو قَدْ آلَى^(٣) أَلَا يَدْعُوهُ رَجُلٌ بَلِيلٌ إِلَّا أَجَابَهُ ، وَلَا يَسْأَلُهُ عَنْ اسْمِهِ .
 فَأَتَاهُ الْحَارْثُ لَيْلًا فَهَتَفَ بِهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا تَرِيدُ ؟ قَالَ : أَعِنِّي عَلَى إِبْلِ
 لِبْنِي فَلَانٍ ، وَهِيَ مِنْكَ غَيْرُ بَعِيدٍ ، فَإِنَّهَا غَنِيمَةٌ بَارِدَةٌ !
 فَدَعَا عَمْرُو بِفَرَسِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْكَبَ حَاسِرًا ، فَقَالَ لَهُ : الْبَسْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ ،
 فَإِنِّي لَا أَمْنُ امْتِنَاعَ الْقَوْمِ ، فَاسْتَلَّامٌ^(٤) وَخَرَجَ مَعَهُ ، حَتَّى إِذَا بَرَزَا قَالَ لَهُ الْحَارْثُ :
 أَنَا أَبُو لَيْلٍ فَخُذْ حِذْرَكَ يَا عَمْرُو ، فَقَالَ لَهُ : أَمُنْ عَلَىَّ . فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ ، وَقَالَ :
 عَلَّانِي بِلَدَّتِي قَيِّمَتِيًّا قَبْلَ أَنْ تَبْكِيَ الْعَيُونَ عَلَيَّ
 قَبْلَ أَنْ تَذْكُرَ الْعَوَازِلُ أَنِي كَفْتُ قَدَمًا لِأَمْرَهِنَّ عَصِيًّا
 مَا أَبَالِي إِذَا اصْطَبَحْتُ ثَلَاثًا أُرْشِيدًا دَعَوَتَنِي أُمُّ غَوِبًا
 غَيْرَ أَلَا أُسِرَّ لِلَّهِ إِنَّمَا فِي حَيَاتِي وَلَا أُخَوِّنَ صَفِيًّا
 بَلَفَتَنِي مَقَالَةُ الْمَرْءِ عَمْرُو بَلَفَتَنِي وَكَانَ ذَاكَ بَدِيًّا
 فَخَرَجْنَا لِمَوْعِدٍ فَالْتَقَيْنَا فَوَجَدْنَاهُ ذَا سِلَاحٍ كَمِيًّا
 غَيْرَ مَا نَأْتُمُّ يَرْوَعُ بِاللَّيْلِ مُعِدًّا بِكَفِّهِ مَشْرِفِيًّا
 فَرَجَعْنَا بِالْمَنْ مِّنَّا عَلَيْهِ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْهُ مِنَّا بَدِيًّا

(١) الرعيد : الجبان (٢) الكمي : الشجاع (٣) آلَى : حاف (٤) استلّام : لبس
 اللامة : الدرع .

١٥٤ — وفاء وغدر *

سار المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة في مَعْدٍ كُلِّهَا حتى نزل بَعَيْنِ أَبَاغٍ ،
وأرسل إلى الحارث ^(١) بن أبي شمر ملك العرب بالشام ، وقال له : إما أن تُعْطِيَنِي
الْفِدْيَةَ فَأَنْصَرِفَ عَنْكَ بِجُنُودِي ، وإما أن تَأْذَنَ بِمَحْرَبٍ .

فأرسل إليه الحارث : أَنْظِرْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا . وجمع عساكره ، وسار نحو
المنذر ، وأرسل إليه يقول له : إنا شيخان فلا تَهْلِكْ جنودى وجنودك ، ولكن
يُخْرِجْ ولدٌ من ولدى ورجل من ولدك فمن قُتِلَ خَرَجَ عِوَضَهُ آخِرُ ، وإذا فِئ
أولادُنا خرجتُ أنا إليك ، فَمَنْ قُتِلَ صاحبه ذهب بالملك ، فتعاهدا على ذلك .

فعمد المنذر إلى رجل من شُجْعَانِ أصحابه ، فأمره أن يخرج فيقف بين
الصفين ، ويُظْهِرَ أنه ابنُ المنذر ، فلما خرج أَخْرَجَ إليه الحارث ابنه أبا كرب ،
فلما رآه رجع إلى أبيه ، وقال : إن هذا ليس بابنِ المنذر ، إنما هو عبده أو بعضُ
شُجْعَانِ أصحابه ، فقال : يا بني ، أَجَزِعْتَ من الموت ! ما كان الشيخ لِيُغْدِرَ ^(٢) !
فعاد إليه وقَاتَلَهُ فقتله الفارس ، وألقى رأسه بين يدي المنذر وعاد .

* الكامل لابن الأثير : ١ - ٣٢٦

(١) في كتاب الأعلام للزركلى أن الحارث لقب عام للملوك الفُصَايِين ، كقيصر عند الروم ، وكسرى
عند الفرس ؛ وهو أشهر ملوك غسان ذكراً ، وكان جواداً كثير الهبات دام ملكه نحو ٣٠ عاماً ،
ومات نحو سنة ٤٠ ق . هـ . (٢) يغدر : ينقض العهد .

فأمر الحارث ابنًا له آخر بقتاله والطلبِ بشار أخيه ، فخرج إليه ، فلما وافقه ^(١) رجع إلى أبيه ؛ وقال : يا أبت ؛ هذا والله عبدُ المنذر ، فقال : يا بني ؛ ما كان الشيخ ليفدّر ! فعاد إليه ، فشدّ عليه فقتله .

فلما رأى ذلك شمر بن عمر ، وكانت أمه غسانية وهو مع المنذر ، قال : أيُّها الملك ؛ إن الغدَر ليس من شيمِ الملوك ولا الكرام ، وقد غدرتَ بابن عمك دفعتين ، فغضبَ المنذر ، وأمر بإخراجه ، فلحق بمسك الحارث فأخبره ، فقال له : سلّ حاجتك ، فقال له : حلّتك وخلّتك .

فلما كان الغد عبي الحارث أصحابه وحرّضهم ، وكانوا في أربعين ألفًا واصطفوا للقتال ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ؛ فقتلَ المنذر وهُزِمَت جيوشه ، فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحُمِلَا على بعير بمنزلة المذليين ، وجُمِلَ المنذر فوقهما فردا ، وقال : « يالعلّوة ^(٢) دُونَ العِدائين ! » وسار إلى الحيرة فَأَنهَبَهَا ^(٣) وأحرقها ، ودفن ابنيه بها ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كم تركنا بالعين عَيْنُ أَبَاغٍ من ملوك وسوقة أكَفَاء
أَمَطَرْتَهُمْ سَحَابُ المَوْتِ تَتَرَى إِنّ في المَوْتِ راحةَ الأشقياء
ليس من مات فاستراح بِمَيِّتٍ لِمَا المَيِّتُ مَيِّتُ الأحياء

(١) الموافقة : أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة (٢) العلّوة : ما يحمل على البعير وغيره ، وهو ما وضع بين العدلين (٣) أَنهَبَهَا : أباحها لمن شاء .

١٥٥ - يثأر لأبيه وجدّه *

كان من حديث قيس بن الخطيم^(١) أن جدّه عدى بن عمرو قتل رجل من بني عمرو بن عامر يقال له : مالك ، وقتل أباه الخطيم بن عدى رجل من عبد قيس من يسكن هجر ، وكان قيس يوم قُتل أبوه صبيّاً صغيراً ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عدى ، فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب يثأر أبيه وجدّه قَتَلَهُ .

فعمدت إلى كومة من تراب عند باب الدار ، فوضعت عليها أحجاراً وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدّك ، فكان قيس لا يشك في ذلك .

ونشأ أيداً^(٢) شديد الساعدين ؛ فنازع يوماً فتى من فتيان بني ظفر ؛ فقال له ذلك الفتى : والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدّك لكان خيراً لك من أن تخرجها على ؛ فقال : ومن قاتل أبي وجدّي ؟ قال : سل أمك تخبرك .

فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض ، وذبابه^(٣) بين يديه ؛ وقال لأمه : أخبريني من قتل أبي وجدى ؟ قالت : ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء . فقال : والله لتخبريني من قتلها ، أو لأتحاكمن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! فقالت : أما جدّك فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له : مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد قيس ممن يسكن هجر .

* الأغاني : ٣ - ٣

(١) قيس بن الخطيم : شاعر الأوس ، وأحد مناديهما في الجاهلية ، أدرك الإسلام وتريث في قبوله ، ثم قتل قبل أن يدخل فيه نحو سنة ٢ ق . هـ (٢) أيدا : شديداً قويا (٣) ذباب السيف : طرفه الذي يضرب به .

قال : والله لا أنتهى حتى أقتل قاتلَ أبي وجدتي ؛ فقالت : يا بني ؛ إن مالكا قاتلَ جدك من قوم خدّاش بن زهير ، ولأبيك عند خدّاش نعمة هو لها شاكر ، فأنته فاستشره في أمرك واستعنه يُعينك .

فخرج قيس من ساعته حتى أتى ناضحه ^(١) وهو يستقي نخله ، فضرب الجرير ^(٢) بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو في البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غرارتين ^(٣) من تمر ، وقال : من يكفيني أمرَ هذه العجوز ؟ يعني أمه - فإن مت أنفقَ عليها من هذا الحائط ^(٤) حتى تموت ثم هو له ، وإن عشتُ فمألى عائِد إلى وله منه ماشاء أن يأكل من ثمره ؟ فقال رجل من قومه : أنا له ، فأعطاه الحائط .

ثم خرج يسأل عن خدّاش بن زهير حتى دُلَّ عليه بمرّ الظهران ^(٥) ، فسار إلى خبائه فلم يجد ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ، ثم نادى امرأة خدّاش : هل من طعام ؟ فأطعمتْ إليه ، فأعجبها جماله ، وكانت من أحسن الناس وجهاً ؛ فقالت : والله ما عندنا من نزلٍ ^(٦) نرضاه لك إلا تمرأ ؛ فقال : لا أبالي ، فأخرجني ما عندك ؛ فأرسلتْ إليه ، بقُبّاع ^(٧) فيه تمر ، فأخذ منه ثمرة فأكل شِقّها وردَّ شِقّها الباقي في القُبّاع ، ثم أمر بالقُبّاع فأدخل على امرأة خدّاش بن زهير ، ثم ذهب لبيع حاجاته .

ورجع خدّاش فأخبرته امرأته خبرَ قيس ، فقال : هذا رجلٌ متحرّم ^(٨)

(١) الناضح : البعير يستقي عليه الماء (٢) الجرير : الجبل (٣) الفرارة : الكيس .
(٤) الحائط : البستان (٥) الظهران : واد قرب مكة عند قرية يقال لها : « مر » تضاف إليه فيقال مر الظهران (٦) النزل : ما يهيا للضيف من قري (٧) القُبّاع : الكيال الضخم (٨) متحرّم : له عندنا حرمة وذمة .

وأقبل قيس راجعاً . فلما رأى خِداش رجُلَهُ وهو على بعيره قال لامرأته : هذا ضيفك؟ قالت : نعم ؛ قال : كان قدمه قدم الخطيم صديق اليتيمى ؛ فلما دنا منه قرع طُنْبُ^(١) البيت بسنان رحه ، واستأذن ، فأذن له خِداش ، فدخل إليه ، فنسبه^(٢) فانتسب ، وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يُعينه ، وأن يشير عليه فى أمره ، فرحب به خِداش ، وذكر نعمة أبيه عنده ، وقال : إن هذا الأمر مازلتُ أتوقَّعه منذ حين . فأما قاتلُ جدك فهو ابن عمِّ لى وأنا أعينك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلستُ إلى جانبه وتحدَّثتُ معه ، فإذا ضربتُ فخذَه فثبَّ إليه فاقتله .

قال قيس : فأقبلتُ معه نحوه حتى قتُ على رأسه لثماً جالسَه خِداش ، فحين ضرب فخذَه ضربتُ رأسَه بسيف يُقال له : ذو الخِرَصَيْنِ ؛ فنار إلى القوم ليقتلوني ، فحال خِداش بينهم وبينى ، وقال : دَعُوهُ فإنه والله ماقتل إلا قاتلَ جدّه .

ثم دعا خِداش بجملٍ من إبله فركبه ، وانطلق مع قيس إلى العبدى الذى قتل أباه ، حتى إذا كانا قريباً من هَجَرَ ، أشار عليه خِداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فإذا دُلَّ عليه قال له : إن لصاً من لصوص قومك عارضنى فأخذ منى متاعاً لى . فسألت : مَنْ سيِّدُ قومه ؟ فدُلِّتُ عليك ؛ فانطلق حتى تأخذ متاعى منه ، فإن أتبعك وحده فستنال ما تريد منه ، وإن أخرج معك غيره فاضحك ، فإن سألكَ فمَّ ضحكك ؟ فقل : إنَّ الشريف عندنا لا يصنعُ كما صنعتَ إذا دُعِيَ إلى اللص من قومه ، إنما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فإذا رآه اللص أعطى كل شىء أخذه ، هبةً له ، فإن أمر أصحابه بالرجوع فذلك خير لك ، وإن أبى إلا أن يعضوا معه فانتنى به ، فإنى أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

(١) الطنب بضمين وسكون الثانى لغة : الخبل تشد به الحيمة ونحوها ، والجمع أطناب .

(٢) نسبه : طلب إليه أن ينتسب .

ونزل خِدَاشَ تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العَبْدِيَّ ، فقال له : ما أمره خدَاش فأَحْفَظْهُ^(١) ؛ فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس ؛ فلما طلع على خِدَاش ، قال له : اختر يا قيس ؛ إما أن أُعِينَكَ وإما أن أُكْفِيكَ ، قال : لا أريدُ واحدةً منهما ، وإسكن إن قتلتني فلا يُفْلِتَنَّكَ ؛ ثم ثار إليه فطعنَه قيس بالحربة في خاصرته فأَنفَذَها من الجانب الآخر ؛ فمات مكانه .

فلما فرغ منه قال له خِدَاش : إنا إن فرَرْنَا الآن طلبنا قومهُ ، ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً من مَقْتَلِهِ ، فإنَّ قومهُ لا يظنون أنك قَتَلْتَهُ ، وأمَتَ قريباً منه ؛ ولكنهم إذا افتقدوه^(٢) اقتَمَوْا أثره ، فإذا وجدوه قتيلاً خرجوا في طلبنا في كل وجه ، فإذا يئسوا رجعوا .

قال : فدخلا في دَارَاتٍ من رمالٍ هناك ، وفقدَ العَبْدِيَّ قومهُ فاقْتَمَوْا أثره فوجدوه قتيلاً ، فخرجوا يطلبونهما في كل وجه ثم رجعوا ، فكان من أمرهم ما قال خِدَاش ، وأقاما مكانهما أياماً ثم خرجا ، حتى أتيا منزلَ خِدَاش فقارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله ، ففي ذلك يقول قيس :

تذَكَّرَ لِي — لِي حَسَنُهَا وَصَفَاءُهَا وَبَانَتْ فَمَا إِنْ يَسْتَطِيعُ لِقَاءُهَا
وَمِثْلُكَ قَدْ أَصْبَيْتُ لَيْسَتْ بِكُنَّةٍ^(٣) وَلَا جَارَةٍ أَفْضَتْ إِلَى خِبَاءِهَا
إِذَا مَا اصْطَبَحْتُ أَرْبَعًا خَطَ مِزْرِي^(٤) وَأَتْبَعْتُ دَلْوِي فِي السَّاحِ رِشَاءُهَا^(٥)
ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضِغْ وَصِيَّةَ أَشْيَاخٍ جُعِلَتْ إِزَاءُهَا

(١) أحفظه : أغضبه (٢) افتقدوه : طلبوه عند غيبته (٣) الكنة : امرأة الابن أو الأخ
(٤) يريد أنه إذا شرب أربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء (٥) يريد أنه بلغ في السباح
منها ، يقال : أتبع الدلو رشاءها ، وأتبع الفرس لجامها ، إذا بذل آخر مجهوده .

١٥٦ — بعد طعن عمر بن الخطاب *

خرج عمر^(١) بن الخطاب يوماً يطوف في الشوق ، فلقه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه — وكان نصرانياً — فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أعدني^(٢) على المغيرة ابن شعبه ، فإنَّ عليَّ خراجاً كثيراً . قال : ولم خراجك ؟ قال : درهمان في كل يوم . قال : ما صنعتهك ؛ قال : نجار ، نقاش ، حدّاد ، قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغني أنك تقول : لو أردتُ أن أعمل ربحاً تطحن بالريح فعلت ، قال : نعم ، قال : فاعمل لي ربحاً . قال : لئن سلمتُ لأعمنَّ لك ربحاً يتحدث بها من بالشرق والغرب ، ثم انصرف عنه .

فقال عمر : لقد تَوَعَّدَنِي العبد آتفاً ، ثم انصرف عمر إلى منزله ، فلما كان من الغد جاءه كعبُ الأخبار فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ اعهدْ ، فإنك ميّتٌ في ثلاثة أيام ، قال : وما يُدريك ؟ قال : أجده في كتاب الله عز وجل ، التوراة . قال عمر : الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! قال : اللهم لا ؛ ولكني أجد صِفَتَكَ وحِلَّتِيكَ ، وأنه قد فَنِيَ أجلك — وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً .

فلما كان من الغد جاء كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين : ذهبَ يوم ، وبقى يومان ، ثم جاءه من غد ، فقال : ذهبَ يومان ؛ وبقى يوم وليلة ، وهي لك إلى صبيحتها .

* تاريخ الطبري : ٥ - ١٢ ، العقد الفريد : ٢ - ٢٥٦

(١) عمر بن الخطاب : ثاني الخلفاء الراشدين ، المضروب ببدله المثل ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر ، وقتل سنة ٢٣ هـ (٢) أعداه : أعانه .

فلما كان الصبحُ خرج عمر إلى الصلاة ، وكان يوكل بالصفوف رجالا ، فإذا استوت جاء هو فكبر ، ودخل أبو لؤلؤة في الناس ، في يده خنجر له رأسان ، نصابه^(١) في وسطه ، فضرب عمر ست ضربات ؛ إحداهن تحت سُرته ، وهي التي قتله .

فلما وجدَ عمر حرَّ السلاح سقط وقال : أفي الناس عبدُ الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ؛ هو ذا . قال : تقدّم فصلّ بالناس . فصلّى عبد الرحمن ابن عوف ، وعمر طريح ، ثم احتمل ، فأدخل داره .

ولما أحسَّ الناسُ قربَ موته قالوا له : يا أمير المؤمنين ؛ لو استخلفت ! قال : إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني ، وإن استخلفتُ فقد استخلف عليكم من هو خير مني ، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيّا لاستخلفته ، فإن سألني ربي ، قلت : سمعتُ نبيك يقول : « إنه أمينُ هذه الأمة » . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّا لاستخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سمعتُ نبيك يقول : إن سالما يحب الله حبا ، لو لم يحقّه ماعصاه^(٢) .

قيل له : فلو أنك عهدتَ إلى عبد الله بن عمر ؛ فإنه لذلك أهل ؛ لدينه وفضله وقديم إسلامه ، فقال : بحسبِ آل الخطاب أن يحاسبَ منهم رجلٌ واحد عن أمة محمد ، ولوددت أني نجوتُ من هذا الأمر كفافا^(٣) ، لا لي ولا على .

(١) نصاب السكين : ما يقبض عليه (٢) هذه الجملة تدل على تقرير عدم العصيان على كل حال ، وعلى أن اتقاء العصية مع ثبوت الخوف أولى (المنقح ص ٢٠٢ ج ١) (٣) الكفاف : الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه ، وهو نصب على الحال ، وقيل : أراد مكفوفه عن شرها .

ثم راحوا فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ لو عهدت ! فقال : قد كنت أجمعت^(١) بعد مقاتلي لكم أن أولي رجلاً أمركم أرجو أن يحملكم على الحق - وأشار إلى علي - ثم رأيت ألا أتحمّلها حيّاً وميتاً . فعليكم بهؤلاء الرّهط الذين توفّي رسول الله وهو عنهم راضٍ : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعلي بن أبي طالب ؛ وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ؛ وطلحة الخير .

وقال لعبد الرحمن ادعُ عليّاً وعثمان والزبير وسعداً وقال : انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً - وكان غائباً - فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم . أنشدك الله يا عليّ إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس ! أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس ! أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس ؛ قوموا فتشاوروا ، ثم اقضوا أمركم ، وليُصلّ بالناس صهيّب .

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري ، فقال : قم عليّ يا بنيهم فلا تدع أحداً يدخل إليهم ، وأوصي الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبوّءوا الدار والإيمان : أن يحسن إلى مُحسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصي الخليفة من بعدى بالعرب ؛ فإنهم مادّة الإسلام ؛ أن يأخذ من صدقاتهم حقّها فتوضع في فقرائهم ، وأوصي الخليفة من بعدى بدمّة محمد رسول الله ؛ أن يوفّي لهم بمهدم ، اللهم هل بلغت ! تركتُ الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة .

يا عبد الله بن عمر ؛ اخرج فانظر من قتلني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قتلك أبو لؤلؤة غلامُ الغيرة بن شعبة ، قال : الحمد لله الذي لم يجعل مِنِّي بيد رجل

سَجَدَ لَهِ سَجْدَةً وَاحِدَةً ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ؛ اذْهَبْ إِلَى عَائِشَةَ ، فَسَلِّهَا أَنْ تَأْذَنَ لِي
أَنْ أُدْفِنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبِي بَكْرٍ ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ؛ إِنْ اخْتَلَفَ الْقَوْمُ فَكُنْ مَعَ
الْأَكْثَرِ ، وَإِنْ كَانُوا ثَلَاثَةً وَثَلَاثَةً فَاتَّبِعِ الْحِزْبَ الَّذِي فِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛
إِذْنٌ لِلنَّاسِ .

فَجَعَلَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَيَسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : أَعَنْ مَلَأُ (١)
مِنْكُمْ كَانَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : مُعَاذَ اللَّهِ ! وَدَخَلَ فِي النَّاسِ كَعْبٌ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ
عُمَرُ قَالَ :

فَأَوْعَدَنِي كَعْبٌ ثَلَاثًا أَعِدَّهَا وَلَا شَكَّ أَنْ الْقَوْلَ مَاقَالَ لِي كَعْبُ
وَمَا بِي حَذَارُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ وَلَكِنْ حَذَارُ الذَّنْبِ يَتَّبِعُهُ الذَّنْبُ
ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ ، رَحِمَهُ اللَّهُ .

(١) أَى مُشَاوَرَةٍ مِنْ أَشْرَافِكُمْ وَجَاعَتِكُمْ .

١٥٧ — المؤتمرون بعلي ومعاوية وعمر*

لما قتل على^١ أهل النهروان ، وكان بالكوفة زهاء ألفين من الخوارج ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقوم^٢ ممن استأمن^(١) إلى أبي أيوب الأنصاري ؛ فتجسسوا وأمروا عليهم رجلا من طي^٣ ؛ فوجه إليهم على^٤ رجلا وهم بالنخيلة^(٢) فدعاهم ورائق بهم فأبوا ، فعاودهم فأبوا ، فاقتتلوا جميعا .

فخرجت طائفة منهم نحو مكة ؛ فوجه معاوية من يقيم للناس حجهم ؛ فناوشه هؤلاء الخوارج ؛ فبلغ ذلك معاوية ؛ فوجه بسر بن أرطاة أحد بني عامر ابن لؤي فتوقفوا وتراضوا بعد الحرب بأن يصلي بالناس رجل من بني شيبه ؛ لئلا يفوت الناس الحج .

فلما انقضى نظرت الخوارج في أمرها فقالوا : إن علينا ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناها لعاد الأمر إلى حقه .

وقال رجل من أشجع : والله ما عمرو ودونها ؛ وإنه لأصل هذا الفساد ! فقال عبد الرحمن بن ملجم . أنا أقتل عليا ! فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغتاله !

فقال الحجاج بن عبد الله الصريمي^٥ : وأنا أقتل معاوية ! وقال زاذويه مولى بني العنبر : وأنا أقتل عمرا !

* السعدي : ٢ - ٤٠ ، ابن أبي الحديد : ٢ - ٤٢ ، ٢ - ١٤٤ ، الكامل : ٢ - ١٢٥
 رغبة الأمل : ٧ - ١١٨

(١) رفع على راية الأمان مع أبي أيوب ، فنادى : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن فهو آمن (١) النخيلة : موضع قريب الكوفة .

فَاجْعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ قَتْلُهُمْ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَعْمَلُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

فَخَرَجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى نَاحِيَةٍ : فَأَتَى ابْنُ مُلْجَمٍ الْكَوْفَةَ ، فَأَخْفَى نَفْسَهُ ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا قَطَامٌ بِنْتُ عُلْقَمَةَ ؛ وَكَانَتْ تَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ ^(١) ؛ فَقَالَتْ لَهُ : لَا أَقْنَعُ مِنْكَ إِلَّا بِصَدَاقٍ أُسَمِّيهِ لَكَ وَهُوَ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَعَبْدٌ وَأَمَةٌ ، وَأَنْ تَقْتُلَ عَلِيًّا ! فَقَالَ لَهَا : لَكَ مَا سَأَلْتَ ! فَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَتْ : تَرَوْمُ ذَلِكَ غَيْسِلَةٌ ؛ فَإِنْ سَلِمْتَ أَرَحْتَ النَّاسَ مِنْ شَرِّ وَأَقْتَمَعَ أَهْلَكَ ، وَإِنْ أَصِيبَتْ صِرْتَ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمٍ لَا يَزُولُ ! فَأَنْعَمَ ^(٢) لَهَا ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا وَهُوَ يَقُولُ :

وَلَمْ أَرَ مَهْرًا سَاقَةً ذُو سَمَاحَةٍ كَمَهْرٍ قَطَامٍ مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدٌ وَقَيْنَةٌ وَضَرْبٌ عَلَى بِالْحُسَامِ الْمَصْمِ ^(٣)
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلَىٍّ وَإِنْ غَلَا وَلَا فَتَكَ إِلَّا دُونَ فَتَكَ ابْنِ مُلْجَمٍ
ثُمَّ أَقَامَ ابْنُ مُلْجَمٍ ؛ فَلَامَتَهُ امْرَأَتُهُ ، وَقَالَتْ : أَلَا تَمْضِي لِمَا قَصَدْتَ ! لَشَدِّ
مَا أَحْبَبْتَ أَهْلَكَ ! قَالَ : إِنِّي قَدْ وَعَدْتُ صَاحِبِيَّ وَقَتًّا بَعِينَةً .

ثُمَّ وَاطَأَ رَجُلَانِ مِنْ أَشْجَعٍ يُقَالُ لَهُ شَيْبُ بْنُ بَحِيرَةَ عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ خَرَجَ ابْنُ مُلْجَمٍ وَشَيْبُ
الْأَشْجَعِيِّ فَاعْتَوَرَا ^(٤) الْبَابَ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَغْلَسًا ^(٥) وَيُوقِظُ

(١) كَانَ عَلَى قَتْلِ أَبَاهَا وَأَخَاهَا يَوْمَ التَّهْرَوَانِ ، وَكَانَتْ أَجَلَ أَهْلِ زَمَانِهَا (٢) أَنْعَمَ لَهَا :
قَالَ لَهَا : نَعَمْ (٣) الْمَصْمُ مِنَ السُّيُوفِ : الَّذِي يَمُرُّ فِي الْعِظَامِ (٤) اعْتَوَرُوا الشَّيْءَ : تَدَاوَلُوهُ
فِي بَيْنِهِمْ (٥) التَّغْلِيْسُ : السَّرُّ بِفُلْسٍ ، وَالْفُلْسُ : ظُلْمَةٌ آخِرُ اللَّيْلِ .

الناس للصلاة ؛ فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب فأخطأه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلعتيه وهو يقول : لله الحكم لالك يا علي . فقال علي : قُرْتُ^(١) ورب الكعبة ! شأنكم بالرجل !

وحمل ابن ملجم على الناس بسيفه ، فأفرجوا له ، وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة ، فرمى بها عليه ، واحتمله فضرب به الأرض - وكان المغيرة أيداً^(٢) - فقعد على صدره .

وأما شبيب فانتزع السيف منه رجل من حضرموت ، وصرعه ، وقعد على صدره ؛ وكثر الناس ، فجعلوا يصيحون : عليكم صاحب السيف ؛ لخاف الحضرمي أن يُكَبِّوا عليه ، ولا يسمعو عذره ؛ فرمى بالسيف ، وانسل شبيب بين الناس . فدخل على علي رضي الله عنه ، فأمر فيه فاختلف الناس في جوابه ، فقال علي : إن أعيش فالأمرُ إلىَّ ، وإن أصب فالأمرُ لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تمفوا أقرب للتقوى .

وأقام على يومين ؛ فسمع ابن ملجم الرنة من الدار ، فقال له من حضره : أى عدو الله ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين ، فقال : أما والله لقد اشتريتُ سيفي بألف درهم ، وما زلت أعرضه فما يعيبه أحدٌ إلا أصلحتُ ذلك العيب ، ولقد سقيته السمَّ حتى لفظه ، ولقد ضربته ضربة لو قُسمت على من بالشرق لأنت عليهم .

وماب علي رضي الله عنه ، في اليوم الثالث .

(١) قار الشئ : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً (٢) الأيد : القوى .

فدعا به الحسنُ رضى الله عنه فقال ابن مُلجم : إن لى عندك سرّاً ! فقال الحسن : أتدرون ما يريد منى ؟ يريد أن يقرب من وجهى فيعض أذنى فيقطعها ! فقال : أما والله لو أمكنتنى منها لا قتلعتُها من أصلها ! فقال الحسن : كلا والله لأضربَنَّكَ ضربة تؤدى بك إلى النار ! فقال : لو عملتُ أن هذا فى يديك ما اتخذت إلهاً غيرك ! فقال عبد الله بن جعفر : يا أبا محمد ؛ ادفعه إلىَّ أشفِ نفسى منه ؛ فأخى له ميلين وكحله بهما فجعل يقول : إنك يا ابن أخى لتكحلُ عمك بمأولين^(١) مضاضين^(٢) . ثم قتله .

وأما الحجاجُ بن عبد الله الصَّريمى فإنه ضرب معاوية مُصَلِّياً ، فأصاب مأَ كَمَتِهِ^(٣) ، وكان معاوية عظيمَ الأوراكِ فقطع منه عِرْقاً ، فجاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة ، فقال : إن السيف مسموم ، فاخترْ إما أن أحمى لك حديدة فأجعلها فى الضربة ، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك ! فقال : أما النار فلا أطيقها ، وأما النسل فى يزيـد وعبد الله ما تقرُّ به عيني ، وحسبى بهما . فسقاه الدواء ، فعوفى وعالج جرحه حتى التأم ، فلم يُولَدْ لمعاوية بعد ذلك ولد .

فلما أُخِذَ قال : الأمان والبشارة ؛ قُتِلَ علىَّ فى هذه الصبيحة ، فاستؤننى^(٤) به حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ورجله ؛ فأقام بالبصرة ؛ فبلغ زياداً أنه قد ولد له ، فقال : أيولـد له وأميرُ المؤمنين لا يولد له فقتله .

وأما زاذويه فإنه أرصدَ لعمره ، واشتكى عمرو بطنه فلم يخرج للصلاة وخرج خارجة^(٥) ، فضربه زاذويه فقتله .

(١) المألول : المكحل (٢) مض الكحل العين : أكلها (٣) المأكاة :
لحمة على رأس الورك (٤) استأنى : تأنى وثبت (٥) هو خارجة بن حذافة أحد بنى عامر
ابن لؤى .

فلما دُخِلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة ، قال : أو ما قتلُ عمرأ !
قيل : لا ؛ إنما قتلَ خارجة . قال : أردتُ عمرأ . وأراد الله خارجة !
وأوقفَ الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره ، فقصَّ عليه القصة ، وأخبره أن
عليأ ومعاوية قُتِلَا في هذه الليلة ، فقال : لا بد من قتلِك ؛ فبكى ، فقيل له : أجزعأ
من الموت مع هذا الإقدام ! فقال : لا والله ؛ ولكن غمأ أن يفوزَ صاحبي بقتل على
ومعاوية ، ولا أفوز أنا بقتل عمرو ! ف ضربَ عنقه وصُلب .

١٥٨ — بين عبد الملك بن مروان وعمر بن سعيد*

لما أراد عبُّ الملك بن مروان الخروجَ إلى العراق لقتال مُصعب^(١) بن الزبير، وأخذ في جهّازه أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية، امرأته، في جواربها، وقد تزينت بالحلي، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ لو قعدت في ظلال مُلكك، ووجهت إليه كلباً من كلابك لكفأك أمره، فقال: هيهات! أما سمعت قول الأول:

قومٌ إذا ما غزَوْا شَدُّوا مَازِرَهمْ دونَ النساءِ ولو بَاتَتْ بأَظْهَارِ
فلما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواربها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي ربيعة؛ كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

إذا ما أرادَ الفِرَوزَ لم يَثنِ هَمَّهُ حَصَانٌ عليها نَظْمٌ دُرٌّ يَزينُها
نَهتَهُ فلما لم تَرَ التَّهَيَّ عاقَهُ بكتُ فبَكَى مما دَهاها قَطينُها^(٢)
ثم خرج يُريد مُصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق، وخالف عليه، فقيل له: ما تصنع؟ أتريدُ العراق وتدعُ دمشق؟ أهلُ الشام أشدُّ عليك من أهل العراق. فرجع مكانه، وحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، وأن له مع كل عامل عاملاً. ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل إليه عبد الملك:

* العقد الفريد: ٣ - ١٥٣، الأمل: ١ - ١٤
(١) انظر صفحة ١٦٨
(٢) القطيع: الخدم.

أَنْ أَخْرِجَ لِلْحَرَسِ أَرْزَاقَهُمْ . فقال : إذا كان لك حرس فإن لنا حرساً أيضاً ، فقال عبد الملك : أَخْرِجِ لِلْحَرَسِ أَرْزَاقَهُمْ .

فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصفَ النهار . أن اتقني أبا أمية حتى أدبرَ معك أموراً ، فقالت امرأته : يا أبا أمية ؛ لا تذهبْ إليه ، فإنني أتخوَّفُ عليك منه ، فقال : والله لو كنتُ نائمًا ما أيقظني ! قالت : والله ما آمنه عليك ، وإنِّي لأجدُ ريحَ دَمٍ مَسْفُوحٍ ؛ فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشيَّجها .

فخرج وخرج معه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقدر على مثلهم ، مسلَّحين ، فأحدقوا بمخضراء دمشق ، وفيها عبدُ الملك ، فقالوا : يا أبا أمية ؛ إن رَأَبَكَ رَيْبٌ فَأَسْمِعْنَا صَوْتَكَ ، ثم دخل ، فجعلوا يصيحون : يا أبا أمية ؛ أَسْمِعْنَا صَوْتَكَ - وكان معه غلام أسحَمُ ^(١) شجاع - فقال له : اذهب إلى الناس فقل لهم : ليس عليه بأس ؛ فقال له عبد الملك : أمكراً عند الموت أبا أمية ! خذوه ، فأخذوه ثم قال له عبد الملك : إني أقسمتُ إن أمكنتني منك يد أن أجعل في عنقك جَامِعة ^(٢) ، وهذه جامعة من فضة ، أريدُ أن أبرَّ بها قسماً ، وطَرَحَ رِقَبَتَهُ في الجامعة ، ثم تَرَّه ^(٣) إلى الأرض بيده ، فانكسرت رِقَبَتُهُ ^(٤) ، فجعل عبد الملك ينظر إليه ، فقال عمرو : ولا عليك يا أمير المؤمنين ، عظم انكسر .

وجاء المؤذنون فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين - لصلاة الظهر - فقال لعبد العزيز ابن مروان : اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة ، فلما أراد عبد العزيز أن يضربَ

(١) الأسحَم : الأسود (٢) الجامعة : القل (٣) التتر : الجذب بجفاء (٤) الثانية من الأربع التي في مقدم الفم ، ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل .

عنقه ، قال له عمرو : نَشَدْتُكَ ^(١) الرَّحِمَ يا عبد العزيز ألا تقتلني من بينهم ، فجاء عبد الملك ، فرآه جالسا . فقال : مالك لم تقتله ؟ لعنك الله ، ولعن أمّا ولدتك ! ثم قال : قدّموه إليّ ، فأخذ الحربة بيده فقال : فعلتها يا بنَ الزرقاء ، فقال له عبد الملك : إني لو علمت أنك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتُك بدم الناظر ، ولكن قلما اجتمع فخلان في ذود ^(٢) إلا عدا أحدهما على الآخر ، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقعدَ يرعد ، ثم أمر به فأُدرج في بساط وأدخل تحت السرير .

وأُرسل إليه قبيصة ^(٣) بن ذؤيب الخزاعيّ فدخل عليه ، فقال : كيف رأيك في عمرو بن سعيد الأشدق ، فقال - وقد أبصر قبيصة رجلا عمرو تحت السرير : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين ، واطرح رأسه ، وانثر على الناس الدنانير يتشاغلون بها ، ففعل ، وافترق الناس .

(١) نَشَدْتُكَ : سألتك (٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر (٣) صحابي من الفقهاء الوجوه ، كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام ، وتوفي بدمشق سنة ٨٦ هـ .

١٥٩ — الأخطل يفرق من الجحاف *

كان الجحافُ بن حَكيم السَّلَمي^(١) من فُتَّاك العرب ، وكان من خبر ابن عمه
عُمير بن الحُباب السَّلَمي أنه نهض في الفِتنَةِ التي كانت بالشام بين قيس وكلب
بسبب الزُّبيرية والرواثية ، فلقى في بعض تلك المُعَاوَرَاتِ^(٢) خيلاً لبني تَغْلِب ؛
فقتلوه ؛ فلما اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان ، ووضعت تلك الحرب أوزارها
دخل الجحاف على عبد الملك والأخطل عنده ، فالتفت إليه الأخطل فقال :

ألا سائل الجحاف هل هو نائرٌ لِقَتَلِي أُصِيبْتُ من سَلِيمٍ وعامرٍ !
فقال الجحاف مجيباً له :

بلى ، سوف أبكيهم بكلّ مَهَنَدٍ وأبكي عميراً بالرِّمَاحِ الخَوَاطِرِ^(٣) .
ثم قال : يا بن النصرانية ؛ ما ظننتك تجترى على بمثل هذا ولو كنتُ
مأسوراً ! فحم الأخطل فرقا^(٤) من الجحاف ، فقال عبد الملك : لا ترع ، فإني جارك
منه . فقال الأخطل : يا أمير المؤمنين ؛ هَبِكَ تُجِيرُنِي منه في اليقظة ، فكيف تجيرني
في النوم !

ثم نهض الجحاف من عند عبد الملك يسحب كِسَاءَهُ ، فقال عبد الملك : إن
في قضاء لغدرة ، ومَرَّ الجحافُ لِطَيْتِهِ^(٥) ، وجمع قومه وأنى الرصافة ، ثم سار إلى بني

* بجم الأمثال : ٢ - ٢٤ ، معجم البلدان : ٢ - ١٨٦

(١) فانك ، نائر ، شاعر كان معاصراً لعبد الملك بن مروان ، توفي نحو سنة ٩٠ هـ . (٢) غاورم :
أغار عليهم وأغاروا عليه ، والمعاورة مفاعلة (٣) المهند : السيف . خطر الرمح : اهتز .

(٤) فرقا : خوفاً (٥) يقال : مضى لطيته ، أى لوجهه الذي يريده ، ولجته التي اتواها .

(٢٦ - قصص - ثالث)

تَغْلِبُ فِصَادِفٍ فِي طَرِيقِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنْهُمْ قَتَلْتَهُمْ ، وَمَضَى إِلَى الْبِشْرِ ^(١) فِصَادِفٍ عَلَيْهِ جَمْعًا مِنْ تَغْلِبَ ، قَتَلَ مِنْهُمْ خَمْسَمِائَةَ رَجُلٍ ، وَتَعَدَّى الرِّجَالُ إِلَى قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ^(٢) ، فَنَادَتْهُ عَجُوزٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَتْ : يَا جِحَافُ ؛ أَتَقْتُلُ النِّسَاءَ ! فَأَمْخَذَ وَرَجَعَ .

فَبَلَغَ الْخَبْرُ الْأَخْطَلَ ، فَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ :
لَقَدْ أَوْقَعَ الْجِحَافُ بِالْبِشْرِ وَقَعَةً إِلَى اللَّهِ مِنْهَا الْمُشْتَكَى وَالْمَعُولُ
فَأَهْدَرَ ^(٣) عَبْدُ الْمَلِكِ دَمَ الْجِحَافِ . فَهَرَبَ إِلَى الرُّومِ ، فَكَانَ بِهَا سَبْعَ سِنِينَ ،
وَمَاتَ عَبْدُ الْمَلِكِ ، وَقَامَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَاسْتَوْثَمَ لِلْجِحَافِ ، فَأَمَّنَهُ ،
فَرَجَعَ .

(١) البِشْر . ماء لبني تغلب . (٢) الوليد . المولود ، والصبي والمبد ؛ جمعه الولائد والولدان
(٣) أهدر دمه : أبطله ؛ أي أباح قتله .

١٦٠ — قد أخرتُ الإذن عليه لتقتلوه فلم تفعلوا *

قال عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ ^(١) : خرجتُ مع مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ حين بلغه شُخُوصُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَيْهِ . فلما نزل مُصْعَبُ بِمَسْكِنٍ ^(٢) ، ورأى معالمَ الْقَدْرِ مِنْ مَعِهِ ، دعاني ودعا بِمَالٍ وَمَنَاطِقٍ ^(٣) ، فلأُ الْمَنَاطِقَ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ وَالْبَسْنَى مِنْهَا ، وقال لي : انطلق حيث شئتُ فَإِنِّي مَقْتُولٌ ؛ فقلتُ له : والله لَا أُرِيمُ ^(٤) حَتَّى أُرَى سَبِيلَكَ ، فَأَقْتُمْ مَعَهُ حَتَّى قُتِلَ .

ثم مضيتُ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَأُولَ بَيْتٍ صَرْتُ إِلَيْهِ دَخَلْتُهُ ، فَإِذَا فِيهِ امْرَأَةٌ لَهَا ظَبْيَتَانِ ، فَرَقِيتُ فِي دَرَجَةٍ لَهَا إِلَى مَشْرَبَةٍ ^(٥) ، فقعدتُ فِيهَا ، فَأَمَرَتْ لِي الْمَرْأَةُ بِمَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْقَرَشِ وَالْمَاءِ لِلْوُضُوءِ ، فَأَقْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِنْ حَوْلٍ ، تُقِيمُ لِي مَا يَصْلِحُنِي ، وَتَدْعُو عَلَيَّ فِي كُلِّ صَبَاحٍ فَتَسْأَلُنِي بِالصَّبَاحِ وَالْحَاجَةِ ^(٦) ، وَلَا تَسْأَلُنِي مِنْ أَنَا ، وَلَا أَسْأَلُهَا مِنْ هِيَ ! وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَسْمَعُ الصَّبَاحَ فِيَّ وَالْجَمَلَ .

فلما طال بي المقام ، وَقَعْدْتُ الصَّبَاحَ فِيَّ ، وَغَرَضْتُ ^(٧) بِمَكَانِي غَدَتُ عَلَيَّ

* الْأَغَانِي : ٥ - ٧٦

- (١) عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ : شاعر قُرَيْشٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَقِبَ الرُّقَيَّاتِ لِأَنَّهُ شَبِبَ بِثَلَاثِ نِسْوَةٍ سَمِيْنَ جَمِيعاً رُقِيَّةً .
 (٢) مَسْكِنٌ : مَوْضِعٌ عَلَى نَهْرِ دَجِيلٍ (شَعْبٌ مِنْ دَجَلَةٍ) بِالْكَوْفَةِ ، بِهِ كَانَتِ الْوَقْعَةُ بَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَمُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ فِي سَنَةِ ٧٢ هـ وَبِهِ قُتِلَ مُصْعَبُ .
 (٣) الْمَنَاطِقَةُ : مَا يَشْدُ عَلَى الْوَسْطِ (٤) لَا أَبْرَحُ (٥) الْمَشْرَبَةُ : الْغُرْفَةُ وَالْعَلِيَّةُ .
 (٦) أَيْ تَقُولُ : كَيْفَ أَصْبَحْتُ ؟ (٧) غَرَضْتُ : مَلَلْتُ .

تسألني بالصباح والحاجة ، ففرقتها أني قد غرِضْتُ وأحببت الشخصُوص إلى أهلي ؛
فقلت لي : نأتيك بما تحتاجُ إليه إن شاء الله تعالى .

فلما أمسيتُ ، وضرب الليل برواقه رَقِيتُ إلى وقالتُ : إذا شئتُ ، فنزلت
وقد أعددتُ راحلتين عليهما ما أحتاجُ إليه ، ومعهما عبد ، وأعطت العبد نفقة الطريق ،
وقالت : العبدُ والراحتان لك .

فركبت وركب العبد معي حتى طرقتُ أهل مكة ، فدققت منزلي ؛ فقالوا لي :
من هذا ؟ فقلت : عبيد الله بن قيس الرقيّات ، فولّوا وبكّوا ، وقالوا : ما فارقتنا
طلبك إلا في هذا الوقت ؛ فأقمت عندهم حتى أسحرتُ ^(١) .

ثم نهضتُ ومعى العبد حتى قدّمتُ المدينة ، فجنّتُ عبد الله بن جعفر بن
أبي طالب عند المساء ، وهو يُعشى أصحابه ، فجلستُ معهم ، وجعلتُ أتعاجم وأقول :
ياريار ^(٢) ابن طيّار ^(٣) ! فلما خرج أصحابه كشفْتُ له عن وجهي ، فقال :
ابن قيس ؟ فقلت : ابن قيس ، جئتُك عائداً بك ؛ قال : ويحك ! ما أجدم في
طلبك ! وأحرّصهم على الظفر بك ! ولكني سأكتبُ إلى أم البنين بنتِ
عبد العزيز بن مروان فهي زوجةُ الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرقُّ شيء
عليها . فكتب إليّها يسألها أن تشفعَ له إلى عمها ، وكتبَ إلى أبيها يسأله أن يكتبَ
إليها كتاباً يسألها الشفاعة .

فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعلُ وسألها : هل من حاجة ؟ فقلت : نعم

(١) أسحر : دخل في وقت السحر (٢) ريار : كلمة فارسية ، ومعناها : الصاحب والشفيق
والعين (٣) الطيار : لقب جعفر بن أبي طالب ، والد عبد الله هذا :

لى حاجة ؛ فقال : قد قضيتُ كلَّ حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات ؛ فقالت : لا تَسْتَتِنِ عَلَى شَيْئًا ! فَتَفَحْ^(١) بيده ، فأصاب خَدَّها ، فوضعتُ يدها على خَدَّها ؛ فقال لها : يَا بَنَّتِي ؛ ارفعى يدك ، قد قضيتُ كلَّ حاجة لك ، وإن كانت ابن قيس الرقيات ؛ فقالت : إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمّنه ، فقد كتب إلى أبى يسألنى أن أسألك ذلك ؛ قال : فهو آمن فمرّ به يحضر مجلس العشية .

فحضر ابن قيس وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك ، فأخّر الإذن ، ثم أذن للناس ، وأخّر إذن ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له ؛ فلما دخل عليه قال عبد الملك : يَا أَهْلَ الشَّامِ ؛ أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ؛ فقال : هذا عبيد الله بن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نوى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهلُ الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العذراء^(٢)

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، اسقنا دم هذا المنافق ! قال : الآن وقد أمّنته وصار فى منزلى وعلى سِاطى ! قد أخرت الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا . فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه فأذن له ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

عادَ له من كثيرة^(٣) الطَّرب^(٤) فعينه بالدموع تنسكبُ
كوفية نازح تحلّتها لا أم^(٥) دارها ولا صقب^(٦)

(١) فح بيده : ضرب بها ضربة خفيفة (٢) الخدام : جمع خدمة (بالتعريك) وهى الخلخال : قال فى اللسان : أراد وتبدى عن خدام العقيلة ، وخدام هنا فى نية من خدامها ، وعدى تبدى بمن لأن فيه معنى تكشف (٣) كثيرة هى التى تزل بدارها عبد الله بن قيس فأوته وأصبح بعد ذلك يذكرها كثيراً فى شعره (٤) الطرب هنا : الحزن (٥) لا أم دارها : ليست قريبة (٦) الصقب : الملاصقة .

والله ما إن صَبَتْ إِلَى ولا يُعْرِفُ بَيْنِي وبينها سَبَبُ
إلا الذي أَوْرَثَتْ كَثِيرَةً في القَلْبِ ، ولِلْحَبِّ سَوْرَةٌ ^(١) عَجَبُ
حتى قال فيها :

إن الأغرَّ الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقارُ والحُجُبُ
يعتدلُ التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جَبِينٍ كأنه الذهبُ ^(٢)
فقال له عبد الملك : يا ابن قيس ؛ تمدحني بالتَّاجِ كأنى من العجم ، وتقول
في مُصْعَب :

إنما مُصْعَبٌ شِهَابٌ من الله تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ غَزَّةٍ ليس فيه جَبَرُوتٌ منه ولا كبرياءُ
أما الأمان فقد سبق لك ؛ ولكن لا تأخذُ مع المسلمين عطاءً أبداً .
فذهب ابنُ قيس إلى عبد الله بن جعفر ، وقال له : ما نفعتني أمانِي ، تُرِكَتْ
حيًّا كَيْتٍ ، لا آخذُ مع الناس عطاءً أبداً !

فقال له عبد الله : كم بلغت من السن ؟ قال : ستين سنة . قال : فعمَّرَ ^(٣)
نفسك ، قال : عشرين سنة من ذِي قَبَلٍ ^(٤) ، فذلك ثمانون سنة ، قال : كم عطاؤك ؟
قال : ألفا درهم ، فأمر له بأربعين ألف درهم ، وقال : ذلك لك علىَّ إلى أن تموتَ
على تعميرِكَ نَفْسِكَ ، فعند ذلك قال عُبَيْدُ اللَّهِ بن قيس الرقيَّات يمدح عبد الله
ابن جعفر :

(١) السورة : شدة الأمر (٢) وفي هذه القصيدة :
ما تقوموا من بني أمية إلا أنهم يملكون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب
(٣) عمر نفسه : قدر لها قدراً محدوداً (٤) يقال : أفعل ذلك من ذِي قَبَلٍ : أى أفعله في
المستقبل .

تَقَدَّتْ بِي الشَّهْبَاءُ نَحْوَ ابْنِ جَعْفَرٍ^(١) سَوَاءٌ عَلَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
تَزُورُ امْرَأً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ تَجُودُ لَهُ كَفٌّ قَلِيلٌ غَرَارُهَا^(٢)
أَتَيْتُكَ نُنِّي بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ عَلَيْكَ كَمَا يُبْنِي عَلَى الرَّوْضِ جَارُهَا
فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَزُورَ ابْنَ جَعْفَرٍ لَكَانَ قَلِيلًا فِي دِمَشْقَ قَرَارُهَا
إِذَا مَتَّ لَمْ يَوْصَلْ صَدِيقٌ وَلَمْ تَقُمْ طَرِيقٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْتَ مَنَارُهَا
ذَكَرْتُكَ إِنْ فَاضَ الْفَرَاتُ بِأَرْضِنَا وَفَاضَ بِأَعْلَى الرَّقَّتَيْنِ^(٣) بِحَارُهَا

(١) تقدت : أى سارت سيراً ليس بعجل ولا مبطئ ، ولزمت سنن الطريق (٢) قليل غرارها : أى أن منها المعروف قليل ، وأصل الفرار أن تمنع الناقة درتها ، ثم يستعار في كل ما أشبه ذلك ، أو الفرار : المثال (٣) الرقتان : يراد بهما الرقة والرائقة ، وهما مدينتان ، والثنية من باب التغليب .

١٦١ - آبي الضيم*

قال الفضل الضبي:

كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ^(١) متوارياً عندي بالبصرة ، وكنت أخرج وأتركه ، فقال لي : إذا خرجت ضاق صدري ، فأخرج إلى شيتنا من كتبك أتفرّجُ به ، فأخرجتُ له كتباً من الشعر ، فاختار منها القصائد التي صدرتُ بها كتاب المفضليات ، ثم أتمتُ عليها باقي الكتاب .

فلما خرج خرجتُ معه ، فلما صار بالمرّيد ، مرّ به سليمان بن عليّ ، وقف عليهم ، واستسقى ماء ، فأتي به ، فشرب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم ، فضمّمهم إليه ، وقال : هؤلاء والله منا ونحن منهم لحنا ودمنا ، ولكن آباءهم انتزوا ^(٢) على أمرنا ، وابتزوا حقوقنا ، وسفكوا دماءنا ، ثم تمثّل :

مهلاً بني عمنا ظلامتنا إن بنا سورة ^(٣) من الغلق ^(٤)
لمثلكم ^(٥) نحمل السيوف ولا نغمز أحسابنا من الرقق ^(٦)
إني لأُتَمّي ^(٧) إذا اتّمتتُ إلى عزيّ عزيزٍ ومعشرٍ صدق
بيض سباطٍ ^(٨) كأنّ أعينهم تكحل يوم الهياج بالعلق ^(٩)

* ابن أبي الحديد : ١ - ٣٢٤ ، الأغاني : ١٠٠ - ٥

(١) أحد الأشراف الشعمان ، خرج بالبصرة على المنصور العباسي ، وكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتل سنة ١٤٥ هـ (٢) انتزى إلى الشر : توثب (٣) السورة : الوثوب (٤) الغلق : الضجر (٥) المراد : أننا نحمل لكم السيوف ، لأنكم أكفأونا (٦) الرقق : الضعف (٧) أنسب (٨) السباط : جمع سبط ، وهو حسن القد والاستواء (٩) العلق : الدم ، يريد أن عيونهم حمر لشدة الغيظ والغضب ، فكأنها كحلت بالدم .

قلت له : ما أجود هذه الأبيات وأفحلها ! فلنْ هي ؟ فقال : هذه يقولها
ضِرار بن الخطّاب القهريّ يوم عَبَرَ الخُنْدُق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله،
وتمثّل بها علي بن أبي طالب يوم صفّين ، والحسين يوم الطّفّ^(١) ، وزيد بن علي
يوم السَّبَخَة^(٢) ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان^(٣) ، فتطّيرتْ له مِنْ تمثله بأبيات
لم يتمثّل بها أحدٌ إلّا قُتل .

ثم سرنا إلى بآخرها^(٤) ، فلما قرب منها أتاه نعي أخيه محمد ، فتغيّر لونه ،
وجرّض^(٥) بريقه ، ثم أجش باكيًا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن محمدًا خرج
بطلب مَرْضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك المتّبع المطاع ، فاغفر له ،
وارحمه وارض عنه ، واجعل ما قتلته إليه من الآخرة خيرًا مما بقلته عنه من الدنيا ،
ثم انفجر باكيًا ، ثم تمثّل :

أنا المُنَازِل يا خَيْرَ الفوارسِ مَنْ يُفَجِّعُ بِمِثْلِكَ في الدنيا فقد فُجِّعَا
الله بِمِثْلٍ أُنِي لو خَشِيتَهُمْ أَوْ آنَسَ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفٍ لَمْ فَرَعَا
لَمْ يَقْبَلُوكَ وَلَمْ أُسَلِّمْ أَخِي لَمْ حَتَّى نَعِيشَ جَمِيعًا أَوْ نَمُوتَ مَعَا
قال المفضل : فجلّتْ أُعْزِيّه وأَعَاتِبُهُ على ما ظهر من جَزَعه ، فقال : إني والله
في هذا كما قال دُرَيْد بن الصَّمّة :

تقول : ألا تبكي أخاك وقد أرى مكان البُكا، لكن بُنيت^(٦) على الصبرِ
لمقتل عبد الله والهاك الذي على الشرف الأعلى قتيل^(٧) أبي بكر

(١) الطّفّ : ضاحية الكوفة ، وبها قتل الحسن (٢) السبخة : موضع بالبصرة (٣) جوزجان :
كورة واسعة من كور بلخ بخراسان ، وبها قتل يحيى بن زيد (٤) باخرا : موضع بين الكوفة
وواسط (٥) جرّض بريقه : ابتلعه بالجهد على مضض (٦) بنيت : خلقت (٧) قتيل أبي بكر
هو أخوه قيس ، قتله بنو أبي بكر بن كلاب يرأسهم عمرو بن سفيان الكلّابي .

وعبدِ نفوث^(١) أو خَلِيلِي خَالِدِ^(٢) وَجَلَّ مَصَابَا حَقْوُ قَبْرِ عَلَى قَبْرِ !
فَأَمَّا تَرْيَفًا لَا تَزَالُ دِمَاؤُنَا لَدَى وَاتِرٍ يَشْقَى بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فَأِنَّا لِلْحِمِّ السِّيفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ^(٣) وَنُلْجِمُهُ^(٤) طَوْرًا وَلَيْسَ بَذَى نَكْرِ
يُفَارُ عَلَيْنَا وَاتَرِينَ فِشْتَنِي بِنَا إِنْ أُصِيفْنَا ، أَوْ تُغِيرَ عَلَى وَتَرِ
بِذَاكَ قَسَمْنَا الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ قِسْمَةٍ فَسَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ

قال المفضل : ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد ، فتمثل إبراهيم :

إِنْ يَفْتُلُونِي^(٥) لَا تُصِبْ أَرْمَاحُهُمْ نَأْرِي وَيَسْعَى الْقَوْمَ سَفِيًّا جَاهِدَا
نَبِّتُ أَنْ بَنِي جَذِيمَةٍ أَجْمَعَتْ أَمْرًا تُدَبِّرُهُ لَتَقْتُلَ خَالِدَا
أَرْمِي^(٦) الطَّرِيقَ وَإِنْ رُصِدَتْ بِضَيْقِهِ وَأَنَا زَلُّ الْبَطْلِ الْكَيْمِيِّ الْحَارِدَا^(٧)

قلت له : من يقول هذا الشعر يا بن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر ابن كلاب يوم شغب جبلة .

ثم أقبلت عساكر أبي جعفر المنصور ، فطعن رجالاً وطعنه آخر ، فقلت له : أتباشر القتال بنفسك ! وإنما العسكر منوط بك ، فقال : إليك يا أخا بني ضبة ، فإني لكما قال عوف القوافي :

أَلَمْتُ سَعَادَ ، وَإِلْمَامُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ وَأَحْلَامُهَا
مَحَبَّةٌ مِنْ بَنِي مَالِكٍ تَطَاوَلُ فِي الْمَجْدِ أَعْلَامُهَا

(١) أخوه أيضاً قتله بنو مرة (٢) خالد أخوه أيضاً قتله بنو الحارث بن كعب (٣) التنكر : التغير عن حال تنسك إلى حال تكرمها ، والاسم النكبة (٤) ألجمته سيق : قتله ، وأصل ألجمه : ألجمه اللحم (٥) المعنى : أنهم إن قتلوني ، ثم حاولوا أن يصيبوا رجلاً آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيراً وسعوا في ذلك سعياً جاهدأ ، فإنهم لن يجدوا (٦) يقول : أسلك الطريق الضيق ، ولو جعل لي فيه الرصد لقتل (٧) الحاردي : التفرد في شجاعته ، الذي لا مثل له .

وإن لنا أصلَ جرثومةٍ تردّ الحوادثَ أيامُها
تردّ الكتيبةَ مقلولةً بها أفتها وبها ذامها^(١)

والتحمت الحرب واشتدت ، فقال يا مفضل : احكبي بشيء ، فذكرت أبياتا
لعويف القوافي لما كان ذكركه هو من شعره فأنشدته :

ألا أيها الناهي فزارة بعدما أجدت لسيّر ، إنما أنت ظالم
أبى كل حرٍّ أن يبيت بوثره وتمنع منه النوم إذ أنت نائم
أقول لفتيان كرام تروّحوا على الجرد في أفواههن الشكائم :
قفوا وقفةً ، من يحى لا يحز بعدها ومن يخترم لا تتبغه اللوائم
وهل أنت إن باعدت نفسك عنهم لتسلم فيما بعد ذلك ، سالم !

فقال : أعد وتبينت من وجهه أنه يستقتل ، فانهيت وقلت : أو غير ذلك !
فقال : لا ، بل أعد الأبيات ، فأعدتها ، فتمطى في ركبته فقطعهما ، وحمل فغاب
عني ، وأتاه منهم عائر^(٢) فقتله ، وكان آخر عهدي به .

(١) الأذن : النقص ، والذام : العيب

(٢) العائر من السهام : مالا يعرف راميّه .

١٦٢ — مصرع الوليد بن طريف *

كان الوليدُ بن طريف الشيباني^(١) رأسَ الخوارج وأشدَّهم بأساً وصَوْلَةً ، واشتدَّتْ شوْكُته ، وطالت أيامه ، فوجَّه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني^(٢) ، فجعل يَحَاتِلُه ويمسكه - وكانت البرامكة منحرفةً عن يزيد - فأغروا به أمير المؤمنين ، وقالوا : إنما يتجافى عنه للرحم ، وإلا فسَوَّكَه الوليد بسيرة .

فوجَّه إليه الرشيد كتابَ مُغْضَبٍ يقول فيه : ولو وجَّهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ، ولكنك مُدَاهِنٌ مُتَعَصِّبٌ ؛ وأمير المؤمنين يُقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليُوجَّهَنَّ من يَحْمِلُ رأسك إلى أمير المؤمنين ..

فلقي الوليد عشية خميس في شهر رمضان ، وقال لأصحابه : فِدَاكم أبي وأمي ! إنما هي الخوارج ولم حَمَلَةٌ ، فاحملوا فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا ، فكان كما قال : حملوا حَمَلَةً وثبت يزيد ومن معه من عشيرته وأصحابه ؛ ثم حمل عليهم فأنكسفوا واتبع يزيد الوليد بن طريف فلحقه بعد مسافة وألغاه يقول :

أنا الوليدُ بن طريف الشاري^(٣) قَسَوْرَةٌ^(٤) لا يُصْطَلَى بناري

* جَوْرُكم أَخْرَجَنِي من داري *

* الأغاني ١١ - ٩ ، معاهد التنصيص : ٥١ : ٢ .

(١) ناس من الأبطال ، خرج في خلافة الرشيد ، فأرسل إليه الرشيد جيشاً قائده يزيد بن يزيد الشيباني فقتله بعد - ، شديدة - ١٧٩ هـ . (٢) أمير من القادة الشجعان ، توفى سنة ١٨٥ هـ . (٣) الشارء : الخارجى ، وهم الشراة . (٤) القسورة : العزيز يقنسر غيره ، أى يقهره .

فأخذ يزيد رأسه . ولما سمعت بهذا أخته ليلي بنت طريف صَبَّحَتْهُمْ مُسْتَعْدَةً عليها الدَّرْع والجَوْشَن ^(١) ، فجعلت تحمل على الناس فَعُرَّتْ ، فقال يزيد : دَعَوْهَا ، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قِطَاةً ^(٢) فرسها ، ثم قال : اغْرُبِي ^(٣) اغْرُبِ الله عينيك ، فقد فَضَحْتَ العِشِيرَةَ ، فَاسْتَحْيَيْتِ وانصرفت وهي تقول :

بِتَلِّ نُبَاتِي ^(٤) رَسْمُ قَدِيرٍ كَأَنَّهُ	على عِلْمٍ فوق الجبال مُنِيفٍ
تَضَمَّنَ جُوداً حَاتِئاً وَنَائِلاً	وَسَوْرَةً مِقْدَامٍ وَقَلْبَ حَصِيفٍ
فَإِنْ يَكُ أَرْدَاهُ يَزِيدُ بْنُ مَزِيدٍ	فَيَارُبَّ خَيْلٍ قَضَّاهَا وَصُفُوفٍ !
أَلَا يَا لِقَوْمِي لِلنَّوَابِ وَالرَّذَى	وَدَهْرٍ مُلِحٍّ بِالْكَرَامِ عَنِيفٍ !
وَالْبَدْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَوَاكِبِ إِذْ هَوَى	وَالشَّمْسِ هَمَّتْ بَعْدَهُ بِكُسُوفٍ
وَلَلَيْثِ كُلِّ لَيْثٍ إِذْ يَحْمِلُونَهُ	إِلَى حُفْرَةٍ مَلْحُودَةٍ وَسَقِيفٍ ^(٥)
أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ ^(٦) مَالِكٍ مُورِقًا	كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ !
فَتَى لَا يَجِبُ الزَّادُ إِلَّا مِنَ التَّقَى	وَلَا الْمَالُ إِلَّا مِنَ قَنَاءِ وَسِيفٍ
فَلَا تَجْزَعَا يَا بَنِي طَرِيفٍ فَإِنِّي	أَرَى الْمَوْتَ نَزَّالًا بِكُلِّ شَرِيفٍ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ الرِّبِيعِ وَلَيْتَنَا	فَدَيْنَاكَ مِنْ دَهَائِنَا بِالْأُلوْفِ

ولما انصرف يزيد بالظفر حُجِبَ بِرَأْيِ الْبَرَامِكَةِ ، وَأَظْهَرَ الرَّشِيدَ السَّخْطَ عَلَيْهِ ؛ فقال : وَحَقَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَصْبَيْنَ وَأَشْتُونَ عَلَى فَرْسِي أَوْ أَدْخَلَ .

(١) الجَوْشَن : الحديد الذي يلبس من السلاح ، وقيل : زرد يلبسه الصدر (٢) القِطَاة : العِجْر (٣) يقال : اغْرَبَ عَنِّي أَيْ تَبَاعَدَ ، وَيُقَالُ غَرِبَتِ الْعَيْنُ إِذَا وَرَمَ مَا قُبَاهَا (٤) نُبَاتَى كَسَاوَرَى : مَوْضِعٌ بِالْبَصْرَةِ (٥) السَّقِيف : السَّقْف (٦) نَبَت ، وَنَهْر ، وَوَاد .

فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ؛ فلما رآه أمير المؤمنين
ضحك وسُرَّ ، وأخذ يصيح : مَرَّحِبًا بِالْأَعْرَابِي حَتَّى دَخَلَ وَأَجْلَسَهُ وَأَكْرَمَهُ ،
وَعَرَفَ بِلَاءِهِ وَثِقَاءَ صَدْرِهِ ^(١) .

(١) ولما عفا عنه الرشيد مدحه الشعراء ، فكان ممن مدحه مسلم بن الوليد ، ومن أحسن
ما ورد في شعره قوله :

إذا تغير وجه الفارس البطل	يفتر عند افتراق الحرب مبتما
كأنه أجل يسعى إلى أمل	موف على مهج ، في يوم ذي رهج
كالموت مستجلاً يأتي على مهل	ينال بالرفق ما يعيا الرجال به
يقرى الضيوف شخوم الكوم والبزل	يقرى النية أرواح العداة كما
ويجعل الهام تيجان القنا الذيل	يكسو السيوف رموس الناكثين به
مسالك الموت في الأبدان والقلل	إذا اتضى سيفه كانت مسالكه

البَابُ الْخَامِسُ

في القصص التي تحكى ما كان للجند من أحداث
وأحاديث ، في الغارات والغزوات والفتوح ، مصورة
نفسياتهم وأحوالهم ، واصفة تطواتهم العقلية والخلقية
بنشأة الدولة العربية وانفساح رُقعها ، مفصلة عُددهم
وآلاتهم وأسلحتهم في حياتهم الجديدة .

١٦٣ — كِلَابُ بْنُ أُمَيَّةَ وَأَبَوَاهُ *

حَدَّثَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ : هَاجَرَ كِلَابُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ الْأَسْكَرِ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً ، ثُمَّ لَاقَى ذَاتَ يَوْمٍ طَلْحَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، فَسَأَلَهُمَا : أَمَى الْأَعْمَالُ أَفْضَلُ فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَا : الْجِهَادُ . فَسَأَلَ عُمَرَ فَأَغْرَاهُ فِي جَيْشٍ ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ كَبُرَ وَضَعُفٌ ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَخٌ لَهُ آخَرُ ؛ فَانْبَعَثَ أُمَيَّةُ يَقُولُ :

يَا أُمَّ هَيْمٍ ؛ مَاذَا قُلْتَ أَهْلَانِي	رَبِّبُ الْمَنُونِ وَهَذَانِ الْجَدِيدَانِ ^(١)
إِنَّمَا تَرَى حَجَرِي قَدْ رَكَ ^(٢) جَانِبُهُ	قَدْ يَسْرُكُ صُلْبًا غَيْرَ كَذَّانِ ^(٣)
إِنَّمَا تَرَبَّيْنِي لَا أَمْضِي إِلَى سَفَرٍ	إِلَّا مَعِي وَاحِدٌ مِنْكُمْ أَوْ اثْنَانِ
يَابْنَتِي أُمَيَّةَ ، إِنِّي عَنْكَ غَانِي	وَمَا الْفَنَى غَيْرَ أَنِّي مُرْعَشٌ فَإِنِّي
يَابْنَتِي أُمَيَّةَ ، إِلَّا تَشْهَدَا كِبَرِي	فَإِنَّ نَأْيَكُمْ وَالتَّكَلُّفَ مِثْلَانِ
إِذَا يَحْمِلُ الْفَرَسُ الْأَخْوَى ^(٤) ثَلَاثَتَنَا	وَإِذَا فِرَاقُكُمْ وَالْمَوْتُ سَيَّانِ
أَصْبَحْتُ هُزْءًا لِرَاعِي الضَّأْنِ أُعْجِبُهُ	مَاذَا يَرِيكَ مِنِّي رَاعِي الضَّأْنِ !
انْفَقَ بِضَائِكَ فِي تَجْنَمٍ ^(٥) تُحْفَرُهُ	مِنَ الْأَبَاطِطِ وَاحِشِيهَا يَحْمَدَانِ ^(٦)
إِنْ تَرَعَ ضَائِنَا فَإِنِّي قَدْ رَغَيْتُهُمْ	بِيضَ الْوُجُوهِ بَنَى عَمِي وَإِخْوَانِي

* المحاسن والمساوي : ٥٨٨ ، (طبع ليزج) ، ذيل الأمالي : ١٠٨
 (١) الجديدان : الليل والنهار (٢) رك : ضعف (٣) الكذبان : الرخو
 (٤) الأخوى : الأسود (٥) النجم : ما نجم من النبات على غير ساق (٦) جدان : جبل
 بطريق مكة ، وواد .

فلما طالت غيبةُ كلابٍ عنه قال :

لَمَنْ شَيْخَانٍ قَدْ نَشَدَا كِلَابَا ^(١) كِتَابَ اللَّهِ إِنْ رَقَبَ الْكِتَابَا
نُنْفِضُ مِنْهُ شَقَقًا عَلَيْهِ وَنَجْنِبُهُ أَبَاعِرْنَا ^(٢) الصَّعَابَا
إِذَا هَتَفَتْ حَمَامَةُ بَطْنٍ وَادٍ عَلَى بَيْضَاتِهَا دَعَا كِلَابَا
تَرَكْتَ أَبَاكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ وَأَمَّا مَا تُسْمِعُ لَهَا شَرَابَا
أُنَادِيهِ وَوَلَّانِي قَفَّاهُ فَلَا وَأَبَى كِلَابُ مَا أَصَابَا
فَإِنْ مُهَاجِرَيْنِ تَكْنَفَاهُ لِيَتْرَكَ شَيْخَهُ ؛ خِطْنَا وَخَابَا
وَلَمَّا أَبَاكَ حِينَ تَرَكْتَ شَيْخُ يُطَارِدُ أَيْنُقًا شُشْبَا ^(٣) طِرَابَا
إِذَا بَلَغَ الرَّسِيمَ ^(٤) فَكَانَ شَدَا ^(٥) يَحْرِ ؛ فَخَالَطَ الذَّقْنُ الثَّرَابَا

فبلغت أبياته عمر ، ولم يرُدْ كِلَابَا ، فاهتز أُمِيَّةٌ وَاخْتَلَطَ ^(٦) جَزَعًا عَلَيْهِ ، وَتَفَنَّتِ
الرُّكْبَانُ بِشَعْرِ أَبِيهِ فَبَلَغَهُ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لِعَمْرِكَ مَا تَرَكْتُ أَبَا كِلَابٍ كَبِيرَ السِّنِّ مُكْتَنِبًا مُصَابَا
وَأَمَّا لَا يَزَالُ لَهَا حَنِينٌ تَنَادَى بَعْدَ رَقْدَتِهَا كِلَابَا
لِكَسْبِ الْمَالِ أَوْ طَلَبِ الْمَعَالِي وَلَكِنِّي رَجَوْتُ بِهِ الثَّوَابَا

ثم أتاه يوما وهو في مسجد الرسول ، وحوله المهاجرون والأنصار ، فوقف
عليه ثم أنشأ يقول :

أَعَاذَلُ قَدْ عَاذَلْتُ بغيرِ عِلْمٍ وَلَا تَذَرِينِ عَاذِلُ مَا أَلَاقِي

(١) نشدا : طلبا (٢) الأباعر : جمع بغير
اليابس . (٣) الشسب : جمع شاسب وهو التحيف
(٤) الرسيم : سير للابل . (٥) الشد هنا : العدو
(٦) اختلط : فسد عقله .

فإِذَا كُنْتُ عَازِلَتِي فَرَدَى كَلَابًا إِذْ تَوَجَّهَ لِلْعِرَاقِ
وَلَمْ أَقْضِ اللَّبَانَةَ مِنْ كَلَابٍ غَدَاةً غَدٍ وَأَذَنَ بِالْفِرَاقِ
فَتَى الْفَتَيَانِ فِي عُسْرِ وَيسْرِ شَدِيدِ الرُّكْنِ فِي يَوْمِ التَّلَاقِ
فَلَا وَاللَّهِ مَا بَالَيْتَ وَجَدِي وَلَا شَفَقِي عَلَيْكَ وَلَا اِشْتِيَاقِي
سَأَسْتَعْدِي عَلَى الْفَارُوقِ رَبًّا لَهُ حَيَجٌ الْحَيِجِجِ عَلَى اِتِّسَاقِي
وَأَدْعُو اللَّهَ مُجْتَهِدًا عَلَيْهِ بِيْطْنِ الْأَخْشَبِيِّنَ^(١) إِلَى دُفَاقِ^(٢)

فلما أنشدها عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص : أن رحل كلاباً ، فرحله .

فلما قدم دخل إليه فقال : ما بلغ من برك بأبيك ؟ قال : كنت أبره وأكفيه أمره ، وكنت أعتد - إذا أردت أن أحلب لبناً - أغزر ناقة في إبله وأسمنها فأسقيه لبنها .

فبعث عمر إلى أمية من جاء به إليه . فادخله يتهدى ، وقد ضعف بصره وانحنى . فقال له : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ قال : كما تراني يا أمير المؤمنين ؛ قال : فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم ، أشتهى أن أرى كلاباً ، فأشبهه شمةً ، وأضمه ضمة قبل أن أموت . فبكي عمر ثم قال : ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى .

ثم أمر كلاباً أن يحتلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ، ويبعث إليه بلبنها . ففعل ، فناوله عمر وقال : دونك هذا يا أبا كلاب . فلما أخذه وأدناه إلى فيه ، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، إنى لأشم رائحة كلاب من هذا الإناء . فبكي عمر وقال : هذا كلاب عندك حاضراً قد جئناك به . فوثب إلى ابنه وضمه إليه وقبله .

(١) الأخشيان : جبلا مكة : أبوقيس والأحر ، وجبلا منى (٢) دفاق : موضع أوواد .

وجعل عمر يبكي ومن حضره ، وقال لكّلاب : الزم أبويك فجاهد فيهما
ما بقي ، ثم شأنك بنفسك بعدها ؛ وأمر له بمطائه وصرفه مع أبيه .
ثم قُتل كلاب مع علي بن أبي طالب بصيّفين ، وعاش أبوه أميّة دهرأ طويلا ،
حتى خرف ، فرّ به غلام له كان يرعى غنمه ، وأميّة جالس يحنو على رأسه التراب ؛
فوقف ينظر إليه ، فلما أفاق بصر بالغلام ، فقال :

أصبحتُ لهوا لراعي الضأنِ أعجبهُ ماذا يريّك مني راعي الضأنِ !
انفق بضأنك إني قد قدستهمُ بيض الوجوه بني عمي وإخواني

١٦٤ — في يوم اليرموك*

شهد اليرموك ألف رجل من أصحاب رسول الله فيهم نحو مائة من أهل بدر، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس^(١) فيقول : اللهُ اللهُ ؛ إنكم ذادة^(٢) العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وأمر خالد عكرمة^(٣) والقعقاع^(٤) ، فأنشبا القتال ، وارتجز القعقاعُ وقال :
يا ليتني ألقاك في الطراد قبل اعترام^(٥) الجحفل الورد
* وأنت في حلتيتك الورد^(٦) *

وقال عكرمة :

قد علمت بهكنة^(٧) الجوارى أنى على مكرمة أحامى

فنشب القتال ، والتحم الناس ، ونطارد الفرسان ؛ فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول ، وسأله الخبر ، فلم يخبرهم إلا بسلامة ، وأخبرهم عن إمداد ؛ وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله ، وتأمير أبي عبيدة .

* الطبرى : ٤ - ٣٤

(١) الكردوسة : القطعة العظيمة من الخيل
(٢) ذادة : جمع ذائد ، وهو المدافع
(٣) من صناديد قريش في الإسلام ، كان هو وأبوه من أشد الناس على النى ، وأسلم في يوم الفتح فشهد الوقائع ، وولى الأعمال لأبى بكر واستشهد سنة ١٥ هـ (٤) أحد فرسان العرب وأبطالهم شهد اليرموك ، وكان شاعراً فحلامات نحو ٤٠ هـ (٥) الاعترام : الاشتداد وفى حديث على « على حين فترة من الرسل واعترام من الفتن » (٦) الحلبة : جماعة الخيل ، والورد جمع ورد ، وهو الفرس بين السكيت والأشقر (٧) البهكنة : الفتاة الفضة .

فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر أسره إليه ، وأخبره بالذي أخبر به الجند ؛ فقال : أحسنت فقِفْ ؛ وأخذ الكتاب ، وجعله في كِفَانَتِهِ ؛ وخاف إنْ هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند ؛ فوقف تَحْمِيَةً بن زُنَيْمٍ - وهو الرسول - مع خالد وخرج جَرَجَةَ ^(١) حتى كان بين الصفين ، ونادى : لِيُخْرَجْ إِلَى خَالِدِ .

فخرج إليه خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقفه بين الصفتين حتى اختلف أعناق دابتيهما ، وقد أَمِنَ أحدهما صاحبه ؛ فقال جَرَجَةُ : يا خالد ؛ اصدقني ولا تكذبنني فَإِنِ الْحُرَّ لَا يَكْذِبُ ، وَلَا تُخَادِعْنِي فَإِنِ الْكَرِيمَ لَا يُخَادِعُ ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا ! قال : فيم سُمِّيَتْ سيفَ الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ، فدعانا فنفرنا عنه ؛ ونأينا جميعاً ؛ ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنتُ فيمن كذبه وباعده وقتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيفٌ من سيوف الله سلَّه الله على المشركين ، ودعالي بالنصر ، فسُمِّيَتْ سيفَ الله بذلك ؛ فأنا من أشدَّ المسلمين على المشركين ، قال : صدقتني ! ثم أعاد عليه جَرَجَةُ : يا خالد ؛ أخبرني إلآمَ تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء من عند الله ؛ قال : فن لم يجبكم ؟ قال : فالْجَزِيَّةُ ونمعه ! قال : فإن لم يُعْطِها ؛ قال : نُؤْذِنُه بحرب ثم نقاتله ! قال : فما منزلةٌ من يدخل فيكم ويحببكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا .

ثم أعاد عليه جَرَجَةُ : هل لمن دَخَلَ فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من

(١) جرجة : مقدم عسكر الروم يوم اليرموك .

الأجر والآخر؟ قال : نعم ، وأفضل ، قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه !
قال : إنا دخلنا في هذا الأمر ، وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبارُ
السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ، وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا
أن يُسلمَ ويُبَايعَ ، وإنكم أنتم لم تَرَوْا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب
والحجج ، فن دخل في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تآلّفني . قال : بالله لقد
صدقك وما بي إليك ولا إلى أحدٍ منكم وخشة ، وإن الله لولئ ما سألت عنه .
فقال : صدقتني ، وقلّب التّرمسَ ومال مع خالد ، وقال : علمني الإسلام ؛ فقال به
خالدٌ إلى فسْطاطه^(١) فشنّ عليه قربةً من ماء وصلى ركعتين !

(١) الفسْطاط : الخيمة .

١٦٥ — في يوم القادسية *

كان أبو محجَّجٍ الثَّقَفِيُّ^(١) من المُعَاقِرِينَ للخمر ، المَحْدُودِينَ في شُرْبِهَا ، أقام عليه عمر بن الخطاب الحدَّ مراراً ، وهو لا يَتَبَهَّى ؛ فَنَفَاهُ إلى جزيرة في البحر ، وَبَعَثَ معه حَرَسِيًّا^(٢) ، فَهَرَبَ مِنْهُ وَلَحِقَ بِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ ، وهو في حربِهِ مع الفرس وكانت حربَ القادسية .

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بِمَحْبِسِهِ ، فَبَسَّه في القصر ، وتطلَّع أبو محجَّجٍ إلى الحرب ، فرآها مُشْتَغِلَةً ، فذهب إلى سُلَيْمَى بنت أبي حفص - زوج سعد ، فقال لها: هل لك في خير؟ قالت : وما ذاك؟ قال : تُخَلِّينَ عَنِّي وَتُعِيرِينَني الْبُلْقَاءَ^(٣) ؛ فَلِلَّهِ عَلَىَّ إِنْ سَأَمَنِي اللهُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ حَتَّى تَضَعِي رِجْلِي فِي قَيْدِي ؛ فقالت : وما أنا وذاك ؟ فرجع يَرْسُفُ في قِيوده ، ويقول :

كُنِي حَزَنًا أَنْ تَرَدِّي الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَى وَثَاقِيَا
إِذَا قَتُّ عَنَانِي الْحَدِيدُ وَغُلَّتْ مَصَارِيْعُ مِنْ دُونِي تُصِمُّ الْأُمْنَادِيَا
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا

* مَهْذَبُ الْأَغَانِي : ٢ - ٤٨ ، الْخَزَائِنُ : ٣ - ٥٥٣ ، الْأَغَانِي : ٢٠ - ١٣٨ ، الْكَامِلُ لِابْنِ الْأَثِيرِ : ٢ - ٢٣٢ ، الْمَسْعُودِي : ١ - ٤٢٣

(١) أَبُو مُحَجَّجٍ اسْمُهُ وَكُنْيَتُهُ عَلَى الْمَشْهُورِ ، أَسْمُ سَنَةِ ٩ هـ ، وَسَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَوَى عَنْهُ ، وَكَانَ جَوَادًا كَرِيمًا مِنَ الْفَرَسَانِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَاتَ سَنَةَ ٣٠ هـ
(٢) الْحَرْسِيُّ : وَاحِدٌ حَرَسِ السُّلْطَانِ (٣) الْبُلْقَاءُ : فَرَسٌ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ .

وقد شفّ جسمي أننى كلّ شارقي^(١) أعالج كنبلاً^(٢) مُصمّماً قدّ برّانياً
فله درّى يوم أترك موثقاً وتذهّل عني أسرتي ورجاليا !
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيرى يوم ذاك العواليأ
ولله عهد لا أخيس^(٣) بعده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا^(٤)
فقال له سلمى : إني استخرت الله ورضيتُ بهدك ، وأطلقته .

فاقتاد أبو محجنّ الفرس ، وأخرجها ثم ركبها ، ودبّ عليها ، وفي ذلك اليوم
أظهر من شجاعته عجباً . ولما تحاجز أهلُ العسكرين أقبل أبو محجنّ حتى دخل
القصر ، ووضع نفسه عن الدابة ، وأعاد رجله في القيد وقال :

لقد علمتُ ثقيف غسير خري بآنا نحنُ أكرمهم سيوفاً
وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أُحبس فقد عرفوا بلائي وإن أطلق أجرّعهم حُتوفا

فقال له سلمى : يا أبا محجنّ ؛ في أىّ شيء حبسك هذا الرجل ؟ فقال :
أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ، ولكنى كنتُ صاحبَ شراب في
الجاهلية ؛ وأنا امرؤ شاعر ، يدبّ الشعر على لسانى ، فينفثه أحياناً ، فحبسني
لأنى قلت :

إذا ميت فادفني إلى أصلِ كرمةٍ تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة^(٥) فإننى أخافُ إذا مايتُ ألا أدوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر أبي محجنّ ، فدعا به وأطلقه ، وقال : اذهب
فما أنا مؤاخذك بشيء . تقوله حتى تفعله ؛ فقال : والله لا أجبّ لسانى إلى قبيح أبداً .

(١) أصل الشارق : اليوم الذى فيه الشمس ، والمراد كل يوم (٢) السبيل : القيد
(٣) خاس بالهد : غدر ونكث (٤) الحانية : الدكان ، وهو يريد أمانة بيع الخمر
(٥) الفلاة : الأرض المهلكة .

١٦٦ - في فتح نهاوند *

بعث عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه السائب بن الأقرع مولى ثقيف ، وكان رجلاً كاتباً حاسباً ، فقال : الحق بهذا الجيش - جيش المسلمين بنهاوند - فكن فيهم ، فإن فتح الله عليهم فاقسم على المسلمين فيهم ، وخذ خمس الله وخمس رسوله ، وإن هذا الجيش أُصيب فاذهب في سوادِ الأرض فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

قال السائب : فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائمَ عظماً ، فوالله إنى لأقسم بين الناس إذ جاءنى عِلجٌ من أهلها ، فقال : أتؤمننى على نفسى وأهلى وأهل بيتى على أن أدلك على كنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك ولا يشركك فيها أحد ؟ قلت : نعم ! قال : فابعث معى من أدله عليها ، فبعثت معه ، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ،

فلما فرغت من قسمنى بين الناس احتملتها معى ، ثم قدمت على عمر بن الخطاب فقال : ما وراءك ياسائب ؟ فقلت : خيراً يا أمير المؤمنين ؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستشهد النعمان^(١) بن مقرن رحمه الله ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم بكى فنشج^(٢) .

* الطبرى : ٤ - ٣٣٢

(١) صحابى فاتح من الأمراء القادة الشجعان ، فتح القادسية ، وولاه عمر إمارة الجيش ففزا أسبهاً ففتحها ، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١ هـ . (٢) نشج الباكي : غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب .

فلما رأيت ذلك قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل
يُعرَف وجهه !

ثم قام ليدخل ، فقلت : إن معي مالا عظيماً قد جئتُ به ، ثم أخبرته خبر
السَّفَطَيْنِ ، فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما ، والحق بجندك ،
فأدخلتهما بيت المال ، وخرجت سريعاً إلى الكوفة .

وبات تلك الليلة التي خرجتُ فيها ، فلما أصبح بعثَ في أثرِي رسولا ،
فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة ، فَأَنْخْتُ بعيري وأناخ بعيره على عُرْقُونِي
بعيري ، فقال : الحق بأمر المؤمنين ؛ فقد بعثني في طلبك ، فلم أقدر عليك إلا الآن !
قلت : ويلك ! ماذا ؟ ولماذا ؟ قال : لا أدري والله .

فركبتُ معه حتى قدمتُ عليه ؛ فلما رآني قال : مالي ولابن أم السائب ؟
بل ما لابن أم السائب ومالي ؟ قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويحك !
والله ما هو إلا نَمْتُ في الليلة التي خرجتَ فيها فباتت ملائكة ربي تسجني إلى
ذینك السفطين يشعلان ناراً ، يقولون : لنكويَنَّك بهما ، فأقول : إني سأقسمهما
بين المسلمين ، فخذها عني لا أبالك ، والحق بهما فبعهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم !

فخرجتُ بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة ، فابتاعهما مني عمرو بن
حُرَيْث الحزومي بألفي درهم ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة
آلاف ألف .

١٦٧ — عمرو بن العاص وأحد كفار المعجم*

لما فتح عمرو بن العاص قيسارية^(١) سار حتى نزل غزّة ؛ فبعث إليه عليّها^(٢) :
أن ابعث إلى رجل من أصحابك أكلّمه ؛ ففكر عمرو وقال : ما لهذا
أحد غيري .

فخرج حتى دخل على العليّج فكلّمه ؛ فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله ، فقال
العليّج : حدثني ؛ هل في أصحابك أحدٌ مثلك ؟ قال : لا تسأل عن هذا ! إني
هين عليهم ؛ إذ بعثوا بي إليك ، وعرضوني لما عرضوني له ، ولا يدرون
ما تصنع بي .

فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث إلى البواب : إذا مرّ بك فاضرب عنقه ،
وخذ ما معه .

فخرج من عنده ؛ فمر برجل من نصارى غستان ، فعرفه ، فقال : يا عمرو :
قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج ! فقطن عمرو لما أراه ، فرجع ؛ فقال له الملك :
ما ردّك إلينا ؟ قال : نظرتُ فيما أعطيتني ، فلم أجِدْ ذلك يسعُ بني عمي ، فأردت
أن آتيك بعشرة منهم ، تعطيم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً

* العقد الفريد : ١ - ١٤٦

(١) بلدة بفلسطين .

(٢) العليّج : الرجل من كفار المعجم .

من أن يكونَ عند واحد ! فقال : صدقتَ ، أعجلُ بهم ! وبعثَ إلى البواب :
أنْ خلَّ سبيله !

فخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أَمِنَ ، قال : لا عدتُ إلى
مثلها أبداً !

فلما صالحه عمرو ودخل عليه العِلجُ ، قال له : أنت هو ؟ قال : نعم ، على
ما كان من غدرِكَ !

١٦٨ — عمر بن الخطاب وغنائم المسلمين *

بعث عمرُ سلمة بن قيس الأشجعيّ إلى طائفةٍ من الأكراد كانوا على الشرك ؛ فخرج إليهم في جيش أرسله معه من المدينة .

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية ، فأبَوْا ، فقاتلهم فنصره الله عليهم ؛ فقتل المقاتلة ؛ وسبى الذرية ، ووجد حليةً وفصوصاً وجواهر ، فقال لأصحابه : أطيبُ أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين ؛ فإنه خيرُ صالحٍ لكم ، وإنَّ على أمير المؤمنين لمثونةً وأثقالا ، قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا .

فجعل الجواهر في سَفَطٍ ^(١) ، وبعث به مع واحد من أصحابه ، وقال له : سِرْ فإذا أتيت البصرةَ فاشترِ راحلتين فأوقريهما ^(٢) زاداً لك ولغلامك ، وسِرْ إلى أمير المؤمنين .

قال : ففعلت فأتيتُ عمر وهو يُمدِّي الناس قائماً متكئاً على عصا كما يصنع الراعي ، وهو يدور على القصاع ؛ فيقول : يا يَرْفَا ^(٣) ، زد هؤلاء لحماً ، زد هؤلاء خُبْزاً ، زد هؤلاء مَرَقَةً .

فجلستُ في أدنى الناس . فإذا طعامٌ فيه خُسونة ، طعمى الذي معي أطيبُ منه . فلما فرغ أدبرَ فاتبعتهُ ، فدخل داراً فاستأذنت ، ولم أعلم حاجبه من أنا ، فأذن لي ، فوجدته في صُفَّةٍ ^(٤) جالساً على مِسْحٍ ^(٥) متكئاً على وسادتين من

* ابن أبي الحديد : ٣ : ١٥٧

(١) السَفَط : كالجوالق أو كالقفّة ، حمه أسفاط (٢) أوفر الدابة : حملها (٣) يرفاً : مولى عمر بن الخطاب (٤) الصفة من البنيان : شبه البهو الواسع (٥) المسح : ثوب من الشعر غليظ .

أَدَمَ ^(١) محشوتين ليقاً ، وعليه ستر من صوف ، فنبذ إلى إحدى الوسادتين ،
فجلست عليهما .

فقال : يا أم كلثوم ، ألا تُغدُوننا ؟ فأخرجت إليه خُبْزَةً ^(٢) بزيت في عَرَضِها
مِلْحٌ لم يُدَقْ ، فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا تاكلين معنا ؟ فقالت : إني
أسمعُ عندك حِسَّ ^(٣) رجل ، قال : نعم ، ولا أراه من أهل هذا البلد . فقالت :
لو أردت أن أخرجَ إلى الرجال لكسوتني كما كسا الزبيرُ امرأته ، وكما كسا
طلحةُ امرأته !

قال : أو ما يكفيك أنك أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب ، وزوجةُ
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟ قالت : إن ذاك عندي لقليل الغناء ! ثم قال :
كُلْ ، فلو كانت راضيةً لأطعمتك أطيبَ من هذا . فأكلت قليلاً ، وطعمى
الذى معي أطيبُ منه . وأكل ، فما رأيت أحداً أحسنَ أَكْلاً منه ، ما يَتَلَبَّثُ ^(٤)
طعامُهُ بيده ولا فمه .

ثم قال : اسقونا ؛ فجاءوا بمُسِّ ^(٥) من سُلْتٍ ^(٦) ، فقَالَ : اشربْ ،
فشربتُ قليلاً ، وإنَّ سَوِيقِي الذى معي لأطيبُ منه ، ثم أخذهُ فشربه حتى قرع
القدحُ جبهته .

ثم قال : الحمدُ لله الذى أطعمنا فأشبعنا ، وسقانا فأروانا ؛ إنَّكَ يا هذا الضعيفُ
الأكلُ ضعيفُ الشربِ .

(١) الأدم : جمع للأديم : وهو الجلد (٢) الخُبْزَةُ : عجين يوضع في الملة حتى ينضج ،
والملة : الرماد والتراب الذى أوقد فيه النار (٣) الحِسَّ : الصوت الحفى (٤) لا يتوقف
(٥) المس : القدح العظيم (٦) السلت : الشعير .

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن لي حاجة ، قال : ما حاجتك ! قلت : أنا رسول سلمة ابن قيس قال : مرحباً بسلمة ورسوله ، فكأنما خرجت من صُلْبِهِ - حَدَّثَنِي عن المهاجرين كيف هم ؟ قلت : كما تحبُّ - يا أمير المؤمنين - من السلامة والظفر والنصر على عدوهم . قال : كيف أسعارهم ؟ قلت : أرخص أسعار ؛ قال : كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها ؟ قلت : البقرة فيهم بكذا ، والشاة فيهم بكذا . ثم قلت : سِرُّنا يا أمير المؤمنين حتى لقينا عدونا من المشركين ، فدعوناهم إلى الذي أمرت به من الإسلام فأبوا ، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا ؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم ، فقتلنا المقاتلة ، وسبينا الذرية ، وجمعنا الثروة ، فرأى سلمة في الأموال حلية ، فقال للناس : أنطيب أنفسكم أن أبعث بها إلى أمير المؤمنين ؟ قالوا : نعم ! ثم استخرجت سَقَطِي ففتحتُه .

فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر ، وثب وحمل يده في خاصرته يصيح صياحاً عالياً ويقول : لا أشبع الله إذن بطن عمر - يُكْرَرُهَا !

فظنَّ النساءُ أني جئت لأغتاله ، فجنن إلى السر فكشفنه ، فسمعنه يقول : لفَّ ما جئت به ، يا يَرْقَا ، جَأْ عَفَقَه ^(١) ! فأنأ أصلح سَقَطِي ، ويرفأ بَجَأْ عَنقِي !

ثم قال : النجاء النجاء ! قلت : يا أمير المؤمنين فأحملني ! فقال : يا يرفأ ، أعطيه راحلتين من إبل الصدقة ، فإذا لقيت أحداً أفقر إليهما منك فادفعهما إليه .

(١) وجأت عَفَقَه : ضربته .

وقال : أظنك سَتُبْطِي* ، أما والله لئن تفرَّق المسلمون في مشائهم قبل أن يُقسَّم هذا فيهم لأفعلنَّ بك وبصاحبك الفاقرة^(١) !

قال : فارتحلتُ حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس ، فقلت : لا بارك الله فيما اختَصَصْتَنِي به ! أقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة ، فقسّمه فيهم ، فكان الفصُّ يُباعُ بخمسة دراهم وبسنة وهو خير من عشرين ألفا

(١) الفاقرة : الداهية .

١٦٩ — قد كاد أميركم يهلك *

لما تكامل المسلمون فتوح الشام ؛ وأقاموا على دمشق شهراً ؛ جمع قائدهم -
أبو عبيدة- أمراء المسلمين واستشارهم في السير إلى قيسارية^(١) أو إلى بيت المقدس ،
فقال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : أيها الأمير ؛ اكتب إلى أمير المؤمنين عمر ؛ فحيثُ أَمَرَكَ
فامتنِلهُ . فقال له : أصبَّتَ الرَّأْيَ يا معاذ !

ثم كتب إلى أمير المؤمنين عُمرَ يعلمه بذلك ، وأرسل الكتاب مع عَرَفَجَةَ
ابن ناصح النَّخَعِيِّ^(٢) ، فسار حتى وصل إلى المدينة ؛ فسلم الكتاب إلى عمر .

فقرأه على المسلمين واستشارهم ، فقال علي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ،
مُرْ صاحبك ينزل يحميوش المسلمين إلى بيت المقدس ، فإذا فَتَحَ اللهُ بيت المقدس
صرف وجهه إلى قيسارية فإنها تفتَحُ بعدها إن شاء الله .

فدعا عمر بدواة وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . من عُمر إلى عامله بالشام
أبي عبيدة .

« أما بعد ، فإنِّي أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلى على نبيِّه . وقد
وصل إلى كتابك تستشيرني إلى أي ناحية تتوجَّه ؟ وقد أشار ابنُ عمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالسيرِ إلى بيت المقدس ، فإنَّ الله يفتحها على يديك ،
والسلام » .

* المستطرف : ٢ - ١٥

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام ، تعد من أعمال فلسطين (٢) النخعي : نسبة إلى
نخع ، وهي قبيلة باليمن .

فلما وصل الكتابُ إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين ؛ ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس وتقدّمه الجيشُ إليها ، وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام ، وأهل بيت المقدس يُظهرون الفرح وعدم الخوف .

فلما كان اليوم الحادى عشر أشرفت عليهم رايةُ أبي عبيدة ، وخالدٌ عن يمينه وعبدُ الرحمن بن أبي بكر عن يساره ؛ فضجَّ الناس بالتهليل والتكبير ، ووقع الرُّعب في أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقمّة ، وهى البيعةُ ^(١) المعظمة عندهم .

فلما وقفوا بين يدى البطرِك ^(٢) قال لهم : ماهذه الضجة التى أسمعُ ؟ قالوا : قد قدّمَ أميرُ المؤمنين ببيعة المسلمين .

فلما سمع ذلك تَرَبَّدَ ^(٣) وجهه ، وقال : إِنَّا وجدنا فى علمِنَا الذى ورثناه : أن الذى يفتح الأرض هو الرجل الأحمر ، صاحبُ نبيهم محمد ؛ فإن كان قدّم عليكم فلا سبيلَ إلى قتاله ، ولا بدَّ أن أُشرف عليه ، وأنظر إلى صفته ؛ فإن كان هو أَجَبْتُهُ إلى ما يريد ، وإن كان غيره فلا بأس عليكم .

ثم وثب قائماً والقُسس والرُّهبان من حوله ، وقد رفعوا الصّلبان على رأسه ؛ فصعدوا إلى السّور إلى أن ورد أبو عبيدة ، فناداهم رجل من الروم : يامعاشر المسلمين ؛ كفّوا عن القتال حتى نسألكم ا

فأمسك المسلمون عنهم فناداهم بلسانٍ عربى : اعلموا أن الرجل الذى يفتحُ

(١) البيعة : متعبد النصارى ، وجمعها بيع ، وقامة : كانت كنيسة للنصارى بدمشق ، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة ، ويروون أن المسيح قامت قيامته فيها (٢) البطرِك : مقدم النصارى .
(٣) ترَبَّدَ . تغير .

بلدتنا هذه صِفَتُهُ عندنا ؛ فإن كانت في أميركم لم تقاتلكم ؛ بل نسلم إليكم
وإن لم تكن هذه صفته فلا نسلم إليكم أبداً .

فاعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك ؛ فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذَاهم ، فنظر
إليه البَطْرُكُ مَلِيًّا ، ثم قال : ليس هو الرجل ؛ فأبشروا وقاتلوا عن دينكم
وحرِّيمكم .

وكان نزولُ المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبردِ ، فأقاموا أربعة
أشهر في أشدِّ قتال .

فلما نظر أهلُ بيتِ المقدس إلى شدَّةِ الحصار ، ورأوا ما حلَّ بهم من المسلمين ،
وقفوا بين يدي البَطْرُكِ ، وقالوا : قد عَظُمَ الأمرُ ، ونريدُ منك أن تشرفَ على القوم
وتسألَ : ما الذي يريدون ؟ فإن كان أسراً صَعَبًا فتحنا الأبوابَ ، وخرجنا إليهم ،
فإما أن نُقتل عن آخرنا أو نهزمهم عنا .

فأجابهم البَطْرُكُ إلى ذلك ، وصعد في السور ، واجتمع القسيسون والزَّهَّابُ حوله
ونادى رجل : يا معشر الفُرُسان ، عُمْدَةُ دين النصرانية قد أفبل يخاطبكم ، فَلْيَدْنُ
منا أميرُكم .

فقام أبو عبيدة يمشي ، ومعه جماعة من أصحاب رسول الله ، فلما وقف بإزائهم
قال : ما الذي تريدون ؟ قال البَطْرُكُ : إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا
إلى فتح بلدتنا ، وإنما يفتحها رجلٌ ليس معكم !

قال أبو عبيدة : وما صفةُ من يفتحُ بلدكم ؟ قالوا : لا نخبركم بصفته ! ولكن

قرأنا أن هذا البلد يفتحه صاحبٌ لمحمد يعرف بالفاروق ^(١) لاناخذة في الله لومة لائم،
ولسنا نرى صفته فيكم .

فلما سمع أبو عبيدة كلام البطرك تبسم وقال : فتحنا البلد ورب النكعبة ! ثم
أقبل على البطرك وقال : إن رأيت الرجل تعرفه ؟ قال : نعم ! وكيف
لا أعرفه .

قال أبو عبيدة : هو والله خليفتنا وصاحبُ نبينا . قال : فإذا كان الأمرُ على
ما ذكرت فاحقن الدماء ، وابعثْ إلى صاحبك ، فإذا رأيناه وتبيننا نعتَه ، فتحنا له
البلد ، وأعطيناه الجزية .

فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال ، وكتب إلى عمر يعلمه
بالخبر .

فلما وصل إليه الكتاب قرأه على المسلمين ، وقال : ما ترون - رحمكم الله -
فيما كتب إلينا أمين ^(٢) الأمة ؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان ، فقال :
يأمر المؤمنين ، إن الله قد أذل الروم ، فإن أنت أقتَ ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم
مُسْتَخَفٌ ، فلا يثبتون إلا يسيراً .

فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيراً ، وقال : هل عند أحدٍ منكم رأى
غيرُ هذا ؟ فقال علي بن أبي طالب : نعم ، عندى غيرُ هذا رأى ، وأنا أبديه إليك .
فقال له عمر : وما هو يا أبا الحسن ؟ قال : إن القوم قد سألوك ، وفي سؤالهم ذلٌ ،
وهو على المسلمين فتحٌ ، وقد أصابهم جهدٌ ^(٣) عظيم ، من البرد والقتال ، وطول المقام

(١) لقب عمر بن الخطاب (٢) هو أبو عبيدة (٣) الجهد : المشقة .

وإن سرت إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة ، وكان لك في مسيرك الأجر العظيم ،
ولست آمن منهم أنهم إذا يئسوا منك أن يأتيهم المدد من طاغيتهم ؛ فيحصل
للمسلمين بذلك الضرر . فالرأى أن تسير إليهم .

فقال عمر : لقد أحسن عثمانُ النظر في المكيدة للعدو ، وأحسن على النظر
للمسلمين ؛ جزاها الله خيراً ، ولست آخذُ إلا بمشورة على ؛ فاعرفناه إلا محمودَ
المشورة ، مَيِّمُونَ الطلعة .

ثم إن عمر أمرَ الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه ، واستخلف على المدينة
على بن أبي طالب ، وخرج على بعير له أحمر ، عليه غِرَارَتَانِ ^(١) ؛ في إحداها
سَوِيْق ، وفي الأخرى تَمْر ، وبين يديه قربة ، وخلفه جَفَنَةٌ لِلزَّاد .

وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس ، فتلقاه أبو عبيدة ؛ فلما رآه أناخ قَلُوصه ^(٢) ،
وأناخ عمر بعيره ، وترجلاً ، ومدَّ أبو عبيدة يده ، وصافح عمر ، وأقبل المسلمون يسلمون
على عمر ، ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا ، فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ، ثم خطبهم ،
فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يتحدث بهما آتياً من الروم إلى أن حضرت
صلاة الظهر ، فأذن بلال في ذلك اليوم ، فلما قال : الله أكبر ! خشعت جوارحهم ،
واقشعرت أبدانهم ، وحينما قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً
رسول الله » بكى الناس بكاء شديداً عند ذكر الله وذكر رسوله ، فلما فرغ من
الأذان صلى عمر ، وجلس ، ثم أمرهم بالركوب .

وركب هو - وكانت عليه مِرْقَعَة الصوف - فقال المسلمون : يا أمير المؤمنين ،

(٢) القلوص من الإبل : الشاة .

(١) الغرارة : الجوالق

لوركبتَ غيرَ بعيرِكَ هذا جواداً ، ولبستَ ثياباً لكانَ أعظمَ لهيبتِكَ في قلوبِ أعدائِكَ ! وأقبلوا يسألونه ويتلفحون^(١) إلى أن أجابهم إلى ذلك ، ونزع مرقعته ، ولبس ثياباً بيضا ، وطرح على كتفيه منديلاً من الكتان دفعه إليه أبو عبيدة ، وقدم له برذوناً^(٢) أشهب من براذين الروم .

فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج^(٣) به ؛ فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً ، وقال : أَيْلُونِي ؛ أقال اللهُ عَثْرَاتِكُمْ يومَ القيامة ! لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر !

ثم إنه نزع ثيابه وعاد إلى لبس مرقعته ، وركوب بعيره ، فعَلَتْ ضِجَّةُ المسلمين ، فقال البَطْرُك لقومه : انظروا : ما شأن العرب .

فأشرف رجلٌ منهم ، فقال : يا معشر العرب ، ما شأنكم ؟ قالو : إن عمر بن الخطاب قد قدم إلينا . فرجع هذا وأعلم البَطْرُك ، فأطرق ولم يتكلم . فلما كان الغد صلى عمرُ بالمسلمين ، ثم قال لأبي عبيدة : تقدّم وأعلمهم أني قد أتيت .

فخرج أبو عبيدة وصاح بهم : إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى ، فما تصنعون ؟ قال البَطْرُك : قل له يدنونا ، فإننا نعرفه بصفاته ونعمته ؛ وأفردوه من بينكم حتى نراه .

فرجع أبو عبيدة إلى عمر ، فأخبره بما قال ، فهَمَّ عمر بالقيام فقال له بعضُ أصحابه : يُحْشَى عليك من الافراد بلا عُدَّة .

(١) تلفحوا وتلاطفوا : رفقوا (٢) البرذون : الدابة . والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العرب (٣) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة .

فقال عمر : لن يصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا ، هوَ مَوْلانا وعلى اللهُ فليَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ . ثم لبسَ مُرَقَّتَهُ وركبَ بعيره ، وأبو عبيدة سائرٌ بين يديه إلى أن أتى
بِإِزاءِ البَطْرِكِ قريبا من الحصن .

فقال أبو عبيدة : هذا أمير المؤمنين ! فدَّ البطرِكُ عنقه ونظرَ إليه فزَعَقَ ^(١) ،
وقال : هذا والله الذى صفته فى كُتُبِنَا !

ثم قال : يا أهل بيت المقدس ، انزلوا إليه ، وخذوا منه الأمان والذِّمَّةَ ، فهذا
والله صاحبُ محمد .

فنزلوا مسرعين ، وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدَّةِ الحصار ، وفتحوا الباب ،
وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد .

فلما رآهم عمر على تلك الحالة خَرَّ لله ساجداً على قَتَبِ ^(٢) بعيره ، ثم أقبلَ عليهم
وقال : ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد .

فرجع القوم إلى البلد ولم يُغلقوا الأبواب ، ورجع عمر .

فلما كان الغد دخل عمر إليها ، وخطَّ بها محراباً ^(٣) وأقرَّ أهلها على عهدهم ،
وأداء الجزية ^(٤) .

(١) زعق : صاح (٢) القتب : البرذعة على قدر سنام البعير (٣) المحراب : مقام الإمام
من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس (٤) الجزية : خراج الأرض ، وما يؤخذ
من الذمى .

١٧٠ — عند ملك الصين *

أَوْغَل قُتَيْبَةَ^(١) بن مسلم حتى قَرُبَ من الصين . فكتب إليه ملكُ الصين .
أن ابعث إلينا رجلاً من أَشْرَفِ مَنْ مَعَكُمْ يخبرنا عنكم ونُسأله عن دينكم .
فانتخب قُتَيْبَةَ من عسكره اثني عشر رجلاً ، لهم جمال وأجسام وألسُن وشعور
وبأس ، فكلّمهم قُتَيْبَةَ وَقَاطَنَهُمْ^(٢) ، فرأى عقولا وجمالا ؛ فأمر لهم بعدّة حسنة من
السلاح والمتاع الجيد من الوشَى والرقيق والنعال والعطر ، وحملهم على خيول مُطَهَّمة
تقَادُ معهم ودوابَّ يركبونها .

وكان هُبَيْرَةُ^(٣) بن المُشْمَرَجِ السكلابيّ مَفْوَهًا ، فقال له : يا هُبَيْرَةُ ؛ ماذا أنت
صانع ؟ قال : أصلىح الله الأمير ! قل ما شئت أَقْلُهُ وآخذ به ؛ قال : سيروا على
بركة الله وبالله التوفيق ، لا تضعوا المائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه
فأعلموه أني قد خلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأجبي خراجهم .

فساروا وعليهم هُبَيْرَةُ بن المُشْمَرَجِ ، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ،
فدخلوا الحُتَامَ ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاً تحتها القلائل ، ثم مسوا الغالية^(٤) ،
ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه ، وعنده عطاء أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم
يكلمهم هو ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا .

* تاريخ الطبري : ٨ - ١٠٠

(١) أمير فاتح من رجال العرب ، اتصل بالوليد بن عبد الملك فولاه خراسان ، وغزا أطراف
الصين وضرب عليها الجزية ، واستمرت ولايته ١٣ سنة وقتل سنة ٥٩٦ هـ (٢) فاطنه في الكلام :
راجعه (٣) كان مع قُتَيْبَةَ حين غزا الصين وتوفى بفارس سنة ٥٩٦ هـ (٤) الغالية : الطيب .

فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوما ما هم إلا نساء ، ما بقي منا أحدٌ حين رآهم إلا وجد راثيتهم .

فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوشئ وعمايم الخزّ والمطّارف ^(١) ، وغدّوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبهُ بهيئة الرجال .

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدّوا ذئبهم سلاحهم ، ولبسوا البيّضَ والمغافر ^(٢) ، وتقلّدوا السيوف ، وأخذوا الرماح ، وتكبّوا ^(٣) القسيّ ، وركبوا خيولهم وغدّوا ! فنظر إليهم صاحبُ الصين ، فرأى أمثال الجبال مقبلةً ، فلما دنوا ركّزوا رماحهم ، ثم أقبلوا مشمرين ، فقبل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا ، لما دخل قلوبهم من خوفهم .

فانصرفوا فركبوا خيولهم وحملوا رماحهم ، ثم دفعوا خير لهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف تروّهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط !

فلما أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم ، بعثوا إليه هبيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيمَ ملكي ، وأنه ليس أحدٌ يمكنكم مني وأنتم في بلادى ، وإنما أنتم بمنزلة البيّضه في كفى ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلّكم . قال : سلّ ، قال : لم صنعتُم ما صنعتُم من الزى في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال : أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم ، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا ، فإذا هاجنا هينج

(١) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام ، وجمعه مطارف . (٢) البيضة : الخوذة ، وجمعه بيض ، والمغافر : جمع مغفر : زرد من الدرّ يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها التسلح (٣) تنكب قوسه : ألقاه على منكبه .

وَفَزَعٌ كُنَّا هَكَذَا . قال : ما أحسن ما دَبَّرْتُمْ دَهْرَكُمْ ! فانصرفوا إلى صاحبكم ،
فَقُولُوا لَهُ يَنْصَرَفُ ؛ فَإِنِّي قَدْ عَرَفْتُ حِرْصَهُ وَقِلَّةَ أَصْحَابِهِ ، وَإِلَّا بَعَثْتُ عَلَيْكُمْ مَنْ
يَهْلِكُكُمْ وَيَهْلِكُهُ .

قال له : كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أَوَّلُ خِيَلِهِ فِي بِلَادِكَ وَأَخْرَاهَا فِي
مَنَابِتِ الزَيْتُونِ ؟ وكيف يكون حريصاً مَنْ خَلَّفَ الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَيْهَا وَغَرَازِكَ ؟
وَأَمَّا تَخْوِيفُكَ إِيَّانَا بِالْعَتَلِ فَإِن لَنَا آجَالًا إِذَا حَضَرَتْ فَأَكْرَمُهَا الْقَتْلُ ، فَلَسْنَا
نَكْرَهُهُ وَلَا نَخَافُهُ .

قال : فما الذي يُرْضِي صاحبك ؟ قال : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يَطَأَ
أَرْضَكُمْ وَيُعْطَى الْجِزْيَةُ . قال : فَإِنَّا نَخْرِجُهُ مِنْ يَمِينِهِ وَنَبْعَثُ إِلَيْهِ بِتَرَابٍ مِنْ تَرَابِ
أَرْضِنَا فَيَطْوُهُ ، وَنَبْعَثُ إِلَيْهِ بِجِزْيَةٍ يَرْضَاهَا ؛ ثُمَّ دَعَا بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا تَرَابٌ ،
وَبَعَثَ بِمَجْرِيرٍ وَذَهَبٍ ، ثُمَّ جَزَاهُمْ فَأَحْسَنَ جَوَازِيهِمْ ؛ فَسَارُوا فَقَدَمُوا بِمَا بَعَثَ بِهِ فَقَبِلَ
قُتَيْبَةَ الْجِزْيَةِ وَوَطِئَ التَّرَابَ .

١٧١ — إِنَّكَ ابْنِي *

قال رجل من أهل الكوفة : كنا مع مَسْلَمَةَ ^(١) بن عبد الملك ببلاد الروم ، فسبى سَبِيًّا كثيراً ، وأقام يبيع بعض المنازل ، فعرض السَّبْيُ على السيف ، فقتل خَلْقًا كثيراً ، حتى عرض عليه شيخٌ ضعيف ، فأمر بقتله .

فقال : ما حاجتك إلى قَتْلِ شيخٍ مثلي ؛ إن تركتني جثتك بأسيرين من المسلمين شاينين . فقال : ومن لي بذلك ؟ قال : إني إذا وعدتُ أوفيتُ . قال : لستُ أَثِقُ بك . قال : فدعني أطوفُ في عسكري ، لعل أَعْرِفُ من يَكْفُلُنِي إلى أن أمضي وأَجِيءُ بالأسيرين . فوكلَ به من طاف معه في عسكريه ، والاحتفاظ به .

فما زال الشيخ يطوف ويتصفحُ الوجوه ، حتى مرَّ بفتى من بنى كلاب قائماً يحسنُ فرسه ، فقال : يا فتى ، اضممني من الأمير ؛ وقبضاً عليه قصته . قال : أفعل . وجاء الفتى معه إلى مَسْلَمَةَ فضمنه ، فأطلقه مَسْلَمَةُ . فلما مضى قال : أتعرفه ؟ قال : لا والله . قال : ولمَ ضمنتَه ؟ قال : رأيته يتصفح الوجوه ، فاختراني من بينهم ، وكرهت أن أخلفَ ظنه .

فلما كان من الغد عاد الشيخُ ، ومعه أسيران من المسلمين شابان ، دفعهما إلى

* الفرج بعد الشدة : ١ - ٨٢

(١) أمير قائد من أبطال عصره ، ولاء أخوه يزيد لأمرة العراقيين ، ثم أرمينية ، ومات بالشام سنة ١٣٠ هـ .

مسلمة وقال : يا ذن الأمير في هذا الفتى أن يصيرَ معي إلى حصني لأكافئه على فعله معي . قال مسلمة : إن شئت فأمض معه .

فلما مضى وصار معه إلى حصنه ، قال له : تعلم والله يا فتى أنك ابني ؟ قال : وكيف أكونُ ابنك ، وأنا رجل من العرب مسلم ، وأنت من الروم نصراني ؟ قال : أخبرني عن أمك من هي ؟ قال : رومية . قال : فإني أصفها لك ، فبالله إن صدقتُ إلا صدقتني . قال : أفعل .

فأقبل الرومي يصفُ أمه ما خرم من صفتها شيئاً . فقال : هي كذلك فكيف عرفت أني ابنها ؟ قال : بالشبه وتعارُفِ الأرواح وصدق الفراسة . ثم أخرج إليه امرأة ، فلما رآها الفتى لم يشك في أنها أمه لشدة شبهها بها ، وخرجت معها عجوز كأنها هي ، فأقبلن يُقبِلنَ رأس الفتى ، فقال له الشيخ : هذه جدتك ، وهذه خالتك .

ثم خرج من حصنه ، فدعا بشباب في الصحراء ، فأقبلوا فكلّمهم بالرومية ، فجعلوا يُقبِلونَ رأس الفتى ويديه ورجليه ، فقال : هؤلاء أخوالك وبنو خالتك ، وبنو عم والدتك ؛ ثم أخرج إليه جلباً^(١) كثيراً وثياباً فاخرة ؛ فقال : هذا لوالدتك عندنا منذ سُبَيْت ، فخذهُ معك ، فادفعه إليها ، فإنها ستعرفه ، ثم أعطاه لنفسه مالاَ كثيراً ، وثياباً جليلة ، وحمله على عدة دواب وبغال وألحقه بمسكّر مسلمة وانصرف .

فأقبل الفتى قافلاً حتى دخل منزله ، فأقبل يخرج الشيء بعد الشيء مما عرفه الشيخ أنه لأمه ، فتراه فتبكي ، فيقول لها : قد وهبته لك !

(١) الجلب : كل ما جلب من خيل أو غيرها .

فلما أكثر هذا عليها ، قالت : يا بني ؛ أسألك بالله ؛ من أى بلد صارت إليك
هذه الثياب ؟ وهل قتلتم أحداً من أهل هذا الحصن الذى كان هذا فيه ؟ فقال لها
الفتى : صفة الحصن كذا وكذا ، وصفة البلد كذا وكذا ، ورأيت فيه قوماً من
حالمهم كذا وكذا ، ووصف لها أمها وأختها وأولادها وهى تبكى ، فقال لها :
ما يبكيك ؟ فقالت : الشيخ والله أبى ، والجوز أمى ، وتلك أختى ! فقص عليها
الخبر ، وأخرج بقية ما كان معه مما أنفذه أبوها إليه ، فدفعه لها .

١٧٢ — خدعة*

لَمَّا ذَهَبَ الرَّشِيدُ لَفَزُوا الرُّومَ أَخَذَ يَفْتَحُ الْمَدِينَ وَالْحَصُونِ وَيَخْرِبُهَا ، حَتَّى أَتَاخَ عَلَى هَرِ قَلْعَةٍ^(١) ، وَهِيَ أَوْثَقُ حَصْنٍ وَأَعَزُّهُ جَانِبًا ، وَأَمْنُهُ رُكْنًا ، فَتَحَصَّنَ أَهْلُهَا - وَكَانَ بَابُهَا يُطْلَقُ عَلَى وَادٍ ، وَلَهَا خَنْدَقٌ يُطِيفُ بِهَا - وَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِمُ بِالْجَانِيقِ وَالسَّهَامِ وَالْعَرَادَاتِ^(٢) فَتَسَحَّحَ الْبَابُ ، وَإِذَا بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِهَا كَأَمَلِ الرِّجَالِ ، قَدْ خَرَجَ فِي أَكْمَلِ السَّلَاحِ فَنَادَى : قَدْ طَالَتْ مُوَأَقَعَتُكُمْ إِيَّانَا ، فَلْيُيَرِّزْ إِلَى مَنْكُمْ رَجُلَانِ . ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ حَتَّى بَلَغَ عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ ؛ فَدَخَلَ وَأَغْلَقَ بَابَ الْحَصْنِ .

وَكَانَ الرَّشِيدُ نَائِمًا فَلَمْ يَعْلَمْ بِخَبْرِهِ إِلَّا بَعْدَ انْصِرَافِهِ ؛ فَغَضِبَ وَلَامَ خَدْمَهُ وَغَلِمَانَهُ عَلَى تَرَكِهِمْ إِنْبَاهَهُ^(٣) ، وَتَأَسَّفَ لِقَوَّتِهِ . فَقِيلَ لَهُ : إِنْ امْتَنَاعَ النَّاسُ مِنْهُ سَيُقَوِّيه وَيُطْفِئِهِ ، وَأَخْرَبَهُ أَنْ يَخْرُجَ فِي غَدٍ ، فَيَطْلُبَ مِثْلَ مَا طَلَبَ ؛ فَطَالَتْ عَلَى الرَّشِيدِ لَيْلَتُهُ ، وَأَصْبَحَ كَالْمُنْتَظَرِ لَهُ ، ثُمَّ إِذَا هُوَ بِالْبَابِ قَدْ فُتِحَ ، وَخَرَجَ طَالِبًا لِلْمُبَارَاةِ ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، وَجَعَلَ يَدْعُو بِأَنَّهُ يَثْبُتُ لِعَشْرِينَ مِنْهُمْ .

فَقَالَ الرَّشِيدُ : مَنْ لَهُ ؟ فَابْتَدَرَهُ جَمَلَةُ الْقَوَادِ كَهَرْنَمَةٍ ، وَيزِيدُ بْنُ مَرْيَدٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكٍ وَغَيْرُهُمْ ؛ فَعَزَمَ عَلَى إِخْرَاجِ بَعْضِهِمْ ؛ فَضَجَّتِ الْمَطْوَعَةُ^(٤) حَتَّى

* الْأَغَانِي : ١٧ - ٤٦

(١) مَدِينَةُ بِلَادِ الرُّومِ (٢) اللَّجْنِيْقُ وَالْمَرَادَةُ : آتَانِ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ تَرَى بِهَا الْحِجَارَةَ

(٣) أَنَبَاهَهُ : أَبْقَاهُ مِنَ النَّوْمِ (٤) الْمَطْوَعَةُ : الَّذِينَ يَطْوَعُونَ بِالْجِهَادِ .

سَمِعَ ضَجِيجَهُمْ ، فَأَذِنَ لِعَشْرِينَ مِنْهُمْ ، فَاسْتَأْذَنُوا فِي الْمَشُورَةِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَوَادِكُ مَشْهُورُونَ بِالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ وَعِلْوِ الصِّيتِ وَمُدَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَمَتَى خَرَجَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَتَلَ هَذَا الْعِلَاجَ ^(١) لَمْ يَكْبِرْ ذَلِكَ . وَإِنْ قَتَلَهُ الْعِلَاجُ كَانَتْ وَضِيعَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ عَجِيبَةٌ ، وَثُلْمَةٌ لَا تَسُدُّ . فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْلَيْنَا نَخْتَارُ رَجُلًا فَنَخْرِجُهُ إِلَيْهِ ! فَإِنْ ظَفَرَ عِلْمُ أَهْلِ الْحَصْنِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ ظَفَرَ بِأَعْرَاسِهِمْ عَلَى يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْعَامَّةِ وَمِنْ أَفْنَاءِ ^(٢) النَّاسِ ، لَيْسَ مِنْهُمْ يُوْهِنُ قَتْلُهُ وَلَا يُؤَثِّرُ ، وَإِنْ قَتَلَ الرَّجُلُ فَإِنَّمَا اسْتَشْهَدَ رَجُلٌ ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ ذَهَابُهُ فِي الْعَسْكَرِ ، وَلَمْ يَثْلُمِ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ بَعْدَهُ مِثْلُهُ حَتَّى يَمْضَى إِلَيْهِ مَا شَاءَ .

قَالَ الرَّشِيدُ : لَقَدْ اسْتَصَوْبْتُ رَأْيَكُمْ هَذَا ؛ فَاخْتَارُوا رَجُلًا مِنْهُمْ يَعْرِفُ بَابَ الْجَزَرِيِّ ، وَكَانَ مَعْرُوفًا فِي الثَّغْرِ بِالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَنْتَ خَرِجْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! وَأَسْتَعِينُ اللَّهَ . فَقَالَ : أَعْطُوهُ فَرَسًا وَرُمْحًا وَسَيْفًا وَتُرْسًا . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَا بِفَرَسِي أَوْثَقُ ، وَرَمْحِي بِيَدِي أَشَدُّ ؛ وَلَكِنِّي قَدْ قَبِلْتُ السَّيْفَ وَالتُّرْسَ .

فَلَيْسَ سِلَاحُهُ ، وَاسْتَدْنَاهُ الرَّشِيدُ فَوَدَّعَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ الدُّعَاءَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَشْرُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُطَوَّعَةِ : فَلَمَّا انْقَضَى فِي الْوَادِي ، قَالَ لَهُمُ الْعِلَاجُ وَهُوَ يَمْدُهُمْ : إِنَّمَا كَانَ الشَّرْطُ عَشْرِينَ وَقَدْ زِدْتُمْ رَجُلًا . وَلَكِنْ لَا بَأْسَ ، فَنَادَوْهُ : لَيْسَ يَخْرُجُ إِلَيْكَ مِنْهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ . فَلَمَّا فَصَلَ مِنْهُمْ ابْنُ الْجَزَرِيِّ تَأَمَّلَهُ الرُّومِيُّ ، وَقَدْ أَشْرَفَ أَكْثَرُ الرُّومِ مِنَ الْحَصْنِ ، يَتَأَمَّلُونَ صَاحِبَهُمْ وَالْقِرْنَ ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْحَصْنِ أَحَدٌ إِلَّا أَشْرَفَ . ثُمَّ أَخَذَا فِي شَأْنِهِمَا فَاطْعَنَّا ^(٣) حَتَّى طَالَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا ، وَلَيْسَ يَخْدِشُ وَاحِدُهُمَا صَاحِبَهُ .

(١) العِلَاجُ : الرَّجُلُ مِنْ كِفَارِ الْعِجَمِ (٢) لَا يَعْلَمُ مِنْ هُوَ (٣) تَطَاعَنَا .

ثم تحاجزا بشيء فزج كل منهما برُنجحه ، وأصلت ^(١) سيفه ، فتجالدوا مَلِيًّا ، واشتد الحرُّ عليهما وتبلد ^(٢) الفرسان ، وجعل ابن الجزرى يضرب الروى الضربة التى يرى أنه قد بلغ فيها فيتقيها الروى ، وكان ترسُه حديدًا ، فيسمع لذلك صوتًا مُنكر .

فلما ينس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابنُ الجزرى فدخلت المسلمين كآبةٌ لم يكتبوا مثلها قط ، وعطمَ الروم ^(٣) اختيالا وتطاولا ، وإنما كانت هزيمته حيلةً منه . فاتبَعه العِنج وتمكّن منه ابنُ الجزرى فرماه بوهق ^(٤) ، فوقع فى عنقه وما أخطأه ، ورَكضَ فألقاه عن فرسه ، ثم عطف عليه ، فما وصل إلى الأرض حيًّا حتى فارق رأسه . فكبرَ المسلمون على تكبير ، وانخذل الروم ، وبادروا الباب يُفلقونه ، واتصل الخبرُ بالرشيد فصاح بالقوَّاد : اجعلوا النار فى المجانيق ، وارموها فليس عند القوم دَفْع . ففعلوا وجعلوا الكتان والنَّفط على الحجارة وأضرموا فيها النار ، ورمَوْا بها السور فكانت النار تلصق به ، وتأخذ الحجارة وقد تصدعت قهافت . فلما أحاطت بها النيران فتحو الباب الباب مستأمنين ومستقبلين .

(١) أصلت السيف : جرده من غمده (٢) التبدل : ضد التجلد (٣) العططة : تتابع الأصوات واختلاطها فى الحرب وغيرها (٤) الوهق بفتح الهاء وإسكانها : الحبل يرمى أنشوطه ، فتؤخذ به الدابة .

١٧٣ — وامعتصماه * ١

وقف رجلٌ على المعتصم ^(١) فقال : يا أمير المؤمنين ؛ كنت بمُورِيَّة ^(٢) وجاريةً من أحسن النساء سيرةً ، قد لطمها عِلَجٌ ^(٣) في وجهها ، فنادت : وامعتصماه ! فقال العِلَجُ : وما يقدرُ عليه المعتصمُ ! يحىء على أبلق وينصرك ! وزاد ضربها .

فقال المعتصم : وفي أى جهة عمورية ؟ فقال له الرجل - وأشار إلى جهتها : هاهى ذى ؛ فردَّ المعتصم وجهه إليها ، وقال : كَبَيْكِ أيتها الجارية ، كَبَيْكِ ؛ هذا المعتصم بالله أجابك ، ثم تجهَّز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق ، وحاصرها .

ولما طال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له : إنا نرى أنك ما تفتحها إلا في زمان نُضِج العنب والتين ، فشقَّ عليه ذلك واغتمَّ ، وخرج ليلةً مع بعض حشمه متجسِّساً في العسكر يسمع ما يقول الناس ، فرَّ بنجمة حدَّاد يضرب نعال الخيل ، وبين يديه غلام أقرعُ قبيحُ الصورة ، وهو يضرب على السَّندان ويقول : في رأس المعتصم ! فقال له معامه : اترُكنا من هذا ، مالك وللمعتصم ! فقال : ما عنده تدبير ، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة مع قُوَّته ولا يفتحها ! لو أعطاني الأمر مابات غداً إلا فيها .

فتمعجب للمعتصم مما سمع ، وترك بعض رجاله موَكِّلاً به ، وانصرف إلى خبائه ، فلما أصبح جاءوا به ، فقال : ما حملك يا هذا على ما بلغتني عنك ؟ فقال الرجل .

* محاضرات الأبرار : ٢ - ٦٣

(١) خليفة من أعظم خلفاء الدولة العباسية وهو فاتح عمورية توفى سنة ٢٢٧ هـ (٢) عمورية : بلدة من بلاد الروم . (٣) العِلَج : الواحد من كفار العجم

الذى بلغك حقّ ، ولو وليّني الحرب فإنّي أرجو أن يفتح الله عليك . فقال : قد وليّتك ، وخلع عليه وقدمه على الحرب ، ففتح الله عليه ، ودخل المعتصم المدينة ، ولم يثبت قول المنجمين .

ثم دعا بالرجل الذى بلغه حديث الجارية ، فقال له : ميرى إلى الموضع الذى رأيته فيه ، فسار به ، وأخرجها من موضعها ، وقال لها : يا جارية ، هل أجابك المعتصم ؟ ثم ملكها العليّج الذى لطمها ، والسيد الذى كان يملكها وجميع ماله ^(١) .

(١) وفي هذه يقول أبو تمام قصيدته :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في	متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماع لامة	بين الخيسين لا في السبعة الشهب
وخوفوا الناس من دهيا داهية	إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
تخرماً وأحاديثاً ملفقة	ليست ببيع إذا عدت ولا غرب

عرض بتاريخ المنجمين في التين والعنب فقال :

تسمون ألفاً كآساد الشرى نضجت
جلودهم قبل نضج التين والعنب

فهرس القصص

الباب الأول

فى القصص التى تعرب عما يقع بين العامة والملوك ، والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم ، من كل ذى صلة بالحكم والحكام ، مما يتناول حيلهم فى المنازعات والخصومات ، ويوضح طرائقهم فى رفع الظلامات ورجع الحقوق وما يجرى هذا الجرى :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١	٨	متى تعبدتم الناس ؟
٢	٩	أحب الولاة إلى عمر بن الخطاب
٣	١١	عمر يتفقد رعيته
٤	١٣	عمر بن الخطاب يحاسب نفسه
٥	١٤	جنتك من عند أزهد الناس
٦	١٦	تأديب عمر بن الخطاب لعماله
٧	١٨	أخطأت فى ثلاث
٨	١٩	تنصرت الأشراف من عار لطة
٩	٢٥	بصيرة العباس
١٠	٢٧	أثر المعروف
١١	٢٩	فى البيعة ليزيد بن معاوية

العنوان	رقم القنبية	رقم الصفحة
ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً	١٢	٣٣
الحجاج وأهل العراق	١٣	٣٤
نصيحة	١٤	٣٩
من حيل الحجاج	١٥	٤١
لا أحد إلا الله	١٦	٤٣
لا أسألكم عليه أجراً	١٧	٤٥
خليفة بين يدي قاض	١٨	٤٧
العهد لعمر بن عبد العزيز	١٩	٤٩
عمر بن عبد العزيز يحمل الناس على الحق	٢٠	٥٢
لا تلوموا إلا أنفسكم	٢١	٥٤
ذكرتني الطعن وكنت ناسياً	٢٢	٥٥
الولد سر أبيه	٢٣	٥٧
أوارث أنت بنى أمية	٢٤	٥٩
حذر عيسى بن موسى	٢٥	٦١
يقظة المنصور	٢٦	٦٣
المنصور في ساحة القضاء	٢٧	٦٥
نبى كما كانت أوائلنا نبى	٢٨	٦٧
هذهانى بين يدي المنصور	٢٩	٦٩
أمير في مجلس القضاء	٣٠	٧١
قاض يطلب الإقالة من القضاء	٣١	٧٤
أبو دلامة وابن أبى ليلى القاضى	٣٢	٧٥

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
٣٣	٧٦	صاحب شرطة المهدي مع الهادي
٣٤	٧٨	لا أفلح قاض لا يقيم الحق
٣٥	٨٠	الغادر مخذول
٣٦	٨١	رجل يقاضى المأمون
٣٧	٨٣	لا يخلو أحدٌ من شجن
٣٧	٨٥	كيف يعتذر إنسان من كلام تكلم به!
٣٩	٨٨	غرس يدي وإلف أدبي
٤٠	٩٠	غسان بن عباد وعلى بن عيسى
٤١	٩٢	فطنة
٤٢	٩٣	لا تتبع الهوى
٤٣	٩٤	هشام بن عبد الرحمن الداخل وأحد صنائعه
٤٤	٩٦	قاضٍ لا يقبل شهادة خليفة

الباب الثاني

في القصص التي تصوّر احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم ، وتمجيدهم
للأسلاف ، وتعديدهم ما تركوا من مآثر ، وما أدّى إليه ذلك من مفاخرات ومنافرات :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
٤٥	١٠٠	خاطرت على حسبي وحسبك
٤٦	١٠٣	لا تجمعان هوازنا كذحج
٤٧	١٠٥	يتنازعان الزعامة

العنوان	رقم الصفحة	رقم القصة
أنت له	١١١	٤٨
أنت اليوم ذو جدّين	١١٦	٤٩
إن البلاء موكل بالمنطق	١١٨	٥٠
معاقرة	١٢٠	٥١
قد كان يسوءنى أن تكون أميراً	١٢٢	٥٢
لترجمن بأكثر مما آب به معدّى	١٢٤	٥٣
ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل	١٢٧	٥٤
لولا ما جعل الله لنا فى يدك ما أتيناك	١٣٤	٥٥
ذهبت قريش بالكارم والملا	١٣٧	٥٦
لو ترك القطا لنا ما	١٤٠	٥٧
مفاخرة ربيعة	١٤٥	٥٨
أراك عالماً بقومك	١٤٨	٥٩
لقد خفتُ أن تفخر علىّ	١٥٠	٦٠
بين عبد الله بن جعفر والحجاج	١٥١	٦١
إنها قريش يقارع بعضها بعضاً	١٥٣	٦٢
تستجير بقبر أبيه !	١٥٤	٦٣
الفرزدق والأنصار	١٥٥	٦٤
الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك	١٥٨	٦٥
الباهلى	١٥٩	٦٦
كلثوم العتابى	١٦١	٦٧

الباب الثالث

في القصص التي تنقل ما كانوا يتفكّحون به من أسمار ومطايبات ، ومناقذات وأفاكيه ، مما نال به المحدثون والندماء سنيّ الجوائز والخلفاء والوزراء ، وما ارتفعت به فكاتهم عند السادة والوجوه في المجتمعات والمنتديات :

العنوان	رقم الصفحة	رقم القصة
يبيع اسمه	١٦٦	٦٨
أنا كنت أولى بهذا الشعر من أيك	١٦٧	٦٩
عبد الرحمن بن الحكم يترضى زياداً	١٦٩	٧٠
أنا كم غريب الدار مظلوم	١٧١	٧١
أرى فيك موضعاً للصنيعة	١٧٢	٧٢
الرّقية	١٧٣	٧٣
ظرف عباد الحجاز	١٧٥	٧٤
جرير وجارية الحجاج	١٧٦	٧٥
أرادت عرّارا بالهوان	١٧٨	٧٦
قد نجموت	١٧٩	٧٧
ما أنا ببارح أو يرضى أمير المؤمنين	١٨٢	٧٨
آكل !	١٨٦	٧٩
نزّل أم حبيب	١٨٧	٨٠
امرأة تحاور كثيراً	١٨٨	٨١
إفحام	١٩٠	٨٢

العنوان	رقم الصفحة	رقم القصة
بين كثير وعزة	١٩١	٨٣
حوار بين شعراء	١٩٣	٨٤
احتال حتى أقرأها رسالته	١٩٧	٨٥
من لى بمثلك يُعْتَبِنِي إذا استعنته	٢٠٠	٨٦
ها قرا السماء وأنت نجم	٢٠٣	٨٧
نفي الأحوص	٢٠٥	٨٨
شهادة	٢٠٨	٨٩
ففض الطرف إنك من مُبِير	٢١٠	٩٠
لا أهجو شاعراً هذا شعره	٢١٣	٩١
جارية	٢١٥	٩٢
فضحت شيخاً من قريش وعذبتني!	٢١٦	٩٣
في دار هشام بن عبد الملك	٢١٨	٩٤
هروب الكميث	٢٢١	٩٥
وشاية	٢٢٦	٩٦
أشعب يبلغ رسالة	٢٣٠	٩٧
رُعتني راعك الله	٢٣٢	٩٨
كادت تموت فرحاً	٢٣٣	٩٩
هلم إليّ أ كافتك	٢٣٤	١٠٠
بوزع	٢٣٧	١٠١
المنصور يطلب من يسليه بالشعر	٢٣٩	١٠٢
صِرْ إليّ متى شئت	٢٤١	١٠٣
أتذكر إذ لحافك جلدُ شاة!	٢٤٣	١٠٤

العنوان	رقم الصفحة	رقم القصة
لقد كان ذلك الرجل شؤماً	٢٤٥	١٠٥
حُبِسَتْ مع الدجاج	٢٤٧	١٠٦
مأضره لو أن ذنوب العالمين على ظهري	٢٤٩	١٠٧
لو أن لي مهجة أخرى لجدتُ بها	٢٥٢	١٠٨
يهجو نفسه	٢٥٥	١٠٩
كل امرئ يا كل زاده	٢٥٧	١١٠
حماد والمفضل	٢٥٨	١١١
في خِباء الأعرابي	٢٦٠	١١٢
دعا بفراق من تهوى أبا ن	٢٦١	١١٣
راوية أبي نواس والعقابي	٢٦٢	١١٤
ألا موت يُباع !	٢٦٤	١١٥
قد وجدناك ممقماً	٢٦٥	١١٦
تعوّدتُ حسن الصبر حتى ألقته	٢٧٠	١١٧
ملّ كُتّابي إحصاء ما يَهَبُ	٢٧٢	١١٨
اسمى مشتق من اسمك	٢٧٧	١١٩
بديهة قَيْنَة	٢٧٨	١٢٠
لا أذوق المدام إلا شميماً	٢٧٩	١٢١
إن بعد العسر يسراً	٢٨١	١٢٢
راوية مسلم بن الوليد	٢٨٣	١٢٣
لباقة	٢٨٥	١٢٤
لولا حمقه وحمق صاحبه لمت جوعاً	٢٨٩	١٢٥

العنوان	رقم الصفحة	رقم القصة
إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ	٢٩٠	١٢٦
نصيب ولا حظ تمنى زوالها		
خلق دعبل	٢٩٢	١٢٧
ديك دعبل	٢٩٧	١٢٨
بين البادية والخصر	٢٩٨	١٢٩
الجاحظ في مرضه	٢٩٩	١٣٠
ظبي مذبوح ، ورجل جريح ، وفتاة ميتة	٣٠١	١٣١
جوائزه الصلاة	٣٠٣	١٣٢
مامعى إلا قفاى !	٣٠٤	١٣٣
قد شفى منه صدورنا !	٣٠٨	١٣٤
نقد شعر امرئ القيس	٣٢٤	١٣٥
لا وصل إلا أن يشاء ابن معمر	٣٢٦	١٣٦
الشعر بضاعة تجدى	٣٢٧	١٣٧
حديث جويرية	٣٣٠	١٣٨
أحلف وأنا في هذه السن !	٣٣٢	١٣٩
ضرتان	٣٣٤	١٤٠
من كذب الأعراب	٣٣٥	١٤١
قسّم فأحسن القسمة	٣٣٦	١٤٢
زهد وأدب	٣٣٨	١٤٣
تشابه خاطرين	٣٤٤	١٤٤
إنما توجد في قعر البحار الفصوص	٣٤٦	١٤٥

الباب الرابع

في القصص التي تؤرّخ مذكور أيامهم ، وتفصّل مشهور وقائعهم ، ومقتل
كبرائهم ، وتصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم ، أخذاً بالثأر ،
أو حماية للذمار :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٤٦	٣٤٨	كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمسكة سامر
١٤٧	٣٥٢	ألا من يشتري سَهراً بنوم
١٤٨	٣٥٤	غثك خير من سمين غيرك
١٤٩	٣٥٦	مقتل كليب
١٥٠	٣٦١	المجرس بن كليب يثأر لأبيه
١٥١	٣٦٣	قربا مربوط النعامة منى
١٥٢	٣٦٧	ضيغني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً
١٥٣	٣٧٦	ما كان لولا غرة الليل يغلب
١٥٤	٣٨٠	لأقتلنه ولو كان في حجر النعمان
١٥٥	٣٨٣	وفاء وغدر
١٥٦	٣٨٥	يثأر لأبيه وجده
١٥٧	٣٨٩	بعد طعن عمر بن الخطاب
١٥٨	٣٩٣	المؤتمرون بعلى ومعاوية وعمر
١٥٩	٣٩٨	بين عبد الملك بن مروان وعمر بن سعيد
١٥٠	٤٠١	الأخطل يفرق من الجحّاف

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٦١	٤٠٣	قد أخرج الإذن عليه لتقتلوه
١٦٢	٤٠٨	آبى الضيم
١٦٣	٤١٢	مصرع الوليد بن طريف

الباب الخامس

في القصص التي تحكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث في الغارات والغزوات والفتوح ، مصورة نفسياتهم وأحوالهم ، واصفة تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفساح رقعتها ، مفصلة عددهم وآلاتهم وأسلحتهم في حياتهم الجديدة :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٦٤	٤١٦	كلاب بن أمية وأبواه
١٦٥	٤٢٠	في يوم اليرموك
١٦٦	٤٢٣	في يوم القادسية
١٦٧	٤٢٥	في فتح نهاوند
١٦٨	٤٢٧	عمرو بن العاص وأحد كفار الأعاجم
١٦٩	٤٢٩	عمر بن الخطاب وغنائم المسلمين
١٧٠	٤٣٣	قد كاد أميركم يهلك
١٧١	٤٤٠	عند ملك الصين
١٧٢	٤٤٣	إنك ابنى .
١٧٣	٤٤٦	خدعة
١٧٤	٤٤٩	وامتعصماه !

فهرس الأعلام

- (١)
- أبان بن عبد الحميد : ٢٦١
أبان بن عثمان : ٢٦٤
أبان بن الوليد البجلي : ٢٢٢
إبراهيم السويقي : ٣٢٧
إبراهيم بن عبد الله بن الحسين : ٦٤
إبراهيم بن عثمان : ٧٩
إبراهيم بن محمد بن سعد : ١٥٥
إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٤٧ ، ٣٩
ابن أبي ليلى : ٧٥
ابن بشير القاضي : ٩٦
ابن الجزري : ٤٤٧
ابن زبَّج : ٢٣٤
ابن ظافر : ٣٤٤
ابن المدبر : ٣٠٣
ابن معمر : ٣٢٦
ابن المغازلي : ٣٠٤
- أبو أيوب الأنصاري : ٣٩٣
أبو بكر الصديق : ١١٨ ، ٤٢٠
أبو تمام : ٤٥٠
أبو جزء بن عمرو بن سعيد : ١٥٩
أبو جهل بن هشام : ١٠٧
أبو دلامة : ٧٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢
٢٥٥ ، ٢٥٨
أبو ذؤيب الهذلي : ٢٣٩
أبو السائب الخزومي : ٢١٦
أبوسفيان بن حرب : ٢٥ ، ١٠٧ ،
٤٢٠
أبو طلحة الأنصاري : ٣٩١
أبو الطيب المتنبي : ٣٠٨
أبو عبيدة عامر بن الجراح : ٤٢٠ ،
٤٣٤
أبو العتاهية : ٢٧٠
أبو العلاء صاعد : ٣٤٦

أمية بن الأسكر الكنانى : ١٠٣
 إباد (قبيلة) : ٣٧٢
 إياس بن قبيصة : ١٠١
 أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٤٩
 أيوب الموريانى : ٢٤٩
 (ب)
 بجير بن عمرو : ٢٦٤
 بديح (مولى عبد الله بن جعفر) : ٢٧٣
 بسر بن أرطاة : ٣٩٣
 البسوس : ٣٥٦
 بشار بن برد : ٣٦١
 بكر بن وائل : ١٨٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣
 بنو آكل المرار : ٣٧٣
 بنو أسد : ٣٦٧
 بنو أمية : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٢٧٨
 بنو تميم : ١٢٠
 بنو حرام : ٢١٣
 بنو حية : ١٠١
 بنو الديان : ١٠٣
 بنو عامر : ٣٨٠

أبو على الحاتمي : ٣٠٨
 أبو لؤلؤة الجوسى : ٣٨٩
 أبو محجن الثقفى : ٤٢٣
 أبو موسى الأشعرى : ١٠
 أبو نواس : ٢٧٩ ، ٢٦٢
 أحمد بن أبى خالد : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩
 الأحنف بن قيس : ١٣ ، ٣١
 الأحوص : ١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٣
 الأخطل : ١٣٨ ، ٤٠١
 أزهر السمان : ٢٤١
 إسحاق بن الصباح : ٧٢
 إسماعيل بن إسحاق القاضى : ٩٣
 إسماعيل بن جعفر بن محمد : ٣٣٢
 أشعب بن جبير : ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٣
 الأصمعى : ٢٦٥
 الأعشى : ١٠٩
 امرؤ القيس بن أبان : ٣٦٤
 امرؤ القيس بن حجر الكندى : ٢٦٩
 أم عمرو ابنة منظور : ١٤٠
 أم كلثوم بنت على بن أبى طالب :
 ٤٣٠ ، ١١

جفنة (قبيلة) : ١٩

جليلة بنت مرة : ٣٥٨ ، ٣٦١

جندل بن عبيد بن الحصين : ٢١٠

(ح)

حاتم بن عبد الله الطائي : ٩٩

جاجب بن زرارة : ١١٦ ، ١٥٨

الحارث بن أبي شمر : ٣٧٣

الحارث بن ظالم : ٣٨٠

الحارث بن عباد : ٣٦٣

حبي بنت نكيف : ٢٢٢

حبيب بن بديل : ٢٢٢

الحجاج بن عبد الله الصريمي :

٣٩٣

الحجاج بن يوسف الثقفي : ٣٩ ، ٣٤ ،

٤١ ، ٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٧٥ ،

١٧٨ ، ١٨١

حجر الكندي : ٣٦٧

حرملة بن الأشعر المري : ١٠٧

حربش بن عبد الله السعدي : ١٥٨

حسان بن ثابت : ٢٣ ، ١٥٥

بنو عبس : ٣٨٧

بنو لام : ١٠٠

بنو هاشم : ٢٣٩

براء : ٣٧٣

(ت)

تأبط شرأ : ١٦٦

تقلب (قبيلة) : ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٤٠١

تميم بن زيد القبيني : ١٥٤

تنوخ (قبيلة) : ٣٧٣

(ج)

الجاحظ : ٢٩٩

الجارود بن بشر بن العلاء : ١٤٦

جبلة بن الأيهم : ١٩

الجحاف بن حكيم السلمي : ٤٠١

جرم (قبيلة) : ٣٤٨

جرير بن عطية الخطفي : ١٧٦ ، ١٨٢ ،

٢١١

جساس بن مرة : ٣٥٦ ، ٣٦١

جعفر بن أبي جعفر المنصور : ٢٣٧ ،

٢٣٩

الخطيم بن عدى : ٣٨٥

(د)

داود بن يزيد بن هاشم : ٢٨٣

دريد بن الصمة : ٤٠٩

دعبل بن على الخزاعي : ٢٩٢ ،

٢٩٧

دغفل بن حفظة : ١١٨

ذكين الراجز : ٢٠٨

(ذ)

ذورعين : ٣٥٢

(ر)

الراعي : ٢١٠

الربيع بن زياد الحارثي : ٩

الربيع بن زياد العبسي : ١١١

الربيع بن يونس : ٦٨ ، ٦٥ ، ٥٩

ربيعة (قبيلة) : ٣٦٧

رجاء بن حيوة : ٤٩

رملة بيت الزبير : ١٣٧ ، ١٥٣

روح بن حاتم : ٢٥٢

روق بن عطية المذحجي : ٣٥٤

حسان بن جبلة : ١٠٠

الحسن بن على : ٣٩٦

حسين بن عبد السلام المصري : ٣٠٣

الحسين بن على : ٣١

الحصين بن أسيد : ٣٧٨

الحصين بن زهير : ٣٧٨

الحكم بن أبي العاص : ١٠٠

حكيم بن جبلة : ١٤٥

حكيم بن عباس السكابي : ٢٢١

حماد الراوية : ٢١٨ ، ٢٣٧

حمزة بن بيض : ٢٠٠

حمير : ٣٥٢

(خ)

خالد بن جعفر بن كلاب : ٤١٠ ، ٣٨٠

خالد بن الوليد : ٤٢٠ ، ٤٣٤

خالد بن يزيد : ١٥١

خداش بن زهير : ٣٨٦

خزاعة (قبيلة) : ٣٥٠

خزيمة بن خازم : ٨٠

خزيمة بن عمرو : ١٠٧

رياح بن الأسك : ٣٧٤

ربطة بنت أبي العباس : ٢٥١

(ز)

زاذية : ٣٩٣

الزبير بن بكار : ٣٠١

الزبير بن العوام : ٤١٦ ، ٣٩١

زهير بن جذيمة : ٣٧٦ ، ٣٨٠

زياد بن أبيه : ١٦١ ، ١٢٧

(س)

السائب بن الأقرع : ٤٢٥

السائب (راوية كثير) : ١٩٢

سحيم بن وثيل الرياحي : ١٢٠

سعد بن أبي وقاص : ٤٢٣ ، ٣٩١

سعد بن مالك : ٣٦٣

سعدة (زوج الوليد بن يزيد) : ٢٢٩

سعيد بن خالد : ٥٠

سعيد بن عبد الرحمن الداخل : ٩٦

سعيد بن العاص : ١٢٧

سعية بن غريض : ١٦٧

سلمى بنت أبي حفص : ٤٢٣

سلمة بن قيس : ٤٢٩

سليمان بن عبد الملك : ٤٩ ، ٥٥ ،

١٨٦ ، ١٥٨

السموئل : ٣٧٣

سيف الدولة بن حمدان : ٣٢٤

(ش)

شاس بن زهير : ٣٧٦

شبيب الأشجعي : ٣٩٤

شريك بن عبد الله : ٧١

شمر بن عمر : ٣٨٤

(ص)

صالح بن علي : ٢٩٧

صعصعة بن صوحان : ١٢٢ ، ١٤٦

(ض)

الضحاك بن قيس : ٢٩

ضرار بن الخطاب : ٤٠٩

(ط)

طارق بن ديسق : ١٢٠

طاهر بن الحسين : ٨٣

طريح بن إسماعيل النقي : ٤٢٦

طلحة بن عبد الله : ٤١٦

(ع)

عاتكة بنت يزيد بن معاوية :

٣٩٨

عاقبة بن يزيد : ٧٤

عامر بن جوين : ١٠٢

عامر بن الطفيل : ١٠٣ ، ١٠٥

عباس بن عبد المطلب : ٣٥

عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٦

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

١٣٧

عبد الرحمن بن الحكم : ١٢٧ ،

١٦٩

عبد الرحمن بن عوف : ٣٩٣ ، ٣٩٠

عبد العزيز بن مروان : ٣٩٩

عبد الله بن جعفر : ١٤٥ ، ١٧٣ ،

٤٠٤

عبد الله بن الحسن : ٦٣

عبد الله بن الحصين : ١٤٠

عبد الله بن الزبير : ٣١ ، ١٤٠

عبد الله بن سوار : ١٤٦

عبد الله بن طاهر : ٨٦

عبد الله بن عباس : ١٥ ، ١٢٧

١٤٠

عبد الله بن علي : ٦١

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٩١

عبد الله بن عمر العمري : ١٧٥

عبد الله بن عمرو بن عثمان : ٢٠٣

عبد الله بن مالك : ٧٦ ، ٤٤٦

عبد الله بن وهب : ٣٩٣

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز :

٥٧

عبد الملك بن مروان : ٣٤ ، ٣٩ ،

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧٣ ،

١٧٨ ، ١٨٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠١ ،

٤٠٣

عبيد بن الأبرص : ٣٦٧

عبيد بن طبيان : ٧٨

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : ٣٠٢

عبيد الله بن قيس الرقيات : ٤٠٣

عتاب بن ورقاء الرياحي : ١٥٨

عتبة بن أبي سفيان : ١٦٩، ١٢٥
عتبة بن جعفر : ٣٧٨
عثمان بن عفان : ٣٨٩، ٢٤
عدي بن الفرج : ١٧٩
عدي بن زيد : ٢١٩
عدي بن عمرو : ٣٨٥
عرار بن عمرو بن شاس الأسدي :
١٧٨
عزة (صاحبة كثيرة) : ١٩١، ١٩٠
عطاء بن أبي رباح : ٤٥
غفير بن ذي يزن : ١٢٦
عك (قبيلة) : ١٩
عكرمة بن أبي جهل : ٤٢٠
علقمة بن علاثة : ١٠٥
علي بن أبي طالب : ٢٥ ، ١٢٠ ،
٣٩٣، ٣٩١
علي بن الجهم : ٢٩٨
علي بن سليمان : ٢٥٧، ٢٥٥
علي بن عيسى : ٨٨
عمر بن أبي ربيعة : ١٩٣، ١٩٧ ،
٢٠٥
عمر بن حفص : ٦٣
عمر بن الخطاب : ١٣، ١١، ٩، ٨
٤١٦، ٣٨٩، ١٨، ١٦، ١٤
٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٩
عمر بن عبد العزيز : ٤١، ٤٩، ٥٢
٢٠٥، ٢٠٣، ١٨٦، ٥٥، ٥٤
٢٠٨
عمرو بن الإطناية : ٣٨٠
عمرو بن جابر : ٣٧٣
عمرو بن حريث : ٤٢٦
عمرو بن سعيد : ٢٩
عمرو بن سعيد الأشدق : ٣٩٨
عمرو بن العاص : ٨، ١٢٧، ١٣٤
٤٢٧، ١٨٦
عمرو بن عتبة : ١٥٢
عمرو بن مسعود : ٣٦٧
عمير بن حباب السلمي : ٤٠١
عمير بن سعد : ١٤
عمير بن ضابي الجرهمي : ٩
عنيسة بن سعيد بن العاص : ٥٥
٢٢٤، ١٧٦

٢٠٥

عويف القوافي : ٤١٠

عيسى بن جعفر : ٧٨

عيسى بن موسى : ٦١

عينه بن حصن : ١٠٧

(غ)

غاضرة (أم ولد لبشر بن مروان) :

١٨٩

غالب بن صعصعة . ١٢٠

غسان بن عباد : ٩٠

غنى (قبيلة) : ٣٧٧

غيلان بن سلمة الثقفي : ١٠٧

(ف)

الفرزدق : ١٥٨، ١٥٥، ١٥٤، ١٢٠

٢١٣، ٢١٠، ٢٠٣

الفضل بن الربيع : ٢٧٩

الفضل بن يحيى : ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٧

(ق)

القاسم بن إبراهيم بن طباطبا : ٨٨

قبيصة بن ذؤيب الخزاعي : ٤٠٠

قتيبة بن مسلم : ٤٣، ٤٤٠

قطام بنت علقمة : ٣٩٤

الققعاق بن عمر : ٤٢٠

قيس بن الخطيم : ٣٨٥

قيس بن زهير : ٣٨٠

قيس بن عاصم : ١٥٨

قيس عيلان (قبيلة) : ٢٦١، ٣٦٧

٤٠١

قيس بن مسعود : ١١٦

قيصر : ٣٧٤

(ك)

كثير بن عبد الرحمن : ١٥٥، ١٨٨

١٩٠، ١٩١، ١٩٣

كعب الأحبار : ٣٨٩

كعب بن جعيل : ١٣٧

كلاب بن أمية بن الأسكر : ٤١٦

كلب (قبيلة) : ٤٠١

كلم بنت سعد الخزومية : ١٩٧

كلثوم بن عمرو العتابي : ١٦١، ٢٦٢

كليب بن ربيعة : ٣٥٦

الكميث : ٢٢١، ٢٢٢

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٢٠٠
 مذحج (قبيلة) : ٣٥٤
 مرة بن ذهل : ٣٥٦
 مروان بن الحكم : ١٦٩
 مزاحم (مولى عمر بن عبد العزيز) :
 ٥٧ ، ٥٢
 مزيد المدني : ٣٣٢
 مسلم بن الوليد : ٢٨٣ ، ٢٨١
 مسلمة بن هشام : ٢٢٤
 مصعب بن الزبير : ٤٠٣ ، ٣٩٨ ، ١٧٢
 مصقلة بن رقية العبدي : ١٤٥
 مطيع بن إياس : ٢٣٧
 مضاض بن عمرو بن الحارث : ٣٤٩
 معاوية بن أبي سفيان : ٣١ ، ٢٨
 ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ،
 ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٣٩٣
 معاوية بن هشام : ٢٢٤
 معبد بن خالد : ١٤٨
 المعتصم : ٤٤٩
 المعتضد (الخليفة العباسي) : ٩٢ ،
 ٣٠٤

كنانة (قبيلة) : ٣٦٧
 (ل)
 ليل بن طريف : ٤٠٣
 (م)
 المأمون (الخليفة العباسي) : ٨١ ،
 ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٠
 متمم العبدي : ٣٣٠
 المتوكل (الخليفة العباسي) : ٢٩٨
 محمد بن جعفر : ٦٧
 محمد بن الحجاج : ١٨٢
 محمد بن عبد الله بن الحسن : ٦٥ ،
 ٤٠٩
 محمد بن عبد الله عليه السلام : ١١٨
 محمد بن عمران الطلحي : ٦٥
 محمد المهلب : ٣٦٤
 محمد بن موسى الضبي : ٢٩٢
 محمد بن هارون الرشيد الأمين
 (الخليفة العباسي) : ٨٠ ، ٢٧٩
 محمية بن زعيم : ٤٣١

(-)

- المهادي (الخليفة العباسي) : ٧٦
 هارون الرشيد (الخليفة العباسي) :
 ، ٢٧٨ ، ٢٦٥ ، ١٦٢ ، ٧٨
 ٤٤٦ ، ٤٠٣ ، ٢٩٤ ، ٢٨١
 هانيُّ بن عروة المرادي : ٢٧
 هبيرة بن المشرج : ٤٤٠
 الهجرس بن كليب : ٣٦١
 هرثمة : ٤٤٦
 هرقل : ١٦
 هرم بن قطبة : ١٠٧
 هشام بن عبد الرحمن الداخل : ٩٤
 هشام بن عبد الملك : ٤٧ ، ٤٥ ،
 ٢١٨
 همام بن مرة : ٣٥٨
 (و)
 الوليد بن جابر : ١٢٤
 الوليد بن طريف : ٤٠٣
 الوليد بن عبد الملك : ٤١
 الوليد بن يزيد : ٢٢٦
 وعم بن عمرو : ١٠١

معد (قبيلة) : ٣٨٣

- معن بن زائدة : ٢٤٥ ، ٢٤٣
 معن بن عطية المذحجي : ٣٥٤
 المغيرة بن شعبة : ١٢٧
 المغيرة بن نوفل : ٣٩٥
 المفضل الضبي : ٤٠٨ ، ٢٥٨
 ملاعب الأسنة : ١١١ ، ١٠٥ ، ١٠٣
 المنذر بن ماء السماء : ٣٨٣
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٦١ ، ٥٩
 ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٢٤١
 ٢٥٣ ، ٢٤٩ ، ٢٠٠ ، ٢٤٢
 المهدي (الخليفة العباسي) : ٧٦ ، ٧٤
 ٢٦١ ، ٢٥٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٠
 مهلهل بن ربيعة : ٣٦٦ ، ٣٦٤
 موسى بن عيسى : ٧٣ ، ٧٢ ، ٧١

(ن)

- نصيب بن رباح : ١٩٣ ، ١٨٧
 النعمان بن بشير : ١٣٨
 النعمان بن مقرن : ٤٢٥
 النعمان بن المنذر : ١١٦ ، ١١١ ، ١٠٠
 ٣٨٠ ، ٣٧٦
 نعيم المدني : ٦٥

يزيد بن مزيد الشيباني : ٢٨١ ،

٤٤٦ ، ٤٠٣

يزيد بن معاوية : ٢٧ ، ٢٨ ،

١٣٧ ، ٢٩

يزيد بن المقنع : ٣٠

يزيد بن المهلب : ١٧٩

يوسف بن عمر : ٢١٨

(ى)

يحيى بن أكرم : ٨١

يحيى بن سعيد : ١٦٢

يرفأ (مولى عمر بن الخطاب) : ٩ ،

٤٢٩

يزيد بن عبد المدان : ١٠٣

يزيد بن عبد الملك : ٥٠ ، ٥٦ ،

٢١٨ ، ٢١٥

فهرس الأماكن

(ق)	(ر)	(ا)
قديد : ١٩٣	الرفقة : ٨٧ ، ٢٨١	أتاية العرج : ٣٠١
القسطنطينية : ٢٠	الروحاء : ١٩٣	الأحص : ٣٥٧
قيسارية : ٤٢٧ ، ٤٣٣	(س)	أشبونة : ٣٣٨
(م)	السفد : ٢٦٦	أنقرة : ٢٧٥
المدينة : ١٥٥	السفد : ٢٩٩	(ب)
مصر : ٨	سلموس : ٢٨٦	البحرين : ٩
مكة : ٣٤٨	(ش)	البشر : ٤٠٢
مسكن : ٤٠٣	شبيب : ٣٥٧	بطان الجريب : ٣٥٧
(ن)	(ط)	(ت)
النحيلة : ٣٩٣	الطائف : ١٧١	تبالة : ٣٧٢
نهاوند : ٤٢٥	(ع)	تهامة : ٣٦٧
النهروان : ٣٩٣	العراق : ٣٤ ، ٣٩٨	تجاء : ١٦٧ ، ٣٧٣
(هـ)	العرج : ١٩٣	(ح)
هرقلة : ٤٤٦	عسيب : ٣٧٤	حمص : ١٤
(و)	عبي باذ : ٢٥٨	(د)
واسط : ١٧٦	عمورية : ٤٤٩	دمون : ٣٧٠
ودان : ١٩٣	عين اباغ : ٤٨٣	دهلك : ٢٠٥
(ي)	(غ)	(ذ)
اليرموك : ٤٢٠	غزة : ٤٢٧	الذئائب : ٣٥٧

مراجع هذا الجزء

الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
الأمالي	: للقبالي
الأمالي	: للمرتضى
بدائع البدائنه	: اعلى بن ظافر الأزدي
بلوغ الأرب	: للألوسي
تاريخ الأمم والملوك	: لابن جرير الطبري
تزيين الأسواق	: لداود الأنطاكي
ثمرات الأوراق	: للحموي
الحيوان	: للجاحظ
خزانة الأدب	: للبغدادي
ذيل الأمالي	: لأبي علي القالي
ذيل زهر الآداب	: للحصري
رغبة الآمل	: للدرصني
زهر الآداب	: للحصري
سيرة عمر بن عبد العزيز	: لابن عبد الحكم
شرح سهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
صبح الأعشى	: للقلقشندي

عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعى
العقد الفريد	: لا بن عبد ربه
العقد الفريد	: للملك السعيد
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصاص الواضحة	: لأبى إسحاق الوطواط
الفرج بعد الشدة	: للتنوخى
الكامل فى الأدب	: للمبرد
الكامل فى التاريخ	: لابن الأثير
مجمع الأمثال	: للميدانى
الحاسن والأضداد	: للجاحظ
الحاسن والمساوى	: للبيهقى
محاضرات الأبرار	: لابن عربى
المختار من نوادر الأخبار (مخطوط)	: لمحمد بن أحمد الأنبارى
مروج الذهب	: للمسعودى
المستطرف فى كل فن مستظرف	: للأبشهى
معاهد التنصيص	: لبدر الدين العباسى
معجم الأدباء	: لياقوت الحموى
معجم البلدان	: لياقوت الحموى
مذهب الأفغانى	: للشيخ محمد الخضرى
نفع الطيب	: للمقرى
نهاية الأرب	: للنويرى

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للزمخشري
الأعلام	: للزركلي
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجي زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: الشيخ محمد الخفيري
جمهرة أئمة العرب	: لأبي هلال العسكري
رغبة الأمل	: للمرصفي
شرح ديوان الحماسة	: للتبريزي
شرح الأمالي	: للبكري
طبقات الشعراء	: لابن سلام
الشعر والشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر في الأمثال	: للضبي
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: لأمير واصف
القاموس المحيط	: للفيروز أباذي
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
مغني اللبيب	: لابن هشام
وفيات الأعيان	: لابن خلكان